AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العـــدد ٦١٤ - الســـنة ٥٣ - محـــرم ١٤٣٦ هـ - تشـرين الثاني ٢٠١٤م

رئيس مجلس الإدارة
عصام خليل
وزير الثقافة

رئيس التحرير
د. علي القيّم

أمينة التحرير
سمر الزركي

هيئة التحرير

د. إنصاف حمد د. وضّاح الخطيب
د. طيب تيزيني د. غسان غنيم
د. جهاد بكفلوني

الإشراف الفني والطباعي
أنس الحسن

التصميم والإخراج
أحمد إسماعيل

التنضيد
ريما محمود - ابتسام عيسى

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلّة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
اسم المؤلّف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.
- ترجو المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف مُوجز لهم.
- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها، ولاتعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة
تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣
www.moc.gov.sy
Almarifa1962@yahoo.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعرُ النسخة ٧٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

أدب التحـــرير

عصام خليل
وزير الثقافة

كلمة العدد

الأخلاقيـــات والحـــرب

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

سليمان العيسى ناثراً (نطرة جديدة) ..... د. ملكة أبيض ١٧
الشاعر الشابي بين الألم والأمل ..... محمود أسد ٢٦
الرواية والنقد الثقافي ..... إسماعيل الملحم ٣٧
جميلة مدينة عربية في جبال الأوراس ..... د. خليل المقداد ٤٨
العبر من التاريخ مطلوبة الآن ..... د. علي أبو عساف ٦٧
الدعاية والعلاقات الدولية ..... د. فريد حاتم الشحف ٧٧
توقعات الخبراء حول أفول الإمبراطورية الأميركية ..... إبراهيم سلوم ٩٣
النمو والتنمية ..... غسان وديع العيد ١١٥
الأكوان المتعددة المغايرة ..... موسى ديب الخوري ١٣١

الإبـــداع

شعر

سهرة مع الأخطل الصغير ..... مفيد نبزو ١٤٧
حكاية جلبت الانتباه ..... ميرال جان أولوداغ ١٥٠

قصة

زجاج النافذة ..... سليمان علي شرمك ١٥٣
سرُّ الصراع ..... سامر منصور ١٥٦

آفاق المعرفة

عندما الشوق أضنى الفؤاد الرهيف ..... ساجدة الموسوي ١٥٩
مريانا المراش الأديبة الرائدة ..... إبراهيم محمود الصغير ١٦٤
مأساة الحياة وتفعيلات البحر الخفيف مع نازك الملائكة ..... ظهير خضر الشعراني ١٧١
مدار وذاكرتان عزازيل وابن سينا ..... د. محمد فاتح زغل ١٧٩
رسائل الصابي والشريف الرضي ..... عوض الأحمد ١٨٦
عش أنت ..... د. محمد رضوان الداية ١٩٣
أشهر أمثال العرب ..... د. كارين صادر ٢٠٥
أبو بكر الرازي وعلم الفراسة ..... د. محمد ياسر زكّور ٢١١
فلسفة العلم ..... أسعد طرابيه ٢٢٠
الإنسان وديناميكية الشعور بالزمن ..... د. منير سويداني ٢٣٠
الأحلام ..... نصر الدين البحرة ٢٣٥
الدبلوماسية العربية.. فنٌ رصين وعلم أصيل ..... منيب هائل اليوسفي ٢٤٣
القناع وجه الثقافة ..... لميس أحمد ٢٥٣
الألعاب الإلكترونية.. وثقافة الطفل ..... لينا كيلاني ٢٦٣
إدمان الإنترنت ..... وهدان وهدان ٢٧٢
مسؤولية العلم والتيارات الاجتماعية في مكافحة المخدرات... هبة الله الغلاييني ٢٨٢
كيف تعمل الخلايا ..... المهندس فايز فوق العادة ٢٨٩
الجراثيم.. مصانع حيّة للأدوية ..... ترجمة: محمد الدنيا ٢٩٤

حوار العدد

مع الفنان التشكيلي أنور الرحبي ..... إعداد: محمد خالد الخضر ٢٩٩

كتاب الشهر

أرجوزة المرأة في بلاد الشام «المهاهاة» ..... عرض وتقديم: سمر الزركي ٣٠٣
نافذة على إصدارات جديدة ..... إعداد: حسني هلال ٣١٠

آخـــر الكلام

الحوار حتميّة حيوية لبقائنا ..... رئيس التحرير ٣١٧

كلمة الوزارة

عصام خليل
وزير الثقافة

أدب التحرير

هل نحن أمّةٌ لا تصدّق انتصاراتها!!؟

هل نحن أمّةٌ تخاف أن تصدّق انتصاراتها، وأن تعبّر عن تصديقها بالفرح، وبتمجيد النصر!؟؟

أم أنَّ الألم أعمق تأثيراً في النفس البشرية، وأكثر قدرةً على تحريض الروح، لتطلق إبداعاتها في رحاب الحياة، وحياً نابضاً بالتوق إلى تجاوز الواقع، وبناء واقع مغاير لما هو قائم!!؟؟

عندما خسر العرب حرب حزيران تحوّل الوجوم الذي خيّم على النفوس والوجوه، إلى صرخة غضبٍ متفجّرةٍ في الإبداع العربي، أدباً وفناً، مشكّلاً تيّاراً حارّاً، وعلامةً فارقةً في أدبنا العربي، ومهّد لبروز تيّارٍ أكثر حيويةً هو تيّار الأدب المقاوم!

كانت هزيمة حزيران شرخاً وجدانياً عميقاً، نهش الروح العربية في أعماقها، واستفزّ المبدعين، الذين تراوحت صرخاتهم بين تجرّع المرارة، وجلْدِ الذّات، ورفض الهزيمة، وتحميل الأنظمة السياسية مسؤوليتها!!

خلخلت حرب حزيران الذهنية العربية، ونقلتها من حالة الخمول والاتكالية -في المستوى الشعبي العام- إلى مرحلة التفكير، والنقد. وكان الأدب العربي الساحة الرحبة لكل هذه التفاعلات الوجدانية، التي تراكمت في مختلف مجالات الإبداع، لتؤسس تيّاراً أدبياً سمّيَ - لاحقاً - بأدب النكسة!!

قرأنا رواياتٍ وقصائد، وشاهدنا مسرحياتٍ وأفلاماً، ودرسنا كتباً ومقالاتٍ تتفحّص الهزيمة، أسباباً ونتائج، وتعمل على سبر الواقع الاجتماعي العربي، بمضامينه الإيجابية والسلبية.

كانت إدانة السّلبيات بالغة الحدّة، شديدة الوطأة على نفس العربي. وكانت الإيجابيات استدعاءً وجدانياً لأمجاد الماضي، سعياً لاستنهاض الهمم، ولإحياء البطولات الغابرة.

كان هذا التيّار الأدبيّ المتفجّر، يشبه - في هديره - نهراً جارفاً، يحمل بين أمواجه المتلاطمة، كل ما تلقي في مياهه أرواح المبدعين، من غضبٍ، ونزقٍ، وخوفٍ، وإحباطٍ، وضيقٍ بالواقع، ورغبةٍ حارقةٍ في التخلّص منه!

وتماماً.. تماماً..

كما تصفو مياه النهر بعد استقرارها في مجراها، وتتحوّل إلى مسارٍ صافٍ «ناضج»! اتّخذ الأدب مساراً أكثر حكمةً، وعمقاً، وبعداً، في مقاربة الهزيمة، وفي استخلاص العبر منها.

ونشأ أدب المقاومة المؤسس على وعي «هادئ» لأسباب الهزيمة الذاتية والموضوعية، فكان هذا الأدب تعبيراً عن نضج الرؤيا، وتخلّصاً من ضوابط وقيود شكّلت عوائق أمام العقل العربي، في قراءة مشهد الصراع العربي

الصهيوني، بكل أبعاده السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية.

انهارت قناعات، وتأسّست أخرى..

وأصبح المواطن العربي البسيط والمهمّش شريكاً حيوياً في الفعل السياسي، بعد أن كان بعيداً تماماً عن قضاياه المصيرية الكبرى! وتحوّل -بفعل أدب المقاومة- إلى متابعٍ مجتهدٍ، وناقدٍ لا تنقصه الجرأة، لظروفه الحياتية، ولبنية مجتمعه، ولأنظمته السياسية، وأصبح أكثر واقعيةً وحكمةً في تحليل وإدراك خلفية الصراع، وأبعاده، ومخاطره على الهوية الحضارية للأمّة، ومستقبل وجودها الإنساني.

وكانت هذه التفاعلات والتأثيرات المتبادلة بين الأدب والواقع الاجتماعي، «الحاضن الفكري والنفسي» والأساس المعرفي الذي مهّد لمعركة التحرير، ومكّن العرب -للمرة الأولى- في تاريخهم الحديث. من تحقيق انتصار نوعيّ، كانت منطلقاته مؤسسةً على وعي الواقع، وعلى الإدراك العميق لمقتضيات بناء الشخصية العربية. وكان الإعداد لخوض المواجهة ثقافيّاً ومعرفيّاً بالدرجة الأولى. لأنَّ القدرة على امتلاك السلاح واستخدامه، مرتبطةٌ بالإيمان الراسخ بعدالة القضية، وبرفض الظلم، وبالاستعداد التام للتضحية في سبيل القضية. وهذه المفاهيم ثقافية في أساسها، تستند إلى إرثٍ حضاريّ موغلٍ في التاريخ، استلهمه الإبداع ليشرح قضية الصراع العربي الصهيوني، التي شكّلت -وما تزال- جوهر التهديد الحقيقي لوجود الأمة، وللهوية العربية، تاريخاً، وحاضراً ومستقبلاً.

كانت حرب تشرين التحريرية المجيدة انتقالاً نوعيّاً في التعبير عن المفاهيم التي تحوّلت -بالفعل الثقافي- من حالةٍ عاطفيةٍ وجدانيةٍ، إلى قناعات صلبة، تُبذل الدماء من أجلها، وتهون العذابات في سبيلها.

بلى..

كانت حرب تشرين انتصاراً نوعيّاً، بكل ما في كلمة انتصار من مضامين، تضيف رصيداً مجيداً إلى تاريخ الأمة وتراثها.

أصبحنا - بعدها ننظر - إلى العالم نظرةً مختلفة، وأصبح العالم كلّه - بعدها- ينظر إلينا نظرةً مختلفة!!

لم يعد الآخر - بالنسبة إلينا - متفوّقاً نشعر حياله بالنقص!!

ولم نعد -بالنسبة للآخر أيضاً- مجتمعاً مجهولاً، موسوماً بالجهل والتخلف!!

أصبح لدينا رصيدٌ واسعٌ من التقدير والاحترام في العالم كلّه،بعد أن عبر الجيش العربي المصري قناة السويس مدمّراً خط بارليف، أحد أهم حصون العالم، وأكثرها مناعةً؛ وبعد أن اجتاح الجيش العربي السوري خطّ آلون وتحصيناته المنيعة، حتى وصلت طلائع قواتنا إلى بحيرة طبريا.

هذه الحرب / النصر فرضت احترامنا على العالم كله، ولكنها لم تفرض حضورها في إبداعنا الأدبي، والفنيّ، على النحو الذي يليق بها، وعلى النحو الذي تستحقه!!

لم تنتج انتصارات تشرين تيّار التحرير في الأدب، كما أنتجت الهزيمة أدب النكسة!!!

كان هناك ركام من القصائد لم تشكل علامةً فارقة في أدبنا، وكان هناك روايات محدودة لا تمثّل -حتى بالنسبة لكتّابها- العمل الأهم في تجربتهم الإبداعية!!

وحتى ما نشر من دراسات، لم يكن بمستوى الفعل الخلّاق الذي أنجزته الحرب، على الرغم من أنها تحوّلت -بمفرداتها العسكرية- إلى مصادر مرموقة، تدرّس في معاهد الأبحاث، والدراسات الإستراتيجية!!

قد يقول البعض: إنَّ حرب تشرين لم تحقق المأمول منها على مستوى

تحريـر الأرض، واسترجاع الحق المغتصـب؛ وهذا صحيح تمامـاً، ولكنّه ليس مسوّغـاً مقبـولاً، لتحويـل نصـرٍ نوعـيّ بمستـوى تشرين، إلى مجـرّد حدث لا يستدعـي الإضـاءة علـى منجزاته، بمـا ينصفها، ويضعها في موقـع الصدارة مـن الأحداث، التي رسمت تحوّلاً إيجابياً عميقاً في شخصية الإنسان العربي، وواقعه وظروفه.

ولـو كان تحريـر الأرض كلّها، معياراً حاسماً، ووحيـداً، في تقرير الانتصار، فلماذا لم يكن تحرير الجنوب اللبناني في العام ٢٠٠٠م منتجاً لصداه الإبداعي، وهو الذي تحرر بالحديد والنار، والدموع، والدم، والتضحيات؟

ألم يكن تحرير الجنوب نصراً حاسماً لمحور المقاومة بكل مكوّناته؟

ألم تكـن حـرب تمـوز في العـام ٢٠٠٦م انتصـاراً حاسماً لمحـور المقاومة بكل مكوّناته؟

فلمـاذا لم نكرّس هذه الانتصارات في أدبنا، وإبداعنا، بما يوازي التضحيات الجسام، والبطولات الأسطورية الخارقة التي صنعتها، وصنعت معها احترامنا لأنفسنا، واحترام العالم لنا!!؟

إنَّ تراثنـا العربي حافل بالقصائد التـي تؤرخ لانتصارات قبائل، ولغزوات، ولأحـداثٍ لا تمثّـل قيمـةً إنسانيـةً عظيمةً كتلـك التي تمثّلها حـرب تشرين المجيدة. لا بل على العكس من ذلك، هناك أحداث ونزاعات كنا نتمنى لو أنها لم تحـدث في تاريخنـا، ولـو أننا لم نسمع بها! لكنّها بقيـت محمولةً في التاريخ علـى أجنحـة الإبـداع. لأن الإبـداع يحـوّل لحظة الحـدث العابـرة، إلى فعلٍ متواصلٍ في الزمن.

كلّ تاريخنـا، وتراثنـا بـكل مـا فيه، وكل ما لـه وما عليـه، كان حدثاً حوّله الإبـداع إلى ملامح تاريخية، مستقـرة في الذاكرة الجمعية للأمة. ومهما كان موقفنـا مـن هذه الأحداث، تبقـى الحقيقة الناصعـة أنّ التاريخ يبقى مجرد

زمـنٍ عابـر، منسيٍّ، مـالم تتوافر له رافعـة إبداعية تثبّت اللحظـة في الذاكرة، وتنتقـل بها عبر الزمن إلى مدارات المستقبل، رصيداً معرفياً، وإنسانيّاً، تتمثّل حمولتـه الفكريـة، الأجيال القادمـة، وتعيد إنتاجه وفق رؤاهـا، ومفاهيمها، وحاجاتها.

تحوّلـت حرب البسوس إلى ملحمة فنيةٍ مذهلة بفضل الإبداع، وهي حرب بلا قضيةٍ ولا هدف!!

فهـل تتحـوّل حـرب تشريـن إلى ملاحم تستحـق أن تكونهـا، لأنَّها الحرب العربية الأولى التي جمعت العرب -كل العرب- في تاريخهم المعاصر، من أجل قضيتهم وهدفهم!؟

هل ننصف أنفسنا، وتاريخنا، وانتصاراتنا، بإنصاف حرب تشرين؟

❁ ❁ ❁

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الأخلاقيات والحرب

في شهر شباط من العام الحالي، رحل عن عالمنا المفكر والباحث في مجال دراسات الحرب البريطاني «ديفيد فيشر» بعد أن قدّم دراسات ومؤلفات مهمة تتصل بقضايا الدفاع والأخلاقيات، وكان آخرها كتاب «الأخلاقيات والحرب» الذي صدر في عام ١٩١١م، ونال عليه أكثر من جائزة عالمية، وصدرت ترجمته ضمن سلسلة «عالم المعرفة» (تموز ٢٠١٤م) من قبل الدكتور عماد عواد، وتكمن الأهمية البالغة لهذا الكتاب في تعامله مع ظاهرة الحرب، وهل يمكن أن تكون الحرب في القرن الحادي والعشرين عادلة؟ ويمكن إدراج هذا الكتاب، في طائفة الكتب التي تجمع بين كل من الماضي والحاضر، وبين الخبرة العلميّة والنظرية، وأيضاً بين

الفلسفة المجردة والواقع التطبيقي، مما جعله يمثّل إضافة مهمة إلى المكتبة العالمية..

يبدأ «فيشر» دراسته بالتساؤل عن الاتجاه السائد حالياً في الحديث عن «الحروب الجديدة» التي حلّت محل النموذج القديم المتصل بالحرب الصناعية بين الدول.. فيقول: «إنَّ الحرب وحش متلون يغيّر بشكل منتظم من طبيعته وفي أعقاب ١١ أيلول ٢٠٠١م، ولمواجهة التهديدات الجديدة، ذهب صانعو السياسة في الولايات المتحدة، إلى القول إن الظروف الاستثنائية تبرر اللجوء إلى إجراءات استثنائية.. منها اللجوء إلى ضربات عسكرية استباقية..فأصبح العالم في مرحلة مربكة مليئة بالتحديات والتغيرات».

على الرغم من أن هذا الكتاب، يتناول موضوع «الأخلاقيات والحرب» فإن هناك حججاً قوية تدعم القول بأن الحرب والأخلاقيات، ليس – ويجب ألا تكون – هناك علاقة بينهما، فالحرب هي الجحيم، ومازالت مقولة الجنرال «شيرمان» قائد أنصار الوحدة خلال الحرب الأهلية الأميركية، يتردد صداها، حتى اليوم: «إنَّ اللائمة تقع بالكامل على الذي أقدم في خضم السلام والرخاء على إغراق أمة في الحرب..حرب سوداء وحشيّة..إنَّ الحرب هي الوحشيّة ذاتها، ولا يمكن تنقيتها».

في البحث عن مجموعة التعاليم المعروفة بتقليد الحرب العادلة، يعود المؤلف إلى القديس «أوغسطين» الذي انكب في القرن الخامس الميلادي، على دراسة السؤال الأبدي المتصل بمعرفة ما إذا كان من الممكن لمسيحي أن يدخل في حرب من دون أن يرتكب خطيئة، فمنذ الأيام الأولى للكنيسة كان هناك أولئك الذين ذهبوا إلى الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، بشكل لا يحتمل الجدل: الحرب هي دائماً خاطئة، ويلزم تجنبها..ويقول «توما الأكويني»: «لايمكن لشخص عادي أن يعلن الحرب» وبذلك كانت الحروب في القرون الوسطى «وباء» والحرب لا

يمكن أن تكون قضية عادلة. فالاختلاف في الدين لا يمكن أن يكون سبباً للحرب، شأنه في ذلك شأن توسيع إمبراطورية ما، وبطبيعة الحال فإن المجد الشخصي، أو ما يناسب الأمير أو الرئيس أو الملك، يأتي في مرحلة أدنى من ذلك.. والحروب الدفاعية فقط هي التي تعتبر حروباً عادلة..

لقد قدمت «ماري كولدور» في كتاب «الحروب الجديدة والقديمة» النماذج لكل الحروب الجديدة، المستقبلية، من الضروري ألا ننسى أن الحرب لم تعد موجودة.. نحن الآن منخرطون، بشكل مستمر، ومن خلال تعديلات عديدة، في حرب بين أبناء الشعب.. وتتمثل الملامح الرئيسة للشكل الجديد في الحرب أنها تدور بين أفراد الشعب الواحد، كما أن المدنيين يشكلون في سياقها هدفاً مباشراً للهجمات، وقد توضحت ملامح هذه الحروب الحديثة، من خلال الصراع في البلقان، وقد وصفت بأنها «نشاط متغيّر» حيث تُغير من شكلها عادة بطريقة غير متوقعة، وامتدت من الحرب القتالية، إلى عمليات دعم السلام، والمساعدة الإنسانية، أو ما يطلق عليه اسم «حرب القطاعات الثلاثة». وهكذا فإن الحملات التقليدية التي جرى شنها ضد طالبان (أفغانستان ٢٠٠١م) وضد صدام حسين (العراق ٢٠٠٣م) تطورت إلى حملات ضد التمرد.. وقد حمل هجوم (١١أيلول ٢٠٠١م) ملامح حرب جديدة..أو «حروب تفرضها الضرورة» وفق المفهوم الأميركي.

❁ ❁ ❁

لقد ولّد هجوم ١١أيلول ٢٠٠١م حالة من الهلع لدى صانعي القرار في الولايات المتحدة الأميركية، حيث أحدث صدمة رهيبة وغير متوقعة، وتمثلت المهمة الأولى في مراجعة سياسة الدفاع الأميركية، فالخصم الجديد لا أرض له يمكن مهاجمتها، وهو مستعد للانتحار في سعيه إلى تحقيق أهدافه.. وكان لابد من التفكير بأعمال استباقية بعيداً عن «أخلاقيات الحرب» حيث يسمح المبدأ الجديد بالقيام بأعمال استباقية في ظروف أكثر اتساعاً من حيث المدى مما يخوله

القانون الدولي «لن نتردد في التحرك منفردين إذا تطلبت الأمور ذلك.. الولايات المتحدة ستتحرك بشكل استباقي في حالة الضرورة» حيث تبدو هذه المقاربة أحادية الجانب متعارضة مع شرط السلطة المختصة في تقليد الحرب العادلة، فإذا كانت الولايات المتحدة، كدولة ذات سيادة تدعي لنفسها الحق في التصرف بطريقة استباقية، فلماذا لا تقوم دول أخرى بالتصرّف بالطريقة نفسها؟ ومما لاشك فيه أن انتشار حق التصرّف بطريقة استباقية، من شأنه أن يهدد بشيوع حالة من الفوضى على الساحة الدولية وهذا ما حدث، وبطرق غير مسؤولة والأمثلة كثيرة فيما قامت به إسرائيل والولايات المتحدة من «أعمال استباقية» عدوانية، وقد شكل غزو العراق في آذار ٢٠٠٣م أول تطبيق عملي لمبدأ الاستباقية، الذي أطلق في أيلول عام ٢٠٠٢م، وهو التطبيق الذي أثار جدلاً ضخماً، وأسفر عن كثير من القلق الذي نبع من الاعتقاد بوجود تهديد من جراء أسلحة صدام حسين للدمار الشامل، ثبت أنه كان قائماً على أسس واهية..

إذن، كان تقليد الحرب العادلة يقر بالحق في العمل الاستباقي، فإن الشروط الواجب توافرها للقيام بذلك، تتسم بالصرامة، ويصعب تحقيقها عملياً، خصوصاً إذا كان التهديد غير وشيك.. لقد عكف القانونيون والمسؤولون خلال عام ٢٠٠٢، على البحث عن كيفية التعامل مع هذا التحدي الجديد في مجال الاستخبارات والاستجواب القسري..

لقد أفرد المؤلف فصلاً خاصاً للحديث عن «حرب الخليج» فقد غزت القوات الأميركية والبريطانية، العراق مرتين، منذ تسعينيات القرن الماضي، وعلى حين نُظر إلى الحرب الأولى في عام ١٩٩١م، بشكل عام وإن لم يكن عالمياً، على أنها حرب عادلة، فإن الثانية في عام ٢٠٠٣م، أثارت جدلاً شديداً..

يوضح تقليد الحرب العادلة أنه لكي تكون الحرب كذلك، يلزم توافر الشروط التالية: أن يجري خوضها من قبل سلطة مخولة، لمصلحة قضية عادلة، بنيّة

حسنة، كملاذ أخير، وإذا كان الأذى المرجح حدوثه لا يفوق المصلحة التي تتحقق، مع الأخذ في الاعتبار احتمالات النجاح، وأن تنتهي الحرب بإقامة سلام عادل..ويرى المؤلف، وباستثناء بعض الهفوات، أن حرب الخليج الأولى، تماشت عملياتها بتحرير الكويت، مع معايير الحرب العادلة، ولكن حرب الخليج الثانية، لم تكن كذلك، فقد شكل قرارها في عام ٢٠٠٣م جدلاً سياسياً كبيراً، فقد انطلقت من خليط من الدوافع، وقد عجزت هذه الحرب عن تلبية أي من المعايير اللازم الوفاء بها قبل الدخول فيها، وعززت الشكوك من المخاوف من أنه لم تكن هناك قضية عادلة ولا «حرب عادلة» وفي هذه الحالة، فإن المؤلف يطالب الولايات المتحدة وبريطانيا، الالتزام بالسعي إلى التكفير عن عدم عدالة الحرب، من خلال القيام بكل ما يستطيعان لإحلال سلام عادل..

لقد ركز المؤلف في دراسته التي تقع في /٤٢٤/ صفحة، بشكل رئيسي على مبدأ الدفاع عن النفس باعتباره يمثّل قضية عادلة، تبرر القيام بعمل عسكري، وهو ما يعني حق الدولة في أن تدافع عن أرواح وأسلوب حياة مواطنيها، عندما تكون مهددة بالعدوان الخارجي، كما يناقش موضوع التدخل الإنساني، وأشكاله المتنوعة التي تمتد من تقديم العون حتى استخدام القوة العسكرية..

لقد شكّلت المخاوف النابعة من التدخل الذي قادته الولايات المتحدة في العراق وغيرها ممانعات كثيرة، تتصل بإساءة الاستخدام من قبل القوى الكبرى، التي يمكن أن تقع تحت إغراء إخفاء أي عمل عسكري تقوم به لأسباب تتصل بالسياسة الواقعة تحت عباءة الدوافع الإنسانية، وقد كان من شأن تخويل الولايات المتحدة نفسها حق شن أعمال عسكرية استباقية في إطار عقيدتها الجديدة، وهذا يعني إساءة استخدام التدخل الإنساني للتغطية على توجهات استعمارية غربية جديدة..

❁ ❁ ❁

لقد حدد الإعلان الصادر عن الأمم المتحدة، الأسس التي يقوم عليها التدخل الإنساني على النحو التالي: الإبادة الجماعية - جرائم الحرب - التطهير العرقي - الجرائم ضد الإنسانية.. وهذه الأسس يمكن أن تشكل أسساً للتدخل حتى من دون الحصول على موافقة الدول المعنية، وبالطبع إذا كانت الأخيرة متورطة في مثل هذه الجرائم، فإن الحصول على تلك الموافقة سيكون على الأرجح غير وارد..

تعاليم الحرب العادلة، يجب أن تنبع من نية حسنة، ومن ثم فإن مغامرة استعمارية تتستر وراء معطف إنساني، تصبح أمراً ممنوعاً.. وحتى مع وجود قضية عادلة، فإن العمل العسكري لا يمكن تبريره إلا إذا كان تقديره يمكن أن يسفر عن خير أكثر من الأذى الذي قد يصاحبه، آخذاً بعين الاعتبار احتمالات النجاح.. إنَّ كل معايير الحرب العادلة، يجب الوفاء بها قبل تبرير العمل العسكري، كما يجب توفير ضمانة لأولئك القلقين من أنه إذا ما رخص بالتدخل الإنساني، فإن ذلك قد يؤدي إلى سهولة تدخل الدول. كذلك يؤكد تقليد الحرب العادلة أنه إذا ما كانت أرواح العديد من الأبرياء معرضة للخطر فإنه يجب عدم القيام بالتدخل حتى إذا كان ذلك على مضض..

على مدار فترة طويلة، شكّل إلغاء الحرب مطمحاً للجنس البشري، فقبل الحرب العالمية الأولى، بأعوام قليلة، اجتمع رجال دول ودبلوماسيون، في مؤتمرات لاهاي (١٨٩٩ - ١٩٠٧) لمناقشة موضوع إلغاء الحرب، وتأسيس محكمة دولية لتسوية المنازعات من خلال التحكيم، بيد أن الطريق إلى السلام بدا مليئاً بالعقبات، فلم تقدم معاهدة «لاهاي» شيئاً لمنع نشوب الحرب العالمية الأولى، وكانت مآسي الحرب العالمية الثانية، وخلال القرن العشرين، وبدايات القرن الحادي والعشرين، تعلقت الآمال بفكرة تقوية المؤسسات الدولية، وظل العالم ممزقاً بالمنافسات السياسية والدينية والثقافية، والقبلية، بفضل الغياب

الصارخ للمساواة في توزيع ثروات الأرض، وتوافر أرضيات وأسس ومناسبات عديدة للصراعات..

إنَّ التحدي الذي تمثله الحرب، ربما تتغير أشكاله، وحتى تتمكن حكومة عالمية من فرض السلام في مثل هذا العالم المضطرب، فإنها تحتاج إلى أن تحوز قدرة هائلة على الإكراه، بما في ذلك احتكار القوة النووية، وفي مثل هذه الحالة، ربما يتمثل مصدر قلقنا، في أن مثل هذه الحكومة العالمية القوية، البعيدة عن الشعوب، وتتحكم في مصائرها، يمكن أن تتحول إلى «طاغية لا روح له» (مثلما تفعل الولايات المتحدة في العالم في الوقت الحاضر)..

لقد ثبت لي من خلال بحثي المستمر في التاريخ أنَّ العالم بشكل عام، لا يتعظ من دروس هذا العلم النبيل، وأن من لم يقرأ التاريخ، ويتعلم من دروسه لا يعيش حاضره، ولن يخترق مستقبله، فالتاريخ هو الوعاء المستمر الذي يجب أن ننهل منه، الطاقة المتجددة التي تعيننا على فهم الحياة، وإدراك التطور، واتساع أفق المعرفة بمعناها الرحب.. العالم في هذه السنة يحيي الذكرى المئوية الأولى لانطلاق الحرب العالمية الأولى.. كتبت عنها مئات المؤلفات والدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية، لكنها لم تكن كافية لتجنيب العالم انزلاقة كبرى ثانية بعد واحد وعشرين عاماً من هذه الحرب.. لقد انتهت الحرب العالمية الثانية قبل نحو /٧٠/ سنة، ولكن البشرية لم تتعظ.. دخلت فرنسا ثم الولايات المتحدة في حرب فيتنام، وأضيفت ملايين جديدة إلى قائمة القتل والهلاك والإجرام.. ومنذ نحو أربع سنوات والمؤامرة الكبرى تنفذ ضد وطننا العربي، تحت عناوين مختلفة، وأهداف وغايات معروفة، وبكل أسف، يحاولون وبأساليب ملتوية وعديدة طمس الحقائق وتشويه صورة العربي والمسلم، تحت تسميات «الفوضى الخلاقة» و«الربيع العربي» الذي بشرتنا به صحيفة «واشنطن بوست» يوم ٢٠٠٥/٤/٩م، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة، تمارس فيه شتى أنواع القتل والقهر والحروب

القذرة على الشعب العراقي الشقيق، بداعي نشر الديمقراطية وأخلاقيات الحرب، التي كان عرّابها المستشرق اليهودي «برنارد لويس» الذي رسم للولايات المتحدة سيناريو «الشرق الأوسط الجديد» الذي يهدف إلى تفتيت دول وطننا العربي، وتقاسم ثرواتها وخيراتها، وتشتيت أهلها.. فكرياً وعرقياً ومذهبياً..

نعود إلى «ديفيد فيشر» الذي يؤكد في ختام مؤلفه المهم، أن الحرب لن تكون عادلة في القرن الحادي والعشرين، ومن المرجح أن يستمر اللجوء إلى الحرب في المستقبل المنظور الذي تقوده الولايات المتحدة، في سياستها التي شعارها «الفوضى الخلاقة» التي أصبح العالم بفضلها يسوده الارتباك، والتغيير والحروب، والإرهاب والقتل والتدمير للقيم والأخلاق وللبشر والحجر والشجر.. لقد جعلت الولايات المتحدة من هجوم ١١ أيلول ٢٠٠١م ذريعة كبرى لتنفيذ مخططاتها وسياساتها التهديدية العالمية تحت شعار: «إنَّ الظروف الاستثنائية تبرر اللجوء إلى إجراءات استثنائية» التي تفتقد إلى البصيرة والرؤية التاريخية والأخلاقية والإنسانية، هذه الظروف الاستثنائية قادت العالم إلى شريعة الغاب، وذكرتنا بأشرار التاريخ، وقانون الطبيعة العام والضروري الذي يخوّل الفرد السيطرة أينما يمكنه ذلك، ونظرية «الضمانة الأفضل للبقاء، تتمثل في أن تكون مسيطراً» ونظرية الدول القوية يجب أن تهاجم وتُخضع الدول الضعيفة..

❁ ❁ ❁

سليمان العيسى ناثراً (نظرة جديدة)

د. ملكة أبيض ❁

في ديوان «كتاب اللواء»[1] الذي صدر لسليمان العيسى بعد وفاته بقليل عام ٢٠١٣، يؤكد الشاعر في تقديمه للقسم الأول الخاص بالنصوص الشعرية «أن الشعر يظل التعبير الأعلى عن كل ما نقوله أو نشعر به نحن البشر». إلا أنه، في القسم الثاني من الديوان نفسه «يواصل كتابة طفولته وذكرياته التي ما تزال تنبض في أعماق وجوده، بلغة النثر هذه المرّة... النثر الذي يحمل أجنحة الشعر ويظل أكثر حرية وانطلاقاً في رأيه» كما يؤكد أيضاً.

❁ أديبة وكاتبة ومترجمة وأستاذة جامعية.

وهو يقدم كتابه «باقة نثر»[٢] الذي جمع فيه بعض نصوصه النثرية بقوله:

«إنني أحب النثر..

أجده أسلس قياداً وأرحب مجالاً في التعبير..

وإنه لقادر على أن يحمل أجنحة الشعر

إذا عرفنا كيف نضع يدنا على نبض الكلمة

ونملك شيئاً من أسرار البيان..»

فمتى بدأ النثر في كتابات الشاعر، وكيف تطوّر؟ وما الأشكال التي اتخذها؟

إذا كان سليمان العيسى بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة من عمره. كما تقول مسرحيته للأطفال «أحكي لكم طفولتي يا صغار»[٣]، وقصته للناشئة «وائل يبحث عن وطنه الكبير»[٤]، فإن كتاباته النثرية لم تظهر إلا في سبعينيات القرن الماضي. ومن يطالع «أعماله» المطبوعة في أربعة مجلدات، يرى أنَّ المجلدين الأولين، اللذين يضمان نتاج الشاعر قبل نكبة حزيران ١٩٦٧م، خاليان من النثر.

فهل يكون هذا الجنس الكتابي إحدى ثمرات الوقفة العميقة للشاعر بعد هذه المحنة، في مسعاه لإعادة النظر في أسلوب دفاعه عن القضية التي تشغله؟

لقد كرَّر مراراً أنه ليس شاعراً بل حامل قضية، وما شعره إلا سلاح يدافع به عنها، فلماذا لا يفتِّشُ عن أسلحة أخرى؟

هذا ما أراه. وقد بيَّنتُ هذا الرأي في دراسة سابقة بعنوان «سليمان العيسى في نبرته الهادئة»[٥]، أشرتُ فيها إلى قوله حول تلك المأساة:

«**الكارثة تغلُّ روحه..**

تسدُّ عليه المنافذ..

تذبحُ في عينيه النور.. تدفنه حيّاً..

طوال عام كامل كان يتنفس الذلّ

ويختنق بالعار..

ومن يختنق فإنه لا يستطيع أن يكتب؟»

وعلَّقت:

«**تلك كانت بداية انهيار الحلم..**

وتلتها الخيبات.. واحدة إثر أخرى..

ويحمل الشاعر أحلامه الموؤودة وينهض..

يبحث عن كوى للأمل، والحركة..

ويبدأ من جديد.. مرّة بعد مرّة

ومع كل بداية كانت النبرة تَخْفت

والحكمة تحل محل الاندفاع...»

أمَّا الشاعر فقد أشار إلى هذه البداية الجديدة ببيتين قدَّم بهما كتابه «ثمالات»[٦]، يقول فيهما:

«**يا لطفلٍ ملأ الدنيا رُؤًى**

وأهازيجَ جنونٍ واصطخابِ

وسؤالي بعد سبعين انْطَوَتْ

خطئي العاصفُ أحلى أم صوابي؟»

لقد تمثَّل هذا «الصواب» أولاً في **أدب الأطفال** الذي توزَّع على أناشيد وقصص ومسرحيات ومسلسلات ملأت مجلدات عدة، واحتوى كتاباً خاصاً بعنوان: «**شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال**». كما أفرز المسرح الذي

ملأ المجلد الثالث من «الأعمال»، والثمالات بأجزائها الخمسة وما تلاها.

وهـذه المؤلفات أصـبحت تعطي للنثر مكاناً بـارزاً، إلى جانب الشـعر الذي راح يخفـف من قيوده التقليدية شـيئاً فشـيئاً حتى أصبح القارئ يحار في تصنيف بعض نصوصـه بين الشـعر والنثر، كهذا النص الذي لفت الانتباه إليه الدكتور عبد السلام الكبسي، في دراسته بعنوان «سليمان العيسى والقصـيدة الشـعرية: ثمالات بين الإيقاع والعروض»[٧] علماً أن سليمان العيسى يضعه في قسم النثر.. يقول الدكتور الكبسي:

«... وبديهـي أن يكـون نثـر سـليمان العيسـى كأنـه الشـعر بعينـه، وأن يحاول بعضـ المدافعين عن القصـيدة «النثرية» تجيير أمثال هذه النصوص الأخّاذة لصالح القصيدة النثرية. ولقد وقفتُ على نصوص سليمان العيسـى النثرية جميعها وأثارني. وليس ذلك بجديد على شاعر كبير كسليمان العيسى. نص نثري بعنوان «الوعول».. نص نثري تخلى عن العروض ليلتحق بالنثر شعراً واستعاض بالنَبْر ليكون شعراً صحيحاً».

أمَّا النص فهو:

الوُعول التي كانت تركُضُ في دمِكَ
أصبحتْ تمشي بطيئةً
متثاقلةَ الخُطى
الشِّعاب الوعرةُ لا تتحدَّثُ عن وعورتِها
ما تزال في صمتِها المُطْبِقِ تُغري.. تُغْري
.. والوُعولُ لا تستطيعُ أن تتوقَّفَ
لابُدّ أن تمشي.
افتحْ بقايا شرايينِكَ لها..
يا عاشقَ الوعول
لابُدَّ أن تمشي
لابُدَّ أن تمشي..

وبعـد أن يُثْبِتَ الناقـدُ النص (منبوراً) ويحلِّله يحسـم مسألة انتسـابه إلى شجرة الشـعر الوافرة الظلال بكل المقاييس. كما يقول.

هـذا النص من «**ثمـالات ١**»[٨] كُتب عام ١٩٩٧م. كما هو مسجل في ذيله، فهو ينتمي إلـى المنعطـف الجديد في نتاج سـليمان العيسى، سواءٌ أُعدَّ شعراً أم نثراً.

والواقع أنَّ نثر سليمان العيسى. كما هو الحال مع شـعره. لم يتَّخذ شـكلاً واحداً. وفي دراستي «سـليمان العيسى في كتاباته النثرية»[٩] اقترحتُ توزيعه على نثرين:

نثر يريد به عرض موضـوع أو تجربة، وشرح تفاصيلهما بدقة، كما يفعل الدارس. وهنا يسـتخدم مفـردات بسـيطة مألوفة، وجملاً قصيرة، ويحرص على تقسيم العرض إلى فقـرات محددة، متسلسـلة ومترابطة فيمـا بينها.. مـع الاستشـهاد بالعديد من الأمثلة، ولنسمِّه نثراً علمياً أو موضوعياً؛

ونثر آخر ينطلق فيه من خاطرة تشـغل ذهنه أو شعور يلحُّ عليه، ويحاول أن ينقلهما إلى الآخرين بمفردات مثيرة موحية، وصور

تلهب الخيال وتداعب العاطفة أكثر مما تخاطب العقل.. ولنسمِّه نثراً فنياً.

ولنبدأ بالنوع الأول. ففي «باقة نثر»[١٠] أو «كتاب النثر»[١١] وهو الشكل الموسع للباقة، عدد من الموضوعات مثل: تجربتي الشعرية، هويتي الشعرية، تجربتي الشعرية مع الأطفال، الترجمة مسؤولية، الحركة تساوي فكرة، تجربتي مع اللغة، شعر التفعيلة، الأدب والتربية، الموسيقا في الشعر العربي.. وغيرها.

ولنأخذ مثالاً على ذلك دراسة «تجربتي الشعرية»[١٢]، وهي دراسة ألقيت في ندوة «قضايا الشعر العربي المعاصر» التي انعقدت في الحمامات بتونس من ٤-٧ أيار (مايو) ١٩٨١م.

تنقسم الدراسة إلى فقرات رئيسة: الخطوط العريضة، الينابيع، تجربتي الشعرية تجربة قومية، التراث والمعاصرة أو القديم والجديد، الخطابة في الشعر، مولد القصيدة، شكل القصيدة. شعر الأطفال.

إنَّها دراسة علمية تلخص تجربة الشاعر قبل المنعطف الذي قاده إلى عمليات التجديد والتطوير، مما يجعل القسم الأكبر منها غير صالح فيما يتعلق بنتاجه التالي خلال ما يزيد على ربع قرن، لكنها تشكل نموذجاً لما يجب أن يتصف به الأسلوب العلمي وضوحاً، ودقة، وتنظيماً.

وحين ننتقل إلى النثر الفني الذي يحاول أن يصور خلجات النفس وينقلها إلى الآخرين بأسلوب إيحائي يرمي إلى إشراكهم فيها، نرى في الكتاب نفسه نماذج عديدة مثل: كلماتي الجديدة، ابحثوا عن ميلاد الينابيع، المقاومة، الليلة الثانية والثلاثون..إلخ. وسأتوقف هنا عند نص «كلماتي الجديدة»[١٣]، الذي ألقاه الشاعر العيسى حين اعتلى المنبر في مهرجان الشعر العاشر عام ١٩٧١م، وهو يصحب مجموعة من أطفال إحدى الرياض بدمشق لتقديم أول نتاجه الذي قرر تكريسه للأطفال..

لقد قال حينئذ تحت هذا العنوان:

«الأخوات.. الإخوة

حين تضع الأمة محنتها في كفَّة..

ووجودَها في كفَّة..

حين يُطبق عليها الخطر حتى ما تتنفَّس إلا كوارث ونكبات..

حين تجدُّ المعركة تحفرُ الخنادق، وتهيئ الملاجئ، ويستعدّ الوطن للدفاع عن بقاياه..

أما أنا فلم أحفر خندقاً، ولا هيّأتُ ملجأ.

حملتُ الأمَّة العربية في رئتي، وعرّيتُ صدري للعاصفة، وتحسَّستُ صدري الممزّق الطعين يسقطُ بقعةً بعد بقعة، وجزيرة في إثر جزيرة.

تحسَّستُ وطني العربي الكبير، وفتّشتُ عن السلاح أريدُ أن أحامي عن وجودي،

أريدُ أن أُقاتِل.. وصــرخاتُ السماء والأرض تجلدُ صمتي على الذّل، تريدني أن أقاتل.. أن أمشــي على المحنــة، أن أدفعَ الخطر. وفي عتمات اليأس الأسود وجدتُ السلام.. وجدتُهُ ينابيعَ حياة لا تُسحق، وخضرةَ حياة لا تموت.. أمســكتُ بخيط الأمل.. وَضَعْتُ قدمي علــى أرضــ المســتقبل.. كنتُ مع الأطفال..

وكما يهدأ المسافرُ المكدود على حافةِ غدير، في أعماق واحة، ألقيت بنفســي في واحات الصغار..

بأقدامهم الصغيرة.. بدأتُ أمشي،
وبعيونهم بدأتُ أُبصر،
وبحناجرهــم بعــد حزيــران.. تعلَّمتُ الغِناء..

كتبتُ لهم أول ديوان منذ عامين.. كتبتُ لهم الأناشيد والمسرحيات.. استعرتُ منهم دمَ الحياة للكلمة المشلولة والأمل القتيل».

مثل هذا النص الفني أصبحنا نلقاه في جميع مؤلفات سليمان العيسى التي صَدَرت بعد ذلك حتــى «قطرات»[١٤] الذي كتبه في العامين الأخيرين ٢٠١٠م و٢٠١١م، نصــفٌ بخط يده، ونصــفٌ آخر إمــلاءً بعد أن دب العجز إلــى يده. وللتأكد من ذلك، يكفي أن نقرأ فيــه: إلى غزّة، وباقــون في أنطاكية، والبرق الساطع (غسّــان كنفاني)، والفارس العربي الجميل (غازي القصيبي)، والرواية الأخيرة (إلى روح شكيب الجابري)..

والملاحظ أنَّ هذه النصــوص الأخيرة مزجت بين الشــعر والنثر. ذلك أن ظروف الشاعر الصحية راحت تقعده تدريجياً عن الحركة وتسلمه للتفكير وهو قابع في زاوية صغيرة من البيت. وربما كان ذلك هو السبب في تسميته مثل تلك النصوص «**ومضات**».

ظهــر هذا العنــوان في ديوانــه «كتاب الحنين»[١٥] الصادر عام ٢٠٠٥م. وهو عنوان فرعي يضــم عدداً من النصوص الشعرية والنثرية والتي هي مزيج من الشــعر والنثر، يسبقها تعريف **للومضة** على النحو التالي:

«..أنا مؤمن باللحظات التي تشتعل في حياتنا
وتظلّ هي الأجمل والأغلى
مؤمن بالومضة التي تَسَعُ الحياة..
تَسَعُ الوجود كلَّه أحياناً..
تَلمعُ في ريشتي واحدةٌ منها
وأمسكُ بالقلم لأتحدَّث عنها.
الومضة لا تظلّ عصفوراً نائماً في يدِك..
سرعانَ ما تفرشُ جناحيها الصغيرين وتطير،
تطيرُ حتى تملأ الأفقَ من حولِك..
لقد أمسكتُ بها غيرَ مرَّة
وتركتُها تطير تملأ الأفق من حولي
ثم ما تلبث أن تعود وتستقرّ على الورق..»

أليس هذا التعريف نفسه نثراً فنياً؟

لذلك أرى أن ما يريده الشــاعر العيسى بهذا التصــنيف هو التمييز بين النوع الأول من كتاباته وهو الدراسات المكرّسة لموضوع

معين في الحدود التي ينص عليها عنوان الدراسة، وهي تخاطب العقل بالدرجة الأولى؛ والنوع الثاني وهو الكتابات التي تعبِّرُ عن شعوره الذاتي إزاء شخص أو حدث ما، سواء أكانت شعراً أو نثراً فنياً أو مزيجاً منهما، وهي تنبع من مشاعره وتخاطب مشاعر الآخرين، مهما كان عدد صفحاتها أو أبياتها. وهو لا يعني بذلك إطلاقاً ما اصطلح عليه آخرون بشأن لفظ «الومضة» استناداً إلى طول النص.

نثر الأطفال:

بدأ نثر الأطفال عند سليمان العيسى بقصص من التراث وهي: لبيكِ أيتها المرأة، والحَدَث الحمراء، وابن الحمراء[١٦]، وموضوعاتها معروفة. إلا أن الشاعر أراد من سردها بلغةٍ مبسطة نقد الماضي وإظهار القيم الإيجابية فيه خدمة للأهداف الخلقية والقومية. ولكنه سرعان ما انتقل إلى استخدام هذا اللون الأدبي للتعبير عن تجربته الشخصية، فكتب قصة «**وائل يبحث عن وطنه الكبير**»[١٧]. ووائل هو الطفل سليمان العيسى نفسه، والقصة تروي سيرة طفولته في بلده الصغير ـ لواء الإسكندرون: نشأته في قرية النعيرية، تعليمه في كتّاب والده الشيخ أحمد، وصول أنباء ثورة اللواء على مؤامرة فصله عن أمه سورية إلى القرية وتجاوب الطفل معها بكتابة أشعاره الأولى، ثم انتقاله إلى مدرسة العفّان الابتدائية بأنطاكية ومشاركته بأشعاره في المظاهرات، وفي اجتماعات نادي العروبة، حتى سلخ اللواء واضطراره إلى مغادرته حفاظاً على عروبته.

ومما كتبه فيما بعد قصة «**وضاح وليلى في وطن الجدود**»[١٨]، وهي ترمز للتلاحم بين أبناء العروبة. فوضّاح وليلى أخوان صغيران من دمشق يقرران القيام برحلة من دمشق إلى اليمن إثر تلقيهما دعوة من أطفال صنعاء.

وفي هذه الرحلة يقومان بجولات في أرض الجدود الأولى، أو أرض المهد ـ كما نسميها أحياناً ـ ويشاهدان معالمها القديمة، ويطّلعان على نهضتها الحديثة.. ويعودان بذخيرة من الذكريات والانطباعات يسجلانها في صفحات القصة لكي يقرأها أطفال اليمن وأطفال العرب في كل مكان. والجديد في هذه القصة أنها مزيج من النَّثْر والشِّعر.

أمَّا أهم هذه الآثار فهو كتاب «**شعراؤنا يقدِّمون أنفسهم للأطفال**»[١٩]. وهو بدوره أداة من أدوات التربية القومية التي صممها الشاعر.. كتاب نثري يتحدث عن شعراء العربية وأشعارهم بأسلوب شبه مسرحي يحاول الجمع بين المعرفة والمتعة.

يختار سليمان العيسى هنا سبعة وعشرين شاعراً يتوزعون على عصور

تاريخية عديدة: الجاهلي، وصدر الإسلام، والأمـوي، والعباسـي؛ ويجعـل كلاًّ منهـم يتقدّم إلى الأطفال، ويحدِّثهم عن عصـره وظروفه ويلقي بعضـاً من شعره، ولا سيما تلك القصائد التي اشتهرت وجرى تلحينها وغناؤها حتى وصلت إلى أسماع الأطفال.

وحين يأنس الصغار بضيوفهم يبادرون إلى طرح الأسـئلة والتعليق على ما سمعوه ويرد الضيوف رداً جميلاً. وهكذا نرى امرأ القيس، بعد أن يروي لهـم أبياته عن الليل التي قالها نتيجة معاناته القاسية، يستدرك قائلاً:

«ومالـي ولِلَّيـل والهمِّ والقلـق أزعج به أطفالي الأعزاء؟ تعالوْا أُسْمِعْكُم وصفَ الفرس العربي الأصـيل الذي كنتُ أركبُه وأخرج به للصـيد، قبل أن تسـتيقظَ العصـافير من أعشاشها. ولا تخافوا بعض الألفاظ الصعبة لأني سأشرحها لكم:

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها
بمنجردٍ قيدِ الأوابـدِ هَيْكلِ
مكرٍّ مفرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً
كجُلْمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

ألا تُذكِّركُمْ رشاقةُ هذا الحصان الجميل وسرعتُه الخاطفة بالصاروخ في هذه الأيام؟ إنَّ حصاني كان أحلى وأرشق من أيِّ صاروخٍ فـي عصـرِكُمْ. رُبَّما كنتُ متحيزاً لفرسـي الأصـيل، منسـاقاً مع عاطفتي، ولكني ما زلـتُ أُحِبُّه أعمق الحبّ. وأنا واثق من أنكم تُحِبّونُه مثلي».

كما نرى فـي ترجمة **النابغـة الذبياني** أسلوباً جديداً في التقديم يبدؤه طفل اسمه عامر، ويسير على النحو التالي:

«**عامـر**: أنـا منـدوب مجلَّـة «الطفـل العربي»،

وهـذه رفيقتـي رباب مندوبـة المجلة أيضاً.

رباب: جئنا نقابلك يا سـيدي، ونقدِّمُك إلى أصدقائنا الأطفال. وقد أحضرنا معنا «آلة تصوير» تلتقط لك بعضَ الصور.

عامـر: نعم يا سـيدي.. وسننشـر هذه الصور في مجلتنا.

النابغـة: أهلاً بالصديقين الصغيرين.. أهلاً بك يا عامر.. أهلاً بكِ يا رباب.. هذه لحظـاتٌ رائعة تُتاحُ لي. وإني سـعيد بلقاء أطفالي.

عامـر: سـمعنا أنـك قدِمـتَ الآن من نَجْدٍ..

النابغة: نعم يا صـديقي الصـغير. أنا قادمٌ من نَجْدٍ، مِن أعماق التاريخ. أريدُ زيارة المواطِـنِ العربية القديمة التـي أحببتُها، وزُرتها كثيراً في الماضي.

ربـاب: ولكـن.. أما حان الوقـت لتقدِّمَ نفسك لرفاقنا، يا شاعرَنا الكبير؟

النابغـة: حُبّاً وكرامة يا رباب، سـأفعل،

وأُنَفِّذُ ما تريدين.

أنا النابغة الذُبياني. من قبيلة ذُبيان، ومن شعراء الجاهلية المعروفين، المعدودين في الطبقة الأولى.

اِسمي زياد بن معاوية. ولكني اشتُهرت بلقبي. ولا أدري من أين جاءني هذا اللقب الجميل. لعلَّهم أطلقوه عليَّ لأني نَبَغْتُ في الشعر بعد أن كبرتُ ونضجتُ.. إلخ.

على أن **الشريف الرضي** يقدِّم نفسه مباشرة، مبيّناً صلته بهؤلاء الأطفال، يقول:

أصدقائي الصغار..

تريدون أن تعرفوا شيئاً عن شعرائكم البارزين في التاريخ العربي. فكرة جيدة. أنتم أغصان الشجرة العربية وفروعها الغضَّة. ونحن جُذورها، وعيدانها الصلبة. ولذلك أرى نفسي سعيداً بلقائكم في هذا المسلسل الجميل..

وهكذا نرى الكاتب يستعير أساليب من المسرح والسينما لتلوين عرض هذه التراجم وتقريب المسافة بين الحاضر والماضي.

وأسفي شديد لأن الكتاب لم يُعرض في الأسواق، ولم يُستفد منه، لا في التعليم المدرسي، ولا في الأنشطة خارج المدرسة عسى أن نعوِّض عن ذلك في وقت قريب.

وأقول أخيراً، إنَّ سليمان العيسى الذي اتخذ من الكلمة سلاحاً للدفاع عن قضية تجديد الأمة وتوحيدها، عكف عليها (الكلمة) انتخاباً، وتجريباً، وتطويراً في جميع أشكالها، وجميع المجالات التي تخدم القضية.

ولما كان مربِّياً، إضافة إلى موهبته الكتابية، فقد عمد إلى شرح تجربته للآخرين، كباراً وصغاراً، ليضمن استمرار الرسالة وانتقالها من جيل إلى جيل. وهذا ما جعل أحد زملائه، الإعلامي الأديب جهاد فاضل، يكتب عنه[٢٠]:

«سليمان العيسى: شاعر وناثر ومعلّم أيضاً.. و«باقة نثر» خلاصة تجربة وثقافة العيسى، وهو من أفضل الكتب التي يوجهها شاعر إلى قرّائه».

الهوامش

١ – سليمان العيسى، كتاب اللواء، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٣م.

٢ – سليمان العيسى، باقة نثر، دار طلاس، ١٩٨٤م.

٣ – سليمان العيسى، في: النعيرية قريتي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٢م.

٤ – سليمان العيسى، في: كتاب اللواء، مرجع سابق.

٥ – سليمان العيسى، مقدمة: همسات ريشة متعبة، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٦م.

٦ – سليمان العيسى، الأعمال الأخيرة، المجلد الأول، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٤م.

٧ – د. علي القيم، د. ملكة أبيض، سليمان العيسى: شاعر العروبة والطفولة، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠١١م.

٨ – سليمان العيسى، الأعمال الأخيرة، المجلد الأول، مرجع سابق.
٩ – د. ملكة أبيض، مجلة المعرفة، دمشق، العدد ٥٨٥، السنة ٥١ . حزيران ٢٠١٢م.
١٠ – سليمان العيسى، باقة نثر، مرجع سابق.
١١ – سليمان العيسى، دفتر النثر، دار جداول، بيروت، ٢٠١٢م.
١٢ – د. علي القيم، د. ملكة أبيض، مرجع سابق.
١٣ – د. علي القيم، د. ملكة أبيض، المرجع نفسه.
١٤ – سلميان العيسى، دار جداول، بيروت، ٢٠١٢م.
١٥ – سليمان العيسى، كتاب الحنين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م.
١٦– طبعت هذه القصص في دار الآداب ببيروت، في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، على ما أذكر.
١٧ – أدرج الشاعر القصة أولاً في كتابه: أوراق من حياتي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م؛ ثم في كتاب «اللواء» لدى طباعته عام ٢٠١٣م، مرجع سابق.
١٨ – سليمان العيسى، وضاح وليلى في وطن الجدود، دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٩م.
١٩ – سليمان العيسى، شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال، دار الآداب للصغار، ١٩٨٠م، وهو حالياً تحت الطبع في الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.
٢٠ – جهاد فاضل، سليمان العيسى شاعر وناثر ومعلم أيضاً، عن جريدة الوطن العمانية.

الشاعر الشابيّ بين الألم والأمل

محمود أسد ❁

لم أعرف بيتاً من الشعر حفر مساحة في قلوبنا، وما زال يشدّنا مثل بيت هذا الشاعر الذي سطع كنجم متألق، وخبا كبرق خاطف. تربطني وجيلي بهذا الشاعر مودةٌ وحبٌّ لا ينطفئ. بفضل قصيدته الخالدة «إرادة الحياة» والتي مطلعها أشهر من كل قصائد الشعر العربي قديمه وحديثه:

إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلا بدّ أن يستجيب القدر

إنَّها صيحة الثائر المتمرّد. فلنا رحلة ممتعة بصحبة هذا الشاعر المبدع

❁ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الخلاق الذي مرّ في حياتنا كنسمة. ورحل عنا وبقي فيها كنغمة خالدة. إننا أمام شاعر عاش فترة قصيرة لم تتجاوز الخمسة والعشرين عاما. فقد ولد في عام ألف وتسعمئة وتسعة، وتوفي عام ألف وتسعمئة وأربعة وثلاثين. إنها أعوام قليلة وقصيرة من عمر الزمن والإبداع، ولكنها حافلة وغنيّة بالشعر والعطاء. فلا يُقاس الإنسان بعمره بل بعطائه وكأن شاعرنا اختصر حياته بهذا العطاء المبدع.

كانت موهبتُه معجونةً ومغموسة بالحزن والكآبة والغربة مع بصيص من الأمل. وهذا حال الشعر في ديوانه «أغاني الحياة» فالحزن والألم والغربة مادة أساسيّة ومحرِّكة في شعره. وهذا يتطلّب منا أن نتوقّف عند هذه السمة البارزة في شعره مكوناتها وأسبابها وكيف تعامل شاعرنا معها؟ فنحن أمام شخصية متميّزة سبقت عصرها بسنين. فتح عينيه للمستقبل وسعى لخير شعبه وأمّته، ولكنه لم يجد من يفهمه مما ألَّب أحاسيسَه، وألهب فؤاده بالأسى واللوعة، فتوقّدت شاعريَّته من لهيب ونار الحزن والأسى والمرض. لتكنْ رحلتُنا معه من البداية.

نحن أمام طفل نشأ في قرية وادعة حالمة تحضنها أشجار النخيل وواحاته في تونس. إنها قرية «الشابية» التي نسب إليها واكتسب منها حب الطبيعة والشموخ والنقاء. واكتسب من والده وأسرته النشأة الدينيّة الصافية المدعمة بالأخلاق والتسامح والآداب. ودرَس في العاصمة التونسية في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم وما جرَّ على أبناء شعبه من فقر وظلم وخنوع وتخلُّف، يشارك الاستعمار في ذلك طبقة من الرجعيين المستسلمين للفَرْنسة وللعادات البالية التي تقف عائقا في وجه تطوّر أمّته وهذا ما جعله يثور عليها، ويقف في وجهها. فما كان منها إلا أن بادلتْه العداء والثورة عليه وعلى أفكاره. وجانبٌ آخرُ من جوانب حياته وهو يمثل الموقدَ لمسيرة حياته إنه المرض الذي صاحبه في حياته. فهو مصاب بضيق في القلب والرئتين معاً. فعاش منطوياً ومنفرداً عن زملائه وأقرانه في فترة اللعب واللهو فزاد إحساسُه بالألم والغربة، فكان رقيقَ الطبع والمشاعر تجاهَ الأحداث والأمور التي تعترضه وتمرّ من أمامه.

إذن، نستطيع أن نقول: إنَّ مجموعة من العوامل المتلاحمة ألهبت أحزانه لتجعل منه شاعراً متميّزاً في عصر الجمود والالتفاف حول الموائد في الرثاء والمدح والفخر وهذا لا نراه في شعره. وهذه نقطة إيجابية في حياة هذا الشاعر الذي رحل شاباً، ولكنه عاش كبيراً في تفكيره ومعتقداته وموهبته. فالحزن والكآبة والإحساس المرهف عوامل مشتركة في قصائده. فشعره يعكس حياته وحالته النفسية. فهناك عناوين لقصائد في

ديوانه /أغاني الحياة/ تثبت هذه الملاحظة فمن عناوين قصائد الديوان «الأشواق التائهة- قيود الأحلام- أنا أبكيك للحب - في ظل وادي الموت- الجنة الضائعة - شكوى ضائعة- مأتم الحب- الكآبة المجهولة- شكوى اليتيم- الدموع أغنية الأحزان- نشيد الأسى- رثاء الفجر...» وإذا قرأنا القصائد وتوقفنا عندها فسوف نتلمَّس الحزن المؤثرَ جليّا في كل قصائده. فالشاعر رهَنَ نفسه للمرض ولأسرته المنكوبة بوالده ولأبناء مجتمعه ولمذهبه الشعري ورؤيته الشعرية الجديدة. فوسط هذا المحيط وما فيه لا بد أن يتأثّر ويتفاعل ولذلك من الطبيعي لمن يملك مثل هذه النفس الشفّافة أن يلجأ إلى الطبيعة بجمالها وبهائها وغضبها. يقترب منها ليبثّها أحزانه وهمومه على غرار الرومانسيين الذين وجدوا في الطبيعة صديقاً وملاذاً لهمومهم ومهرباً من واقعهم البائس. وهذا حال شاعرنا المعذب:

مهما تضاحكتِ الحياة فإنّني أبداً كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة، والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوّه البلوى، ويعتلج النحيب
ويضجّ جبّار الأسى، وتجيش أمواج الكروب
إني أنا الروح الذي سيظلُّ في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب

هذه الأبيات تجسِّد المذهب الإبداعي. ففيها حزن عميق ولوعة تكوي الفؤاد وألفاظ تتفجّر بالمعاني المؤثِّرة والصور الموحية (تجيش- الكروب- يعتلج- تتأوه - البلوى) فمرض الشاعر لم يحوِّلْه لفيلسوف يتبنّى نظرةً معيَّنة أو أفكاراً مغايرةً فيقسو على نفسه من أجل مرضه كالمعري. فالشاعر قهر المرض وتحدّى نصائح الأطباء فتزوّج وأنجب وعمل. ومن جانب آخر نراه يبتسم للألم وينتصر عليه بالفرح والابتسامة حينا فالشاعر عبّر عن خيبته وحظِّه العاثر وأحلامه المسروقة في «أغنية الأحزان»:

حطَّمتْ كفّ الأسى قيثارتي/
في يد الأحلام
فقضَتْ صمتا، أناشيد الغرام/
بين أزهار الخريف الذاوية
وتلاشت في سكون الاكتئاب/
كصدى الغريد

إنَّ الحزن وملامحه رداء يرتديه الشاعر ويحيط به في كل قصائده فهو يتألّم من نار الحياة التي فجعته بوالده وهو يافع في أول الطريق. فحمل المسؤولية بصدر رحب مبكراً:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي
ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة، وأحتسي
من نهرها المتوهِّج النشوان

وعبّر الشاعر عن مرارة محنته وتجربته في رسالة لصديقه «محمد الحليوي» خلال مرض أبيه.

«إنني أحاول أن أخطَّ إليك ما تحسُّه نفسي من مرارة الأوجاع وهموم الزمن الجائر. فلا أستطيع إلا مثل هذه الكلمات المتقطِّعة التي لا تكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأسائه.. في الصباح أجلس إلى أبي الذي أنهكه المرض، وأضناه وأرمضه الألم وأذواه.. فما أراه كذلك إلا وتملأ صدري الزفراتُ، وتملأ العينَ العبراتُ، وتنطلق من قلبي المثلوم وصدري المكلوم أنّاتِ القهر ودعوات الرجاء إلى إله الحياة والموت وباسط النور والظلمات أن يشفي هذا الأب الواهي الطريح».

لا بدّ للقارئ إلا وأن يتألم لحال الشاعر وما آل إليه أمرُ أسرته التي وقفت حائلاً وسدّاً أمام أحلامه فقال في قصيدته «قيود الأحلام»:

وأودُّ أن أحيا بفكرة شاعر
فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا إذا قطَّعْتُ أسبابي مع الد
نيا، وعشت لوحدتي وظلامي
لكنني لا أستطيع، فإنَّ لي
أمّاً يصدُّ حنانها أوهامي
وصغارَ إخوانٍ يروْن سلامهم
في الكائنات معلّقا بسلامي
فقدوا الأب الحاني فكنت لضعفهم
كهفاً يصدُّ غوائل الأيام

هذا اعتراف صريح وبوح صادق خرج من أعماق الشاعر المعذَّب مع نفسه وأهله ومجتمعه. فهناك رافد آخر من روافد أحزانه وهمومه المتراكمة فوق كاهله، إنَّه حال شعبه وأمته وما عليه من انكسار وتخلُّف واستسلام للجهل. فكان يتألم ويتحسّر كلما وجد شعبه في مستنقع الجهل والتخلف، فيدعوه للعلم واليقظة وتجديد مفاهيم الحياة المتجدّدة. فلم يفهموا دعوتَه، فثاروا عليه ينقدونه، ويوخزونه بالكلام والتهم. فعاش في عزلة وغربة قاسية عبّر عنها في قصيدته «النبي المجهول» الحافلة بالتمرد والثورة. ويبدو لنا أن الشاعر متأثِّر بروح جبران خليل جبران المتمردة:

أنتَ روح غبيَّةٌ تكره النو
ر وتقضي الدهور في ليلِ ملْس..!
أنتَ لا تدرك الحقائق إن طا
فتْ حواليك دون مسٍّ وجسٍّ..
فتألّمْتُ.. ثمَّ أسْكتُ آلا
مي وكفكفْتُ من شعوري وحسّي
ثم ألبسْتني من الحزن ثوبا
وبشوك الجبال تَوَّجْتَ رأسي

لقد ضاعت الجنة التي يحلم بها لأبناء شعبه، فإذا به يعيش في الجحيم متألما متحسِّرا لأنه فوجئ بتحطيم أحلام طفولته أمام الواقع الشرير:

واليوم أحيا مرهقَ الأعصاب مشبوبَ الشعورْ
متأجِّجَ الإحساس أحفلُ بالعظيم والحقير
تمشي على قلبي الحياةُ، ويزحف الكونُ الكبيرْ

هذا مصيري، يا بني الدنيا، فما أشقى المصير!

لا يمكن لإنسان واعٍ متفهِّم للأدب ويتأثَّر به أن يتغافل أو يتجاهل قدَرَ هذا الإنسان. فيعطف عليه لقسوة القدر عليه. وما أصعب هذا الإحساس بالغربة وقد عبّر عنها الشاعر في أكثر من مكان:

يا صميم الحياة كما أنا في الد
نيا غريبٌ أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيـ
ـد فؤادي ولا معانيَ بؤسي
ليتني لم يعانقِ الفجرُ أحلا
مي ولم يلثمِ الضياءُ جفوني!

أمام هذا الواقع المرير والإحساس المرهف بالخيبة يلجأ للنسيان والهروب إلى الغاب حيث الراحة والاسترخاء والانفراد:

إنني ذاهب إلى الغاب يا شعـ
ـبي لأقضي الحياة، وحدي بيأس
إنني ذاهبٌ إلى الغاب علِّي
في صميم الغابات أدفنُ بؤسي
ثم أنساكَ ما استطعتُ فما أنـ
ـتَ بأهلٍ لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيـ
ـدي وأُفضي لها بأشواق نفسي

هذا الإحساس المؤلم بالغربة عبَّر عنه في يومياته فكتب في /١٩٣٠/١/٧:

«أشعر الآن أنّني غريب في هذا الوجود. وأنّني ما أزداد يوما في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة. غربةٍ من يطوف مجاهلَ الأرض ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي ليحدِّث قومه عن رحلاته البعيدة، فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا.. الآن أدركْتُ أنّي غريب بين أبناء بلادي، وليتَ شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر. فترتِّل أغاني أرواح الشباب المستيقظة، وتدركُ حنينَ قلبي وأشواقه أدمغةٌ مفكِّرة سيخلقها المستقبل البعيد؟. أمّا الآن فقد يئست. إنّني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمةً من صور الحياة الكثيرة التي تتدفّق بها موسيقى الوجود في أناشيده. كلا يا قلبي! سر في سبيلك يا قلبي ولا تحفل بصفير الأبالسة فإن وراءك أرواح تتبع خطاك».

(مجلة مكارم الأخلاق التونسيّة السنة الأولى -عدد /١١/ ص ٤١١ --٤٢٤

عجيب أمر هذا الإنسان، بل رائع لأنه نسي نفسه وآلامَه ومرضه ليصوغها في الصالح العام. فنفسه بقيتْ متشوِّقة للحرية وساعية إليها. تتوق نفسُه للأمل والطموح والتحدّي.

فالشاعر ليس مستسلماً ولا مسالما فصوتُه يدوِّي بأناشيد الإرادة والأمل والتحدي. ففي قصيدة «إرادة الحياة» يرسم طريق الوجود والنور:

وقالتْ ليَ الأرضُ: لمّا سألت:
أيا أمُّ هل تكرهين البشر؟:

أبـارك فـي الـنـاس أهـل الطموح
ومـن يـسـتـلـذُّ ركـوبَ الـخـطـر
وألـعـنُ مـن لا يـمـاشـي الـزمـان
ويـقـنـع بـالـعـيـش عـيـشَ الـحـجـر
هـو الـكـونُ حـيٌّ يـحـبُّ الـحـيـاة
ويـحـتـقـر الـمـيْـتَ مـهـمـا كـبـر

وفي مكان آخرَ يعبِّر الشـاعر عن ظمئه إلى النـور والحرية. وما الظمأ إلا بسـبب الواقع الاجتماعي والسياسـي والاقتصادي لأبناء شعبه:

ظمئْتُ إلـى الـنـور فـوق الغصون
ظمئْت إلـى الظلِّ تحت الشجر!
ظمئت إلـى الـنـبـع بـيـن الـمـروج
يـغـنِّـي ويـرقـصُ فـوق الـزهـر
ظـمـئـت إلـى نـفـحـاتِ الـطـيـور
وهـمْـسِ الـنـسـيـم ولـحـن الـمـطـر

فهذه أبيات عميقة بمضامينها وتكشف مدى حزنه وشوقه وألمه معاً. فالكآبة تسيطر عليه بين حيـن وآخر فيلجـأ إلى الطبيعة ومخيِّلتِه ، فيرسم لوحاتِ الحزن والمعاناة، فينسج ثوباً رقيقاً شفّافاً من نواحه وبكائه، فيصوغ أرقَّ العبارات من قلب مجروح ففي قصيدتِه «الكآبة المجهولة» يقول:

أنا كئيب/ أنا غريب/ كآبتي خالفتْ نظائرها/ غريبة في عوالم الحزن/ كآبتي فكرة مغرِّدة..

فالشـاعر تعامل مع همومه بحساسـيّة مفرطـة وبمعانـاة متناهيـة. فطبعُه رقيق وقلبه متدفِّق بالمشـاعر والأسى، ولا يكتُم أحزانَه ويأسه. حالُه كحالِ البركان أو النبع. لا بـدّ أن ينبجسَ فإمّا حمَمـا ونارا أو ماء عذبا رقراقا. وهذه دفقةٌ حارة من بوحه في «الجنة الضائعة»:

آهٍ تـوارى فجـري القدسي فـي ليـل الدهـور
وفنى كما يفنـى النشيدُ الحلو في صمت الأثير
أوّاه، قـد ضاعـت علـيَّ سعـادةُ القلب الغريـر
وبقيتُ في وادي الزمـانِ الجهم أدأب في المسير
وأدوس أشـواكَ الحيـاة بقلبـي الدامـي الكسيـر
وأرى الأباطيـل الكثيـرةَ، والمآثـم، والشـرور

- - -

مـاذا جنيـتُ مـن الحيـاة ومـن تجاريـب الدهور
غيـرَ النداممـة والأسـى واليأسِ والدمـع الغزيـر
هذا حصادي من حقـول العالم الرحب الخطير
هـذا مصيـري يـا بنـيَّ، فمـا أشقـى المصيـرْ!

فالقصـيدة مـلأى بمفـردات الخيبة والحـزن. فقاموسـ الشـاعر اللفظـي ليسـ معقّدا لأنَّه يغرف مـن بحيرة واحدة بحيـرةِ الآلام والهمـوم. وهـذا لا يعني أن الشـاعرَ استسـلم للحزن والألـم. فهناك جانبٌ آخرُ ورائعٌ في شـعره، يقف مواجها اليأس والحزن. ففي ديوانه قصـائدُ تنطلق مغردةً بالأمل والإرادة. فيُعيد إلينا البسمة، وهو يتحدّى المصـير المفجـع ويقف في وجه المرضـ والتحدّيات الاجتماعية ففي قصيدته «نشـيد الجبار» يشدو محلِّقا في السماء:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنّسر فوق القمّة الشمّاء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا
بالّسحْب والأمطار والأنواءِ
وأسيرُ في دنيا المشاعرِ حالما
غرِدا - وتلك سعادة الشعراء
وأقول للقدر الذي لا ينتهي
عن حرب آمالي بكلِّ بلاء
لا يطفئُ اللهبُ المؤجَّجُ في دمي
موجَ الأسى، وعواصفَ الأرزاء
سأظلُّ أمشي رغْم ذلك عازفا
قيثارتي، مترنِّما بغنائي
النّورُ في قلبي وبين جوانحي
فعلامَ أخشى السير في الظلماء
إنَّ المعاول لا تهدُّ مناكبي
والنّارُ لا تأتي على أعضائي

فشاعرُنا رمى كل حممِهِ على أعدائه وتحدَّى المصير. ووقف في وجههمْ ثائرا متمرِّدا بعد أن تعب من المواجهة، مواجهة المرض والقهر الاجتماعي فعلَّمَنا درسا رائعا في الصبر وتحمُّل المسؤولية والإيمان بالهدف، وترتبط هذه القصيدةُ وما فيها من مغزى بقصيدته الخالدة «إرادة الحياة». فالقصيدتان من أكثر القصائد توظيفا وتأثيرا في حياتنا. فما أحوجَنا إليهما!

فالشاعر ليس رومانسيّا حالماً مستسلماً بل ثائراً متمرِّداً يفضح المستعمر ويتحدّاه:

ألا أيها الظالم المستبدُّ
حبيبُ الفناء، عدوُّ الحياة
سخرْتَ بأنأَت شعب ضعيف
وكفُّكَ مخضوبةٌ من دماه
وعشْتَ تدنِّسُ سحرَ الوجود
وتبذرُ شوكَ الأسى في رباه

وفي مكان آخرَ يحرِّضُ الشعبَ للثورة على غرار شعراء مصر وبلاد الشام في تلك الفترة كحافظ إبراهيم والرصافي واليازجي وعلي محمود طه:

ألا أيها الظالم المصعِّرُ خدَّه
رويدَك إنَّ الدهرَ يبني ويهدم
أغرَّكَ أنَّ الشعبَ مُغْضٍ على قذى
لكَ الويلُ من يومٍ به الشرُّ قشعَمُ
سيثأر للعزِّ المحطَّم تاجُه
رجالٌ إذا جاش الردى فهمُ وهم
هو الحقُّ يبقى راكدا، فإذا طغى
بأعماقه السخطُ العصوفُ يدمدِمُ

فالألم والأمل يتنازعان في نفس الشاعر، وبين حين وآخر يبزغ بصيص الأمل معبّرا عن فجر قريب، فيفتح نافذة يطلُّ منها على الفجر والأمل. فيتغنّى بالحرية والمستقبل. فقد كان الشاعر مؤمنا بالحياة، وبحقِّ شعبه في الحياة، وبحقِّ الشعر أن يكونَ حيّا ينبع من الشعور، لا ينظم في كهوف مظلمة، فلديه رؤيةٌ خاصَّةٌ في الشعر والشعراء فيذكر في مقال له ورد في مجلة العالم الأدبي في العدد الثاني والعشرين:

«الشعر يا صديقي تصوير وتعبير. تصوير لهذه الحياة التي تمرُّ حواليك مُغنِّيَةً ضاحكة لاهية أو مقطّبة واجمة باكية... وتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فنّي جميل ملؤه القوّة والحياة. يقرؤه الناسُ، فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور»...

فالشاعر يريد أن يكونَ الشعرُ ترجمانا حقيقيّا وأن يكون قريبا من روح قرّائه وهمومهم وهذا ما لاحظْناه في شعره خلال معاناته وهمومه.

وأمّا عن دور الشعراء ورسالتهم فيقول في المقال نفسه الذي ذكرناه آنفا: «شعراؤنا كثيرون لا جرم. معظم شعرهم مشكوك في قيمته مستراب في نوعه متناقَش في نفعه. وليس بعسير على النقد أن يُطْلع الناس على زيفه، ويُبرهن عن خلوه من الإحساس والشعور».

(مجلة العالم الأدبي، عدد٢٢، ص١-٢-٤- تاريخ ٥/٨/ ١٩٣٢م).

فالشاعر آمن بهذه الرسالة. فابتعد عن الأغراض التقليدية المتوارثة والبعيدة عن الهمّ العام. فوظّف شاعريته وعبقريته لصالح شعبه فهذه رسالة سامية عميقة صاغها بيانا شعريا واضحا:

يا شعرُ! أنت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب
يا شعر! أنت مدامع علقت بأهداب الحياة
يا شعر! أنت دم تفجّر من كلوم الكائنات

وفي مكان آخر يوضح الشاعر حقيقة الشعر وعلاقته الأبدية مع الشعر:

أنت يا شعر فلْذة من فؤادي
تتغنّى وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين
أبدي إلى صميم الوجود
أنت يا شعر صفحة من حياتي
أنت يا شعر قصَّة من وجودي

أجل. لقد أخلص الشاعر لمبادئه ولشعره ورسالته الشعرية وهو مريض يوخزه الألم، وتكويه جراح شعبه. فلم يلنْ، ولم يستسلم رغم المعاناة. فكان مثالا للشاعر الملتزم بآرائه وأفكاره ورؤيته. وقد أخلص لهذا الالتزام. وهذه نقطة مضيئة في حياته وهذا ما ذكره الناقد أبو القاسم محمد كرو فذكر: «لقد رسم الشابي لنفسه ولشعره أهدافاً نبيلة سامية. هي أن يجعل الشعر صوتاً قوياً ونبيلاً من أصوات الشعب المكافحة. وأن يكون شعرُه بناءً للمعالي ورائدا للحق والخير والجمال. فكان شعرُه وحيا مقدسا عن ضميره اليقظ النقي. فلا مدح ولا رثاء، ولا شيء من هذه الخصوصيات التافهة التي تسابق غيره من الشعراء في المناسبات حقيرِها وجليِّها على السواء»..

(كفاح الشابي-أبو القاسم محمد كرّو ص٦٥ الطبعة الثالثة).

هذه شهادة وثيقة تقدِّر شاعرية الشابي، ويمكننا أن نذكر أبياتا له ترسم معالم الطريق الشعرية في حياته:

لا أنظم الشعر أرجو
به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء
تُهْدى لربِّ السرير
حسبي إذا قلت شعرا
أن يرتضيه ضميري

فماذا يمكننا أن نقول عن هذا الإنسان الذي خرج حاملا شعلة من نور وبصيصا للمستقبل ودواء للعليل ومتنفَّسا للغريق. حمل رسالة تفوق سنَّه ومخيّلته وفكره. ولذلك اختصر الطريق الطويلة وقدم كل ما لديه مبكرا ورحل في ريعان شبابه وقمة عطائه ونضجه مما دفع الأدباء والنقاد لدراسة شعره وتجربته الشعرية فيذكر الأستاذ محمد بدره: «إن أبا القاسم قد حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة، وسَبَكه في قوالبَ جديدة من عقله الجديد، وخلع عليه ظلالا من أشعة روحه التي كانت تحيا بيننا. على أنه بين مجدّدي الأدب في هذا العصر يعتبر المثل الأعلى.. ولكنه كان عربيَّ الدم والملامح واللسان. يشعر بأنه قطعة من قومه. لا يعني غيرهم في كل ما يقول. وها هو ديوانُه الذي خلّفه بين أيدينا قد صُوِّرتْ فيه تونسُ بآمالها وآلامها كأنها ماثلة أمام مرآة صافية..».

مجلة العالم الأدبي، عدد٢، سنة رابعة ص٤-٢٩.

أغلب ظني أن شاعرنا ولدت عبقريته في غير وقتها. فخرج إلى أبناء قومه في غير أوانه. فخالف المألوف، ولم يكتف بهذا بل ثار عليه. تألم للواقع المرير ولم يقنع به بل حرض عليه، ودعا لمواجهته. فصبر وتألم وعورض ثم حورب دافعا ضريبة إحساسه ومبادئه وشعوره اليقظ. فلم يفهمْه شعبُه، ولم يحاولوا فهمه فنفروا من دعوته ورجموه بالكلام، وجرحوه بألسنتهم القاسية فيقول في «النبي المجهول»:

في صباح الحياة ضمَّختْ أكوا
بي وأترعْتُها بخمرة نفسي
ثم قدَّمتُها إليك فأهرقـ
ـتَ رحيقي، ودسْتَ يا شعبُ كأسي
فتألّمتُ.. ثم أمسكْتُ آلامي
وكفكفْت من شعوري وحسي
ثم نضَّدْتُ من أزاهير قلبي
باقة لم يمسَّها أيُّ إنسي
ثم قدَّمتها إليك فمزَّقْتَ
ورودي، ودستها أيَّ دوْسِ

فالأبيات تكشف عن فجوة واسعة بين الشاعر وأبناء شعبه. هذه الفجوة كانت تتّسع وتغور مع كل صدمة بسبب يقظة ضميره ورقة أحاسيسه وحزنه المتجدد. فيقول: «إن في قلب هذا الشعب التونسي ثروةً روحية وفنّا قويا. ولكنها ثروة مهملةٌ وفنٌّ غير مصقول. وإن في طبيعة هاته البلادِ سحرا يُلهم الصخر أسمى المعاني وأرفع الأفكار. لو كانت للصخر مشاعرُ حيّةٌ واعية، وإن الداء كل الداء في الألسنة المعبِّرة لا في روح الشعب ولا في طبيعة البلاد»

(أبو القاسم الشابي: الشعر والشاعر عندنا. مجلة العالم الأدبي سنة ٣ –عدد ٢٨ ص١٤١).

فالشاعر يكشف عن علاقة الشاعر بالشعب وخطر انزوائه. فالشعر رسالة يجب أن يحملها الشعراء. وهي وليدة إحساس عميق وصادق ولذلك نراه يتفاءل في بعض الأحيان ويحدوه الأمل في النصر والتقدم:

خُلقتَ طليقا كطيف النسيم
وحرّا كنور الضحى في سماه
تغرّد كالطير بذل القيود
وتحني لمن كبّلوك الجباه
وتسكتُ في النفس صوتَ الحياة
القويِّ إذا ما تغنّى صداه
ألا انهضْ وسر في سبيل الحياة
فمن نام لم تنتظرْه الحياة

فالشاعر لا ينقطع أملُه من شعبه في لحظات الضيق. فتراه يحثُّه ويؤنّبه ويدفعه لاقتحام المخاطر وهذه رسالة الشاعر الحقيقية. فالشعب مصدر قوته الكامنة ولكنها بحاجة لمن يفجِّرها ويوجِّهها. ولذلك كان يندِّد بأعداء التقدُّم والحرية والدين من الرجعيين الذين حاربوه ووقفوا في وجهه:

كلما قام في البلاد خطيبٌ
موقظٌ شعبَه يريد صلاحهْ
أخمدوا صوتَه الإلهيَّ بالعسـ
ـف، أماتوا صُداحَه ونواحه
ألبسوا روحَه قميصَ اضطهاد
فاتكٍ، شائك يردُّ جماحه
وتوخَّوا طرائق العسف والإر
هاق معْه، وما توخُّوا السماحة
هكذا المصلحون في كلّ صوب
رشقاتُ الردى إليهم متاحة
غير أنّا تناوبتْنا الرّزايا
واستباحتْ حمىً وأيّ استباحةْ

إنها لَصيحة جريئة لم تكن تخرج لولا معاناة الشاعر القاسية والمريرة من جهل شعبه وأعداء تقدمه. والرائع في شاعرنا

خيطُ الأمل وبصيصُ النور الذي لا يأفل ولا ينقطع رغم حُلكة الظروف. ويكبر في عين الناس من يتَّسم بهذه الرؤية الساطعة:

إنّ ذا عصرُ ظلمةٍ غيرَ أني
من وراء الظلام شمْتُ صباحهْ
ضيَّعَ الدهرُ مجد شعبي ولكن
ستردُّ الحياةُ يوماً وشاحَهْ

ما أروع هذه النفس المتوثبة والطامحة بالخير! وما أروع هذه الأبيات التي خلدته إلى الأبد!

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقْه شوقُ الحياة
تبخّر في جوفها واندثرْ

فصحبَتُه ممتعة ومؤلمة معا. لأن ألَمه ما زال ألمنا. نعاني منه وبشكل أعظمَ وأقسى ولكن الأمل والتفاؤل ينسجان خيوطَ الفجر المضيء، ويَخيطان ثوب الخلاص والتقدّم. في نهاية المطاف أتركُك مع هذين البيتين للشاعر. عساك تتأملهما، وتغور في أعماقهما لترى مقدار الجرح الذي كان يحفر في أحشائه وضلوعه:

الناس لا ينصفون الحي بينهم
حتى إذا ما توارى عنهم ندموا
الويل للناس من أهوائهم أبدا
يمشي الزمانُ وريح الشرّ تحْتدِم

الرواية والنقد الثقافي
(مقاربة أنثروبولوجية)

إسماعيل الملحم ❁

كلاهما الأدب والعلم نتيجة لجهد إنساني، لا ينفصل عن الواقع بل يمتحُ منه وإن لعب الخيال دوراً بارزاً في الأول لكنه -أي الخيال - له دور هام في العلم، خاصة ما يتعلق بعلوم الإنسان. ومن المؤكد، كما يقول غولديير:

إن الكائنات البشرية على نقيض الحيوانات الأخرى لا تقنع بمجرد الحياة في علاقات بل تنتج العلاقات كي تعيش وتبتكر على مدى وجودها سبلاً جديدة للعقل والفكر لتفكر وتعمل وتحسِّن من قدراتها على التفكير والعمل، سواء بالنسبة

❁ كاتب وباحث.

لبعضها البعض أو بالنسبة لتعاملها مع البيئة. ومن ثم فالبشر ينتجون ثقافاتهم ويصنعون تاريخهم أو يخلقونه..

تكوّن الثقافة أحد أهم عوامل التماسك الاجتماعي، لكن ما من ثوابت فيها فهي تُدرَك في حركتها ولا تُفهم إلا في سياقات اجتماعية تتباين ظروفها وتتغير، وهذا ما تعنيه أية مقاربة تتلمّسُها.

تقوم العلاقات الاجتماعية كما اتفق عليه علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع على أسس وتنظيم وقواعد معينة، وإن تكن هذه الأخيرة غير مكتوبة أو غير ظاهرة تحدّد السلوك الاجتماعي بحيث لا يكون عشوائياً. والمجتمع، أي مجتمع هو ذو تركيب متكامل ومكون من وحدات اجتماعية أو نظم (قرابة، اقتصاد، سياسة).وتكون هذه العلاقات دائماً في حالة تغير أو تحول من حين إلى آخر تحت ظروف اجتماعية وتاريخية متغيرة. تركز الأنثروبولوجيا على التغيّر الذي يحدث في البناء الاجتماعي ككل، أو في بعض الأنظمة المعينة: كالنظام الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو السياسي، وإعطاء الأهمية لأحدها دون البقية. كما يركّز بعضهم بصورة أساسية على تغير القيم، باعتباره المؤشر الأهم على ما يمكن تسميته التغير الحقيقي.[١]

التغيّر أو التحوّل لا يسير بخطى ثابتة ومحددة، بل قد يكون بطيئاً وقد يأخذ زمناً يطول أو يقصر. ولا يحدث هذا بصورة فجائية، فلا بد للباحث من رصد ومتابعة سير عملية التتابع هذه فدرجة التحول لها أسباب تتعلق بطبيعة المجتمع وتركيبته.

يتلاقى الناقد الثقافي للنصوص الأدبية مع الأنثروبولوجي في كون القراءة الثقافية تعمل على تفسير النص على ضوء الثقافة التي أنتجته، (منطق الفكر داخل النص ورصد التفاعل بين المرجعية الثقافية والوعي الفردي للمبدع).

ما سبق يعني أن قراءة النص على ضوء ما سبق تنفتح على معارف مختلفة متنوعة ونشر هذا النص في إطار علاقته بأجناس ثقافية ومعارف متعددة.[٢]

يتيح ما سبق للقارئ قراءة ما لم يقرأ من قبل. لأن النقد الثقافي يقوم على استراتيجيات للقراءة التي هي: جملة من الإجراءات والنظم المعرفية بحيث يمارس القارئ من خلالها فاعليته في الكشف عن سؤال المعرفي والثقافي في داخل النص المقروء.[٣]

يتمثل الجانب الإبداعي الذي يلعب فيه الخيال دوراً لا يستهان به، في كل من البحث الأنثروبولوجي والأعمال الأدبية، على الرغم من اختلاف الموضوع كون الفعل الأدبي، وخاصة منه الأعمال الروائية، هو تجربة إنسانية تمتد في العمق وتنطوي على مشاعر الاتصال والانفصال، بينما

يتأسس العمل الأنثروبولوجي على الوصفية العلمية.[٤]

من الممكن من خلال المنتج الأدبي اكتشاف الكثير والهام الذي يتعلق بالعلوم والدراسات الإنسانية... وبالمقابل فإن الأدبي يحتاج كثيراً بعض المنجزات العلمية والتقنية.

يحتاج الفحص الأنثروبولوجي إلى مقدرة الجمع بين مناهج العلوم الدقيقة ومقارباتها والالتزام بها في مجالات الآداب والفنون التي تفترض المقدرة على استيعاب الدرس الفلسفي – كما يقول ليفي ستروس – والتمييز بين ما هو واقعي وما هو خيالي في الأعمال الأدبية والفنية في مساعدة المرء على الاقتراب من الفهم العام للأنشطة البشرية على اختلاف أشكالها ومستوياتها، وللحضارة مع ما اقتضاه توزع الدراسات في علوم الإنسان بتنوعها وتداخلها، من إلغاء الحواجز التي يراد بها الفصل بين ما هو» اجتماعي/ ثقافي» وما هو « أدبي/ وفني « .

يلجأ الباحث إلى التحليل الأنثروبولوجي للأدب لأن مهمته تنطوي على البحث في العلاقة بين الأديب ومجتمعه على مختلف ما في الحياة الاجتماعية من أنشطة وتغيرات لتقدير مستويات تقدمها وأسباب انحطاطها إن وجدت، وتشمل هذه العلاقة الأحداث والقيم والأعراف والعادات والمعتقدات والاعتقادات وسائر أنماط العيش.

الفعل الروائي يستمد مادته من الظواهر الاجتماعية التي تشكل مادة هذا الفعل، كما أن الرواية من حيث هي فعل إنساني تكشف بشكل أو آخر عن جوانب متنوعة من جوانب الحياة الاجتماعية، مما يُغري المهتم بالدراسات الاجتماعية والإنسانية أن يلِجَ نتاجات هذا الفعل بهدف تفسير العمل الروائي وتحليله وإلغاء الحاجز الذي قد يقترفه بعض النقاد الذي يراد له الفصل بين الواقع بكل ما يحمله من وقائع وما يتبين فيه من ظواهر. يعرض الأدب عموماً أنماطاً سلوكية وقيماً اجتماعية في بنيته يستعير عناصرها من الواقع المحسوس حيناً، ومن عالم متخيل أحياناً، ولا يستطيع المتخيل أن يمتلك المصداقية التي تسوغه إذا لم يستقِ العناصر التي تتشكل منها صوره من الواقع، يصنع منها مادة تقارب الواقع قليلاً أو كثيراً. ولا تكون علاقة الأدب بالواقع ذات اتجاه واحد، بل هي علاقة تسلك مسارين لا يتوازيان بقدر ما يتقاطعان... وهو ما عناه (ف.ستيلماخ) حين أشار إلى مشكلة هامة تحتاج إلى حلول تستفز المتلقي والكاتب، وتتعلق بالأدب بوصفه وسيلة لخلق الروح الاجتماعية.

يظل العمل الأدبي ، وعلى الأخص الروائي منه، يقدّم باستمرار صوراً للواقع أكثر جمالا وعمقاً ودلالة.[٦]

وتضع الرواية الباحث أمام صورة أو

صــور تقترب من الواقــع والحياة بمختلف تلويناتها الريفية منهــا والمدينية. كما أنها - بشــكل عام- لا تتوانى عــن الدخول إلى العمق في وصف المجتمع في ثباته وتغيّره، وأســاليب العيش السائدة فيه إلى جانب ما تبرزه من وصــف علاقــات القربى والنظم الأســروية والأدوار الاجتماعية والعصبيات القبليــة والطائفية والمذهبيــة والإثنيات والعادات وغير ذلك..

ومن الجدير ذكره أن النص الأدبي يتّكئُ عادة على نصوص ومعارف لا أدبية بعضها مكتوب وبعضــها تنقله الذاكرة، وبعضــها الثالــث موجود فــي البيئة يتناقلــه الناس ويتداولونه دون وعــي بتأثيره اللاحق على السلوك العام أو على أية مادة أدبية. والبعض الرابع يتولد مــن الحياة العامــة والعقائد السائدة والمعتقدات والميثولوجيات، أو أنه يســتعاد من تجارب قديمــة (يكون التكوين المعرفي الســابق على النص الأساس لخلق نصــ جديــد يســتعمل أدوات الأدب، لكنه يخرج من الأدب إلى الحياة. فالنص الأدبي على كل حــال يقف دائماً على أرضــية لا أدبية).»

إذا دققنا النظر فإنّا واجدون أن الأعمال الأدبيــة العظيمة هي في المقام الأول نتاج المعرفة والفكر والفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية مجتمعة يدخل في ذلك أيضاً ما هو ســائد في ثقافات المجموعات البشرية المختلفة. نقــرأ الكثير في روايات كل من - نجيب محفوظ وحنا مينة وإسماعيل فهد إســماعيل وحيدر حيــدر وإبراهيم الكوني وغيرهم - ما هو غير أدبي[٨]. ومن الروايات مــن تكون مادته نتاج علم أو أكثر من العلوم الأساســية ومن التقنيــات الحديثة كما في روايات دين براون.

لا مفرَّ للمحلل الأنثروبولوجي للأدب من اللجوء إلى المنهج الوصفي والتحليلي دون الاستغناء عن الاستقراء والتحليل التاريخي في دراســته للنص الأدبــي، وهو في بحثنا هذا نصان روائيان يهدف الكشف عن اللا أدبي فيهما ومعرفة خلفيات كل نص منهما ما أدخله الكاتب في نصه، بغض النظر عن الجوانب الفنية والجمالية.

يفصح الروائيون بإشــارات ظاهرة، أو مضــمرة في مقدمة نصوصهم عن مصادر قامت عليها هذه الرواية أو تلك، تكون نقطة محورية أو موضوع رئيسي تنتظم الأحداث فــي الرواية وفقــاً لها. وقد يلجــأ أحدهم لذكر مصــادر من أجناســ كتابية مختلفة استمد منها معلومات تســتند إليها الرواية ويسوغ الروائي إقدامه على عمل ما محدداً ما يشبه أهداف هذا العمل ودواعيه.

تقدم الروائية الســورية ناديا خوســت لروايتها حب في بلاد الشام قائلة:

مــا دفعني إلى الكتابــة حقاً ليس فقط الغيــرة على الشخصــيات التي أصــبحت

أعرفهـا كأني أعيش معهـا دخائلها، وليس الرغبة في أن أؤدي من خلالها زمني الذي لم ينضـج بعد كي يؤدى، بل الخشـية مما يواكب هذا العبـور من زمن إلى آخر: تبدد الذاكـرة، وهويـة المدن، فقد الصـلة بين الأجيال والأجيال، بيـن الأجيال والعمارة، وبين الأجيال والذاكرة العامة. اضـمحلال منظومـات الأخـلاق ومنظومـة العادات، وحتى أنواع الأطعمة والشـراب والأقمشة. لذلـك اندفعـت إلـى كتابة هـذه الرواية اندفاع أواخر هـذا القرن إلى بداية القرن القادم.[٩]

وعن طريقتها في رصـد الأحداث ونمو شخصيات الرواية. قالت: (تبدأ الرواية من سوق ساروجة... تبعته في شكله المعماري، في آثاره التاريخيـة، وحاراته وبيوته حيث نسـجت مع حجارتـه وزخارفـه وبحراته حياتهـا). جمعت المصـادر والوثائق على نحو وصفته بقولها:

سجلت شـهادة آخر الشهود الأحياء من أقاربـي. وقاطعـت المعلومـات بالوثيقة. وتبعت الوثائق والدراسات حتى تراكمت لدي منها مكتبة.واسـتنجدت بكتب الأصـدقاء. وتابعت التسـرب الصـهيوني إلى فلسطين في بداية القـرن (تعني القرن العشـرين) وموقف رجال النهضـة منه. واشـتغلت في مكتبة الأسـد الوطنية أكثر من سـنتين في جمع المعلومات...[١٠]

تنتقـل ناديا خوسـت فـي روايتها عبر مدن عربية متعددة دمشـق وتتركز أحداثها بصورة لافتة على سـوق ساروجة وللأديبة خوسـت دور هام في أحداث الاعتداء على معالم حـي من أهـم أحياء دمشـق. هذا (الحي العريق الذي حاولت إنقاذه يوم كنت عضـوة في مجلس محافظة دمشق).ص٩ وهو فـي القلب من أحياء دمشـق القديمة كانـت للحياة داخلـه في زمـن الرواية ما يلخص إلى حد بعيد خصوصية الحياة في المدينة المتميزة بالعادات التي تسم سلوك مواطنيها وعلاقاتهـم الاجتماعية مع مدن وتشابك الصـلات العائلية من مصاهرات وغيرها مع عائلات كانت لها روابط قرابية تمتد إلى مدن فلسطينية ومصرية ولبنانية. ترصد الرواية أنماط العيش في هذه البقاع المختلف من مطرح إلى آخر والمؤتلف:

خلال إقامة فاطمة ويوسف وأولادهما في دمشـق، زينت البلد لاستقبال الحجاج، بالسـجاد وأغصـان الكينا... مشـى تحت الأقواس باعة السنبوسك والمشبك والكعك الطري الأبيض... كانت فاطمة تقول وهي تستعد للسـفر إلى دمشـق أنها وهي تحل مشـكلة ابنهـا، ستسـلم على جنـة خاتون القادمـة من الحج جنة خاتـون ..كالأموي والشامية وجامع الورد ..

مدن تتطور تتغير وسائط النقل ويفتتح خـط السـكة الحديد يسـهل الانتقال بين

حواضر المنطقة بل البلد الواحد. لا يحتاج المسافر من بلد إلى آخر في هذه المنطقة إلى تأشيرات دخول وإجراءات معقدة للسفر. صار الخط صالحاً للسفر ابتداء من سنة ١٩٠٥. مد الخط الحجازي ونحن في حيفا وصارت أم نوري تسافر إلى دمشق بالقطار وتجلس في العربات ذات المخمل الأحمر، وكان أبو نوري قبل مد الخط يسافر من دمشق إلى حوران بالعربات ويتنقل على الدواب.[١١]

تعرض الرواية لما يحمله المتنقلون من مدينة أو بلد لآخر من هدايا يأتي في رأسها حلويات تشتهر بها هذه المدينة أو تلك:

عاد يوسف محملاً بالحلويات الشامية والبرازق والمعروك والسنبوسك ... كم حملت له نفيسة المشمش المجفف وربطات القمر الدين من الشام.[١٢]

وتتحدث الرواية عن تلك التغيرات التي أدخلها إنشاء سكة الحديد، من تيسير الاتصال والسفر، كما مرَّ سابقاً،والتغيرات التي رافقتها:

وبقهوة مرصد أوروبا في حيفا التي تقصدها وتقرأ فيها جرائد الأهرام ولسان الحال والكرمل والمفيد والاتحاد العثماني والرأي العام والأحوال والمقتبس والنفير. وكنت تقرأ فيها من الجرائد التركية الطنين وصباح ... أرصفة المحطات التي أنشأها ألمان تستقبل أجانب من بلاد أخرى، الموانئ التي بناها عمال عثمانيون. نستقبل أجانب راغبين بالولايات العثمانية،. وفي هذا القطار رجال شقر على رؤوسهم طاقيات، ولا يعرفون لغة البلاد. لكنهم يسعون لكي يملكون هذه البلاد ... [١٣]

إنها تغيرات تحمل علامات صريحة على هجرة تعمل عليها منظمات صهيونية، على الرغم من رفض السلطة العثمانية لذلك، لكن للتسلل إلى فلسطين طرقاً وأساليب.

من بعد رأى يوسف قرية ذات سطوح حمراء وبيوت بيضاء، تلك هي قرية الملاحة استوطنها يهود..[١٤]

وفي مكان آخر من الرواية ثمة معلومات كثيرة عما كان يجري في المنطقة، تربط بينها الكاتبة بكثير من الدقة والذكاء. مثالنا على ذلك:

كانت الدولة اليهودية تنشأ وقت كان سامي باشا الفاروقي يقصف حوران بالمدافع ويسوق أبناءها مجندين، وتعقد المحاكم العرفية لتشنق وجهاءها في المرجة.[١٥]

لا بد من الإشارة إلى أن رواية حب في بلاد الشام كانت فاتحة لسلسلة روائية أصدرتها الروائية ناديا خوست تتصل أحداثها وتطور شخوصها لتشكل عملاً روائياً متكاملاً تجاوز عدد صفحاته الألفين وستمئة صفحة من الحجم الكبير.وهي بحسب سنوات صدورها:

١- «حب في بلاد الشام» - اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٥.

٢- «أعاصير في بلاد الشام» - اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨م.

٣- «شهداء وعشاق في بلاد الشام» - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠م.

٤- «وداع ولقاء في بلاد الشام» - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٢م.

٥- «دماء وأحلام في بلاد الشام» - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٥م.

وهي سلسلة غنية يستطيع المؤرخ والباحث الأنثروبولوجي أن يجد فيها ما ينفع في أي بحث جدي يتعلق بعلوم الإنسان.

ننتقل إلى رواية تضاهيها من حيث غناها الثقافي للروائي اللبناني ربيع جابر وهي (بيروت مدينة العالم). تقترب في أهمية ما تحمله من معلومات فيما يتعلق بمقاربات أنثروبولوجية تغني المكتبة العربية. يعد الكاتب في أحد صفحات الرواية أنه سيتبعها بنصوص أخرى لتشكل مشروعاً يغطي مراحل زمنية هامة في نمو بيروت من بلدة متوسطة إلى ما قاله أنها (بيروت مدينة العالم).

كما أشارت خوست إلى توثيقها لعملها المشار إليه، فقد قدم ربيع جابر جرداً بمراجعه التي استمد منها روايته بيروت مدينة العالم. فإن كانت كاتبة رواية «حب في بلاد الشام» قد بينت مصادرها في بداية الرواية، فربيع جابر يشير إلى مراجعه ومصادره بعد أن قطعت روايته الصفحة التاسعة والثلاثين.

(من باب السراي في ليل عاصف نهايته موت لم يكتمل،دخل عبد الجواد أحمد البارودي إلى بيروت التي لا يعرفها قارئ هذه الكلمات (بلى، أنت) يشبه عبد الجواد أحمد البارودي. الاثنان لا يعرفان بيروت القديمة، بلدة سكانها خمسة آلاف نسمة، يحاصرها سور، وتطل على بحر من جهة، وعلى بساتين وتلال وسهول من الجهات الثلاث الباقية. كيف كانت حياة بيروت في ذلك الزمن البعيد؟ كيف عاش أهلها؟ ومن كانوا؟

ويتابع الراوي:

لا يحتاج القارئ إلى التفتيش في الكتب ليعثر على أجوبة. لائحة الكتب وحفنة المخطوطات المثبتة هنا يمكن الاستغناء عنها، يمكن تجاوزها، ولن يبدل تجاوزها شيئاً في حياة عبد الجواد أحمد البارودي البائدة.[١٦]

وتبدأ قائمة الوثائق والمخطوطات والكتب التي استمد منها أحداثاً ذات علاقة بالرواية منها ما هو تاريخي (وقائع وأحداث وأسماء)، ومنها الجغرافي، (أسماء أمكنة ومواقعها وقد تغيرت ومنها ما أقيم فوقه بناء جديد أو تحولت وظيفته)، والاجتماعي، والاقتصادي، وغير ذلك. يبدأ ذكر هذه

المراجع متسلسلاً من رقم١ في الصفحة الأربعين من الرواية بالمرجع التالي:

١- مذكرات المرسل الأميركي كرنيلوس فاندايك (١٨١٨- ١٨٩٥)، المنشورة بعد موته في مجلة الهلال المصرية١٨٩٦..

وتنتهي القائمة في الصفحة ٤٨ بالمرجع رقم (٥٢).

٢- مذكرات جوزيف بسترس (بالإنجليزية)، ترجمة ابنته ليدي دي كويمزي - تورنتو ١٩٤٩ م.

وكثيراً ما يدخل إلى متن الرواية بعض الصور للّوحات التي كتب عليها أسماء بعض الأماكن أو النصب التذكارية كما ورد في الصفحة (٣٦٤) وقد وضعها داخل مربع كما هي حاله في الرواية:

عمود تذكار

نصب هذا العامود سنة ١٨٩٤م في الموضع الذي بنت فيه السيدة طود الإنكليزية الإسكندرانية المدرسة الأولى للبنات في سورية ١٨٣٥ للسيدة سارة سميث الأميركانية المعلمة الأولى في هذه المدرسة والمؤسسة مدرسة الأحد الأولى في المملكة العثمانية هذا مثال يتكرر ما يشبهه مرات عدة في متن الرواية.

تأخذ الأماكن الحيز الأكبر في الرواية. أماكن في حالة تغير، يمر على مواضعها وقد صارت شيئاً آخر:

أغمض عيني، أتخيل بيروت القديمة، البلدة المحاطة بسور مستطيل سنة ١٨٢١ أو سنة ١٨٢٢، سكانها خمسة آلاف نسمة. أرى مطراً يهطل على سهلات البرج حيث مبنى فيرجين اليوم ... أرى نوراً يتلامع في أبراج الحراسة فوق السور القديم.[١٧]

تسكن الرواية بأحداثها البعيدة والقريبة ذهن الكاتب، تشغله بيروت ببنائها القديم، تزاحم الصور، كثرة الوثائق... والتغير الهائل الذي حصل خلال ما يقرب من قرنين. يتوغل الكاتب يرصد تاريخ هجرة عائلات قديمة إلى بيروت بدايات الحكم العثماني:

الآن لا أدري ماذا أصنع؟ طنين الليل في أذني والأوراق مبعثرة على الطاولة. ملاحظات،صورفوتوغرافيةقديمة،صكوك، صور طبق الأصل،عن تذكرة عثمانية، نيشان مجيدي، دفاتر يوميات، أحكام صادرة منتصف القرن التاسع عشر عن المحكمة الشرعية في غزة، سجلات، حسابات شركة بسترس (طرازي للمانيفاتورة)، وصية عبد الغني البارودي، شجرة آل طرازي من الجد الأول بطرس المولود في حلب سنة١٥٩٧ والمتوفى سنة ١٦٧٨ إلى الأحفاد المقيمين في سورية ولبنان وفرنسا واليونان ومصر والجزائر وأميركا والسودان والبرازيل عند مطلع القرن العشرين، ويعود إلى تعداد ما تراكم لديه من وثائق ويضيف:

براءة قيصر النمسا يمنح بها لقب الكونت لأنطون قسيس، براءة لويس الثامن عشر ملك فرنسا يمنح بها شرف لقب فارس من فرسان قبر الخلاص لإلياس بسترس بتاريخ أيلول ١٨٢٩م أو ١٨٣٠م. [١٨]

ينزل الكاتب إلى شوارع بيروت وأبنيتها ومعالمها، كم تغيرت الأماكن التي تحدثت عنها الوثائق والمصادر. بيروت اليوم كما يراها الكاتب مختلفة:

بعد ١٨٠ سنة أنزلُ مع (...) من مكاتب جريدة الحياة بالمصعد، ندفع باباً حديدياً عالياً ... نخرج إلى شارع المعرض ... حيث البنايات الفرنسية المتطابقة وكل بناية بأربع طبقات وبقناطر عالية في أسفلها..[١٩]

يتابع مشواره، يقول:

هذا الشارع كان يسمى في القرن التاسع عشر بسوق العطارين الشارع جانب بارلمانتو، كان مدخل البازركان، الزقاق الذي جانب الجامع المكتوب عليه الآن جورج عاقوري. هذا كان اسمه سوق الصرامي...[٢٠]

وفي مكان آخر يصف ما كانت عليه بيروت في بدايات النصف الأول من القرن التاسع عشر، على لسان بطل روايته عبد الجواد أحمد البارودي، ذي الذراع الواحدة الذي دخل إلى بيروت في شتاء عاصف:

وجد نفسه أمام جامع الدباغة، رأى المئذنة الخشب المحطمة. رأى قافلة بغال تدخل البلدة من الباب الكبير ... تمضي نهارات أحياناً تدخل قافلة واحدة، هذه ليست الشام هذه بيروت حي صغير من أحياء الشام. المراكب التي ترسو في المرفأ ليست كثيرة. الأرصفة، هل هذه أرصفة؟ لا تزدحم بالبحارة والتجار والحمالين. سمع أخباراً عن عكا ... عن الإسكندرية. تلك مدن بحار ومرافئ، تموج بالمراكب والسفن والناس.[٢١]

لكن بيروت تنمو يوماً بعد يوم جاءه جند إبراهيم باشا، بدأت حركة افتتاح قنصليات فيها يأتيها قاطنون جدد من حلب من فلسطين من مصر..

البلد في تحسن هكذا بدأ الناس يتكلمون:

الشماس إلياس الدباس كان يقول: البلد إلى تحسن، كل أسبوع تظهر سفينة في الميناء، قوافل الإبل إلى حوران والشام باتت تتحرك مرة ومرتين كل بضعة أيام. الحي الجديد بين باب إدريس والسنطية صار يقطن فيه تسعة من التجار الإفرنج. المشكلة في بيروت هي الميناء، هذه الصخور تمنع السفن من بلوغ الشط ليس عندنا رصيف على البحر... لهذا تذهب سفن الإنكليز إلى عكا ... كل قمح حوران يأخذونه إلى هناك. السفن التي تجيء إلى بيروت معظمها فرنساوية.[٢٢]

كأنما ملامح سايكس بيكو أخذت

بالتبلور منذ ما قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر.

هكذا ترصد الرواية، على الرغم من كونها نصاً إبداعياً تجارب إنسانية عميقة مهمة ذات دلالات على مستوى التغير الاجتماعي. فكأن الفاصل بين هذين النشاطين الأدب من جهة، والأنثروبولوجيا وعلوم إنسانية أخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس وما إليهما تضيق. وفي مقابل ما يمدنا به الأدب من مقاربات ، فإنه كثيراً ما يلجأ بعض الأنثروبولوجيين إلى القص في بعض بحوثهم كما في كتاب (القفص الذهبي) للأنثروبولوجي (سير جيمس فريزر)، يشبه ذلك ما سردته مارغريت ميد في كتابها عن البلوغ في جزر ساموا.[٢٣]

على الرغم مما يبدو من تعارض بين الكتابة الروائية والأنثروبولوجية، فإنهما من جهة أخرى يتقاطعان ويلتقيان في مساحات معرفية واسعة على الرغم من كون الأدب ومنه الرواية هو في ظاهره يقوم على الخيال الإبداعي وتدخله عوامل نفسية من عواطف ومشاعر أما العلوم الإنسانية فتحكمها مناهج وطرق ومحكّات ومعايير مضبوطة، لكنهما – كما يقول أحمد أبو زيد – ينتميان لمنطقة مشتركة بين المجالين: تتمثل في اهتمام كل منهما بإعادة بناء العالم الإنساني الذي يدور حوله البحث الأنثروبولوجي أو العمل الرّوائي.

ومن باب آخر فإن بروز النقد الثقافي للأدب أخذ بتقريب الشقة بين دراسة الأدب وبعض العلوم الإنسانية، لتظهر دراسة الأدب، في ابتعاده عن الشعر والنثر الفنيين، كأنه قسم من العلوم الإنسانية، كما يقول شكري محمد عياد. في المقابل يخضع كل من علم النفس وعلم الاجتماع دراسة الأدب لمناهجه، باعتباره (أي الأدب) نتاج اجتماعي تارة، أو تعبيراً عن كيفيات نفسية تارة أخرى.[٢٤]

الاستشهادات

١- إدريس سالم حسن: من قضايا الأنثروبولوجية المعاصرة –مجلة العلوم الإنسانية عـ ٧/٢٦ ربيع ١٩٨٧م ص٨٠.

٢- شكري عياد: الأدب والعلوم الإنسانية – ص١٣٠–عالم الفكر عـ ٣و٤/٢٣ –١٩٩٥م.

٣- إدريس سالم حسن: سبق ذكره ص٨٣.

٤- شكري عياد: سبق ذكره ص١٣٠.

٥- عبد الله عبد الرحمن يتيم: الفكر الأنثروبولوجي لكلود ليفي ستروس -ص١٢٨ -عالم الفكر عـ ٢/٢٥- أكتوبر ١٩٩٦م.
٦- فوزي أبوخريص: مجلة الدوحة- ص٤٦- عـ ١١-٢٠١٢ م.
٧- ياسين النصير: اللاأدبي في الأدب -الحياة عـ ٢٧/١٠/ ١٩٩٨ م.
٨- المرجع السابق.
٩- ناديا خوست: «حب في بلاد الشام» - ص٨ - اتحاد الكتاب العرب- دمشق١٩٩٥م.
١٠- المرجع السابق، ص٧و٨.
١١- المرجع السابق، ص٢٥ و٢٦.
١٢- المرجع السابق، ص ٥١ وص٥٣ .
١٣- المرجع السابق، ص٤٧.
١٤- المرجع السابق، ص٤٦.
١٥- المرجع السابق، ص٦٧٥.
١٦- ربيع جابر: بيروت مدينة العالم - ص٣٩ - المركز الثقافي ودار الآداب-بيروت ٢٠٠٣م.
١٧- المرجع السابق ص١٥ .
١٨- المرجع السابق، ص ١٧.
١٩- المرجع السابق، ص٦٣.
٢٠- المرجع السابق، ص٦٧.
٢١- المرجع السابق، ص٥٩و٦٠.
٢٢- المرجع السابق، ص١١٤.
٢٣- أحمد أبو زيد: الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الأثنوغرافي والخيال الإبداعي - ص١٣٧ - عالم الفكر-ع٣و٤ / ٢٣- ١٩٩٥م.
٢٤- شكري محمد عياد: مصدر سبق ذكره ص١٢٦.

جميلة مدينة عربية في جبال الأوراس(١)

د. خليل المقداد ❁

تقع مدينة جميلة (Djemila) قديماً كويكول (Cuicul- CVICUL) على حافة جبال الأوراس الجزائرية شمال السهول العالية وفي قلب الجبال التي تكمل

❁ باحث وآثاري.

سلسلة جبال البيبان. وبذلك تبعد عن مدينة قسنطينة ٨٠كم شرقاً. وتمت الاستفادة قديماً من المقالع الحجرية الطبيعية المتوافرة في سلاسل الجبال المجاورة والتي وفرت مواد البناء وخاصةً الحجر البازلتي الأسود والحجر الكلسي، وبذلك كانت تقلع الحجارة من الصخور المنضدة فوق بعضها البعض بمقاييس وارتفاعات ثابتة ومتساوية ومتوازية مما سهل عملية القلع والنحت والتهذيب. وتكررت هذه الظاهرة كثيراً في السلاسل الجبلية الواقعة في شمال أفريقيا وخاصةً منطقة بني وليد في ليبيا حيث تتراوح السماكات لهذا التنضيد بين ٤٠ إلى ٥٠سم. وهذه السماكات تكون مثالية جداً لحجارة الأبنية التي تسهل وتسرع في بناء العديد من المدن الأثرية ومنها على سبيل المثال تجمع مدن دوقا وشيمتو وبيلارجيا في تونس، ومدن شرشال وتيبازا في جبال الأطلس الشمالي ومدن قالما وتيمقاد وتاديس وتيبسا في جبال الأوراس ولبدا الكبرى وطرابلس وصبراته في ليبيا.

ويعتبر السكن في هذه المنطقة قديماً جدّاً بحيث يعود إلى عصور ما قبل التاريخ وذلك حسب المعطيات الأثرية التي ظهرت في منطقة علما الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من مدينة كويكول حيث تتوافر المياه والينابيع الطبيعية وأشهرها نبع الأفعى أو ما يسمى عين الحنش. وقريب من الموقع يوجد منجم يعود لفترة ما قبل التاريخ تمت دراسته منهجياً بعد أن تم العثور على لُقى أثرية مصنعة من قبل الإنسان الذي كان يعيش في المنطقة، كما تبين من دراستها أنها الأدوات الأقدم من بين مخلفات الإنسان في دول المغرب العربي والتي أكدت على النشاطات البشرية في المنطقة لعشرات الآلاف من السنين، وساعد على ذلك توافر حجر الصوان بكثرة.

وشهدت المنطقة في الفترة الواقعة بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السادس للميلاد تمازجاً بشرياً بين المناطق الشمالية والداخلية في أقاليم تونس ومنطقة قفصة وأقاليم جبال الأوراس مما ولد حضارة صناعية ابتكرت العديد من الأدوات الزراعية والصناعية لمجتمع زراعي متطور في شمال أفريقيا وخاصةً القسم الغربي منه. وكانت مدينة كويكول جزءاً من ولاية تضم العديد من المدن ومنها مدينة سطيف حيث كانت تعرف عند الرومان القدماء باسم ولاية المحاربين الأقوياء الصلدين والمحنكين.

وتم تشييد المدينة الحديثة زمن الإمبراطور نيرفا Nerva في نهاية القرن الأول للميلاد ٩٦- ٩٧م كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة سطيف؛ بمعنى أنها المدينة المحمية من قبل الإله مارس، وكان

قسم من سكانها الأوائل من القبائل العربية الفينيقيــة التي جاءت مــن منطقة قرطاج، وفي العهد الإمبراطوري شــهدت المنطقة تمازجــاً شــعبياً تكــوّن من قبائــل عربية ولاتينية وأفريقية. وجاء تطوير الموقع على حساب قرية ريفية زراعية يحتضنها واديان موســميان تتوافر فيهما الميــاه على مدار الســنة تقريباً، كما تروي سهولها الزراعية حيــث كانت معظم المزروعــات عبارة عن حبوب بعلية وعلى رأســها القمح. ثم جاءت المدينة الحديثــة لتزدهر في القرن الثاني الميلادي على سفوح الوادي الكبير.

والجديــر بالذكــر أن هــذه المنطقــة كانت في مراحل زمنية ســابقة تشكل الحد الفاصل بين إقليم نوميديا وخاصةً في عهد الملك جوبا وولاية موريتانيا؛ ثم اســتمرت في الازدهار حتى العهد العربي الإســلامي وعرفت حين ذاك باســم جميلــة بدلاً من كويكول.

وبســبب الموقعيــن الطبوغرافــي والجغرافــي فقد أخــذت المدينة شــكلاً متطاولاً داخل ســور منيع وحصــين يحيط بها من جميع الجهات مما زاد في تحصينها الطبيعي المحضون بسلاسل الجبال. وكان الســور يمتد دائماً بشكلٍ متناظرٍ ومتوازٍ مع المحور الرئيس للمدينــة الذي أُخذ لاحقاً محور الشارع المركزي الكاردو ماكسيموس الــذي تحيط به الأبنية العامة مثل الســوق المركزيــة (الفــوروم) وهي المركــز الهام للحياة الاقتصــادية للمدينة، إضــافة إلى مبنى الإدارة المركزي الكابيتول.

وليــس بعيــداً عــن الموقع تم تشــييد مبنييــن آخرين كحمامــات مركزية وعامة للمدينة. وفي الموقع نفســه أيضــاً تم بناء مجلس المشيخة (السينا) في المدينة. وعند الزاوية الجنوبية الغربية من الســوق العامة (الفوروم) جاء موقع التقاطع بين الشارعين الرئيسين الكاردو ماكسيموس والدوكومانوس ماكســيموس وفي مركــز التصــالب لهذا التقاطــع تم بناء قوس تــذكاري فاخر على شــكل تترابيــل يجــاوره مباشــرةً المعبد المركزي للمدينة الذي يشــرف بدوره على ســاحة عامة ذات شــكل شبه منحرف. كما تم بناء مســرح مستند يتسع لحوالى خمسة آلاف متفرج.

وقــد اتســعت المدينــة وامتــدت في القــرن الثاني للميلاد، ثم اســتمر الامتداد طــوال القــرن الثالث وخاصــةً فــي عهد الأباطرة من الأســرة الســيفيرية نسبةً إلى الإمبراطور العربي ســبتيموس سيفيروس، وكان الامتــداد يأخذ دائمــاً محور الجنوب بســبب الموقع الطبيعــي للمدينة، وفي كل مرحلة من مراحل التوســع يتم تشييد مبنىً عاماً وهاماً ليكون منطلقاً للتوسع التنظيمي العام؛ وعلى ســبيل المثال فقد تم تشــييد

ساحة عامة وكبيرة، وبما أن هذا الموقع جاء خارج السور الجنوبي لذلك تمت إزالة مباني السور في هذه الجهة ليصبح الموقع بدوره حياً سكنياً حديثاً من أحياء المدينة التي ازدهرت بدورها في عهد الأباطرة من الأسرة الأنطونية. وإلى الغرب من هذا الموقع بنى الإمبراطور كراكلا قوساً تذكارياً ليكون رمزاً للنصر.

ولا بد من الإشارة إلى أن المدينة عرفت قمة ازدهارها في عهد الأسرة السيفيرية، خاصةً بعد بناء معبد رئيس لإله هذه الأسرة وعميدها الإمبراطور سبتيموس سيفيروس.

وقد تميز هذا البناء بانفتاحه على الساحة العامة للمدينة. وإلى الجنوب منه أيضاً تم بناء الحمامات العامة الكبرى. ونظراً لتزايد عدد السكان في المدينة فقد تم بناء حمامات عمومية أخرى إلى الجنوب منها، وبعد ذلك تم بناء قصر فخم على شرف الإله باخوس زينت أرضية الصالات فيه بأجمل وأبهى اللوحات الفسيفسائية لدرجة أنها كانت من أجمل اللوحات الفسيفسائية في مدن الإمبراطورية، وكان على رأس هذه اللوحات تلك التي أظهرت صورة باخوس والتي فرشت في الصالة المركزية؛ ولهذا السبب سمي القصر باسم منزل باخوس. وتم أيضاً تجميل شوارع المدينة الرئيسة بالأروقة المعمدة.

وقد أظهرت الحفريات الأثرية التي نفذت في المدينة بين أعوام ١٩٠٩-١٩٥٧م نتائج قيمة وضحت أهمية المدينة التي أصبحت من أهم المدن الأفريقية في العهد الإمبراطوري وخاصةً في شمال أفريقيا.

وكان أجمل ما في المدينة الأحياء السكنية التي بنيت بموجب منهج التنظيم العمراني الحديث في تلك الفترة والتي توافقت مع الموقعين الطبيعي والطبوغرافي، كما تميزت معظم مساكن المدينة بأبنيتها الفاخرة والتي فرشت جميع صالاتها باللوحات الفسيفسائية التي كانت تنفذ حسب تقسيمات المساكن بحيث كانت تراعى في التنفيذ المفاهيم الميثولوجية والنباتية والهندسية والبشرية والحيوانية وخاصةً الطيور وغيرها. وكان من أهم هذه اللوحات والتي عرفت على مستوى الإمبراطورية تلك التي عرفت بأسماء لوحات ديونيسوس وأنفتريت (أفروديت أفريقيا). والتي نفذت في أرضية منزل يقع بالقرب من السوق العامة (الفوروم).

كما ازدادت جمالية المدينة وأهميتها في العهد البيزنطي مع بناء الأحياء السكنية المسيحية في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة حيث شيدت في تلك الأحياء مبانٍ دينية مثل البازيليكات والمعمدانيات الدائرية والكنائس.

وهكـذا فبعـد أن كانـت المدينة التي عرفت باسم كويكول اللاتينية CVICVL قرية زراعية بسيطة تسكنها القبائل المحلية أصبحت في القرن الخامس للميلاد مدينة عالمية تسـكنها قبائل وشعوب من مختلف أصـقاع الإمبراطورية وعلى رأسها القبائل العربية وخاصـةً بعد أن أصـبحت المدينة تحت حكم الفندال Vandales مع التذكير بأن المدينة في العهد البيزنطي اشـتهرت كمدينة بيزنطية طوال ذلك العهد في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وفي القرون اللاحقة، إلا أنهـا ودعت عهدها البيزنطي سياسـياً منذ عام ٥٥٣م ذلك التاريخ الذي كان يمثـل المدينـة في المجمع الكنسـي الذي عقده في مدينة القسـطنطينية كبير أساقفتها، كما كان عليه الحال في الفترات السابقة حيث يحضـر المحافل في جميع المدن التي كانت تعقد فيها المجامع الكنسية ومنها على سبيل المثال مجمع مدينة قرطاج الذي شارك فيه أسقف المدينة بودانتيانوس Pudentianus. كما اسـتمرت الحياة في المدينة في الفترات اللاحقة والتي عرفت بفترة العهد العربي الإسلامي حيث عرفت المدينة في هذه الفترة باسـم جميلة، وفي فترات لاحقة تعرضـت المدينة إلى كوارث طبيعيةً أدت إلى تدمير وهدم معظم مبانيها الهامـة والكبـرى،إلا أن معالمهـا مازالت باقية تدل على عظمة تاريخ وحضـارة هذه المدينة.[٢]

مخطط المدينة: تميز مخطط المدينة باسـتطالته الممتدة بمحور شـمال/جنوب وحسـب الموقع الجغرافـي والطبوغرافي المحاذي لسلسلة الجبال المحاذية للمدينة حيـث كان الشـارع الرئيسـ هـو المحور المركزي لكل توسع، إلا أن الساكنين الأوائل للمدينة اختاروا فـي البداية منطقة النتوء الصخري المحضـون بين واديين عميقين تتوافر فيهما المياه طوال أيام السنة تقريباً ونسـبياً وهما وادي القرقـور Guergur ووادي بيتام Betame. كما تم اختيار موقع مساكنهم على قمة هضبة النتوء إلى الشمال الجنوبي من موقع السـوق العامة (الفوروم) وعلى مرتفعات الهضـبة. وقد تمخض عن ذلك قرية حصينة ومنيعة طبيعياً ومحصنة بالجبال والوديان المحيطة بها كما هو حال مدينة البتراء النبطية في الأردن.

كما يوجد في الجهة الجنوبية وادٍ عميق نسـبياً قام السكان لاحقاً بردمه والاستفادة منه ليكون موقع ساحة مفصلية في المدينة. وبالطبع فهذا الإجراء له ما يماثله في مدينة لبدا الكبـرى في ليبيا مدينـة الإمبراطور سبتيموس سيفيروس. وبما أن هذا التنفيذ جاء في عهد الأسـرة السيفيرية لذلك فقد أطلق على هذه السـاحة اسم ميدان الأسرة السـيفيرية؛ وهذا بالطبع دليل على انتشار هندسة بناء المدن في ذلك العهد في جميع بلاد الشام وتأثيرها على مدن الإمبراطورية وأقاليمها كافة.

وعلى الرغم من تحصين الموقع طبيعياً، إلا أن السكان كانوا وبشكلٍ دائم يحيطون المدينة بالأسوار الحصينة وفي كل مرحلة توسع للمخطط المعماري. كما كانت شبكة الشوارع والطرقات تنفذ بموجب متطلبات الموقع بحيث يكون تفرعها دائماً عن الشارع الرئيس يتخذ محور شمال/جنوب. وكانت هذه الشوارع مبلطة بشكلٍ دائم ببلاط حجري مهذب ومرصوف بدقة وبزوايا قائمة متقنة الالتصاق. وكان المنفذون يحرصون على تعامد وتصالب الشوارع مع بعضها البعض، كما كان الحرص الدائم هو التوافق مع جريان المياه والأقنية المنفذة تحت البلاط والموزعة على كامل أحياء المدينة.

وتكريماً للأسرة السيفيرية وخاصةً عائلة سيبتيموس سيفيروس فقد نصبت في الميدان تماثيل للأباطرة ومنهم يوليوس فيروس وماركوس أوريليوس، كما تم بناء بازيليك على شرف الأميرة جوليا، كما شيد قوس نصر على شرف الإمبراطور أنطونين. وقد بلغت المصروفات على تنفيذ البناء ماقيمته ١٥ ألف وحدة نقدية من فئة السيسترز، وكل ذلك كان على شرف وسعادة وثراء الإمبراطور أنطونين المسكين ١٣٨-١٦١م. الذي حرص على إغناء المدينة لتكون مشابهة للمدينة الأم قرطاج.

وقد تشكلت في المدينة طبقة برجوازية وصل قسم من أفرادها إلى عضوية مجلس الشيوخ في العاصمة روما، وقسم منهم استلم مناصب هامة في أقاليم الإمبراطورية مثل والي منطقة نوميديا، وشخصيات أخرى حكمت الولاية المصرية مثل كلوديوس أكيلا Claudius Aquila. وفي عهد الإمبراطور كومود تم بناء حمامات فاخرة في المدينة خاصةً بعد أن شهدت الفترة تحسناً تنظيمياً وتمَّ إغناؤها بالمساكن الفاخرة التي بنيت على حساب الأبنية القديمة ومنها قوس كركلا الذي نفذ من ضمن العديد من الأقواس التذكارية وأقواس النصر في المدينة، كما تم بناء معبد على شرف الأسرة السيفيرية عام ٢٢٩م وسبيل مياه (فونتين) على شرف ربة الينبوع وأروقة معمدة وأقنية مياه عذبة.

وفي العهد البيزنطي تم بناء العديد من الأبنية الدينية المسيحية مثل البازيليكات والكنائس والأديرة والمعمدانيات وصالات ومبانٍ مدنية وأسواق عامة جميلة توسعت في القرن الرابع الميلادي ومنها سوق الأساقفة الذي شيد بالقرب من قوس الإمبراطور كركلا، وبازيليك العدالة الذي شيد في عام ٣٦٤م والميدان العام الذي عرف باسم ميدان الفسيفساء ومباني البازيليكات ذات الأرضيات الفسيفسائية الفاخرة ومنها مجموعة بازيليكات الأساقفة إضافةً إلى أبنية أغنياء وأثرياء المدينة.[٣]

المعالم الأثرية في المدينة:

لدى الزائر للمدينة خياران فإما أن يذهب مباشرةً إلى مدخل البارك أو الغابة، وعند ذلك يكتشف آثار المدينة انطلاقاً من الساحة المسطحة والمنبسطة والمنظمة والممتدة أمام المنازل التي نفذت فيها الحفريات الأثرية، أو هناك خيار آخر وهو أن يأخذ وقتاً بعمل زيارة محيطية من خلال دورة كاملة حول المدينة، وفي الحقيقة تقدر هذه اللفة بمسافة ٥ , ١كم قبل الوصول إلى قلب المدينة بحيث يسلك الطريق القادم من مدينة سطيف ثم ينعطف شمالاً، عند ذلك يسلك طريقاً تم تنفيذه وسط الطبقات الصخرية المنضدة، وعند ذلك يجد نفسه في مكان يأخذ منه نظرة بانورامية لمشاهدة كامل أحياء المدينة الأثرية.

وفي أسفل منحدرات وادي القرقور حيث تنهمر المياه التي تروي البساتين والحقول الزراعية في المدينة الحديثة وتزود المدينة القديمة، من هناك ومن فوق النتوءات الصخرية وفوق الهضبة الجنوبية يكتشف الأبنية الأثرية القديمة، وتبدو هنا وبشكل واضح الأبنية السكنية، ومن هنا أيضاً يستطيع النظر شمالاً إلى التجمعات السكنية المحيطة بساحة الفوروم وقسم من الأبنية التي بنيت فوق المنحدرات، كما يكتشف فوق هذه الأرضية ومن خلال تراكم الحفريات الأثرية الأبنية المتنوعة التي يصعب تمييزها والتي بنيت جميعها بالارتفاع نفسه الذي أسست عليه تقريباً وبشكل نسبي.

كما تظهر الكتل البنائية الضخمة وخاصةً ضخامة بناء الكابيتول الواقع إلى الشمال من ساحة الفوروم، وفي الوسط يلتصق بناء الساحة السيفيرية، هذه الساحة المبلطة بدقة وإتقان وتشرف على المعبد الكبير. ومن جهة أخرى من هذه الجهات يظهر قوس كركلا الذي كان يمر من أسفله المارة جميعاً بما فيها حركة السير للمدينة وذلك عبر الطريق المؤدي إلى مدينة سطيف، ثم يعتلي وادي القرقور ثم يصل نبع الماء الرئيس، ومن هناك إلى قرية تيجولاتا.

وقليلاً إلى الجهة اليمنى نجد المساكن والأبنية الكنسية والبازيليكات المعمدة والمعمدانيات المرممة ومساكن الرهبان، ومن ثم مركز المدينة التي تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثاني والخامس للميلاد. ومن هنا نلاحظ التحولات التي مرت على النسيج العمراني للمدينة، ونكتشف في الوقت نفسه مدينة كويكول القديمة التي تحيط بها السلاسل الجبلية حيث تبلغ أعلى قممها ارتفاعاً يصل إلى ٩٢٣م، وفي الخلف ونحو الجهة الجنوبية الغربية نجد جبال عيشة بن زير، ونحو الجنوب وبعد وادي بيتام نجد جبل المهايا

الذي يبلغ ارتفاعه ١٢٣١متراً، ثم جبل ليثو الذي يبلغ ارتفاعه ١٢٤٨ متراً أيضاً.

ونلاحظ هنا أبنية المدينة التي فرشت على منتصف ارتفاع هذه التلال وعلى منحدر النبع وعلى حواف الحقول الزراعية للمزروعات البعلية وخاصةً القمح، ونحو الجهة الشرقية تنحدر تلة نحو طرقات تؤدي إلى قرى أخرى ثم إلى مدينة قسنطينة.

ومن أجل الدخول إلى المدينة القديمة يجب اختيار المدخل الرئيس لها، ومن هنا نجد كتلتين بنائيتين معماريتين ضخمتين وحصينتين مبنيتين من كتل حجرية يتخللهما معبر تحيط به التحصينات، إلا أن هذا المعبر يبدو عليه حجمه الصغير والضيق. وقد ارتبط بدوره مع الأبنية المحيطة بقوسين ينطلقان من أسفل البناء. وقد سجل فوق المدخل شاخصة رقمية لتكون دليلاً على بداية المقاييس الألفية التي تظهر المسافات وبدايات المسافات للطرقات الخارجية التي تربط المدينة بالمدن الأخرى. وقد نقشت هنا خلال فترات حكم الأباطرة كركلا وسيفير ألكسندر والأباطرة الذين جاؤوا بعدهم.

وهذا المدخل الأثري وكل ما تبقى منه تعود جميعها إلى القرن الثالث الميلادي بما فيها بناء السور والتحصينات المجاورة التي فقدت معظم عناصرها، إلا أن محور المدخل نجده مميزاً بوضوح بفضل الرواق الشمالي للمدخل الذي يعود إلى فترة الأسرة السيفيرية والذي بني على محوره السابق نفسه.

ومع مدخل المدينة يبدأ شارع الكاردو ماكسيمور الرئيس والكبير في المدينة حيث كان يبلغ عرضه في إحدى الفترات التاريخية للمدينة تسعة أمتار، ويستمر بشكلٍ مستقيم حتى القوس المجاور لساحة الفوروم، ومن هنا وبعد ذلك ينحرف المحور قليلاً جهة الشمال، كما أن بلاط الشارع يتميز في هذه المنطقة بالميول والانحراف بالمقارنة مع المحور الرئيس الذي يحدد مسار قناة الماء التي تتوسط الشارع. وهذه الظاهرة تتكرر في الشارع الرئيس في مدينة بصرى جنوب سورية. وفي كل طرف من أطراف الشارع توجد الأروقة التي كانت في البداية عبارة عن سطوح تضليل للأرصفة وتحمل فوقها شرفات المنازل الطابقية.[٤]

وعلى الطرف الأيمن من خلفية السور يمتد المنزل المشهور باسم كاستوريوس Castorlus وذلك بسبب وجود نص كتابي نفذ في لوحة فسيفسائية وجدت في الموقع، ويبدو أن هذه الأرضية تعود إلى القرن الثاني للميلاد، وهذا المنزل كان مكرساً للسيد: Duumvir Lucius Claudius Brutto دومفير لوسيوس كلوديوس بروتو، وهذا دليل على أن التكريس خصص بمناسبة النصر وبموجبه نقشت الوثيقة فوق أحد مداخل المدينة.

وتبلغ المساحة الكاملة لهذا الموقع ١٦٠٠م٢ تقريباً، ومن جهةٍ أخرى نجد أن كامل الحيز المكاني الواقع بين شارع الكاردو وأول شارع متوازٍ معه من الشرق مشغول بالمساكن الخاصة، وكما هو الحال بالنسبة للمنازل الكبرى نجد أن هذه المنازل انتظمت حول حيز مكاني مفتوح مركزياً وتحيط به أروقة من الجهات الأربعة، وتشرف على هذه الساحة المعمدة حجرات المساكن التي تتبع لساكن البيت، ومن بين هذه المساكن توجد الحجرة الكبيرة المخصصة للطعام، كما يستند على البناء السور ومباني الحمامات الخاصة.

وبالاتجاه نحو الجنوب يوجد شارع فرعي صغير يصل إلى الشارع الكبير، وهناك تم بناء معبد على شكل رباعي متطاول بطول ٢٤,٦٠م ×١١م عرضاً، وتحيط به أروقة داخلية. وفي المركز نفذت الدكة التي يتقدمها درج بني من إحدى عشرة درجة من الرخام، وتتوسطه في الأعلى جبهة من أربعة أعمدة تزين واجهة

الدكة، وجميعها بما فيها الدكة لم يبقَ منها سوى التأسيس. كما أن الدكة تتقدم صالة التعبد (cella -السيلا) التي تحوي بين جنباتها تمثال الإله المكرس له المعبد.

وليس بعيداً عن ذلك شمالاً يوجد معبد آخر للمدينة ينفتح على شارع الكاردو والشارع الموازي الذي يقود ويسير وسط محور ساحة الفوروم، ومع متابعة المسير نجد العديد من المباني العامة والخاصة، ومنها حمامات خاصة حوت صالات كبيرة ومتنوعة خصصت لتكون صالات ساخنة وفاترة وباردة إضافة إلى مسبح مكشوف، وجميعها تعود إلى مالك خاص للبيت الذي تعود له الحمامات، وهذا المبنى التصق مع معبد ديني تزين أرضياته مجموعة من اللوحات الفسيفسائية وكان أجملها تلك التي تزين أرضيات حمامات المعبد والتي نفذت على المنهج نفسه الذي وجد في منزل كاستوريوس Castorius. وفي الموقع أيضاً نجد كثافة معمارية لأبنية متنوعة مثل سبيل مياه جميل ومزين بالواجهات الفاخرة، كما فرشت جميع أرضياته باللوحات المتنوعة وخاصةً اللوحات الفسيفسائية الجميلة ومنها لوحة النصر للمعبودة فينوس.(٥)

ومن الجهة الأخرى من الشارع الكبير وفي الاتجاه غرباً توجد أيضاً مساكن خاصة معظمها في حالة انهيار بسبب بنائها على المنحدر الجبلي، وقد تميزت هذه المباني بتزيين جدرانها الداخلية بلوحات الفريسكات الجدارية الجميلة والتي تحتوي على رسوم ذات بواعث متنوعة تدل على غنى وثراء أصحاب البيوت والبذخ في الرسوم الآدمية والحيوانية والنباتية والهندسية والميثولوجية، كما أنها بنيت بشكل متعدد الطوابق.

وتستمر المساكن في الموقع حيث

توسع قسم منها على امتداد شارع الكاردو ماكسيموس، وتخلل هذه المساكن مبانٍ دينية من بازيليك مسيحي يبلغ طوله ٢٤م وعرض الواجهة ٢٠م، ويتقلص نحو جهة الصدر الشرقي المكون من ثلاثة منحنيات مفصولة بين بعضها البعض بأعمدة داخلية، كما جاء بناء الصدر مرتفعاً بالمقارنة مع الأقسام الأخرى وأرضية الصالة المركزية، وقد زود المبنى بالمنافذ، وخصص قسم منه ليحتوي على رفات القديسين، وهذا يذكرنا بكنيسة الخضر في مدينة إزرع جنوب سورية.

وفي الموقع أيضاً وعلى مسافة غير بعيدة بنيت الأقبية السفلية والأبنية الخدمية المتعددة والتي نفذت جميعها أسفل الأرض. وبشكلٍ عام فقد زينت المنطقة بالعديد من الأعمدة التزيينية والواجهات المعمدة والتي نفذت جميعها على النمط الكورنثي، وكذلك المداخل الجميلة التي تفتح على الأبنية العامة من معابد ومبانٍ دينية وبازيليكات وسبل مياه ومساكن خاصة بنيت على طراز الأبنية التقليدية في شمال أفريقيا.

المعبد: خصص المعبد للعبادة التقليدية في المدينة ونفذ على شكل شبه منحرف وساحة مغلقة من الداخل ومحاطة بنظام الأروقة المعمدة، وهو بذلك يتبع نظام المعابد السورية مثل معبد بل في تدمر وجوبيتير في دمشق ومعابد بعل شامين في حصن سليمان وبعلبك وبشكلٍ خاص معبد سيع بالقرب من مدينة قنوات جنوب سورية وغيرها الكثير الكثير، إلا أن أعمدة الأروقة المعمدة بنيت من ثلاث جهات فقط. وفي وسط الساحة الداخلية كانت تجري مراسم العبادة الدينية التي تقدم فيها القرابين والأضاحي للآلهة. كما نلاحظ هنا أن نصب الأعمدة لم يتم توظيفه في الأروقة فقط، وإنما تمَّ توظيفه أيضاً في بعض أقسام المعبد المختلفة وبشكل واضح، كما نلاحظ أن الأعمدة نفذت بتنوعات مختلفة ومتعددة الأنماط والطرز وذلك بالمقارنة مع أعمدة الواجهة حيث جاءت مختلفة كلياً عن الأعمدة الموظفة في مبنى الشيك chic فوق دكة البوديوم podium.

وقد شهد البناء العديد من عمليات الترميم والتحسين والتوسعة في القرن الرابع وخاصةً في بناء الصالة المقدسة بروناوس pronaos. وقد نفذ في الجدار الشرقي مدخلان يفتحان على الساحة مباشرةً ويشرفان في الوقت نفسه على الشارع الموازي للشارع الرئيس الكاردو ماكسيموس والمار وسط ساحة الفوروم والذي يربط بينها وبين سور المدينة ويمر في الوقت نفسه أسفل قوس النصر.

السوق العامة (الفوروم):

يقع في مركز المدينة السياسي؛ بمعنى أنه يلعب دور المحور المركزي

للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية للمدينة القديمة والتي احتلت مرتبة المستعمرة الرومانية colonie في العهد الإمبراطوري وأصبحت تتمتع بالاستقلال الذاتي الممنوح لها من قبل العاصمة روما. وبذلك يكون هذا الموقع بمثابة نموذج مصغر عن الفوروم في العاصمة روما.

وكما هو الحال في المدن الكبرى أيضاً فقد كان على رأس المستعمرة شخصيتان تلعبان الدور المركزي في المدينة إحداهما بمرتبة الماجستر (السيناتور أو الشيخ) وهو مركز duoviri-، ثم هناك شيخ المجلس البلدي.

إضافةً إلى ذلك هناك مجلس الشيوخ في المدينة (الكوري curie) وكل شخص من الأعضاء يسمى ديكوريون decurions. وحتى يصل الشخص إلى هذا المنصب فعليه دفع مبالغ كبيرة من المال، وهذا يعني أنه أحد الأغنياء أو من أفراد الطبقة البرجوازية في المدينة، ويتربع على هذا المنصب لمدة خمس سنوات، ثم يتم استبداله بشخصية أخرى من الشخصيات التي يتكون منها مجلس يعرف باسم sena أو album وكل شخصية من هذه الشخصيات أو كل عضو من هؤلاء الأعضاء يتمتع بحصانة وحماية خاصتين.

ثم هناك مجلس يضم شخصيات تعرف باسم الدومفيرduumvirs ومجلس آخر إلى جانبه يعرف باسم مجلس المكلفين les ediles بمعنى الأعضاء المكلفين بالمهام المعمارية والبناء والأمن وتوابعها. ثم مجلس المراقبين questeurs وهم الشخصيات المكلفة بمراقبة ومحاسبة المسؤولين الكبار في السلطة وخاصة الشيوخ، وبذلك فهم يلعبون دوراً هاماً في الحياة السياسية والإدارية والدينية في المدينة والمنطقة وعلى مستوى الإمبراطورية، ويعرفون أيضاً باسم sacerdotes أو slamines.[٦]

وبشكلٍ دائم يكون مركز الاجتماعات والمناقشات في ميدان الفوروم الذي كان عبارة عن ساحة مغلقة من جميع الجهات ومعزولة عن حركة السير والمواصلات، ويعرف على أنه ساحة معزولة (pietonniere). وبالطبع فهذا المكان يجب أن يبقى دائماً بشكل يليق بالشخصيات العليا التي تتواجد فيه بما فيها الإمبراطور، ولذلك يعتبر المكان رمزاً للفخامة والترف والعقيدة، ومركزاً لنصب التماثيل والنصب التذكارية.

وكان الفوروم في مدينة كويكول عبارة عن ساحة مبلطة بشكلٍ رباعي بمقاييس ٤٤×٤٨م، ومحاطاً بأروقةٍ من جهتين فقط هما الجنوبية والشرقية. وتوجد هنا أروقة مسقوفة تجاوره من الجهة الغربية وتتبع مبنى البازيليك. ويشرف على هذا الموقع

من الجهة الشمالية مبنى الكابيتول، وعلى الرواق الشرقي توجد صفوف من الركائز وصالة الاجتماعات لأعضاء مجلس المدينة الكوري curie.

والموقع بشكلٍ عام مزدحم بالأبنية العامة والخدمية والموثقة جميعها بالشواهد والنصوص المنقوشة على الحجارة والتي تشير إلى الأباطرة الذين حكموا في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني والرابع للميلاد منذ فترة الإمبراطور هادريان إلى الإمبراطور جوليان. وتشير هذه النصوص أيضاً إلى بعض الآلهة المختلفة مثل جوبيتير ومارس وهيركول وفورتين وجيني، كما تشير إلى سكان مدينة كويكول وبعض الشخصيات الهامة في الولاية وأعضاء المجالس والحكومة والولاة.(٧)

وفي وسط المكان شيد مبنى خصص لتقديس وتقديم القرابين عرف باسم autel أو معبد الأضاحي ويتم فيه إشعال المشاعل تخليداً للشهداء، وقد عرض في المكان دلائل وشواهد تدل على جميع الأضاحي التي كانت تقدم أثناء المراسم التي تحيي ذكرى الشهداء من حيوانات وطيور، إضافة إلى التراتيل والأناشيد المتعددة. كما يوجد في المكان درج يصعد إلى مبنى الكابيتول حيث نجد هناك معبداً خصص للإله الحامي للمدينة.

ومن بين الشواهد مشهد منحوت على لوحة صخرية تظهر فيه الشعلة المنفذة على نصب حجري رباعي ضخم ومنحوت برشاقة وزوايا قائمة، وإلى جانبه إناء لسكب الوقود على الشعلة، وفي أعلى الشعلة نحت إطار يحتضن في داخله مجموعة من الدوائر المتتالية ويخرج منه سهم مروس ومعكوف من الجهتين بشكل يشبه رأس وقرون الكبش، ومن الجانب الآخر من نصب الشعلة يوجد ثور ضخم مطأطئ الرأس، بينما يقف الجزار وهو يرفع الساطور لقطع رأس الثور من الرقبة. وفي أسفل المشهد صورة خروف سمين وممتلئ يقابله طير مجنح بالحجم نفسه تقريباً. وتعرف هذه اللوحة باسم مشهد الأضحية.

ولم يبقَ من مبنى الكابيتول سوى بعض التراكمات من أعمدة وتيجان وعناصر بنائية متعددة تعود إلى واجهة المبنى ذات العرض ١٧،٦٠م وستة أعمدة كورنثية ارتفاع كل عمود ١٦م وقطره ١،٥م، وكانت هذه الأعمدة جزءاً من واجهة مثلثية الشكل، كلاسيكية النمط الكورنثي وتتقدم صالة القداس سيلا cella التي بنيت على شكل مستطيل مقسوم من الداخل على شكل بهو ثلاثي الأجنحة، ويتقدم كل جناح تمثال، ومن بينها تمثال الإله جوبيتير الذي وجد في المكان نفسه. ويتبين من ذلك أن موقع الفوروم مر بمراحل زمنية ومعمارية مختلفة ومتعددة ومتنوعة، كما أن الأبنية

كانت متعـــددة الأغراض تبعاً للمراحل التي مرّ بها الموقع طوال القرن الثاني للميلاد.

مبنـــى البازيليك: وإلى الجهـــة الغربية من الفـــوروم بنيـــت صـــالة المحكمة التي كانـــت تعرف باســـم مبنـــى البازيليـــكا أو بازيليك جوليا، وجاء البناء على شكل صالة مستطيلة ممتدة على طول ٣٨م وعرض ١٤م تنتهي جنوباً بدكة مرتفعة غنية بالديكورات التزيينية، وارتفعت فوقها ركائز نصبت عليها تماثيل مخصصـــة للعديد من الشخصيات الهامة مثل الأباطرة مارك أوريل ولوسيوس فيروس، كما نقشـــت النصـــوص التذكارية التي تخلد هذه الشخصـــيات، ومنها النص التالي: (بني على شرف الإمبراطور القيصر ماركوســـ أوريليوس أنطونيوس أوغســـطس المنتصـــر على الشعوب الأرمينية والميدية والبارثية، والرجل العظيم الذي قاد الجيوش والفرق العسكرية، والذي نصب على عرش الإمبراطوريـــة ثـــلاث فتـــرات وكان ســـيد الوطن). وهذا من بين العديد من النصوص التـــي كتبت لمثـــل هذه الشخصـــيات. كما يوجد نص كتابي يشير إلى الأخوين كوزينوس وكيوســـ اللذيـــن تبرعا بمبلـــغ ثلاثين ألف وحدة نقدية من نموذج السيســـتر الروماني لبناء العديد من الأبنية العامة في المدينة.

الســـوق العامـــة: بنيت فـــوق حيز مكاني بمســـاحة ٢٨×٢٢م وتحتضـــن ١٨ محـــلاً تجارياً رباعية الأشـــكال، ولها مدخل كبير ومزيـــن بمنحوتـــات جميلـــة. وجميع هذه الحوانيـــت تشـــرف على زقاق كان ســـابقاً مسقوفاً ويشرف على رابية معمدة تتقدمها جبهة كلاســـيكية مع أرشتراف على النمط الكورنثي، وفي الوسط ساحة مكشوفة يوجد في وسطها مشهد تذكاري ومنضدة مقاييس وتحديد الأوزان إضـــافة إلى الأدوات التي كانت تستعمل للبيع والشراء. وبالمتابعة في الشارع الكبير نجد بناءً مخصصاً للمعبودة أوروبا زيـــن بالأعمدة والأروقة على الطراز الكورنثي إضـــافة إلى ركائـــز ترتفع فوقها واجهة مبنية من حجارة منحوتة بشكلٍ جيد، كمـــا زينت الأرضـــية بلوحات فسيفســـائية جميلة منها لوحة اختطاف أوروبا من الإله زيوس حيث تم تقديمها إلى ذلك الإله.

وقـــد أظهرت الحفريـــات أن البناء كان عبارة عـــن مبنى ضـــخم ورباعي الشـــكل بمقاييســـ ٥٥×٢٨م، ويجاوره سلســـلة من الحوانيـــت والصـــالات التي تشـــرف على فسحة داخلية.

وقـــد نفـــذت الأدراج الحجرية من أجل تسوية المرتفعات الطبيعية مع الموقع وصل الصالات بعضها ببعض حيث كان قسم منها مخصصاً للاســـتقبال. ثم هناك قسم آخر من الأدراج يؤدي إلى ســـوق علوية طابقية، وقســـم منها يقـــود إلى الحمامـــات العامة وإلى الصـــالات الباردة والدافئة والساخنة وصالات الاستقبال والمسبح المكشوف.

وجميع هذه العناصر البنائية مبنية بشكلٍ منتظم مع توظيف أعمدة كبيرة وشاهقةً في الارتفاع، كما فرشت الأرضيات بلوحات فسيفسائية جميلة منها لوحة تخلد المعبودة أوروبا وجدت في الصالة الشرقية من المبنى حيث تظهر أوروبا وهي تمتطي جواداً ضخماً تعبيراً عن زيوس الذي اختطفها وهرب بها إلى البر الآخر من الجهة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، ويحيط بهذا المشهد العديد من الحيتان والأسماك البحرية الكبيرة والمتنوعة، وفي أعلى اللوحة وفوق المشهد تطير الملائكة الصغار بوتي لتبارك هذا الزفاف. وكذلك لوحات جدارية من الفريسكات النادرة، كما زودت الجدران بشبكة من القساطل المخفية داخل الجدران لتوزيع المياه الساخنة والباردة إلى جميع الصالات. وبالقرب من المكان بني منزل أنفتريت الذي كان أجمل ما يحتويه لوحة الفسيفساء المعروضة في متحف المدينة لهذه المعبودة.

معبد مكرس للعائلة السيفيرية:

استند البناء على منحدر طبيعي كان يشرف على المدينة القديمة، وفي مقدمة المرتفع تم نحت درج يصعد إلى الأعلى حيث توجد مسطبة على شكل تراس؛ وهنا كانت تقدم الأضاحي والنذر والهبات والتبرعات والهدايا. ويحيط بهذه المسطبة يميناً وشمالاً أروقة مسقوفة وسلسلة من الحوانيت التي تتقدمها صفوف من الأعمدة الجميلة وخاصةً أعمدة واجهة المعبد المكونة من أربعة أعمدة ارتفاع كل واحد منها ٨،٥م تحمل فوقها جبهة مثلثية بطراز كلاسيكي على النمط الكورنثي يليها من الداخل الصالة المقدسة بروناوس pronaos يليها أيضاً صالة السيلا cella التي تحتضن التماثيل.

كما يوجد في المكان نص كتابي يشير إلى العائلة السيفيرية وإلى المعبد الذي بني في عام ٢٢م من قبل جمعية قرية كويكول لهذه العائلة. وإلى جانب هذا المعبد من الجهة الغربية يوجد معبد كبير (سانكتوير) sanctaire مكرس لإله أفريقيا الكبير ساتور فروجيتير Sature Frugiter حيث يعتبر هذا الإله مانح الخيرات والمحاصيل الغنية إلى البلاد والقارة بكاملها. وبين أعوام ٣٦٤-٣٦٧م تم بناء بازيليك مدني في الموقع بطول ٣٦م وعرض ١٤م تتقدمه دكة مرتفعة في الصدر.

وليس بعيداً عن القوس توجد صالة مستطيلة ضمن فسحة رباعية الشكل مع صدر خصص ليكون سوقاً عامة لبائعي الصوف والندافين. وفي الموقع المتقدم ينطلق طريق يؤدي إلى مدينة سطيف، وفي هذا المكان بنيت العديد من الأبنية الشعبية مثل الحمامات وبازيليك وأبنية خدمية مزينة بالأعمدة وسبيل مياه خصص إلى نمفة.

وليس بعيداً عن الساحة السيفيرية والمعبد من الجهة الجنوبية الغربية نفذ شارع مبلط يمتد نحو المنحدر الجنوبي. وهنا نشاهد في طرفيه الأيمن والأيسر بقايا أبنية أثرية يصعب تحديد هوية معظمها لشدة الخراب والدمار الذي لحق بها، إلا أنه تم تمييز بعضها بعد الحفريات الأثرية التي نفذت في الموقع ومنها منازل خاصة وحوض سباحة مستدير ومكشوف وسبيل مياه (منهل عام) وكان الغرض من ذلك الاستفادة من المياه القادمة من الجبل على امتداد المنحدر.

كما بني في الموقع نفسه وقليلاً إلى الأعلى كتلة معمارية كبيرة خصصت لتكون الحمامات الكبرى الجنوبية للمدينة في عهد الإمبراطور كومود. وجاء بناؤها بشكلٍ جيد ومنتظم بحيث تطابق مع المنهج التنظيمي والعمراني للمدينة بمحور شرق/غرب. وقد تميزت هذه الحمامات بوجود حوضين مستديرين ومتسعين للسباحة المكشوفة إضافة إلى الصالات المتعددة للاستحمام وصالات للرياضة وألعاب القوى.

وبالطبع فقد قسمت الصالات إلى فاترة ودافئة وساخنة وصالة استقبال ودورات مياه ومراجل للتسخين وشبكات توزيع المياه... إلخ.

وتتميز المنطقة الجنوبية من المدينة بكثافة الأبنية الدينية الكنسية المكونة من كنائس وأديرة ومعمدانيات وتوابعها تتخللها العديد من أحواض المياه والمباني الخدمية التي بنيت على كامل امتداد المنحدر المحاذي لها بما فيها المساكن الخاصة. وقد تمركزت جميعها على جانبي الطريق المؤدي إلى مدينة قسنطينة. كما تميزت هذه الأبنية بغناها باللوحات الفسيفسائية ذات البواعث الميثولوجية والطبيعية والهندسية والحيوانية والبشرية.

المسرح:

استند بناء المسرح على منحدر صخري وخاصة مبنى المتفرجين (الكافيئا) المكون من قسمين، وكل قسم نفذ من صفوف عدة بحيث يبلغ ارتفاع القسم السفلي ٩م والعلوي يصل إلى ١٥م، وهذه الأقسام تتخللها خمسة أدراج شعاعية لتسهيل حركة المرور للمتفرجين الذين يتواجدون في المسرح والذين يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة آلاف متفرج وذلك حسب درجة الازدحام. وهذه الأدراج تستمر باستقامة بشكلها الشعاعي من الأسفل إلى الأعلى.

ويفصل قسمي المسرح ساحة الأوركسترا نصف الدائرية وقد نفذ في القسم الدائري المتقدم والمحاذي إلى واجهة الكافيئا السفلية ثلاثة مستويات يرتفع كل واحد عن الآخر ٢٠سم. وقد خصصت هذه المستويات لوضع مقاعد خشبية متحركة ومخصصة للشخصيات الاعتبارية في المدينة والولاية وغيرهما.

وتتقدم هذه الصفوف ساحة على شكل مسطبة منبسطة تستمر حتى واجهة المنصة السفلية حيث نفذ درج يؤدي إلى أستراد المنصة، وقد بلطت ببلاط حجري مهذب وأملس بشكل فائق الجودة.

أما بخصوص مبنى المنصة فقد جاء بشكل مستطيل بطول ٣٣،٨٠م وعرض ٦م. وكانت المنصة مسقوفة من الأعلى بألواح خشبية. ويرتفع صدر المنصة مزيناً بالمحاريب والكوى والمنحنيات وثلاثة نياشين عميقة تحيط بمنحنى مركزي أوسط، بينما الأطراف فقد نفذت بشكل مسطح، وكل كوة أو محراب يأوي في داخلة تمثال، أمَّا الأقسام السفلية من الواجهة فقد حوت ثلاثة مداخل من أجل دخول الممثلين تفصل بين بهو الكواليس وخشبة المسرح. كما زينت واجهة المنصة بكاملها بمنظومة من الأعمدة التي نصبت على ركائز تتقدم واجهة المنصة العليا، وخلف هذه الواجهة يوجد رواق مرتفع بالمقارنة مع مستوى الشارع المجاور قسم من الداخل إلى طابقين السفلي خصص للممثلين والعلوي للخدمات المختلفة. ويبلغ الطول الكامل للمنصة ٦٠م.

وهكذا نلاحظ أن مدينة مثل مدينة جميلة القديمة كويكول كانت نموذجاً للتطور المعماري والتسلسل الحضاري لمدن شمال أفريقيا خلال تاريخها الطويل؛ ونجد هنا التنوع في الأبنية العامة والخدمية التي عبرت تعبيراً صادقاً عن الحضارات العربية والهلينية والهلّينستية والبيزنطية والإسلامية وعلى رأسها وعبر تاريخها حضارة البحر الأبيض المتوسط. وكل ذلك شكل نسيجاً معمارياً عالمياً موحداً في مدينة نموذجية واحدة استطاع أهلها التوفيق بين جميع هذه المعطيات البشرية والطبيعية والموقع الطبوغرافي والجغرافي والموارد الاقتصادية وغيرها، وزاد كل ذلك التوفيق في التمازج البشري لعناصر بشرية جاءت من جميع مناطق العالم بجميع مستوياتها المدنية والعسكرية والإدارية والعقيدية والثقافية والعرقية.

المتحف:

بني المتحف في منطقة أثرية غنية بالأشجار الكثيفة والغنية بأعشاش العصافير والطيور المتنوعة. وفي هذا الموقع تعرض الآثار الملتقطة والمكتشفة في المدينة والمنطقة أهمها اللوحات الفسيفسائية بجميع مفاهيمها الميثولوجية والهندسية والنباتية والبشرية والحيوانية وغيرها وهي كانت عبارة عن تعبير صادق عن مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقيدية والثقافية المزدهرة في المنطقة في القرون الأولى للميلاد، حيث استفادت المدينة وسكانها من هذا الرخاء والرفاهية الاقتصادية والوفرة المالية.[٨] كما تعرض

في المتحف النصب والهياكل والشواهد الكتابية والنصوص التكريمية والتماثيل والمنحوتات المتنوعة، وأهم ما نشاهده في المتحف نصب الإله ساتورن Saturne المعبود الأكبر في القارة الأفريقية الذي يماثله جوبيتير/ زيوس عند الشعوب الغربية أو بعل شامين/ بل عند عرب بلاد الشام.

وظهر النصب على شكل مشهد مؤلف من ثلاثة حقول منحوتة فوق صخرة كبيرة محاطة بإطارات وحقول نقشت فوقها نصوص كتابية تشيد بهذا المعبود والهبات وغيرها. وقد اعتلى ساتور الحقل العلوي بحيث ظهر على شكل رجل ضخم كثيف الشعر في الذقن والشوارب والرأس ومكلل من الأعلى بوشاح من النسيج الفخم. وفي الحقل الأوسط سلسلة من أربع شخصيات من المؤمنين والتابعين والمعتقدين بديانته ظهروا جميعاً باللباس الأفريقي التقليدي وفي أسفل المشهد نموذج من الأضاحي على شكل ثور فحل وضخم وممتلئ الجسم. وقد تم تقديم هذا النصب كهدية من الفنانين والحرفيين والنحاتين المحليين كرمز للقوة والشجاعة والعظمة لهذا الشخص الرمز لجميع المعاني والظواهر الخارقة وكدليل على عمق الإيمان لدى المعتقدين.

ويتبع إلى هذا المشهد نصب يمثل سبع شخصيات من الذكور وسبع شخصيات من الإناث إضافةً إلى شخصيات لكبار المعتقدين هم وأولادهم. وقد تكررت نماذج كثيرة لهذه المعبودات بحيث ظهرت أحياناً على أشكال رؤوس بشرية إلى جانب قرص الشمس، أو على شكل رأس بشري مكلل بتاج يعلو الرأس، أو رأس لحيوان ضخم متواتر ومعروف في المنطقة، أو ثعبان كبير محاط بقرص الشمس أو القمر، أو شخصيات من الجان والعفاريت على شكل الملائكة.

كما عرضت تماثيل عملاقة لشخصيات إمبراطورية مثل سبتيموس سيفيروس وجوليا دومنا ولوحات فسيفسائية منها لوحة تواليت فينوس – ولوحة أندروميدي – ولوحة أورفيه – ولوحة أنفتريت – ولوحة بوسيدون – ولوحة نبتون ولوحات تعبيرية مثل لوحة آخيل البطل الأسطوري لحرب طروادة والذي عرضت شخصيته على كامل النماذج الفنية من فسيفساء ومنحوتات وفخاريات ومجوهرات...إلخ.

كما تعددت كتابات التكريس التي كان من بينها نص يشير إلى تقدمة من أغسطس إلى الإله ساتور، وكذلك الأضحية المقدمة من كالبونيوس موستيوتوس Calpurnius Musteotus وكذلك نص يشير إلى هبة مقدمة من هذه الشخصيات إلى ابنهم كالبونيوس ماكسيموس Calpurnius Maximus مرفقاً بمحبتهم وصدق إيمانهم. ونص مقدم من أهل كويكول تعبيراً عن محبتهم وإخلاصهم إلى ساتورن.

وتدل الأعمال المقدمة من المنحوتات بأن المدينة كانت غنية بمجموعة من مشاهير النحاتين في العالم ومدرسة لتعليم فنون النحت فوق الحجارة بجميع أصنافها. كما عرض في المتحف نماذج جيدة من الفخاريات وخاصةً الفخار المطلي نموذج A - B - C- D والزجاجيات بكامل أنواعها وخاصةً تلك التي أعطت تسلسلاً تاريخياً جيداً لهذه الصناعات المحلية وخاصةً السيراميك الشفاف واللامع والذي يعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الأول والخامس الميلاديين.

وبالمحصلة يعتبر متحف المدينة من أغنى المتاحف وخاصةً في المعروضات الفسيفسائية والمنحوتات المختلفة التي تدل على أن الفنانين كانوا يتبعون إلى مدرسة انضمت إلى مدرسة قرطاج وكلاهما كانتا انعكاساً للمدارس الأم في سورية مثل مدارس أفاميا- أنطاكيا- بصرى- شهبا - حماة - تدمر... إلخ.

وهذا دليل أكيد على أن منطقة غنية بالمدن الأثرية مثل جميلة /كويكول، سطيف وقسنطينة وبني فودا وغيرها والتي تعرف بمنطقة وادي الذهب كانت نموذجاً للفن الرفيع بجميع أصنافه، وهذا الفن الذي ينبثق من روح مليئة بحرية التعبير والابتكار قدمت نظريات ومناهج للمدارس الكلاسيكية القديمة والتي تم البحث عنها في أماكن أخرى من العالم والسعي لمعرفة التقارب بينها في توحيد النماذج والأنماط التي تقود بالنتيجة إلى ترافق الذوق الفني والإتقان في العمل والذكاء الخارق وقوة التنفيذ. وكل ذلك جاء مترافقاً مع الإيمان الصادق بالمعتقدات الميثولوجية التي كانت منتشرة في جميع أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط في العهد الإمبراطوري.

لذلك ظهرت المبالغة في تشييد الأبنية في المدينة وخارج الأسوار أيضاً، وقد انعكس هذا البذخ على الأبنية العامة وخاصةً الحمامات الجنوبية والمسرح نصف الدائري وساحة الأسرة السيفيرية التي أحيطت بها الأبنية العامة والمعابد والقصور وأهمها معبد الأسرة السيفيرية وقوس كركلا ونوافير وسبل المياه والأروقة والدهاليز المتنوعة وكذلك السوق العامة التي بناها الأخوان كوزيني Cosinii كهدية لسكان المدينة والمواطنين بفئاتهم الاجتماعية كافة؛ حيث بنيت الحوانيت حول فناء فاخر على شكل مزدوج مزودة بالأروقة ومزينة أرضياتها باللوحات الفسيفسائية المتعددة، كما ظهر ذلك في قصر باخوس ومباني التعميد المسيحية. كما ولد الرخاء الاقتصادي طبقة برجوازية غنية.

الهوامش

١- كان المرتكز الأساسي لهذا البحث الزيارة الميدانية التي قمت بها للمدينة في صيف عام ١٩٩٦م حيث تمت دراسة العديد من المواقع الأثرية وعلى رأسها مسرح المدينة واللوحات الفسيفسائية إضافة إلى التنظيم العام للمدينة في العهد الإمبراطوري، وبهذه المناسبة نشكر جميع العاملين في المدينة لما قدموه من مساعدات مشكورة.

2- Guy Rachet. Dictionnaire de l,archeology. Paris. 1983. pp 282293-.

3- Allais.Y. Djemila. Paris,1938.

4- Belles.A. Les ruines de Djemila (antique Cuicul). Alger 1921.

5- St.Gsell. Atlas archeologique de l,Algerie. Paris, 1921. Feuille 16,no 233, p, 1316- dans B.A.C, 1917.

6- Lesche.L. Etudes d,epigraohie d,archeology et histoire africaines. Paris. 1957. p. 164 – 167.

7- Lesche.L. Etudes d,epigraohie d,archeology et histoire africaines. Paris. 1957. p. 164 – 167.

8- Blancher. M. Lemee. Maisons a mosaique du quartier central de Djemila.Aix – en provence.1975.

المراجع

- Allais.Y. Djemila. Paris.1938.
- Belles.A. Les ruines de Djemila (antique Cuicul). Alger 1921.
- Blancher. M. Lemee. Maisons a mosaique du quartier central de Djemila.Aix–en provence.1975.
- Lesche.L. Etudes d,epigraohie d,archeology et histoire africaines. Paris. 1957. p. 164 – 167.
- Lesche.L. Etudes d,epigraohie d,archeology et histoire africaines. Paris. 1957, p.164 – 167.
- St.Gsell. Atlas archeologique de l,Algerie. Paris, 1921. Feuille 16,no 233, p, 1316- dans B.A.C, 1917.
- Guy Rachet. Dictionnaire de l,archeology. Paris. 1983. pp 282293-.

العبر من التاريخ مطلوبة الآن

د. علي أبو عساف ❁

أيقنت القبائل التي استوطنت بلاد العراق والشام منذ العصور الحجرية، أن التعاون فيما بينها هو الأساس في قيام حضاراتهم وثقافاتهم، فأقاموا المدن في بقاع مناسبة تتوافر فيها المياه والنباتات وأحاطوها بالأسوار لحمايتها من الأخطار الوحشية والبشرية، وسعوا للحصول على الأرزاق بشتى الوسائل، وأفلحوا في قيام حرف يدوية نمت وازدهرت بالتعاون بين سكان كل مدينة، وسكان المدن المتجاورة، فالتقوا على صنع الخير لأنفسهم وتوحيد جهودهم في سبيل الوصول إلى أهدافهم.

ونجد المثل على الإرادة في التعاون بين عشائر القبائل هذه في قيام مناطق حضرية ثقافية انبعثت من ناحية معينة، وتوسعت فشملت منطقة جغرافية محددة، ما لبثت أن أضاءت ما حولها. ونسبها الباحثون الآثاريون إلى موقع آثاري معين مثل حضارة وثقافة حَلَف، التي كان مركزها تل حَلَف جوار رأس العين، فنسبت إليه، وهي نتاج سكان الجزيرة عامة وثمرة تعاونهم فيما بينهم ومع المناطق المجاورة بجد وثقة في جدوى التعاون.

اهتدى الناس في مناطق أخرى من

❁ باحث وآثاري وأستاذ جامعي، ومدير سابق للآثار والمتاحف.

العراق وبلاد الشـــام إلى ما أنجزته حضارة وثقافة حَلَف، فأبدعت عشائر وقبائل جنوبي العراق حضـــارة وثقافة العُبيد المنســـوبة إلى موقع عُبيـــد الآثاري والتي اســـتفادت من منجزات ثقافة وحضـــارة عشائر حَلَف، فطورتها وأحدثت تغييراً في وسائل الإنتاج، والعمـــل في الزراعـــة والعمـــارة على نحو مفيد.

توالى قيام المناطق الثقافية الحضرية في هذه البلاد، وكان أهمها ثقافة وحضارة أوروك، نســـبة إلى هذه المدينة الســـومرية في جنوب العراق، وشـــملت مناطق واســـعة في العراق والشـــام، مماثلة تقريباً لمناطق العُبيد الحضرية الثقافية.

ويجمـــع الباحثون على القول إن الكتابة قد انتشرت عند أواخر هذا العصر أي عصر أوروك ٣٨٠٠-٣١٠٠ ق.م. وذلك تلبية لسد حاجة ملحة فرضـــتها الأعمال الاقتصادية التي اعتمدت على الإحصاء والتسجيل في تطورها، وتعد بحق من أعظم إنجازات هذا العصر والعصور السابقة التي وضعت أسس التجارة في المشرق، حيث ازدهرت بفضل تعاون ســـكانه فيمـــا بينهم برغبة وصـــدق أكيدين.

والملاحـــظ ومن خـــلال الفنـــون التي تركوهـــا وراءهـــم، أن حياتهم لم يســـدها السلام والوئام إنما شابها الخصام والعراك والحروب، التي نقشـــوا مشـــاهداً عنها في الأختام الأسطوانية تمثل الملك في استعراض الأسرى المكبلين، يسوقهم جنوده المسلحين وربما المسرورين بما أنجزوه. وتؤكد نقوش أختام هذا العصر أن الناس لم يسعوا فقط لكسب الرزق، إنما كان عليهم اتقاء شرورهم ومفاســـدهم في مرابعهم التي لم يستهزئوا بها، فأحاطوا مدنهم بأســـوار منيعة، نراها بالعين المجردة عند زيارتنا لأطلال المدن التي تدل عليها التلال الأثرية المنتشرة في مناطق العراق والشام.

توالت الثقافات والحضارات في بلادنا علـــى إيقاع واحد، كمـــا أوردنا أعلاه خلال العصـــر الحجري النحاسي ٥٢٥٠- ٢٩٥٠ ق.م. تمثله ثقافـــات حَلَف والعُبيد وأوروك، وتعكس في نظري صورة المجتمعات القبلية بمـــا فيها مـــن تعاون وتعاضـــد وتضـــارب مصالح قادت إلى النزاع والخصام والعراك والحـــروب. وهـــم يعلمـــون ولا يتفـــادون ويتجنبون الشرور.

وبعد هذا العصـــر مشـــى أفراد عشائر القبائل على طريق التطور والتقدم فأسسوا الممالك فـــي المدن القديمـــة، التي كانت غالباً على ضـــفاف الأنهار وفي أحواضها. وفـــي المدن التي أســـســـوها في الســـهوب البعيدة عـــن الأنهار، والتي تمر بها الطرق التجارية أي طرق المواصـــلات بين مناطق المشـــرق. ويطلق على هذا العصـــر: عصر فجر السلالات وحديثاً عصر ممالك المدن

أو عصر نشوء الممالك القبلية من ٢٩٥٠ – ٢٣٥ ق.م.[١]

أقام السومريون ممالك المدن في جنوب العراق في مدن أوروك وأورولجش وأوما وأدب وأسس السكان الذين ينتسبون إلى الأرومة الأكادية في شمال العراق والجزيرة ممالك كيش وماري على الفرات وناجارا (تل براك) ونادابا (تل بيدر) وخربا (تل خويرة) وتوتول (تل البيعة) في الجزيرة. وإيبلا وقطنة وجبلة (جبيل) وحاصور ومجدو ببلاد الشام.

وحكمت في هذه المدن سلالات ملكية دفعت بعجلة التطور إلى الأمام، وأسهمت في ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والأفكار الدينية والمدنية، وتطور اللغة والفنون.

لم تؤثر الوحدة الجغرافية في دفع سكان هذه الممالك إلى الاتحاد فيما بينها، فبقيت متفككة، ومتمسكة بالروح العشائرية القبلية واكتفت بالتعاون وعاشت متسالمة وأيضاً متخاصمة. فقد نشبت حروب على الحدود بين مدينتي أوما ولجش، وأيضاً على استثمار قنوات الري بين المدن السومرية، وهي أمور مصيرية بالنسبة لهم. وندرك من خلالها أن المصالح الذاتية تغلبت على الجمعية، فلجأ الناس إلى القوة، وربما لم يلجؤوا إلى التفاهم أولاً. فخلدوا هذه الحروب في لوحة حجرية تعود إلى عام ٢٧٠٠ ق.م. ونقشت فيها مشاهد من المعارك والانتقام من العدو وإذلاله، هذا في جنوب العراق. أمَّا في بلاد الشام، فقد تحاربت مملكة إيبلا مع مملكة بجوارها وأيضاً مع مملكة ماري. وتباهت في انتصارها عليهما حسبما ورد في معاهدة فرضتها إيبلا على أبرسال وماري، عثر عليها في دار محفوظات قصر إيبلا.

إذن، العنف والقوة وفرض الشروط على الآخرين كانت من عقيدة أولئك الناس، مثلما كان الإيمان بالصلح والمصالحة. فقد سطرت في وثيقة من مدينة كيش الأكدية إنَّ الملك ميسيلم، واسمه أكدي، تدخل في النزاع بين لجش وأوما كما ذكرت أعلاه، وتمكن من تسويته.

لم تستمر الأوضاع على هذا المنوال في بلاد العراق والشام. بل شهدت تغيرات جذرية خاصة على صعيد الإدارة والحكم، إبان الدور الأكدي ٢٣٥٠ – ٢١٥٩. فقد جعل ملوك أكد هدفهم الأقوى توحيد البلاد في سلطة واحدة، بدلاً من تفرقها وتعدد السلطات فيها.

فقد دخل شروكين مؤسس المملكة ٢٣٤٠ – ٢٢٨٤ في خدمة الملك السومري أورزبابا في مدينة أور. ثم تمرد عليه، وقضى على المملكة السومرية وأقام مملكة أطلق عليها اسم مملكة أور وكيش وكل البلاد. وكانت مدينة كيش مقراً لها. ثم بنى مدينة أكد

عاصمة له. ونظن أن تربيته الدينية في معبد الربة عشتار بمدينة كيش قد لعبت الدور الأهم في قيام المملكة.

وقد اجتهد هو وحلفاؤه من بعده في الحفاظ على وحدة الممالك المحتلة بشتى السبل. ولم يستطيعوا الوصول إلى هدفهم ويحققوا التعايش السلمي مع جيرانهم العيلاميين في الجنوب الشرقي ولا مع القبائل في جبال زاغروس بالشرق والبادية الشامية الذين ثابروا على الانتقال إلى جناحي الهلال الخصيب وهم الكوتيون والحوريون والعموريون. وانخرطوا مع الطبقات السكانية الأقدم، في أكبر وأوسع مملكة في المشرق أسسها الأكديون على العنف والقوة وانضوى تحت سلطتها سومريون وأكديون وكانت لشيوخ العشائر سلطة محدودة إلى جانب سلطة الملك الواسعة.

استيقظت العصبية القبلية في الممالك المضمومة إلى جسم الإدارة الأكدية وسعى الجيران للثأر من ملوك أكد، فسقطت المملكة، وعاد التشرذم إلى البلاد وتململت ممالك المدن القديمة في سومر وبقية أنحاء العراق والشام. فحكمت في أور السلالة الثالثة ٢١١١ – ٢٠٠٣ق.م وسلالة الشكان في ماري ٢٢٧٠–٢٠٣٠ق.م. وسلالات ملكية أخرى لا نعرف تاريخها. حكمت في ناجارا (تل براك) وشوبات أنليل (تل ليلان) وخربا (تل خويرة) وتوتول (تل البيعة) وأوجاريت وقطنة وحاصور في سهل الحولة ومجدو في وسط كنعان وغيرها.

وإبان هذا العصر استمر التطور والتقدم الحضاري والثقافي بفعل أفكار إبداعية جديدة تشهد عليها معروضات متاحفنا الوثائقية والفنية. عاشت في هذا الجو القبلي العشائر القبلية الآمورية والكنعانية التي هاجرت إلى جناحي الهلال الخصيب في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. وساهمت في ازدهار البلاد الاقتصادي، واتساع التجارة، وتطور الحرف والعمران وأنظمة الحكم والإدارة والحقوق والاتصال مع ممالك الجيران فأقامت ممالك في لرسا وأشنونا وبابل وآشور وتل براك (ناجارا) وماري وتوتول وكركمشو في يمحاض/ حلب وأجاريت وقطنة وحاصور ومجدو في بلاد العراق والشام. لم تتوحد هذه الممالك، إنما تحاربت فيما بينها للوصول إلى السلطة كما حدث بين بابل وكل من لرسا وأشنونة التي ضمها حامورابي إلى مملكة بابل القديمة ٢٠٠٣– ١٥٩٤ق.م وبين آشور وماري. فقد احتلت آشور مملكة ماري عام ١٧٩٦ق.م، وأقامت مملكة في الجزيرة من الفرات غرباً حتى دجلة شرقاً، ما لبثت أن سقطت بيد ماري بالتعاون مع مملكة يمحاض في حلب وقطنة في منطقة حمص. غير أن حمورابي لم يترك ماري

تنعم بالسيادة فاحتلها ودمرها وضمها إلى بابل، وأصبحت في بلاد العراق والجزيرة ممالك بابل وآشور. وامتدت إلى الشمال من المملكة الآشورية المملكة الحورية التي انضوت تحت السيادة الآشورية وشاركت في حضارة البلاد وثقافتها.

وازدهرت في بلاد الشام في النصف الأول من الألف الثاني ق.م. ممالك العشائر القبلية في يمحاض/ حلب وكركميش/ جرابلس وقطنة وحاصور ومجدو، ولم تتحد هذه الممالك، إنما تعاونت أحياناً، وأبدعت حضارة وثقافة من غير أن تتحالف فيما بينها لردع الاعتداء عليها من الجيران فتجرأ مورشيلي الأول ملك الحثيين عام ١٥٩٤ ق.م. فزحف وعبر بجيوشه من حاتوشة في وسط الأناضول ماراً بممالك الجزيرة وأواسط الفرات إلى بابل فاحتلها ودمرها وعاد إلى بلاده محملاً بالغنائم الكبيرة وبذلك يكون قد كرر ما تعرضت له أكد.

فتح غزو مورشيلي لبابل باب الفوضى في المنطقة فزحف الكشيون من منطقة لورستان نحو بابل وأقاموا على أنقاض بابل مملكة الكشيين ١٦٨٠ – ١١٥٧ق.م. الأجنبية واستغل الحوريون الميتانيون الذين هاجروا إلى البلاد وعاشوا مع سكانها الأوضاع، وأسسوا عند منتصف الألف الثاني ق.م. المملكة الميتانية وعاصمتها نوزي قرب كركوك.

أما عيلام الجارة الجنوبية الشرقية فقد خضعت لممالك بلاد النهرين في الألف الثالث ق.م. وتدخلت هي في شؤون الممالك الآمورية في أشنونة وآشور وماري في مطلع الألف الثاني ق.م. وتحالفت مع هذه المملكة أو تلك ضد جاراتها من الممالك الآمورية غير أن دورها قد تلاشى عند قيام مملكة الكشيين، وتعاظم كما تعاظم دور الميتانيين في الشمال عند منتصف الألف الثاني ق.م. فأحكم الكشيون والميتانيون الطوق على بلاد العراق والشام من الشرق والشمال الشرقي.

لم يرق هذا العمل للحثيين، فوجهوا نشاطهم نحو حلب، وتصدى لهم الحوريون الميتانيون عندما وصلوا إلى أورشو شمالي كركميش، ثم تمكن مورشيلي الأول من احتلال حلب عام ١٦٠٠ق.م. تقريباً. وبعد هذا التاريخ زالت بعض الممالك القديمة، وقامت مكانها ممالك جديدة مثل موكيس في سهل العمق، ونوخشّي جنوب حلب، وأجاريت على الساحل وآمورو في حوض الأبرش والنهر الكبير الجنوبي وقادش في منطقة حمص وأوفّة في دمشق ومجدو في فلسطين.

أدى طرد الهكسوس أو ملوك الرعاة الأجانب عام ١٥٥٢ ق.م. من مصر وقيام قوى كبيرة وجديدة في بلاد العراق والشام

تتمثل في الميتانيين والكشيين إلى توجس مصر وعزمها الدفاع عن مصالحها في بلاد الشام خاصة التي ارتبطت معها منذ الألف الثالث ق.م. بعلاقات اقتصادية وثقافية متينة رفيعة، وهنا أرى من المفيد الإشارة إلى ناحية هامة في تاريخ العلاقات بين مصر وبلاد الشام، فإذا صح أن ملوك الرعاة قد قدموا من بلاد الشام يكونون هم أول من جعل التعاون بين مصر وبلاد الشام حقيقة سياسية هامة. غزا ملوك السلالة الثامنة عشر عند منتصف الألف الثاني ق.م. بلاد الشام، وكرس تحتمس الثالث ١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م غزوته الخامسة عام حكمه ٣٣ لطرد الميتانيين من حلب إلى ما وراء الفرات، فكان له ذلك.

تحسست حتّي من وجود مصر في بلاد الشام والميتانيين على حدودها في الجزيرة، وتضايق الآشوريون من وجود ميتاني في وسط أراضيها، فعملت القوتان على التخلص منها.

أدرك الميتانيون اللعبة وحسنوا علاقاتهم مع مصر في عهد الملك تحتمس الرابع ١٤٠١ – ١٤٠٢ق.م الذي ضم أميرة ميتانية إلى حرمه. وذهب أمنوفس الثالث ١٤٠٢ – ١٣٦٤ ق.م. إلى هدف أسمى وأشمل، فبعد حركته التوحيدية الإلهية، عمل بجد وإخلاص على إحلال السلام في المشرق، وتبادل الرسائل مع ملوك الكشيين والآشوريين والميتانيين والآموريين والكنعانيين في شؤون عديدة تخدم فكرة السلام.

تغيرت الأحوال في المشرق فقد عزز الآشوريون علاقتهم مع مصر منذ عهد آشور نادين أخّي ١٤٠٢ – ١٣٩٣ق.م بغية التحالف معهم ضد الحثيين الذين ارتابوا من قيام آشور والقضاء على الدولة الميتانية، وتثبيت سلطتهم في الجزيرة وطور عابدين وتطلعهم نحو بلاد الشام، والحق أنهم أصبحوا القوة الوحيدة في بلاد العراق. بينما عزز المصريون والحثيون من نفوذهم في ممالك بلاد الشام التي كانت مفككة ومتنافسة في الحقبة من ١٥٠٠ – ١٢٠٠ ق.م. وتقف متفرجة إذا اعتدي على واحدة منها. وأخيراً حصل الصدام بين مصر وحتي وتقاسمت المملكتان النفوذ في بلاد الشام، غير أن شعوب البحر قضت على المملكة الحتية والممالك الشامية على الساحل.

بقيت البداوة جزءاً من مجتمعات بلاد الشام والعراق طوال تاريخها فبعد الموجة الآمورية التي أشرنا إليها، تدفقت الموجة المسماة أحلامو/ أغلامو– آرام منذ منتصف الألف الثاني ق.م. إلى جناحي الهلال الخصيب وتمكنت من إقامة ممالك في بلاد الشام وبابل ولم تتوحد شأنها في ذلك شأن الآموريين، فقد سيطرت على

أفكارهم النزعة العشائرية القبلية، وأقاموا الممالك في ربوع القبيلة وزاد عددها في الأراضي السورية الحالية على ست ممالك وهي: بيت بحياني في حوض الخابور وإلى الغرب منها بيت عديني في حوض الفرات الأوسط ويأدي/ شمأل في حوض نهر الأسود وبيت أجوش في منطقة حلب، ولعش في منطقة سراقب، وحماة على العاصي، ودمشق التي ضمت أيضاً ممالك بيت معكة وجيشور ورحوب.

لم يتحمل الآشوريون وجود هذه الممالك بل قضوا عليها الواحدة تلو الأخرى من خلال مشروع الآشوريين في السيطرة على المشرق منذ عهد الملك هددنيراري الثاني ٨٩٠- ٨٨٥ق.م وحتى عهد أشور بانيبال ٦٦٩- ٦٢٩ق.م. وأعتقد جازماً أن الآشوريين الذين سيطروا في عهد سنحاريب ٧٠٥- ٦٨٦ق.م وأسرحد ونوآشوربانيبال ٦٦٩- ٦٢٩ق.م على السلطة في المشرق، قد قلدوا عمل السلالة الثامنة عشر المصرية ١٥٥٢- ١٣٦٤ق.م. في بذل الجهود للسيطرة على بلاد الشام. وما أن تم لهم ذلك حتى اتجهوا شرقاً نحو بحيرة أرميا ومناطقها.

يبدو أن سكان مدن ساحل بلاد الشام قد أداروا ظهرهم شرقاً، ويمموا غرباً نحو اليم أي البحر المتوسط ليسيطروا على طرق التجارة فيه بعد غزو شعوب البحر لشواطئه المصرية والشامية عند عام ١٢٠٠ ق.م. غير أن انتشارهم في البحر وجزره وشواطئه، قد تمَّ خلال القرن الثامن ق.م. حيث أسسوا مدينة قرطاجة عام ٨١٤/ ٨١٣ق.م التي أصبحت مملكة قوية خلال القرن السابع ق.م. تستطيع حماية المراكز التجارية الفينيقية المنتشرة في البحر المتوسط من المنافسة اليونانية أو من احتلالها.

تجاوز سكان سواحل بلاد الشام النفوذ الآشوري في البحر المتوسط وأصبحوا قوة فيه تحسب حسابها اليونان على وجه الخصوص.

ونعود من البحر إلى اليابسة إلى المشرق إلى أواسط آسيا في مناطق بحر فان وأورميا حيث تحركت منها قبائل الميديين نحو عيلام، تجنباً للضغط الآشوري واستقرت في عيلام واشتركت في الحروب معها ضد آشور التي دمرت عاصمتهم سوزا عام ٦٤٠ق.م.

مرة أخرى تدخل الأجانب في بلاد النهرين ففي منتصف الألف الثاني ق.م. حجّم الميتانيون المملكة الآشورية واقتطعوا أجزاء منها وأسسوا مملكتهم، وبعد تدمير سوزا تعاون نبوبولصر مع ملك الميديين كيأخسار وقضوا على مملكة آشور فقامت على أنقاضها مملكة بابل الأخيرة في معظم

أجزاء المشرق العربي، ومملكة الأخيمينيين إلى الشرق من دجلة.

وشهدت المملكتان صراعات قبلية أضعفتها فقد انتصر الفرس على الميديين بقيادة كورش الأول عام ٥٤٧ق.م فعبر دجلة إلى الأناضول وأحاط بالمملكة البابلية من البحر حتى الخليج وأصبحت المملكة الأخيمينية القوة الأعظم في المشرق التي مالبثت أن احتلت بابل عام ٥٣٩ ق.م. حليفة الميديين. فزالت بابل إلى الأبد كمازالت من قبلها آشور.

في رأيي أنه من طبائع الممالك أن تقلد غيرها وتزيد عليها في أعمال العنف والقوة، فما حققته آشور خلال القرنين الثامن والسابع ق.م. من سيطرة على المشرق والحوض الشرقي للبحر المتوسط بالعنف والقوة وما رافقه من اضطرابات وفوضى، قلدته فارس عبر القرون السادس والخامس والرابع ق.م. فقد حكمت بالعنف والقوة المشرق بأكمله وسواحل المتوسط الشرقية والجزر أمامها وهددت اليونان وخاضت حروباً معها خلال القرن الخامس ق.م. بمساعدة السفن الفينيقية غير أنها طُردت من اليونان عام ٤٧٩ق.م.

كانت العلاقات بين اليونان وبلدان المتوسط في مصر وبلاد الشام والأناضول تجارية سلمية حتى تحرش بها الآشوريون. أسس الفينيقيون مدينة قرطاجة ومملكتها خلال القرنين الرابع والثالث ق.م. ومشاركة السفن الفينيقية بحرب الفرس على اليونان عند نهاية القرن الخامس ق.م. واحتلالهم الجزر اليونانية وتهديدهم للبر اليوناني.

حيال هذه الأخطار نفد صبر اليونان وأعد الإسكندر جيوشه لرد الصاع صاعين للفرس الذين نشروا حضارتهم في غرب آسيا الصغرى، واصطدم بها اليونان ودفعوا بها شرقاً.

وتمكن الإسكندر الكبير من تحطيم الإمبراطورية الفارسية في عام ٣٣٤ – ٣٢٧ق.م حيث وصل الهند وأقام قادته من بعده مملكة السلوقيين في أنطاكية والبطالمة في الإسكندرية، وهاجر اليونانيون إلى بلاد الشام ومصر وتنازع على السلطة الأنباط وحكام سلوقس والبطالمة. والأهم أن اليونان سيطرت على المدن الفينيقية الأم في ساحل بلاد الشام وخاصة صيدا وصور وضيقوا على المراكز التجارية الفينيقية في البحر وحدوا من نشاطها.

أمَّا روما فقد حاربتها قرطاجة خلال القرن الثالث ق.م. وبعد حروب احتلت روما قرطاجة عام ١٥٠ق.م. وأصبح الطريق أمام روما نحو الشرق مفتوحاً. فالشرق في عهد الأنباط والسلوقيين والبطالمة لم يعرف السلام الدائم. فقد طمع ملك أرمينية تيكران في بلاد الشام واحتلها عام ٨٣ق.م. عندها تدخل الرومان واحتلوا بلاد الشام

عام ٦٥ق.م. وكان الفرتيون قد احتلوا بلاد النهرين عام ١٣٩ق.م. ثم طردهم الفرس في عهد آزدشير ٢٢٦- ٢٤١م وحكموا العراق حتى عام ٦٣٧م بينما استمر الرومان والبيزنطيون حتى عام ٦٣٦م وفي تلك الأوقات بقيت القبائل العربية في مرابعها ولكن تحت حكم الفرس وبيزنطة. وأهم ما يجب ذكره هنا أن المناذرة والغساسنة تحاربوا لعدة أجيال باسم الساسانيين والبيزنطيين.

وأختم هنا أن الإمبراطورية الرومانية في غربها وشرقها: روما وبيزنطة سيطرت على شرق آسيا وأوروبة وأفريقيا الشمالية وكان العرب في الجزيرة على دراية بثقافاتهم وخاصة الثقافة الدينية المسيحية، فاستقلوا بروحانيتهم وعبروا عنها في الفتح العربي الإسلامي. وماهي إلا سنوات حتى عم الإسلام مناطق غرب آسيا وشمال أفريقية حتى الأندلس، وقد أراد الله لهذا العالم الإسلامي أن يتنازع قادته على السلطة وتغيير صفة القادة من خلفاء مختارين أولاً إلى أمراء يرثون آباءهم وتنتقل السلطة من بيت إلى آخر عبر حروب طاحنة بين عشيرتي البيتين الأموي والعباسي ٦٦١ - ٧٤٩م. و٧٤٩ - ١٢٥٨م. وقد استوعبت الدولتان الأموية والعباسية شعوباً متعددة ومختلفة وذات ثقافات متنوعة وإرث حضاري رائع ومبدع أثر في نظرتهم إلى الحكم من منطلق عشائري فاستقلت عشيرة بنو حمدان في الجزيرة وبلاد الشام، والبويهيون الفرس في العراق والدولة الطولونية في مصر والشام، والأخشيدية في مصر، وبنو الأغلب في تونس، والفاطميون في شمال أفريقيا والشام، والسلاجقة في العراق.

وقد سعى الأتابكة انطلاقاً من الموصل إلى توحيد العراق والشام ومدوا نفوذهم حتى مصر وظهرت الدولة الأيوبية ثم المماليك وبعدهم بنو عثمان كل ذلك من عام ٩٤٦ - ١٦٣٩م.

ما كان لبني عثمان أن يحيدوا عن طريق الإمبراطوريات التي سبقتهم في طريقة تأسيس سلطتهم وذلك باستعمال العنف والقوة واحتلال الشعوب الأخرى فوصلوا إلى عاصمة النمسا فيينا، ولكن سرعان ما دب المرض في جسم السلطنة لأن غذاءها كان يعتمد على التعصب والجهل وإثارة الفتن بين الناس والحكام ومع العشائر.. إلخ، فنضج مشروع فكري عربي يعيد إلى العرب مجدهم التليد وثقافتهم ذات البعد الإنساني. فاستفادوا من ثقافاتهم الغربية التي اصطدمت بالثقافة المحلية وخاصة الدينية، وتنازعت الثقافتان الدينية والعلمية في تقرير مصير السلطنة العثمانية، فجاءت الحرب العالمية الأولى وساهمت في حل الإشكال بعد أن أصبحت السلطنة جزءاً

من الحـــرب، فهُزمت وغـــدر حلفاء العرب بهم. وماهي إلا ســـنوات، بعد زوال السلطة العثمانية حتى ظهرت اتفاقية سايكس بيكو التي تمـــت أثناء مجريات الحـــرب الكونية عـــام ١٩١٦ م ويتردد اســـم هذه الاتفاقية/ أي اتفاقيـــة ســـايكس بيكو فـــي التعليقات علـــى أخبار ما يحدث في ســـورية، وتحليل أســـبابه ونتائجه. ويعزى إلى هذه الاتفاقية تجزئة الوطـــن العربي، الذي هو الآن تحت المجهر ابتغاء تفتيتـــه وتجزئته من جديد، حيث تستغل الأحداث التي بدأت عام ٢٠١١ في تونس وانتقلت إلى ليبيا ومصـــر واليمن وســـورية والعراق. بفعل الجهات المعارضة للعروبـــة الداخلية والخارجية والمســـاندة للتيارات الإسلامية، ليس حباً بها، إنما لأنها تحقق أهـــداف الأعداء فـــي دمار وخراب الأوطـــان بدعم فكري ومـــادي وإمداد غير محدود من أنظمة عربية. وباختصار انقسام حاد يسود العالم العربي هو الفساد بعينه لا يدركه الناس ولا يرغبون أن يبصـــروه، بعد أن عرفنـــاه طوال تاريخنـــا منذ ثلاثة آلاف عام ق.م. كمـــا بينته في عرضـــي الموجز لتاريخنا السياسي.

لـــم تعـــرف بلاد العـــراق والشـــام عبر تاريخها الطويل وحدة سياسية، إنما ممالك مدن أخضـــع الأكديون الكثير منها في بلاد الشام والعراق لإدارة واحدة ما لبثت أن حنت إلى التجزئة ومرابع العشائر القبلية فأعادت الدويلات العشائرية القبلية كما كانت، وفي كل مرة كان يجري إخضاعها لإدارة موحدة كما حصـــل في الدور الآشوري، كانت تغتنم الفرصـــ وتعود إلى الانفصـــال وتتقوقع كل قبيلة داخل مرابعها. وأضع في هذا السياق أيضـــاً الانقسامات التي حصلت في الوطن العربي بعد إسقاط الخلافة العباسية بتأثير خارجي وداخلي، وقيام الإمارات في العالم العربي من المحيط إلـــى الخليج، فقلوبهم مسكونة بمرض العصبية القبلية أو الإقليمية القطرية المحلية وهم لا يشعرون. واعتصموا بها في الدور العثماني وبعد زواله وفضـــلوا الانقســـام والتشرذم على التعاون والتعاضد فـــي دولة متحدة بأي شـــكل. وهم مقتنعون بأن العالم العربي جدير بالاتحاد. غير أنهم ســـاروا على طريق التنابذ والخلاف وحتى الآن ومما لا ريب فيه أن اتفاق سايكس بيكو الغربي قد خُط توكيداً وتثبيتاً لحالة العالم العربي الانقسامية التشرذمية المتجذرة في أذهان وعقول وأفكار أفراده. وفي الســـؤال التالـــي تكمـــن الإجابة وإثبـــات القول: هل عملت الأقطار العربية، وبأية وســـيلة، على إبطال مفعـــول الاتفاق وأفكاره، والنص في دساتيرها على ما ينبذه!.. الجواب عندكم.

الهوامش

١- علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين، ٢٠١١، ص٩٧ وما بعد.

الدعاية والعلاقات الدولية

د. فريد حاتم الشحف ❁

لقد نما دور الإعلام، بانتظام في التواصل الدولي، على مدى تاريخ البشرية كلّه، وتشكلت في الوقت نفسه الدعاية كاتجاه خاص في نشاط الدول على الساحة الدولية.

بدأ الاستخدام المنتظم للدعاية، في الأهداف الأيديولوجية والسياسية الخارجية، منذ قرون مضت، مع ظهور الطبقات والدول. يؤكّد المؤرخ النمساوي شتورمينغير بأنّ:

«الدعاية السياسية المنظّمة بمعناها المعاصر موجودة منذ آلاف السنين»، هذا ما كتبه في كتابه: «٣٠٠٠ عام على الدعاية السياسية».[١]

استخدمت الدعاية السياسية، كوسيلة للصراع الأيديولوجي، أثناء الحروب بشكل واسع، وخاصّة الحروب المتعلّقة بالصدامات الفكرية. حيث حاولت الطبقات المسيطرة، استخدام وسائل الإعلام للتأثير ليس على السكان المحليين فحسب، بل وعلى سكان الدول الأخرى لجذبهم وحشدهم إلى جانبها. يورد المؤرخون على سبيل المثال، دعاية «البانيلليزية» في العصر اليوناني القديم، والدعاية الدينية التي شنّت في

❁ باحث ومتخصص في العلاقات الدولية.

العصور الوسطى لدعم الحروب الصليبية، وشعارات الثورة الفرنسية العظمى، التي استخدمت بشكل واسع في أهداف السياسة الخارجية لفرنسا، أثناء صراعها مع الدول الاستبدادية الأوروبية.[٢]

كان نشاط وسائل الإعلام في مرحلة التطور العاصف للرأسمالية، بداية القرن العشرين يشبه المقدمة للحرب الإعلامية - النفسيّة التي اندلعت، نتيجة لهذا التطور، تزامناً مع الحروب العسكرية التي شنّت لتقاسم العالم بين الدول الرأسمالية. وقد تطلّب الدخول في مرحلة الإمبريالية، من قادة هذه الدول، وما رافق ذلك من تطورات عسكرية واقتصادية - اجتماعية كبيرة على المستوى العالمي، تجنيد كل مخزون الوسائل المتاحة للتأثير على عقول البشر، وتوجيهها بالاتجاه الذي يخدم مصالحهم.

أخذت الدعاية السياسيّة الخارجية في هذه المرحلة بعداً دولياً حقيقياً، حيث احتدمت التناقضات بين الدول الإمبريالية ووصلت إلى ذروتها، وأدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى، حيث كانت هذه الحرب نقطة التحوّل الانعطافية في الدعاية السياسيّة، بالنسبة للدول الرأسمالية. وقد اكتشفت مقاييس واسعة جدّاً، لم تعرف من قبل، وزوّدت الدعاية بقاعدة تقنيّة وتنظيمية ضخمة. كما وأخذت الدعاية السياسية ولأوّل مرّة، بعد الحروب النابليونية، طابعا مركزيا، وأسّست لأجل ذلك، أجهزة خاصّة ومؤسسات، تم تمويلها من الموازنات الحكومية.

نشبت الحرب بين الدول الإمبريالية الرئيسة، في صراع ليس على الحياة، بل على الموت. فقد تفنّنت آلة الحرب الألمانية في البحث عن أكثر الوسائل وحشيّة للتعذيب الجسدي للناس: من الرصاص الانشطاري حتى الغازات السامّة. وحشد الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا، قوى كبيرة من أجل ما أصبح يسمّى «المقياس الثالث» للحرب- الإعداد النفسي للعدوّ. فقد نوّه بذلك أحد الخبراء الأميركيين في الدعاية: «حينها بالذات، اكتشف أنّ الحرب الشاملة، يمكن خوضها بالهجوم ليس على الأجساد فقط، بل على عقول الناس كذلك».[٣]

لم يتمكّن الجميع مباشرة من إدراك قوّة هذا السلاح. لقد كتب اختصاصي إنكليزي في هذا المجال يقول: «لقد قابلوا حينها وبكلّ بساطة، الفكرة التي تقول إنّ الدعاية هي سلاح حربيّ، بالابتسامة. وبصعوبة بالغة صرفت الأموال على مثل هذه الأهداف، أمّا المؤسسات الشجاعة والقلّة من المتحمسين، فقد قُيّموا كأناس مغامرين فاشلين ومهووسين».[٤]

أظهرت الآلة العسكرية الألمانية، بشكل خاص، اهتماماً قليلا بهذا النوع من الصراع. بعد انتهاء الحرب ألّف الجنرالات الألمان،

خرافة متكاملــة، وكأنّ ألمانيا لم تهزم في ســاحة المعركة، كون «جيشــها لم يدمّر»، وســبب الهزيمة هــو أنّ جبهتهــا الداخلية انهارت، لأنّ «العناصر الغريبة والراديكالية كانت لقمة سهلة للدعاية المعادية».[٥]

ممّــا لا جدل فيــه في الوقت نفســه: أن مجــرى الحرب العالمية الأولى، وضــع لأوّل مرة الحكومات الغربية أمام ضــرورة تأميــن الدعايــة العســكرية بكل وســائل الدعــم الحكومي. تمكّن الحلف الفرنســي -الأميركــي- البريطانــي مــن تنفيذ هذه المهمّــة على نحو تام أكثر من ألمانيا. فقد حــاول الحلفاء أن يضــعوا نصــب أعينهم الأهداف كلّهــا: العدوّ وجبهتــه الداخلية، جمهور دولهــم، والدول المحايدة أيضــا. أمّا الألمان فقد ركّزوا في دعايتهم بشــكل رئيسي على جنود العدوّ فقط.

مــرّت آليّة الدعاية العســكرية في دول الحلفاء، بمراحــل متعددة من إعادة البناء. فقــد بدؤوا فــي بريطانيا بتأســيس مكتب للدعاية الحربيــة تابع لــوزارة الخارجية، ووصــلوا في النهاية لتأسيس وزارة للإعلام عام ١٩١٨ (ترأســها أكبر مالك للصــحف اللورد بيفيربروك)، وتأســيس قسم الدعاية الموجّهــة للعــدوّ (ترأّســه لــورد آخر في الصحافة - نورتكليفور).

أســس الفرنسيون قســماً للدعاية تابعاً للفــرع الثاني في قيــادة أركان الجيش، أمّا لاحتياجات دعاية أكثر اتساعا فقد أسسوا - «بيت الصحافة»، والمنظمة غير الرسمية «الحلف الفرنســي». الأميركيون أسسوا في قيادة جيش الاســتطلاع فــي أوروبا «الفرع النفســي»، والذي قــام إلى جانــب تنفيذ العمليات الضــخمة في توزيع المناشــير، بإعداد طريقة نفســية - اجتماعية لدراسة أخلاق العدوّ.

إلاّ أنّ الجهــاز الأكثر شــمولية وشــهرة للدعايــة المتعــددة المجــالات، كان لجنة الدعايــة الاجتماعيــة، التي تأسســت في الولايات المتحــدة، وتمتّعت بحقوق الإدارة الحكومية الخاصّــة، الذي ترأسها الصديق الشخصي للرئيس الأميركي ف. ويلسون، ج. كريل، الصحفي الذي كان قد شارك بنجاح فــي حملته الانتخابية للرئاســة الأميركية. عملت لجنة كريل منذ بداية نشــاطها على أوّلاً: جذب الاختصاصــيين لهــذا العمل، ثانياً: الرقابة الدقيقة لكل القنوات، ووسائل الدعاية، وأنواع الجمهور. لذلك عمدت إلى المخالفة التامة لميكانيزم الدعاية الألمانية. أعارت اهتماماً كبيراً للتخصص حسب نوع الدعاية. وتوافقا لذلك فقد تم تقسيم اللجنة إلى أقسام: قســم الأخبار، وقسم الصحف الأجنبيــة، وقســم التعليم المدني، وقســم الأفلام، وقســم المعارض العسكرية، وقسم العلاقة مع الصناعيين، وقسم المحاضرين، وقسم الدعاية والكاريكاتور.[٦]

عملت اللجنة على الطريقة الأميركية، ووضعت على خط إنتاج «آليّ». وأخذ المثقفون، والكتاب، والرسّامون، والصحفيون، يعدون منتجات شعبية للدعاية، وزعت في جميع أنحاء الولايات المتحدة والعالم. كتب كريل نفسه في تلك الأيام متفاخرا: «يقع تحت تصرفنا، ثلاثة آلاف مؤرّخ، مستعدون لتلبية النداء الأول، كي يكتبوا المنشورات المطلوبة، ومن حيث المبدأ، فإنّ كل كاتب معروف يعطي من وقته حيّزا لعمل اللجنة، قسم الدعاية يستفيد من خدمات كل خبير رفيع المستوى في هذا المجال، وتضم صفوف متحدّثي- الأربع دقائق حوالى خمسين ألف شخص[٧]،... كما وحّد الرسامون المعروفون قواهم في العمل على اللافتات، وجنّدت الصناعة السينمائية، التي تقدم لنا الدعم اللازم، دون التفكير بالتعويضات المالية...»[٨]. الإنتاج السينمائي الذي عمل على خدمة مصالح الحلفاء، انتشر في كل بقاع الأرض. وأعطيت له الأهمية اللازمة عند إعداد الرأي العام في الدول المحايدة. حدث ذات مرّة وبإصرار من كريل، أن هددت الشركات السينمائية الأميركية، مالكي دور السينما في سويسرا بمقاطعتها، إن رفضت عرض الأفلام الدعائية الأميركية، إلى جانب الأفلام الفنيّة الأخرى.[٩]

كانت «المناشير» الوسيلة التقنية الرئيسة للدعاية ضد العدوّ، أثناء الحرب العالمية الأولى[١٠]. أكملتها الصحف (على سبيل المثال صحيفة الحلفاء «الطائرة»، «فلوغبوست»، المخصصة للقوات الألمانية)، والكتب، والمنشورات. رمت الأجهزة الفرنسية المختصة، على المواقع والجبهة الداخلية الألمانية خلال سنوات الحرب، حوالى ٢٩ مليون منشور، أي حوالى ٧٥٠ ألف منشور شهرياً، أمّا البريطانيون فقد رموا، حوالى مليون منشور شهرياً.

وأخيراً، فرضت الحرب العالمية الأولى، ولأوّل مرّة، بعد الحروب النابليونية على الدول الإمبريالية، أن تضع في خدمة الدعاية الخارجية، إجراءات دبلوماسية، وإعلانات برنامجية ضخمة، منها على سبيل المثال، «الأربعة عشر بندا» للرئيس ويلسون. إنّ دافع ظهور هذه الوثيقة التي كان عليها أن تبرز الولايات المتحدة الأميركية في عيون البشرية كلّها، في دور الدولة العظمى التي «تهدي» السلام العادل للشعوب، ليس مجرى الحرب، بقدر ما هي الهزّة العالمية من النوع الآخر، ألا وهي- انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا، ورداً على «مرسوم لينين حول السلام».[١٢]

لقد أثّرت ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ في روسيا، تأثيراً كبيراً على تشكّل الدعاية السياسية الخارجية، حيث لم تعد العلاقات الدولية بانتصار هذه الثورة، هي العلاقات بين الطبقات المستغلة المسيطرة

في هذه الدول، لأنّ العالم انقسم إلى نظامين سياسيين – اجتماعيين متناقضين. فقد طرح النظام الاجتماعي الجديد مُثُل: السلام والحرية والمساواة بين الشعوب. إنّ هذه المُثل بالذات، كانت توجّه الأهداف الدعائية الخارجية لروسيا السوفييتية، والتي أحدثت، بغضّ النظر عن الإمكانيات المتواضعة في ذلك الوقت، تأثيراً ثورياً كبيراً على الجماهير الكادحة حول العالم. وكانت المبادئ اللينينية الحقيقية وشفافية الإعلام، متوضّعة في أساس هذا النشاط، وتوجّهه إلى فئات الشعب الواسعة، بالدفاع عن مبادئ التعايش السلمي للدول، والتعاون والتفاهم المشترك بين الشعوب.

واجهت الدول الغربية ذلك بالكذب الحاقد على الجمهورية الاشتراكية، وأخذت بالإعداد لغسل أدمغة الناس بروح معاداة الشيوعية، وبدأت بتكوين منظومة مراكز علمية دعائية تخريبية، لشن صراع أيديولوجي ضد الاشتراكية. ومنذ ذلك الحين وحتى انحلال الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١، كانت الشيوعية محور ارتكاز، وأساس محتوى كل نشاط السياسة الخارجية للدول الإمبريالية الغربية، ووسائل إعلامها.

نما بالتوازي مع ذلك نطاق الحرب الدعائية داخل المعسكر الغربي نفسه، ووضعت لخدمة هذه الأهداف، أحدث وسائل الاتصال. وأصبح الراديو أوّل وسيلة إعلام جماهيرية بالفعل، وتطوّر تطوراً كبيراً في العشرينيات من القرن العشرين، ومازال حتى يومنا هذا، وسيلة أساسية للدعاية والإعلام الدوليّ. لابدّ من تناول هذا الموضوع بالتفصيل، لما لعبه الراديو من دور كبير في هذا المجال.

بدأت الولايات المتحدة بتوجيه برامج إذاعية إلى منطقة مصالحها «التقليدية»، وهي أميركا اللاتينية، وبريطانيا إلى مستعمراتها. حينها بدأت ألمانيا في بث برامج إذاعية إلى «الألمان خارج الحدود».

أصبح أثير الراديو، خلال النزاعات الدولية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين مسرحاً للحرب النفسية (بين ألمانيا وفرنسا، على سبيل المثال بسبب منطقة الرور والألزاس، ولاحقا أثناء عدوان اليابان على الصين، وإيطاليا ضد الأبيسيين). وكما كتب عالم الاجتماع الأميركي سيبمان: «لم تمر أيّة أزمة سياسية في الثلاثينيات من القرن العشرين، دون مرافقة الراديو. الحرب الأهلية في إسبانيا، ونزاع الصين مع اليابان، وأزمة ميونخين – كل ذلك انعكس في ألحان سيمفونية جديدة على الموجات القصيرة».[١٣]

لقد أولى الألمان أهمية كبيرة للدعاية من خلال الراديو، بعد وصولهم إلى السلطة في ألمانيا، حيث أسسوا عام ١٩٣٣ أوّل وزارة للدعاية في العالم، وأعطيت لها مهمّة

النشاط الدعائي الموجّه للخارج كلّه. حيث استخدمت بشكل واسع آلة غيبيلز «للدعاية الشاملة»، من أجل تعبئة الجماهير بالروح الفاشية، ونشر أيديولوجيا النازية، والإعداد للحرب، وقد أنفق عليها سنويا ٥٠٠مليون دولار، في ذلك الزمن.[١٤]

وصلت الدعاية الإذاعية التي شنّتها ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية إلى مستويات قياسية، مقارنة بالمقاييس الحالية: حيث وصلت إلى ٦٠ دولة، وبثّت مئات الساعات في اليوم. وتم ضمن إطار الحرب النفسية التي أدارها غيبيلز، تأسيس شبكة تضم أكثر من إذاعة سريّة، عمل فيها عام ١٩٤٤، ٦٣٠٠ شخص. تخفّت وراء أسماء مثل: «من أجل روسيا»، «راديو ريغا»، «بي بي سي الجديدة»، وأخرى. بثّت هذه الإذاعات دعايتها إلى معظم الدول الأوروبية.[١٥]

نمت أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية وتيرة البث الإذاعي في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. حيث بثّت «بي بي سي» عام ١٩٤٠ برامج إذاعية دعائية إلى كل الدول الأوروبية تقريباً، بحجم حوالى ١٦٥ ساعة أسبوعياً، ووصل عدد موظفيها إلى خمسة آلاف شخص تقريباً.

انضمّت الولايات المتحدة بداية عام ١٩٤٢ إلى الحرب عبر الأثير. وبدأت في ٢٤ شباط عام ١٩٤٢ إذاعة «صوت أميركا»، تبث برامج باللغات الأجنبية، ازداد ساعات بثّها بسرعة. حيث أصبح عدد المحطات الإذاعية، التي تعمل على الموجة القصيرة، وتملكها الحكومة الأميركية ٣٩ محطة (مقارنة ب١٩ بداية الحرب)، وازداد عدد اللغات التي تبثها البرامج لتصل إلى ٤١ لغة.[١٦]

لكن الحرب الإذاعية التي اشتهرت بين الدول الإمبريالية، كانت الحرب الإيطالية – البريطانية، التي اندلعت مابين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٨، وكانت الدول العربية، أحد محاورها الرئيسية، واعتبرت الحربَ، الأولى ذات النطاق الواسع بين الدول الإمبريالية.[١٧]

كان الألمان حتى ذلك الحين، قد أعدّوا، وأخذوا يطبقون على الواقع «القوانين الجديدة للفن الإذاعي»، الموجّهة، وكما عبّر عنها أحد منظميها في ألمانيا الفاشية أ. راسكين: كي «تخضع الوعي البشري، وتنقّي تصوّراته، وتنقلها إلى الأجيال الأخرى، وإلى التهديم، والبناء، والتكسير»[١٨]. وبكلمات أخرى، إنّهم طوّروا وحدّثوا تكنولوجيا تطويع الوعي البشري، «تقنية الكذب، والنفاق»، التي تتميّز بها الرأسمالية منذ زمن بعيد. إنّ كلا الطرفين في الحرب الإذاعية البريطانية – الإيطالية، قد طبّق «القوانين الجديدة للفن الإذاعي» التي أعدّها الألمان.

فيما يخص المنطقة العربية، اصطدم الطليان في البداية، بظاهرة صعبة: لم يكن لدى العرب أجهزة المذياع، والكثيرون حتى لا يعرفون ما هو المذياع، لكن حكومة (موسوليني) وجدت حلاً سهلا، لكنّه مكلف: بدؤوا بتوزيع أجهزة المذياع وسط الجمهور المطلوب مجّانا، وهي أجهزة معدّة لاستقبال محطة «باري» الإيطالية فقط، الواقعة جنوب إيطاليا. واصطدموا بمشاكل أخرى: لم يكن لدى العرب ساعات، فكيف يمكن إعلامهم بمواعيد البرامج الإذاعية؟ ثم وجد القائمون على المحطة الحل: أخذوا يعلمون المستمعين العرب عن مواعيد برامجهم الإذاعية، انطلاقا من أوقات شروق الشمس وغروبها. ثم نصبوا أجهزة الراديو- بسبب قلّة عددها - في المقاهي العامة، المكان الذي كان يرتاده الفلاحون، وسكان المدن للترفيه، بعد يوم العمل الشاق. أمّا مشكلة الأميّة التي كان يعاني منها العرب، وبلغت نسبتها آنذاك حوالى ٩٥٪، فقد سهّلت كثيراً تنفيذ مخططاتهم الدعائية، أخبرت محطة «باري» الإذاعية، كل يوم وباللهجات العربية المحلية مستمعيها، كيف يستخدم الطيارون الإنكليز الغازات السامّة، ضد القبائل العربية في عدن، وعن «الاحتجاجات ضد الويسكي والبطاطا» شرقي الأردن، حيث كان الفلاح المصري أو البدويّ الذي يقطن في الصحراء، والمحروم من أي مصدر للأخبار، يصدّق كل كلمة يسمعها في الراديو. وكانت «باري» تستخدم في معظم الأحيان قصصاً خيالية خدمة لأهدافها، بثّت على سبيل المثال خبراً يقول: «أنتم أيّها العرب، تفضلون كثيراً شرب الشاي، الذي يحضرونه لكم من الإمبراطورية البريطانية- لدينا معلومات مؤكّدة، تفيد أن الإنكليز يلوّنون الشاي الذي تشربونه بدم الخنزير».[١٩] وأدّى ذلك دوراً في تكوين صورة الإنكليزي في ذهن العربي، وبدا موسوليني خلال ذلك «المدافع الأوّل عن الإسلام». ثم يتبع هذه الأخبار برامج ترفيهيّة، وكانت تقرأ بعض من الأساطير العربية، والشعر، وتُبَثُّ الموسيقى والأغاني العربية. وما ميّز محطة «باري» أنها استقدمت مطربين عربيين اثنين، قدما أغانيهما، قبل وبعد نشرات الأخبار.

لكن الإنكليز ومع الزمن كما يقال، بدؤوا يسبقون الطليان، فقد أسّسوا في كانون الثاني عام ١٩٣٨، قسماً عربياً في إذاعة بي بي سي، وانتقلوا مباشرة إلى الهجوم المعاكس. وكما فعل الإيطاليون، أخذوا بتوزيع أجهزة المذياع المجهّزة لاستقبال إذاعة البي بي سي فقط، مجانا على المقاهي والقهاوي، وأماكن تجمّع الناس، وتمَّ استدعاء أخصّائيين اثنين من إذاعة القاهرة، وأخذت تبثّ برامج إخبارية، وبعض «اللوحات الترفيهية»، وإجراء لقاءات مع

زعماء سياسيين مواليين لبريطانيا في العالم العربي، واستخدمت الإسلام سلاحا للدعاية، وردّا على استدعاء محطة «باري»، لمطربين عرب، أخذت إذاعة بي بي سي تنقل تعاليم رجل الدين الإسلامي المؤثر آنذاك محمد عبد الله وكبي، وقراءته للقرآن. وكانت خلال شهر رمضان، تصف بطريقة جميلة، كيف يمضي يوم صيامه رجل الدين المعروف في العالم الإسلامي آنذاك عبد المصطفى المراقحي.[٢٠]

وبهذا الشكل، فقد ترك الإنكليز بصمتهم على فن الدعاية الإذاعية، وواجهوا استغلال الإيطاليين للمستمع العربي، بنقل أخبار تحرضّهم عاطفياً، بمدخل آخر أكثر «لباقة»، يستند إلى استخدام المزاج الديني لدى المستمعين. يقول الباحث الأميركي تشارلز بولو: «بغض النظر، عن أنّ العرب، كانوا يفضلون على مدى فترة زمنية معيّنة، فيض الصراحة المهيبة لإذاعة «باري»، على الأسلوب المنطقي الوقور المستند إلى الحقائق لإذاعة بي بي سي، إلاّ أنّ ثقتهم البريئة في صحّة أخبار «باري» قد اهتزّت».[٢١]

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدأت حرب باردة بين الدول الرأسمالية الغربية، وبين المعسكر الاشتراكي، أطلق شرارتها السياسي البريطاني وينستون تشرشل في خطابه الشهير تاريخ ٥ آذار عام ١٩٤٦ في مدينة فولتون الأميركية، والذي أعطى فيه أساس أيديولوجي للمواجهة السياسية الجديدة.[٢٢]

حدث استقطاب جديد في مجال البث الإذاعي الدولي، مع بداية المواجهة التي حصلت بعد الحرب بين الكتلتين السياسية – العسكرية الغربية والسوفييتية. تم تأسيس العشرات من المحطات الإذاعية للبث الخارجي في خضم الحرب الباردة، وحصل ازدياد متنامٍ في عدد ساعات البث، وقوّة البث التي كانت تنقل البرامج، للجمهور في الدول الخارجية[٢٣]. فقد ازداد في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي عدد ساعات البرامج الموجّهة إلى الخارج في المحطات الإذاعية ل٢٧ دولة، الأكثر نشاطا في مجال البث الخارجي، أكثر من أربعة أضعاف. في عام ١٩٤٨، كانت البي بي سي، تبث برامجها بأكثر من ٤٠ لغة من لغات العالم. وتم تأسيس محطة «أوروبا» عام ١٩٥٠، موجّهة ضد الاتحاد السوفييتي السابق، وأسست محطة «أوروبا الحرّة»، في الفترة نفسها، موجّهة إلى الدول الاشتراكية السابقة، وجمهوريات الاتحاد السوفييتي.[٢٤]

لم يقتصر الصراع الدعائي عبر الأثير بين دول المعسكرين فقط، بل وجهت الدول الغربية بثّها إلى معظم دول العالم للترويج لنمط الحياة في المجتمع الغربي، وتشويه

سمعة الاتحاد السوفييتي السابق، وترويج الأفكار المعادية للشيوعية، وللأنظمة التحرّرية في دول العالم الثالث، التي كانت تناضل من أجل استقلالها، وتحظى في الوقت نفسه بدعم الاتحاد السوفييتي.

فيما يخص الدول العربية، أخذت البي بي سي على عاتقها، إنشاء محطة إذاعية تخريبية موجّهة إلى دول الشرق الأوسط، سميّت المحطة حينها «صوت بريطانيا»، وكان حجم ساعات بثّها أكثر بضعفين من حجم بث البي بي سي نفسها، وشنّت حملة دعائية شعواء ضد مصر العربية ونظام الرئيس جمال عبد الناصر.[٢٥]

كما أسّست المخابرات المركزية الأميركية عام ١٩٥٨، شبكة من المحطات الإذاعية السرّية في منطقة الشرق الأوسط، من أجل شنّ دعاية معادية للشيوعية، وللأنظمة العربية الرافضة للتبعية الغربية، ودعاية موالية لسياسة الكيان الصهيوني في المنطقة.[٢٦] الكثير من هذه المحطات حملت طابعا هجينا، وقدمت على أنّها تمّول من شركات خاصّة، في الوقت الذي كانت تديرها وتوجّه سياسة برامجها الإذاعية، المخابرات المركزية الأميركية، ويشرف على أجهزة إرسالها ضباط تابعين لها. كانت المحطات تطلب تبرعات من المواطنين، وتطلب تحويلها إلى حسابات هذه الشركات، كي تخفي حقيقتها وحقيقة تمويلها، وتضلّل الرأي العام. لقد كتب د.وايز وت. روس: «يقدم الجمهور أمواله، كتبرعات طوعية إلى مثل تلك المؤسسات، دون أن يدرك أبداً، أنّه وبأمواله التي تصل إلى ميزانية الولايات المتحدة، يمّول هذه المؤسسات أو الشركات، التي تتلقى ميزانيتها من خلال المخابرات المركزية الأميركية».[٢٧]

عبّرت حينها الدول العربية أكثر من مرّة عن احتجاجها ضد هذه البرامج التخريبية، الموجهة من قبل أجهزة استخبارات الدول الإمبريالية. وقد أعلن الممثل الرسمي لمصر في الأمم المتحدة عام ١٩٥٨، أنّ سبع محطات سرّية تعمل في منطقة الشرق الأوسط، تشنّ هجوماً إعلامياً وسياسياً ضد جمهورية مصر العربية بشكل عام، وضد الرئيس جمال عبد الناصر بشكل خاص. وقال إنّ محطتين تبثّان من الأراضي الفرنسية، والأخرى موجودة في عدن، والأردن، ولبنان، وقبرص، وكينيا. وأوضح ممثل جمهورية مصر العربية، أن هذه المحطات تقف خلفها المخابرات المركزية الأميركية: «إنّ هذه المحطات تحتاج إلى أموال ضخمة لتمويلها، ولذلك لا توجد دولة صغيرة، أو مجموعة دول صغيرة، بإمكانها تمويل هذه المحطات دون مساعدة خارجية».[٢٨]

لا بدّ من التنويه، إلى أنّ الولايات المتحدة الأميركية، وبعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية، أخذت في تطوير مبادئ غيبللز في الدعاية، الذي أصبحت مذكراته مرجعا رئيسيّا لدى العاملين في مجال الإعلام، إن كان في أميركا أو في دول أوروبا الغربية، للدور الذي لعبته الدعاية النازية في تجنيد الشعب الألماني وجعله يقف صفّاً واحداً خلف هتلر وسياسته العدوانية، حيث تمكّن بفضل ذلك أن يعلن حرباً مفتوحة على كل الجبهات في أوروبا، بهدف السيطرة على العالم.

تمكنت الولايات المتحدة خلال عقود بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية من إحداث تطوير كبير على أساليب وطرق الدعاية النازيّة، وأصبح بإمكانها استخدام هذه الدعاية على نطاق واسع للتأثير ليس فقط على جمهور الدولة أو المنطقة المستهدفة، بل وعلى الجمهور الأميركي والغربي بشكل عام.

لذلك وحسب رأي الكثير من المحللين السياسيين، فإنّ الدعاية الأميركية كان لها دور بارز في انحلال الاتحاد السوفييتي، وانهيار منظومة الدول الاشتراكية، وبالتالي تمكنها من الانتصار في الحرب الباردة، ومن فرض نظام القطب الواحد على الساحة السياسية الدولية، بعد إزاحة القطب الرئيسي المنافس لها.

وجاء التطور التقني الكبير في مجال الاتصالات نهاية القرن العشرين، ليقدّم إمكانيات هائلة لوسائل الإعلام، بحيث دخلت المحطات التلفزيونية الفضائية إلى كل بيت في أنحاء المعمورة، متجاوزة الرقابة الحكومية المحلية، مشكلة بذلك تحديّاً كبيراً لسيادة الدول الكبيرة قبل الصغيرة.

انحلال الاتحاد السوفييتي، أعطى مجالاً أوسع للدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، أن تزيح القناع أكثر عن أهدافها ومخططاتها التي تجاوزت الدعاية لنمط الحياة الغربي والقيم الرأسمالية، لتجعل من الدعاية جزءاً من حرب إعلامية عدوانية تشنّ على الدول المستهدفة، إمّا مقدمة ومكمّلة لعدوان عسكري، أو لزعزعة الأمن والاستقرار في هذه الدول.

وأخذت تنفّذ طرق الحرب الإعلامية عمليا في كل النزاعات العسكرية التي شاركت الولايات المتحدة فيها. المهمّة الرئيسية فيها، أصبحت تأمين دعم دولي لعدوان الولايات المتحدة والناتو. تم لهذا الغرض وخاصّة أثناء العدوان على يوغوسلافيا، جذب عدد من الهيئات الحكومية الأميركية للمشاركة في هذه الحرب الإعلامية: وزارة الخارجية الأميركية، وكالة الإعلام الأميركية، من فروعها (إذاعات «صوت أميركا»، و«الحريّة»، و«أوروبا الحرّة»)، والمخابرات المركزية وعلماء نفس من البنتاغون. حيث

تم تنظيم نشر مواد وكالة الأنباء الأميركية، في عدد من وكالات الأنباء العالمية، وما يلفت الانتباه، أنَّ هذه المواد منعت من النشر داخل الولايات المتحدة. بعد قصف المراكز التلفزيونية في بلغراد وبريشتينا، وجد سكان يوغوسلافيا أنفسهم ضمن «فراغ إعلامي»، ملأته على وجه السرعة محطة «صوت أمريكا» الإذاعية. بثت برامجها على موجات التلفزيون الصربي. لم ينس العسكر الأميركيون الوسيلة القديمة المجرّبة للحرب النفسية، فقد رموا أكثر من ٢٢ مليون منشور تدعو الصرب الوقوف ضد الرئيس ميلوسوفيتش للمساهمة في إنهاء الحرب بالسرعة الممكنة.

فيما يخص المنطقة العربية، عملت الإدارة الأميركية بشكل مباشر وغير مباشر، على إقامة محطات تلفزيونية فضائية في المنطقة، قسم منها أخذ الجنسية العربية مثل «الجزيرة»، وقسم آخر أعلن عن هويته مثل قناة «الحرّة»، بهدف الترويج لنمط الحياة الأميركي، وإعداد الأرضية المناسبة لتقبل السياسات الأميركية، والغربية (غسل الأدمغة، وتشويه الذاكرة التاريخية للعرب.. إلخ.)، كي تكون أدوات مكمّلة في حال وقوع أي تدخل مستقبلي ممكن.

أسس قناة «الجزيرة» الأخوان ديفيد وجان فريدمان، اليهوديان الفرنسيان اللذان يحملان الجنسية الإسرائيلية، بعد مقتل صديقهما اسحق رابين، بهدف كما قال ديفيد فريدمان التقريب بين الإسرائيليين والعرب[٢٩]. لكنّ الهدف الرئيسي هو التمهيد لمشروع «الشرق الأوسط الكبير»، الذي أصبحت تفاصيله معروفة، وستكون فيه إسرائيل، وكما أصبح معروفاً الدولة الأقوى اقتصاديّاً وعسكرياً وسياسياً.

إنّ كل برنامج من برامج هذه القناة ينفّذ مهمة إعلامية وسياسية محددة: برنامج «مراسلون أجانب» مثلا، يقدم للمشاهد العربي وجهة النظر الصهيونية عن الأحداث في هذا البلد أو ذاك. ويعمل برنامج «شاهد على العصر» على تشويه الذاكرة التاريخية للعرب...إلخ.

سعت «الجزيرة» خلال برامجها ومنذ نشأتها إلى تبرير شرعية الكيان الصهيوني، وإعطاء تقييم الأحداث الجارية في العالم من وجهة نظر صهيونية، من خلال استضافتها لمحللين سياسيين، يتبنون الفكر الصهيوني، وهناك الكثير من الأسماء، لا مجال لذكرها. وعمدت القناة على التشكيك والتشويه والتقليل من أهمية المحطات التاريخية العربية الهامة، في الصراع العربي – الصهيوني، كظاهرة جمال عبد الناصر، وحرب تشرين..إلخ. والتأكيد والإشادة بالمواقف الاستسلامية، كاتفاقية كامب ديفيد، وأوسلو..إلخ. وهذا كلّه في سبيل قلب المفاهيم والمعايير

وتضليل الرأي العام العربي، وإقناعه بعدم جدوى مقاومة إسرائيل، لأنها أصبحت حقيقة واقعة، ويجب التعامل معها كجزء لا يتجزأ من تاريخ المنطقة التي تعيش عليها قوميات وأقليات وشعوب مختلفة.

إنّ الحرب الإعلامية في الوقت الحاضر، ومستوى تطوّر التكنولوجيات الإعلامية، ألغت الحدود بين الدول، وأسست لإمكانيات لا حدود لها، من أجل الانقضاض على العدوّ، دون استخدام الوسائل التقليدية للدمار. لقد أدرك البنتاغون جيداً هذه الإمكانيات، وأعدّت وزارة الدفاع الأميركية عام ١٩٩٨م، مذهباً جديداً «المبدأ الموحّد للعمليّات الإعلامية»، أدخل فيه لأوّل مرّة مصطلح «الفضاء الإعلامي الإستراتيجي». أهداف التأثير، هي: القيادة السياسية والعسكرية، منظومة الخدمات العامّة، البنية التحتية، السكان والقوات المسلّحة. وكون التأثير على الأهداف المذكورة، يتم بمساعدة طرق وتكنولوجيات وسائل الإعلام وشبكة الإنترنت، أخذت هذه العملية اسم «الحرب الإعلامية- الشبكية». أساسها هو التأثير المكثّف على الحالة الأخلاقية - النفسية لقيادة وشعب البلد- العدوّ.

تهدف «الحرب الإعلامية- الشبكية»، إلى تنفيذ عدد من الإجراءات الهامة ضد العدو المستهدف أهمّها: خلق أجواء تنعدم فيها الأخلاق والقيم الروحيّة، وهذا بدوره يهيّئ لأجواء خلافية مناسبة، وإضعاف هيبة السلطة، والتضليل والتلاعب بالرأي العام وبالتوجّه السياسي للفئات الاجتماعية، بهدف خلق أجواء من التوتر والفوضى، وزعزعة العلاقات السياسية بين الأحزاب.. وصولاً إلى زعزعة الأمن والاستقرار وإحداث فوضى في البلد المستهدف، وبالتالي إسقاط نظام الحكم فيه، وإحداث ما يسمّى الفوضى الخلاّقة، أو تقسيمه أو.. إلخ.

أُسّست في بداية أحداث ما يسمّى «الربيع العربي» غرفة عمليات موحّدة للناتو في لندن، هدفها إضافة إلى قيادة العمليات العسكرية، إدارة «الحرب الإعلامية - الشبكيّة»، الموجهة ضد الدول المستهدفة من هذا «الربيع».[٣٠]

تعتبر «الحرب الإعلامية - الشبكية»، التي استهدفت ليبيا، المثال الكلاسيكي لهذا النموذج الجديد من الحرب[٣١].

ماهي الأساليب التي استخدمت لزعزعة النظام في ليبيا؟

تضمنت المرحلة الأوليّة للعملية، أوّلا وقبل كل شيء، إعداد الرأي العام داخل الدول الأوروبية وخارجها، لتأمين مساندة الأعمال المناهضة لنظام الرئيس معمّر القذافي، التي قادتها الحركات المختلفة داخل ليبيا، وتقديم الدعم العسكري من قبل الدول الغربية، والعربية، وتقبّل التدخل العسكري.

لقد تمَّ وضع الأهداف التالية أمام وسائل الإعلام الغربية، والمستعربة:

– تشويه سمعة الرئيس القذافي، وأنّه ديكتاتور دمويّ، أوصل الشعب الليبي إلى حافة اليأس، باستخدامه الوسائل الحربية ضدّه، واعتبار القذافي مجرم حرب؛

– تقديم «المعارضة» للشعب الليبي، كقوّة تقدمية وحيدة موجودة في البلد، والتي ستقود الدولة الليبية وشعبها، إلى حالة الازدهار، والعدالة، والديمقراطية بمعناها الإيجابي؛

– إحداث تعاطف شعبي في الدول العربية، مع «المعارضة» الليبية، التي تقود النضال ضد «الطغيان» بدوافع وطنيّة بحتة، متسلّحة بالقيم الإسلامية، اقتداء بالشعبين التونسي والمصري؛

– العمل على إعداد الرأي العام الأوروبي، لتقبل فكرة أنّ محاربة القذافي «عدوّ الجنس البشري» يمكن ويجب أن تتم فقط بالطرق العسكرية، استجابة «لتوسّل» المدنيين الليبيين، وطلبهم المساعدة من الدول الأوروبية الكبرى؛

– العمل على أن يتقبل المجتمع الدولي، نموذج المبادرين الأوروبيين للعملية العسكرية ضد القذافي، كمنقذين للشعب الليبي المسالم، الذي يدمّر بسبب احتجاجه على الاستبداد والقمع الذي يمارسه «الدكتاتور» ضدهم، والحصول في هذا السياق على تفويض من الأمم المتحدة.

– تضليل الجنود الليبيين، فيما يخص القدرة الواقعية للعدوّ، وإحداث حالة من الهلع في صفوفهم وشلّ القوى المساندة للرئيس القذافي.[٣٢]

المرحلة الثانية – الفعّالة، أي التنفيذية والعسكرية

رافقت الحملة العسكرية، وبشكل متزامن، حملة إعلامية أهم أهدافها:

– عرض وحدة دول الناتو، في محاربة «الدكتاتور الدموي»، والمساندة الدولية للعدوان؛

– تكوين وهم الانتقاء الصارم للأهداف العسكرية التابعة للنظام الليبي، وعدم خطورة ذلك على جنود الناتو والمدنيين الليبيين؛

– تركيز الانتباه على مراعاة الولايات المتحدة وقوات الناتو بصرامة لقرار مجلس الأمن أثناء العملية العسكرية؛

– تضليل الرأي العام الدولي وقوى الحكومة الليبية فيما يخص نجاحات «المعارضة» الليبية، ونجاح عمليات الناتو العسكرية.

وكما أصبح معروفاً، استخدام –أثناء هذه المرحلة– التضليل فيما يخص الوضع العملياتي في البلد، ونتائج عمليات الجيش الليبي النظامي ضد «الثوار» وأفعالهم، والتناسب الواقعي للقوى كذلك. كما

استخدمت صور، وأفلام فيديو مزوّرة، تمّ تصويرها في استديوهات خاصّة في قطر، صمّمت فيها مجسّمات للساحات الرئيسية للمدن الليبية، لتكوين النموذج الإيجابي «للثوار»، والسلبي للقوى النظامية. عدا عن ذلك، امتلأت المصادر الإعلامية بالأخبار «اللازمة» (من مكان الحدث بشكل خاص)، دون الإسناد إلى المصادر، وكانت مبنية على الانفعالات والعواطف.[٣٣]

وقد لا نضيف جديداً لو قلنا، إنَّ الحرب الإعلامية والتضليل الذي مارسته وسائل الإعلام الغربية والمستعربة، كان لهما الدور الرئيس في إسقاط النظام وإدخال ليبيا في فوضى، لا يُعرف مداها.

سورية كان لها النصيب الأكبر من الحرب الإعلامية، كونها الدولة المستهدفة (رقم واحد) في أحداث ما يسمّى الربيع العربي، حيث تمّ تشكيل غرف عمليات عدة لإدارة الحرب الإعلامية والتضليلية في دول المنطقة، إضافة إلى غرفة عمليات الناتو الرئيسية الموجودة في لندن، ليكمّل بعضها بعضا، ويزيد من فعّالية التضليل والتلاعب بوعي الناس، واستُخدمت أساليب وطرق جديدة للتأثير على عقول السوريين، والرأي العام العربي والعالمي.

لا مجال هنا للدخول في تفاصيل هذه الحرب القذرة التي شنّت ضد سورية، لكن الذي يمكن قوله، إنّ الولايات المتحدة ولأوّل مرّة في تاريخها، تخسر مواجهة إعلامية – نفسيّة بهذا الحجم، على الرغم من الأموال والموارد الضخمة، التي أنفقت عليها، وذلك لأسباب عدة أهمها:

– الشعبيّة غير القليلة للنظام في سورية داخلياً وخارجياً، وفي معظم الدول العربية، لوقوفه ضد المشاريع الأميركية الصهيونية في المنطقة، ودعمه لحركات المقاومة في المنطقة وعلى رأسها المقاومة الوطنية والإسلامية اللبنانية؛

– لاقت القيادة السورية ومنذ الأيام الأولى للأزمة، المطالب التي تستّرت خلفها الحرب الإعلامية، وعملت ليس فقط على تحقيق هذه المطالب، بل تجاوزتها، لتُحدث تغييرات هامّة في بنود الدستور السوري، الذي أصبح يضاهي دساتير الدول الأكثر ديمقراطية؛

– تمكّن الجيش السوري الإلكتروني، الذي تشكّل عفويّاً وطوعيّاً، من فضح حملات التضليل الإعلامية، وكشف تزييفها للصور والحقائق، ونشرها عبر شبكات التواصل الاجتماعيّة. أبرز الأمثلة على ذلك، هو فضح الصور والمشاهد التي كانت تبثها القنوات المشاركة في الحملة ضد سوريا، وخاصّة قناة «الجزيرة»، عن جرائم قتل الأطفال والنساء، التي كانت تُلبسها للنظام السوري، ليتبيّن فيما بعد أن هذه الصور ومقاطع الفيديو، أخذت من مشاهد

الجرائم الإسرائيلية في لبنان وفلسطين، أو أنها مشاهد لضحايا العدوان الأميركي على العراق. كما كان لنشر مقطع الفيديو الذي يظهر إرهابياً من ما يسمّى الجيش الحرّ، وهو ينتزع أحشاء جندي سوري قد استشهد لتوّه، ويأكلها، حيث انتشر هذا المقطع على شبكات التواصل الاجتماعية، وكان من بين العشرة مقاطع، الأكثر مشاهدة في أوروبا، لمدة تزيد عن الشهر، أثراً كبيراً في دحض ما تروّجه الوسائل الإعلامية الغربية و«الجزيرة»، ومن يدور في فلكهما؛[٣٤]

-الدعم السياسي- الدبلوماسي الروسي في المنظمات الدولية، وتركيز الرئيس بوتين ووزير خارجيته لافروف الدائم، على أنّ من يحارب في سورية إلى جانب التنظيمات المسلّحة، هو تنظيم القاعدة الذي يشكل خطراً ليس على سورية فحسب، بل وعلى المنطقة بأكملها.

لذلك أظهرت استطلاعات الرأي العام في دول الناتو نفسها، معارضة الأغلبية من السكان توجيه ضربة عسكرية لسورية. حيث بيّنت هذه الاستطلاعات معارضة ٦٨٪ من الأميركيين، و٧١٪ من البريطانيين، و٦٣٪ من الفرنسيين، و٧٦٪ من الأتراك توجيه ضربة عسكرية لسورية.[٣٥]

الهوامش

1- Кашлев Ю.Б. Информационный взрыв. Москва 1988 с. 10.

2- Там же.

• الدعاية – نشر الأفكار السياسية والفلسفية والعلمية، وأفكار أخرى في المجتمع. تنشر الدعاية السياسية أو الأيديولوجية، بهدف تكوين وجهة نظر محددة. (М-.СЭС. ١٩٧٩)

3- Беглов С.И. Внешнеполитическая пропананда. Очерк теории и практики. М.1984. с. 61.

4- Там же с. 6162-.

5- Там же с.62. lasswell H. propaganda Technique in the World War. New-York, 1927,p.3.

6- Там же с. 64.

٧- إنّ خطاب الأربع دقائق هو نوع من فنون الدعاية الشفهية، الذي أدخله كريل داخل الولايات المتحدة، بهدف حشد الرأي العام لمساندة الأعمال العسكرية التي تقوم بها الحكومة. Там же، وكذلك: Sobel R. The Manipulators. ١٩٧٦، p. ٧٩.

8- Там же.

9- Там же с.65. وكذلك: Лайнбарджер П. Психологическая война с. 104.

10- Там же وكذلك lasswell H. propaganda Technique in the World War. New-York, 1927.

11- Там же. وكذلك Селезнев И.А. Война и идеологическая борьба. М.1964 с. 44 – 45.
12- Там же с.66.
13- Кашлев Ю.Б. Информационный взрыв... с. 12.
14- Там же.
15- Там же.
16- Там же с. 13.
17- Панфилов А.Ф. радиовойна история и современность. Москва 1984 с. 33.
18- Там же.
19- Там же.
20- Там же с.34
21- Там же.
22- http://www.aif.ru/society/history/1093880
23- http://propagandahistory.ru/books/Igor-Panarin_SMI--propaganda-i-informatsionnye-voyny/10
24- Ibid.
25- Панфилов А.Ф. радиовойна история и современность. Москва 1984 с. 109
26- Там же.
27- Там же с. 110
28- Там же.
29- http://zarava.livejournal.com/120212.html
30- И.Н. Панарин. СМИ, пропаганда и информационные войны, 2012. М. 2012. http://uchebnik-besplatno.com/uchebnik-teoriya-politiki/predislovie17934.html
31- http://newsland.com/news/detail/id/929775/
32- www. polittech.org.
33- Ibid.
34- http://expert.ru/201313/09//uzhe-proigrali/
35- Ibid.

توقعات الخبراء حول أفول الإمبراطورية الأميركية

إبراهيم سلوم ❁

ما زال الكتاب الذي أصدره الكاتب الأميركي جوناتان فرانزين في العام ٢٠١١م تحت عنوان: «الحرية» يلقى رواجاً واسعاً لدى دور النشر والمكتبات في شتى دول الغرب. ففي هذا الكتاب يتحدث الكاتب عن تصدع قريب للإمبراطورية الأميركية، وعن انهيار القيم والمثل فيها وذلك بعد أن أظهرت عمليات استطلاع الرأي العام الأميركي آنذاك أن ٧٠٪ من الأميركيين باتوا يعتقدون أنَّ بلدهم سيعاني مستقبلاً من الانحطاط ومن الأفول المتدرج.

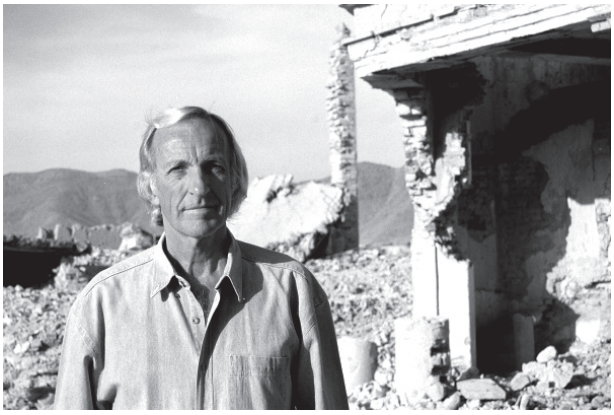

فضلاً عن أن الكتاب يأتي ليؤكد

❁ باحث ومترجم سوري.

صحة الدراسة التي أصدرها «المعهد الفرنسي للأبحاث الدولية» (IFRI) بتاريخ ٢٠٠٣/٥/٦م بشأن مصائر الأمم والدول في القرن الواحد والعشرين. وفي هذه الدراسة إشارة واضحة إلى «أن هذا القرن سوف ينذر بخروج الولايات المتحدة الأميركية من دائرة التجارة العالمية قبل حلول منتصفه نتيجة نموها الاقتصادي الآخذ بالتراخي عاماً بعد عام وديونها المتزايدة حيال الصين، والتي تربو اليوم على الـ١,٣ تريليون دولار، معظمها تحت شكل سندات خزينة أميركية». كذلك يؤكد على ما ورد في الكتاب الذي أصدره في العام ٢٠٠٤م الكاتب الأميركي جيرالد سوانسون بعنوان: «الانهيار الاقتصادي لأميركا»، وفيه يتحدث عن انهيار وشيك للإمبراطورية الأميركية حيث سيفقد الكثير من الأميركيين وظائفهم خلال السنوات القادمة نتيجة العجز الذي أصاب الميزانية الأميركية ووصل إلى ٦٤٥ مليار دولار في مطلع هذا القرن، فضلاً عن الديون المتراكمة التي لم تتمكن الإدارة الأميركية من تسديدها بشكل كامل لصالح الدول الدائنة. ناهيك عن وجود أزمة أخلاقية في المجتمع الأميركي نتيجة انهيار القيم والمثل فيه، وهذا من شأنه أن ينعكس سلباً على استمرارية هذه الإمبراطورية في البقاء، كما أشار إلى ذلك الكاتب الأميركي «إدوارد لوتوراك» في كتابه الصادر في العام ١٩٩٤م بعنوان: «الحلم الأميركي في خطر» حيث ضمنه انهيار الإمبراطورية الأميركية التي ستتقهقر حتى عام ٢٠٢٠م لوجود أزمة أخلاقية فيها، الأمر الذي سينعكس سلباً على الإنتاج، لأن الحضارة، حسب قوله، «هي أشبه بالأفراد، وإذا ابتعد هؤلاء عن الجوهر الإنساني في وجودهم أصيبوا بالعطب والفساد، كما حصل مع سابقاتها من الإمبراطوريات المنهارة». ولقد سلطت الكاتبة الأميركية الزنجية «توني موريسون» الحائزة على جائزة نوبل للآداب ١٩٩٣م الضوء على هذه الأزمة الأخلاقية في كتابها: «العين الأكثر زرقة»، وحين تحدثت عن «همجية الإنسان الأبيض ذي العيون الزرقاء الذي يجعل العالم يعيش هيروشيما ثقافية تعمل على تفكيك الروح بعد أن فككت هيروشيما المادية أعضاء الجسد».

في الواقع، لا بد لكل مراقب ثاقب للبصر ممن يتابعون حركة التاريخ في العالم من إدراك حقيقة أنَّ ثمة مراحل في تاريخ البشرية تشهد فجأةً هيمنة إحدى الدول على مصائر الدول الأخرى بسبب هزيمة أو انهيار معسكر أعدائها. ثم لا تلبث هذه الدولة أن تأخذ بالانهيار نتيجة المكابرة والشعور بالتعالي والغطرسة على الآخرين. ففي القرن السادس عشر مثلاً سادت ثلاث إمبراطوريات هي: إسبانيا ثم فرنسا وإنكلترا، ومارست كلها سيطرة كونية في

المجالات العسكرية والاقتصادية والثقافية. وكانت آخرها الإمبراطورية البريطانية التي لم تعرف انطلاقة حقيقية إلا بعد الهزيمة التي ألحقتها بجيش نابليون بونابرت في معركة «واترلو» ١٨١٥م، ولم تنتهِ هيمنتها إلا مع صعود الطموحات الألمانية التي كانت بمثابة عود الثقاب الذي أشعل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م).

وهاتان الحربان الكونيتان استنزفتا القارة الأوروبية التي شهدت دخول لاعب سياسي جديد على المسرح ألا وهو الولايات المتحدة الأميركية التي سمح تدخلها في هاتين الحربين برجحان كفة النصر لدى دول الحلفاء على ألمانيا التي منيت خلالهما بهزيمة نكراء أدت غداة الحرب العالمية الثانية إلى تفتيتها إلى جزءين: غربي وشرقي. وهكذا جاءت النتائج التي انتهت إليها الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٤٥ لتجعل من الولايات المتحدة الأميركية إمبراطورية جديدة تتربع على عرش العالم وتزيح جانباً الإمبراطورية البريطانية التي كانت لاتغيب عنها الشمس. ومنذ ذلك الحين أصبح عالمنا أمام قطب عالمي جديد استقطب القسم الغربي من بلدان أوروبا بشكل موازٍ للاتحاد السوفييتي. وفي هذا القسم الغربي قادت الولايات المتحدة الأميركية مشروعاً إعمارياً واسع النطاق عزز كثيراً من هيمنتها ونفوذها في غرب أوروبا وأطلقت عليه اسم «مشروع مارشال»، نسبةً إلى وزير خارجيتها آنذاك جورج مارشال من أجل إعادة إعمار ما دمرته الحرب. ومن خلال هذا المشروع الضخم استطاعت الولايات المتحدة الأميركية أن تفرض نفسها كقوة عسكرية واقتصادية تهيمن على هذا القسم حيث فرضت عليه بالتدريج ثقافتها وسياستها ونمط معيشتها، كما أوحت إليه بأن هناك تهديداً شيوعياً سوفييتياً قد يطال أرضه ويهدد أمنه واستقراره. وكان لهذا الاعتقاد بوجود تهديد سوفييتي أن دفع بسكانه إلى مساكنة الوطأة الأميركية والاستظلال تحت مظلتها والقبول بموقع النسق الثاني من بعدها لا بل والتظاهر بالوحدة معها أيديولوجياً واقتصادياً وثقافياً تحت شعار «الثقافة الغربية الواحدة».

وضمن هذا السياق تمكنت الولايات المتحدة الأميركية بفضل عقلها الاستعلائي من جعل هذا الجزء ينقاد إلى التسليم بضرورة إقامة ما يسمى «منظمة حلف شمال الأطلسي» بحيث تكون فيه ضمانته وحاسوبه وسداً منيعاً في وجه التهديد الشيوعي المتمثل «بحلف وارسو». وكان هنري كيسنجر الذي شغل منصب وزير الخارجية الأميركية في عهد الرئيس جيمي كارتر في منتهى الصراحة والواقعية حيث قال: «على حلفاء أميركا أن يواجهوا حقيقة واحدة وهي أنَّهم

جنود في أمــرة القائد الأميركي وأن يقوموا بالتالي بــأداء المهام المطلوبة منهم لأن في ذلك ضماناً لمصلحة أميركا أولاً ولمصلحة بلدانهم ثانياً».

والجدير بالذكر أنَّه خلال هذه المرحلة تشكلت ثنائية قطبية هي أشبه بالكوندومنيوم الدولي الذي اتســم بمنافســة ضــارية بين الاتحــاد الســوفييتي والولايــات المتحدة الأميركية أطلق عليها اسم «الحرب الباردة». وهذا الصدام كما نعرف، أدى في صيف عام ١٩٩١م إلى انفجار الاتحاد السوفييتي وإلى ارتقاء الولايــات المتحــدة الأميركية موقع الصــدارة الذي لم تبلغه أية قوة أخرى منذ قرون. وبالفعل أصــبحت الولايات المتحدة الأميركية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي القوة العظمى الوحيدة التــي ليس لأية قوة كبرى أخرى في العالم أن تتحداها أو تطمح لتحل محلها وذلك بفضــل اعتمادها على معايير جديدة لم تكن معروفة من قبل، ولم يســبق لأيــة إمبراطورية أخرى أن اســتندت إليها. وتتمثــل هذه المعايير في بنــاء جيش قوي، وفي تنمية المتاجرة بالســلاح، وفي التفوق التكنولوجي، والأنكى من ذلك كله أن واشنطن غلفت هذه المعايير كلها بغلاف أيديولوجي لا يخلــو من جيوب لاهوتية، في إشــارةٍ إلى أن العنايــة الإلهية قد أعــدت أميركا لتكون خلاصاً لكل البشرية جمعاء. وذلك بناءً على ما جاء في أطروحة الدكتوراة التي تقدم بها الجيوسياسي الأميركي «فرنسيس فوكوياما» بعنوان «نهاية التاريخ» التي مازالت حتى يومنا هذا الحديث المتداول بين معظم المفكرين والقادة السياســيين في العالــم، والتي يرى فيها «أنَّ نهاية تاريخ البشــرية قد انتهى مع سقوط الاتحاد الســوفييتي ليبدأ العالم كله تاريخاً جديــداً هو التاريــخ الأميركي ومن ثم تشــكيل حالة دولية جديــدة هي النظام العالمــي الجديد، ذلك أنّ النموذج الأميركي في العيش هو الذي انتصر في النهاية».

واســتناداً إلى هذه المعايير شــهدنا في نهاية القرن الفائت ظهور جيش أميركي قوي يحظى بميزانية عالية وبقواعد عسكرية في المحيطات والبحار بحيث تكون نقطة انطلاق لهذا الجيش إلى المناطق الســاخنة عندما تقتضــي الضــرورة ذلك. والسبب في ذلك يعــود إلى ظهور تيار فــي الولايات المتحدة يعتبر بأن القوة العسكرية هي العلاج الناجع لكل مشكلاتها السياسية والمالية. لذا يجب العمــل على تعزيزها ومنع أيــة دولة من أن تنافســها على هذا الصــعيد. ففي التقرير الصادر عن قيادة الجيش الأميركي في آذار في العام ٢٠٠٣م بعنــوان: «تقرير المراجعة الدفاعية الربعي» الذي يصــدر مرةً واحدة كل أربع ســنوات نقرأ فيه توصيات تقتضي بأن يكــون الجندي الأميركــي أقوى جندي في العالم، وجيشــه قادر على إلحاق الهزائم بالجيوشــ الأخرى فــي العالم، ثــم يختتم

التقرير نصه بهذه العبارة: «لنضعْ أحذيتنا فوق رؤوسهم ونجبرهم على تلبية رغباتنا». وهذا ما يتماشى مع ما أدلت به مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية في عهد الرئيس رونالد ريغن حين قالت: «لم نصنع في الولايات المتحدة الأميركية جيشاً على شاكلة نافخي القُرب في أسكتلندا بل من أجل دحر أي عدوان محتمل ضدنا». أو مع ما أدلى به نائب وزير الدفاع الأميركي جون وولفووتز في عهد الرئيس جورج بوش الاب: «يجب أن نبقى قوة عسكرية كافية لردع أية أمة تفكر في تحدي هيمنة الولايات المتحدة الأميركية ونفوذها عبر العالم، شريطة أن يرافق ذلك كله حملة إعلامية في الصحف ووسائط الإعلام السمعية والبصرية من أجل هذا الغرض. ومن أجل تحقيق أهدافنا يجب أن نحاول الحصول على معونة كتَّاب مشهورين في عالم الأدب والسينما سواء أكان في داخل الولايات المتحدة أم في خارجها ونطلب منهم تأليف الكتب لحسابنا لأنَّ شهرتهم ستعطيهم إمكانية أكثر للتصديق والإقناع».

وفي إحصائية دقيقة نشرتها صحيفة «لوموند» الفرنسية نقرأ بأن عدد القوات الأميركية بلغ في العام ٢٠٠٤م زهاء ١,٤٢٣٣٤٨ مليون عسكري كعدد إجمالي من بينهم ١٦٧٣٢٩ جندياً في العراق، و٢٥٧٠٢٢ جندياً موزعين على ٧٠٠ قاعدة عسكرية عبر العالم بأسره، ومن أهمها قاعدة «دييغو غارسيا» في المحيط الهندي، وقواعد أخرى منتشرة في المملكة العربية السعودية، وإمارة قطر، والإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عُمان، ومملكة البحرين. ناهيك عن وجود حاملات الطائرات المنتشرة أيضاً في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي والبحر المتوسط. ومن أجل دعم هذا الجيش رصدت له ميزانية هي الأكبر في العالم بحيث يتصدر ترتيب جيوش العالم الأكثر تسلحاً وقوةً قبل روسيا والصين. والمثير للعجب هو تزويد هذا الجيش بعقيدة يطلق عليها اسم «كورتينا» وهي تسمية مستعارة لأي بلد ما قد تعتبره الولايات المتحدة الأميركية بأنه أصبح عدواً لها ويهدد مصالحها وبالتالي يجب القضاء عليه من خلال تنفيذ مشروع عسكري افتراضي ضده. وإذا وجدت واشنطن بأن مبررات ضربه غير كافية لدى الرأي العام الأميركي فيجب إذاً خلق الذرائع التي تخلق منه العدو رقم/١/ أياً كانت الطريقة المتبعة، فالغاية تبرر الوسيلة. ومن المعلوم أن الولايات المتحدة ماهرة جدَّاً في صنع أعداء لها تمهيداً لتنفيذ مآربها السياسية غير المعلنة. وكانت أول تجربة لها على هذا الصعيد خلال الحرب العالمية الأولى حيث كانت تريد خوض الحرب إلى جانب الدول الحليفة مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا ضد

ألمانيا والنمسا. وبما أنه لم يكن هناك أي مبرر يسوغ لها الدخول في هذه الحرب فقد اخترع الكونغرس خطة مفادها: أنه في يوم ١٤ شباط ١٩١٥م التقط الإنكليز برقية مرسلة من وزير خارجية ألمانيا آرثر زيميرمان إلى سفيره في المكسيك، وفيها يقترح إقامة حلف بين ألمانيا واليابان ودول أميركا اللاتينية التي تكن الحقد لواشنطن وخاصة المكسيك لوجود /٥/ ولايات أميركية كانت تابعة للمكسيك اغتصبتها واشنطن وذلك للانقضاض على الولايات المتحدة. ولقد تبين لاحقاً أن البرقية مفبركة والغاية منها استدراج الرئيس الأميركي ويلسون (١٩١٣-م١٩٢١) إلى دخول غمار هذه الحرب. واستناداً إلى هذه الطريقة يرى الصحفي الأسترالي جون بيلجر في كتابه: «الدعاية السوداء» أن اتهام أفغانستان والعراق بأحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م هو عمل متعمد، والغاية منه احتلال هذين البلدين، ويدخل ضمن المشاريع الأميركية بالقضاء على الخصم من خلال القيام بعمل إرهابي في الولايات المتحدة الأميركية واتهام الخصم بذلك عمداً لاحتلاله. وهذه الخطة تدعى «نورث وودز»، وتتطلب القيام بتفجيرات وخطف طائرات وإسقاط أرواح أميركية بهدف تبرير عملية عسكرية ضد دولة تراها واشنطن معادية لها. وقد عرضت في حزيران العام ١٩٦٣م هذه الخطة على جون كيندي لتبرير عدوان على كوبا إلا أن كيندي رفضها، ما أدى إلى اغتياله بعد ٦ أشهر. وباعتقادنا أن خطة رامسفيلد باحتلال أفغانستان ثم العراق ليست سوى نموذج عن هذه الخطة». إنها الرؤية نفسها التي يراها الكاتب الفرنسي جان فرانسوا سوسبييل حول ما جرى في العراق وأفغانستان عبر كتابه: «الصين والولايات المتحدة الأميركية: الحرب المبرمجة»، وفيه يقول: «إن القوة الظافرة لا يمكن لها أن تعيش من دون أعداء، لهذا لا بد لها أن تخلق العدو كما يخرج الساحر الحمام من قبعته، وأميركا لا تجد لها أية صعوبة بذلك، فالعدو البعيد هو الصين المؤهلة مستقبلاً للوقوف في وجهها. ولما كان صعباً عليها ضرب الصين فقد ضربت من خاصرتها النفطية حين هجمت على أفغانستان والعراق بشكل مباشر لكنها في الخفاء توجه هجومها بشكل غير مباشر للصين حتى لا تظهر يوماً وكأنها مارد اقتصادي وبشري وجغرافي، أو لربما للثأر من الصين لوقوفها إلى جانب الشعب الفيتنامي خلال الحرب الفيتنامية. ولهذا السبب شاع في العالم أن الولايات المتحدة الأميركية دست مرض «السارس» أنفلونزا الطيور للصينيين لضرب اقتصادهم وسياحتهم وشل قواهم. فالصين في نظر المحللين السياسيين الفرنسيين مثل أندريه فونتين هي ثاني أكبر قوة اقتصادية

في العالم حيث تنتج ٨٣٪ من الجرارات في العالم و٧٥٪ من الساعات و٦٠٪ من الدراجات النارية و٧٠٪ من لعب الأطفال المتحركة و٥٠٪ من التلفونات المحمولة وأجهزة الكمبيوتر، إضافة إلى ٢٨ صاروخاً نووياً قادراً على إصابة أهداف في أميركا، ولديها ١٥٠ مليار دولار في بنوك أميركا، ما يؤهلها لأن تصل يوماً ما إلى مستوى الولايات المتحدة والتفوق عليها في المدى المنظور. لذا يجب على واشنطن القيام بعملية استباقية تفشل وصول الصين إلى مستواها لتبقى هي اللاعب الوحيد الذي لا منافس له على الساحة الدولية». وهذا ما يؤكده المحلل السياسي الأميركي «فيليب غولوب» حين قال: «إنَّ الحرب مترسخة في الطبيعة الأميركية، فيها الخاسر والرابح، وهي تأتي مما نحن عليه وليس نتيجة ظروف خارجية. ولما كانت أميركا تملك المال والقوة فيجب إذاً أن تسيطر وإلا فستكون مهددة بتعددية ثقافية من الصين وروسيا والدول الإسلامية. لذا يجب التفكير دوماً بالحرب الاستباقية لتبقى قوة عسكرية قادرة على ردع أية أمة تفكر في تحدي هيمنة الولايات المتحدة الأميركية ونفوذها».

ثمة وسيلة أخرى من وسائل الهيمنة الأميركية وتكمن في تنمية تجارة الأسلحة، وهي من الفوارق الأخرى بين الإمبراطورية البريطانية السابقة والإمبراطورية الأميركية الحالية. وتشير الإحصائيات إلى أنه منذ الحرب العالمية الثانية بشكل خاص بلغت عملية بيع الأسلحة الأميركية في زمن السلم مستوى غريباً لا سابق له في التاريخ الحديث. وحركة بيع الأسلحة هذه حولت الولايات المتحدة الأميركية إلى قوة اقتصادية مهيمنة وجعلت بقية الدول الأخرى تعترف بمنطق الإمبراطورية الأميركية وتخضع بشكل تلقائي لهيمنتها وإرادتها التي تعاظمت مؤخراً بالعولمة. وعلينا ألا نغفل بأن التفوق التكنولوجي الأميركي قد فرض نفسه في المجال الاقتصادي كما في المجال العسكري، وذلك عندما أصبحت السلطة السياسية فيها تمسك بمقاليد أمور هذه التكنولوجيا وتبيعها إلى العالم حيث لاقت رواجاً لدى معظم الدول في الغرب والشرق. وهذا ما ترك أثراً عميقاً في أذهان قادة هذه الدول التي استسلمت للقدر الأميركي، بحسب رأي المحلل السياسي الأميركي توماس فريدمان الذي كتب يقول: «إنَّ الناس عندما أدركوا قوة واشنطن العلمية والعسكرية استسلموا للقدر الأميركي وأصبحوا عاجزين عن التأثير فيه». واستناداً إلى ذلك اضطلعت أميركا بالدور القيادي في القطب الواحد، وأصبحت عازمة على أن تخلق عالماً على شاكلتها كنوع من بعث جديد للإمبراطورية الرومانية ولكن بتقنية متقدمة ومتطورة جداً».

ولبلوغ هذا الهدف أضفت واشنطن على كل هذه المعايير طابعاً أيديولوجياً لتوحي بأنها تحمل رسالة خلاصية لإنقاذ البشرية جمعاء من الظلم والاستبداد. ومن يتابع حركة التاريخ الأميركي يلاحظ جيداً بأنه منذ جورج واشنطن الرئيس الأميركي الأول (١٧٨٩-١٧٩٧م) الذي قاد معركة الاستقلال ضد الإنكليز (١٧٧٦-١٧٨٣م) وحتى يومنا هذا لا يوجد رئيس أميركي إلا ويعتبر نفسه حامل رسالة كونية إلى البشرية جمعاء. ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر ما كان قد أدلى به الرئيس توماس جيفرسون (م١٨٠١) في خطاب القسم حين أوضح «بأن أميركا بين يدي الله الذي قاد آباءنا من أوروبا إلى أرض الميعاد (أميركا) كما قاد شعب إسرائيل في القديم إلى أرض الميعاد، تلك الأرض التي ولدوا فيها والتي تفيض منها خيرات الحياة». وأيضاً ما أدلى به الرئيس الأميركي تيودور روزفلت قبيل الانتهاء من الحرب العالمية الثانية حين أوضح بأن بلده يحمل رسالة خلاصية للعالم الذي يعاني من الاضطهاد والشرور والاحتلال بقوله: «إنَّ قدرنا هو أمركة العالم، تكلموا بهدوء واحملوا عصا غليظة، عندئذ يمكن لكم أن تتوغلوا».

وبالفعل ما إن ألقت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى بدأ القادة الأميركيون بحمل العصا الغليظة التي كان قد تحدث عنها روزفلت للتدخل عسكرياً في شؤون الدول التي ترى فيها ضماناً لمصالحها، فتدخلت عسكرياً في كوريا (١٩٥٣م)، وفيتنام (١٩٥٤م)، وكوبا (١٩٥٩م)، وغرينادا (م١٩٦٣) لوضع حد لنظام يدور في فلك كوبا، وفي بنما (١٩٨٩م) للإطاحة بنظام الرئيس نورييغا الذي طالب بسيادة بلاده على كامل القناة التي تربط بين المحيطين الهادي والأطلسي، والصومال (١٩٩٢م)، كما ورعت واشنطن اتفاقيات أوسلو بين إسرائيل والفلسطينيين (١٩٩٣م) وتدخلت تحت غطاء منظمة حلف شمال الأطلسي في يوغسلافيا (١٩٩٩م). وفي أفغانستان والعراق (٢٠٠١ و٢٠٠٣م). واللافت للنظر أنَّ هذه الغطرسة الأميركية قد بلغت أوجها مع الرئيس جورج بوش الابن حين قال: «ينبغي على أميركا أن تدير العالم» مترجماً بذلك نظرية صموئيل هينتنغتون حول «صراع الحضارات» التي أطلقها في السنوات الأخيرة من القرن الفائت عندما ادعى «بأنَّ عالماً من دون سيادة الولايات المتحدة سيكون أكثر عنفاً وفوضى وأقل ديمقراطية. إن السيادة الدولية لواشنطن ضرورية لرفاهية الإنسان الأميركي أولاً والنظام الدولي ثانياً». ومن الصفاقة بمكان أن يكون لهذا التدخل الأميركي في شؤون العالم ما يبرره في نظر كبير المنظرين السياسيين لدى المحافظين الأميركيين الجدد مثل روبرت كاغان في

كتابه: «القوة والضعف» حيث يرى أن التدخل الأميركي في شؤون البشر بات أهم من القانون الدولي. ولولا هذا التدخل في البلدان الواردة الذكر لبقي حكامها ينكلون بشعوبهم تحت اسم «عصمة الدولة» ولو عاملنا هؤلاء بلغة الفيلسوف الفرنسي فولتير لضحك العالم علينا. لذا، يجب على العالم أن يدرك أن الاتجاه العام للسياسة الأميركية ثابت ودائم وسوف لن يطاح به من قبل أية إدارة أميركية مستقبلية». وما مشروعها في بناء شرق أوسط جديد الذي كانت قد بشرت به وزيرة الخارجية غونداليزا رايس في إدارة الرئيس جورج بوش الابن سوى خطة تندرج ضمن إطار إستراتيجية واشنطن للهيمنة على مقدرات هذه المنطقة التي قسمتها إلى ٤ كتل رئيسية وهي: كتلة شمال أفريقيا وتضم مصر وليبيا، وكتلة بلدان الهلال الخصيب وتضم سورية ولبنان والأردن والعراق وإسرائيل طبعاً، كتلة شبه الجزيرة العربية وتضم المملكة العربية السعودية واليمن والكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة، وأخيراً كتلة الصف الشمالي وتضم تركيا وقبرص وإيران. وإنه لمن الغرابة بمكان أن تكون إقامة الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام (داعش) هي من صنع واشنطن كما ورد ذلك في الكتاب الذي صدر مؤخراً لوزيرة الخارجية هيلاري كلينتون بعنوان: «خيارات صعبة» حيث تقول: «إنَّ الإدارة الأميركية قامت بتأسيس داعش بتاريخ ٢٠١٣/٧/٥م وحاولت إقناع ١١٢ دولة في العالم بالاعتراف بهذه الدولة الإسلامية حال إعلانها. وفجأةً كل شيء تحطم على أثر الثورة المصرية ضد الرئيس الإخواني (محمد مرسي). إنه لشيء مهول جداً! لقد فكرنا باستخدام القوة في مصر وعدلنا عن فكرتنا هذه لأن مصر ليست ليبيا وسواها فجيشها قوي وشعب مصر لن يتحرك جيشه وحده في الميدان. وعندما تحركنا بقطع بحرية بالقرب من الإسكندرية رصدنا غواصات مصرية في مواجهتها، فآثرنا الذهاب إلى البحر الأحمر وهناك فوجئنا بسرب من الطائرات الحربية المصرية تقوم برصد تحركاتنا».

والسؤال المطروح هو ماذا كانت عليه حصيلة هذه السياسة الأميركية في العالم؟ يعتقد معظم المحللين السياسيين أن نتائجها لم تكن إيجابية باعتبار أن الخيار العسكري لا يمكن أن يكون صنواً للحل السياسي الذي يرسي معادلة صحيحة وقابلة للبقاء. ففي كوريا ما زال الانقسام قائماً بين شمالها وجنوبها واليد على الزناد. وفي فيتنام مُنيت واشنطن بهزيمة عسكرية أدت إلى مقتل ٥٨ ألف جندي أميركي وسقوط ٣٠٠ ألف جريح وتدمير ٣٧١٩ طائرة حربية و٤٨٦٩ دبابة، حتى إن القتلى من كلا الجانبين الفيتنامي والأميركي زاد عددهم على الـ١,٨ مليون

جنـدي ونحـو ٤ ملايين مدني بين قتيل ومشوه، لكن الحرب فيها أسفرت عن تغلب فيتنام الشمالية وتوحيد شطري البلاد رغم أنف واشنطن. وفي كوبا ما تزال معاناة الشعب الكوبي تشتد عاماً بعد عام بسبب الحصار الأميركي لها. والحال نفسه بالنسبة ليوغسلافيا التي تقسمت إلى دول عدة. أمَّا اتفاقيات أوسلو التي رعتها واشنطن في العام ١٩٩٣م على أساس أن تشهد ولادة الدولة الفلسطينية بعد مضي ٥ أعوام فما زالت ترقد في الثلاجة. وزادت الأمور سوءاً على إثر هجمات الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م بارتكاب واشنطن فظائع شنيعة حين شنت حرباً على أفغانستان ٢٠٠١ ثم على العراق ٢٠٠٣ بحجة أن هذين البلدين كانا وراء الهجمات الإرهابية التي طالت مركزي التجارة العالميين في نيويورك فتدخلت فيهما بحجة القضاء على الإرهاب، لا تميز الصالح من الطالح، فسوغت لنفسها إهمال مبادئ حقوق الإنسان تحت ذريعة مكافحة الإرهاب. ولم تقتنص فرصة التضامن الأممي معها بل ألزمت العالم بقرارات أقرتها هي بنفسها ودفعت بإدارة جورج بوش الابن إلى حلول سريعة في هذين البلدين ضاربةً عرض الحائط كل القيم والمبادئ التي تعترف بسيادة الدول وحقوق الإنسان. لقد كانت حصيلة سياستها خاسرة جدَّاً فقد دفعت غالياً ثمن ما أقدمت عليه وتكبدت من أجل ذلك خسائر بشرية وخاصة مادية تجسدت في الأزمة المالية التي ما زالت مستعرة منذ عام ٢٠٠٨م، إلى جانب أن الكثير من الأفغانيين ومن العراقيين فقدوا حياتهم. لقد قام الكاتب الصحفي الأميركي «نيل ماكاي» بعملية جرد لنتائج هذه الحرب المدمرة في العراق حين كتب يقول: «دعونا نستعرض ما حصل في العراق فقط خلال ثماني سنوات (٢٠٠٣-٢٠١١م) «لقد تسببت الحرب هناك بوفاة مليون طفل عراقي، وإنه لمن المؤكد أن واشنطن استخدمت اليورانيوم المخصب نظراً لوجود أميركيين يستفيدون من تعويضات الإعاقة الجسدية والذهنية معاً. وهذه المادة المشعة ذات كثافة خاصة استخدمها الأميركيون في البوسنة (م١٩٩٥) وأفغانستان ٢٠٠١م والعراق ١٩٩١م و٢٠٠٣م وهي أكثر خطراً من سموم الرصاص وتؤدي إلى فشل كلوي عند الصغار والشيوخ، وقد أطلقت الولايات المتحدة الأميركية منها ٩٤٠ ألف قذيفة في هذه الدول واردة الذكر من دون تزويد الجيش الأميركي بوسائل الحماية منها».

نستخلص على ضوء ما سبق أن العالم يعيش اليوم حالة لم يشهد لها مثيلاً من قبل حيث لا توجد أي قواسم مشتركة بين الإمبراطوريات السابقة والإمبراطورية الأميركية الحالية. صحيح أن الإمبراطورية البريطانية كانت عملياً الدولة الشمولية

التي لا تغيب الشمس عنها لكنها لم تحلم يوماً بالسيطرة التامة على العالم. لقد كان أسطولها «يونيون جاك» يطوف البحار من مضيق جبل طارق وحتى جزر الفوكلاند مروراً بجزيرة سانت هيلين، وكل ذلك بهدف أن تجد لها حكومات في العالم تضمن لها مصالحها التجارية. لقد كانت على الدوام تدرك حدودها في مجال الاتساع الجغرافي والثروة. فمثلاً عندما أعلنت حربها على الصين (١٨٤٠-١٨٤٢م) التي أخذت اسم «حرب الأفيون» جاء ذلك بمثابة ردة فعل على التصرف الصيني الذي فرض قيوداً على السلع التي تأتي من بريطانيا ومنها الأفيون الذي كان يدر أرباحاً كبيرة على بريطانيا. فوقعت الحرب التي انتصرت فيها بريطانيا بسهولة على الصين قبل أن تبرم معها معاهدة نانكين (م١٨٤٢) التي تمَّ بموجبها فتح موانئ الصين أمام التجارة البريطانية. والحال نفسه بالنسبة للروس في العهد الشيوعي الذين كانوا يحلمون بعالم جديد قائم على الشيوعية لكنهم كانوا يدركون تماماً أن السيطرة على العالم ليست في متناول يدهم حتى لو أنَّ بلدهم في أوج عظمته. وأمام هذا الوضع الشاذ يعتقد الصحفي الفرنسي كلود جوليان في كتابه: «الإمبراطورية الأميركية» أن واشنطن تمارس هيمنة مطلقة، وهذه الظاهرة تحدث للمرة الأولى في العالم، فهي لا تقوم فقط على النفوذ الجغرافي بل على جملة مزايا ومميزات عسكرية، فضلاً عن التحكم بالشبكات الاقتصادية، ودفق الرساميل والثورة التكنولوجية والمبادلات التجارية وصولاً إلى الهيمنة على عالم الفضاء». أما عالم الجغرافيا - السياسية الفرنسي الشهير إيف لاكوست فيرى «إن الولايات المتحدة الأميركية فرضت نفسها كقوة إمبريالية على العالم بفضل أربعة عوامل أولها: الدولار وهو عملة التبادل الأوسع في العالم بما يعادل نصف التبادل التجاري العام. وثانيهما، أنها الدولة الوحيدة القادرة على الاستدانة بسقف مفتوح لدى دول العالم. وثالثهما، كون الشركات الأميركية هي الأكبر في العالم (١٧٥٠٠) فرع في العالم منها ١١٠٠٠) تعمل في مجال الصناعة. ألم يصف الكاتب الإيرلندي برنارد شو أميركا بأنها ليست دولة وإنما كونسورتيوم شركات متعددة الجنسيات يرأس مجلس إدارتها رجل يتربع على كرسي البيت الأبيض. ورابعاً، نمط الحياة لدى الأميركي الذي أخذ يبهر معظم شباب العالم وبذلك تكون واشنطن قد لامست حياة الناس في الكوكب الأرضي أكثر مما لامسته حكوماتهم الخاصة ولاسيما بعد أن رفعت لواء قيم وأفكار مثيرة للشهية مثل: الحرية

والديمقراطيــة وحقوق الإنســان لدرجة أن البعض اعتقد بأن هذه الشعارات هي قادرة على معالجة مشــكلات العالم لكونها تحتكم إلى مبادئ وقيم..»

والســؤال الذي يطــرح نفســه الآن هو هل هناك فرصــة طويلة لهذه الإمبراطورية بالبقاء والاستمرار ؟ إن معظم الخبراء الذين يستشــرفون المســتقبل يعتقدون بأن العالم هو على درجة من التعقيد بحيث لا يســمح بســيطرة دولــة واحدة على مصــائر الدول الأخرى. وهذا ما دفع بالسياســي الروســي بريماكوف لأن يقول: «يجب على واشنطن أن تعود لرشــدها وألا تبقى كالطفلة المجنونة التي تلهو على هواهــا». الجنرال المتقاعد الأميركي هاميلتون هافرد في كتابه بعنوان: «الســقوط التراجيدي.. أميركا عام ٢٠٢٠» يقول: «إنَّ أميركا بسياستها الخارجية خلصت العالم من النازية والفاشــية وأنقذت أوروبا من الدمار الاقتصــادي وأعــادت إعمارها. وكانــت أميركا حتــى مطلع الخمســينيات مــن القــرن الفائت أكثــر الــدول أمناً لكن بعــد دخولهــا فيتنــام وأصــقاع أخرى من العالم تغير الوضــع وتراجعت الأمور بشكل مأساوي نتيجة الخســائر الكبيرة التي مُني بها الجيش الأميركي في فيتنام. ناهيك عن الخلــل الاجتماعي الذي بات ينخر المجتمع الأميركي كتحول النساء إلى رجال وبالعكس والتحرشــ بالمجنــدات وممارســة الحرية الشخصــية بشــكل يتعدى حدوده، وانتشار المجلات الخلاعيــة والأفلام، مما أدى إلى هبوط في الحياة الأدبية والثقافية ينذر بشر مستطير وهو أن أميركا آيلة إلى السقوط».

طبعــاً يصــعب التنبــؤ بالزمــن الــذي ســيتم فيه هذا الســقوط الأميركــي، لكنَّ المنظرين السياسيين متأكدون من أن التفوق الأميركــي ليســ ســوى ظاهــرة مؤقتة في التاريخ ومصــيرها إلــى زوال حتمي. وذلك اســتناداً إلى ما ســبق أن أوردناه على لسان بعض المنظرين المســتقبليين من أميركيين وأوروبيين، وما يعلن عنه لتوه الإســتراتيجي الأميركي المعاصر زيغينو بريجنسكي الذي حذَّر القادة الأميركيين من الغطرســة التي يمارســونها تجاه الغير، والتي كانت قد أدت بالإمبراطورية الرومانية إلى الانهيار. أو ما كتبه الفيســلوف الفرنسي المعاصر ريجيس دوبريه الذي ألف كتاباً بعنوان: «أصــوليات الحماقة الظافرة»، وفيه يستعرض التحولات المأساوية التي طرأت على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي واستئثار الولايات المتحدة بقيادة العالم وفق نظام عالمي جديد غريب الأطوار مســلطاً الضــوء على النزاعات في الشرق الأوسط وكيف تتم معالجتها «بطريقة لا تخلــو مــن غباء». فهــو يــرى أن أميركا لاتريد إقامة العدل ونشــر الديمقراطية لأن تاريخها الحديث لا يمنحها هذه الفضــيلة، وتكفي جردة ســريعة بالــدول الديكتاتورية

التي ساندتها، والدول الديمقراطية التي عملت على إزالتها لإظهار هويتها الحقيقية فهي تسعى لترسيخ مصالحها لا أكثر ولا أقل وإلا فما عليها إلا الالتفات إلى القضية الفلسطينية التي تسهم في تفريخ الأزمات والحروب والحقد، لأنَّ السياسة الأميركية بشأن المسار الفلسطيني بدت مرفوضة من جميع الأطراف لأنها وصلت إلى حدود الاحتيال والابتزاز الإسرائيلي تحت رعاية أميركية. غير أن أميركا لا تعي دروس التاريخ جيداً: فباسم النظام العالمي الجديد نراها تزرع الفوضى هنا وهناك، وباسم محاربة الإرهاب تحول العالم بأسره إلى منطقة إرهاب يصول فيها ويجول من دون أن يقدر أحد على القبض عليه لأنه ذو طبيعة شبحية تستعصي حتى على الأشعة ما تحت الحمراء». ويستشهد دوبريه بعبارة قالها الجنرال ديغول للأميركي إبان حرب فيتنام: «إنَّ طائرة لا تقضي على الشعور الوطني، وتدمير الأرض لا يعني امتلاكها، فالقوة الحولاء لا تجلب إلا البلاء». وينصح دوبريه الولايات المتحدة الأميركية بأن تعود إلى مبدأ رجل الدولة الأميركي جيسي مونرو (١٧٥٩-١٨٣٠م) الذي صار رئيساً للولايات المتحدة الأميركية (١٨١٧-١٨٢٥م)، والذي صاغ مبدأ شهيراً عرف باسمه وهو مبدأ مونرو حيث طالب فيه بعدم تدخل أميركا في الشؤون الأوروبية وعليها أن تحصر كل همها في شؤون بيتها الداخلي وإقفال الحدود مع الضفة الشرقية للأطلسي حيث تقع أوروبا. ففي زمن مضى كانت الولايات المتحدة الأميركية تعرف حدودها أو على الأقل تدرك ما تحققه من المصالح الخاصة بها، وكان هذا عائداً في جزء كبير إلى الخوف من الآخر ألا وهو الاتحاد السوفييتي، أمَّا الآن وقد زالت تلك المخاوف فيجب ردها إلى وعيها للعيش في جو من الإخاء على أديم هذه الكرة الأرضية التي هي أمنا جميعاً. ولقد أعطى الكاتب الصحفي الفرنسي كلود جوليان أجمل وصف للولايات المتحدة الأميركية حين وصفها «بالإمبراطورية الفرويدية» حيث الابن الأميركي يقتل أباه الأميركي ثم يغتصب أمه التي هي الكرة الأرضية».

وبدوره يوضح المحلل السياسي الفرنسي باسكال بونيفاس مدير معهد العلاقات الدولية والإستراتيجية (IRIS) «أن الولايات المتحدة الأميركية سوف تدفع عمَّا قريب ثمن موقفها من بقية دول العالم بعد أن تبنت رؤية كلاسيكية متطرفة لمفهوم القوة من خلال تفضيلها قوة الإكراه الصلبة على قوة الإقناع. وهذا ما يجعلها اليوم البلد الأقل شعبية في العالم على الرغم من أنها البلد الأقوى فيه. ما من شك أن فكرة أن تكون مرهوباً بدل أن تكون محبوباً هي تصور خاطئ لأن ذلك يفضي إلى مواجهة

لا مفر منها وإلى طريق مسدود يصطدم مع خصوم كثيرين. وحسبنا أن نذكر بأن أول صدمة كانت قد تلقتها الإمبراطورية الناشئة في العام ١٩٦٦م حين رفض الرئيس الفرنسي شارل ديغول أن تكون بلده فرنسا مجرد بيدق يدور في فلك أميركا، فآثر أن يختار إستراتيجية «الخيار الاستقلالي» حين اتخذ إجراءات ومواقف أثارت سخط أميركا ومنها الطلب من واشنطن سحب قواعدها ومستودعاتها وقواتها من الأراضي الفرنسية. ثم تلا ذلك الاعتراف بالصين الشعبية ١٩٦٤م وانتقاد التدخل الأميركي في فيتنام ١٩٦٦م والوقوف إلى جانب العرب إبان الحرب العربية – الإسرائيلية ١٩٦٧م، وفرض حظر بيع الأسلحة الفرنسية إلى إسرائيل، وأخيراً الاعتماد على القوة الضاربة النووية الفرنسية بحيث لا تبقى قدرة الردع الفرنسية مرتهنة لواشنطن. لقد كان ديغول يحلم حقاً بعالم متعدد الأقطاب حين قال: «إنَّه من الأفضل للعالم أن يقف على قدمين وليس على قدم واحدة». كذلك تزعمت فرنسا بقيادة الرئيس جاك شيراك سياسة مناهضة للولايات المتحدة الأميركية في موضوع الحرب على العراق ٢٠٠٣م، ما دفع بواشنطن إلى إلحاق الضرر بالمصالح الفرنسية حين انخفضت الصادرات الفرنسية كالنبيذ إلى أميركا بنسبة ٢٠٪ والسياحة التي عانت من أسعار صرف اليورو مقارنةً بالدولار. لقد جاء إذاً الموقف الفرنسي ليسقط رهانات واشنطن التي توقعت اصطفاف فرنسا وراء الخطوة الأميركية لأنَّ الحرب هي من أسوأ الحلول نظراً لما تحمله من نتائج كارثية على منطقة الشرق الأوسط التي هي اليوم بغنى عن ويلاتها وأصبحت بأمس الحاجة إلى السلام، كما جاء في بيان وزارة الخارجية الفرنسية آنذاك. وجاء الدعم الألماني مفيداً جداً لفرنسا. وكان من المهم حصول فرنسا على دعم روسيا الذي سيساعدها في ألا تكون الوحيدة التي ستخدم حق الفيتو ضد أي قرار يقود إلى الحرب. وفي هذه المرحلة برز على الساحة عامل جديد وهو الرأي العام العالمي الذي تظاهر في ٥ شباط ٢٠٠٣م في أكثر من عاصمة أوروبية وغيرها ضد الحرب على العراق. كذلك فشلت الدبلوماسية الأميركية في الحصول على موافقة البرلمان التركي لتسهيل انتشار القوات الأميركية عبر أراضي تركيا وتسهيل نقل المعدات الأميركية من ميناء إسكندرون إلى الحدود العراقية. فالمشاعر الشعبية في معظم أنحاء العالم كانت ضد هيمنة الولايات المتحدة الأميركية وضد سياستها واستعراضها قوتها ورغبتها في خوض الحرب إلا أن الولايات المتحدة الأميركية وحليفتها بريطانيا لم تعيرا كل هذه المشاعر أي اهتمام فقامتا بضرب العراق. لكن مع الرئيس نيقولا ساركوزي

تغيرت الأمور عندما طالب بالعودة إلى داخل حلف الناتو مخافة ألا تبقى فرنسا منعزلة عن النظام العالمي الجديد. وهو ما فعله الرئيس الفرنسي الحالي فرانسوا هولاند الذي فضل السير في ركاب سلفه نيقولا ساركوزي. ولكن إلى متى سيتم هذا التقارب وتعود باريس إلى نهجها السياسي المستقل عن الولايات المتحدة الأميركية الذي خطه لها الجنرال شارك ديغول؟ لابد أن يأتي يوم حيث تلبي فيه فرنسا بلد الحرية والمساواة والأخوة نداء الواجب المطلوب منها.

وإضافةً إلى هذا الموقف الفرنسي يأتي الموقف السوري الرافض لكل الأسس التي بنيت عليها السياسة الأميركية كما كتب الكاتب الصحفي البريطاني باتريك سيل في كتابه الصراع على الشرق الأوسط: «لقد كانت سورية أول دولة في الشرق الأوسط تهاجم الأسس التي بنيت عليها السياسة الأميركية بدءاً من أعوام الخمسينيات من القرن الفائت ومن أبرزها «مشروع مارشال» و«نظرية الفراغ في الشرق الأوسط» التي تعطي لأميركا الحق بالتدخل في شؤون المنطقة». وفي مكان آخر ذكر باتريك سيل قبل مماته بقليل في مطلع عام ٢٠١٤م «أن سورية لا تزال تعارض السياسة الأميركية في المنطقة وترى فيها سياسة عدوانية مؤيدة للمشاريع الصهيونية». كذلك شاهدنا مؤخراً كيف أن آفاق التحالفات الأميركية في العالم بدأت أيضاً تتلبد حتى مع أعز الحلفاء لها في أوروبا مثل بريطانيا التي لم تلبِ رغبة الولايات المتحدة الأميركية في أيلول من العام الفائت ٢٠١٣ بضرب سورية، وذلك عندما أخفق رئيس الوزراء ديفيد كاميرون في الحصول على موافقة البرلمان على توجيه ضربات لسورية بعد اتهامها باستخدام أسلحة كيميائية. والحال نفسه بالنسبة للأزمة الأوكرانية حيث تواجه واشنطن باستمرار انتقادات لعدم حماس الأوروبيين لفرض عقوبات على روسيا، كما تواجه صعوبة في إدارة التغيرات في السلطة في مصر الحليفة الثانية لها منذ عقود طويلة. وتلك هي جملة من الأسباب الخارجية التي من شأنها إحداث تصدع في البنية الهيكيلية للإمبراطورية الأميركية، لكنّ ثمة محللون سياسيون يعتقدون بأن الإمبراطورية الأميركية قد تسقط لأسباب داخلية استناداً إلى ما قاله يوماً المؤرخ البريطاني الشهير أرنولود توينبي: «إن الحضارات التي عرفها الإنسان عبر تاريخه سقطت من الداخل وليس من الخارج». ويرد الخبراء سبب ذلك للأمور التالية:

١- لقد أصبح الاقتصاد الأميركي بسبب الإنفاق العسكري الهائل جراء الحروب التي خاضتها ولا تزال تخوضها واشنطن في الشرق الأوسط على درجة كبيرة من الوهن. ففي العام ٢٠٠٣م رصدت الولايات

المتحـــدة الأميركية ميزانيـــة للدفاع قدرت بـــ٣٣٦ مليـــار دولار أي ما يعـــادل ٤٣٪ من الإنفاق العســـكري العالمي. وهذه الحالة لا تنبئ بمســـتقبل زاهر، على حد قول الكاتب الأميركي المعاصـــر بول كينيدي في كتابه: «ولادة الـــدول العظمـــى وأفولها» حيث يرى أن الإمبراطوريـــات التـــي تعاقبـــت على مر التاريخ ولدت ثم راحت تنحدر وتتفسخ تحت تأثير الإنفاق العسكري بهدف توسيع مداها الإمبراطوري بشـــكل غير محسوب. ومع أن الكثير مـــن الأميركيين كانوا قد أيدوا جورج بوش في حربه على أفغانســـتان ومن ثم على العراق بحجة الانتقام ممـــن ارتبكوا أعمال الحادي عشـــر في أيلول ٢٠٠١ إلا أن القليل منهـــم اليوم يؤيد مثل هـــذا التوجه انطلاقاً من هذا الشعور الأميركي الجديد بأنه ليس علـــى أميـــركا أن تعلن حربـــاً وتعرض حياة أبنائهـــا للموت ما لم تكـــن هذه الحرب على علاقة بأمن الولايات المتحدة الأميركية. ألم يتنبأ عالم الاقتصاد جوزيف سيتغلير الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد في أواخر القرن الفائت عن الأزمة المالية الكبرى في أميركا التي شـــهدتها فـــي العـــام ٢٠٠٨ وذلك قبل وقوعها ببضـــعة أعوام، والتي جاءت نتيجة ما فعلتـــه الحروب من دمار في الاقتصـــاد الأميركـــي وبالأرقـــام، ففي آخر إحصـــائية نشرت في شهر آب من العام الحالي ٢٠١٤م تبيـــن أن العجز التجـــاري الأميركي بلغ في شهر نيسان ٢٠١٤م لوحده زهاء ٤١,٥ مليار دولار. (جريدة الديار بتاريخ ٢٠١٤/٨/٧م).

ومرةً أخرى يشـــدد الباحث المســـتقبلي الأميركـــي إيلفن توفلر علـــى عامل الإنفاق العســـكري الذي يدمر الاقتصاد والمجتمع الأميركييـــن معاً بقوله: «إن الكرة الأرضـــية دخلت في الخرافة وراحت تدور على قرن ثور، إنه قرن المجانين! أي نوع من البلاهة يعترينا نحـــن الأميركيين حين نعتقـــد أننا بخيوط العنكبوت هذه يمكننا أن ننفرد هكذا بقيادة العالم؟ لا أدري كيف يتم خلق الضوضـــاء مع السذاجة لاتخاذ قرارات على ذلك المستوى من الحساســـية. ليس من المعقول أن تستمر الولايات المتحدة في خوض سياسة خارجية طموحة ووضـــعها الداخلي مرتهـــن لموارد تنقص أو في طريقها إلى النقصان. ومع أن اقتصـــادها ما زال قويـــاً إلا أن الحيز الذي يحتله في الاقتصـــاد العالمي بدأ يتضاءل. فلنتخيل مثلاً أن منظمة أوبك قررت غداً أن تسعِّر برميل النفط باليورو بدلاً من الدولار؟ فمـــاذا ســـتكون عليه النتيجة؟ إنها ســـتكون سيئة بلا شك على الاقتصاد الأميركي. يجب على السياســـة الخارجية أن تستجيب حكماً للمصالح الداخلية للمواطن الأميركي وتنعكس إيجابيـــاً عليه. إن من الأهـــم الانكباب على هذه المصـــالح بدلاً من خوضـــ المغامرات العســـكرية في الخارج التـــي تتم بتمويل من

الشعب الأميركي نفســه». وهذا ما أثار في مطلع شــهر آب ٢٠١٤م انقساماً لدى بعض أعضــاء الكونغرســ الأميركــي حين طالب باراك أوباما الخزينة الأميركية برصد مبلغ قــدره (٥٩) لتمويل الحرب في أفغانســتان وسورية.

٢- ثمــة خطر في أن تقــوم الدولة التي تســعى إلى الســيطرة على العالم بالوسائل العســكرية بمجاذفة الســقوط في العسكرة نفســها، وهذا ما لا يحســن تقديره سياسيو الإدارة الأميركيــة. تدل الوقائع على الأرض بأنــه يوجد اليــوم في أميــركا أكثر من ٣٠ منظمة لميليشيات مسلحة متطرفة، تستقطب الغاضــبين من الواقع السياسي والاجتماعي فــي أميركا، موزعة على ٢٠ ولاية ولاســيما فــي الجبال وجنوب أميــركا. هدفها القيام بعمليات ضــد الحكومة الفيدرالية وخاصة الكونغرســ: يبلــغ عدد أفرادهــا ١٠٠ ألف مســلح، وأغلبهم من البيض المنحدرين من أصول غربية وكانوا قد خدموا في فيتنام أو شاركوا في حرب الخليج. وهؤلاء يعتقدون أن أميركا تحكمها منظمة «إيباك» الصــهيونية المتعاطفة مع إسرائيل ويجب تحريرها منها معتبرين الكونغرس والبيت الأبيض وكأنهما أراضــٍ تابعــة لإســرائيل. يقول صــموئيل شــيروود زعيم (منظمة مونتانا) «إن أميركا تشــبه باخرة التايتانيك المعرضــة للخطر. وعلينا إرســال زوارق للنجــاة. فعدونا الأول هو الدولــة الفيدرالية التي تهلك المواطنين بالضرائب وتقمع حريتهم، والجنس الأبيض يجب أن يبقــى الأنقى من كل الأجناس التي تسكن أميركا».

٣- إن الولايــات المتحدة الأميركية هي أمة مهاجرة فمن أصل ٣٠٠ مليون نسمة كما ذكرت إحصــائيات العــام ٢٠٠٣م هناك ٤٣ مليــون ألماني، و٦ ملايين فرنســي هاجروا إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر، و٣١ مليــون إيرلنــدي، و٢٥ مليون إنكليزي، و٣٥ مليون زنجــي، و٢٠ مليون إيطالي و١٥ مليون مكســيكي ومن أميركا اللاتينية، و١٢ مليون آسيوي، إضافةً إلى ٥ ملايين يهودي، و٦ ملايين مسلم. وهذا الخليط الفسيفسائي يحركه اليوم الدولار الذي يجمع بين كل هذه الشرائح الاجتماعية ويوجد فيما بينهم، لكنه يبقى مزيجاً مهدداً بالانفجار عندما تحصل أزمات اجتماعية بين الأعراق والإثنيات كما حصل مؤخراً في ولاية «تكساس».

٤- إنَّ الطبقــة الحاكمــة فــي الولايات المتحــدة الأميركية هي من أصــول أنجلو- ساكسونية (بريطانيا، إيرلندا، ألمانيا)، وفي أعماقهم ثقافة لا تزال تعشــعش في ذهنهم وتذكرهــم بإبــادة أجدادهم للهنــود الحمر وبجلــب الزنــوج من أفريقيــا لخدمتهم في زارعة القطن. فســادت ثقافة القتل. وهذه الأدبيات ما زالت متأصلة بجذورها التاريخية في أذهــان الأجيال اللاحقة كالجينات التي

يتم توارثها أباً عن جد. ففي روايته «عناقيد الغضب» يتحدث «جون تشايبنك» (١٩٠٢ - ١٩٦٨م) الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٦٢م عن همجية وعنصرية المجتمع الأميركي. حيث تحكي الرواية عن عائلة أميركية تعيش في ولاية أوكلاهوما ثم تحدث عاصفة هوجاء تؤدي إلى حرق كل ما تلقاه أمامها من حجر وشجر وبشر ثم تعقبها سنة مليئة بالقحط والجفاف، مما يجعل العائلة تهاجر إلى كاليفورنيا المشهورة بالثراء. وهناك ما من أحد يعيرها اهتمامه. إنه يكفر بالوحش الرأسمالي الأناني والفردي. روجيه غارودي الفيلسوف الفرنسي ينظر إلى هذا النموذج «وكأنه مجرم قاتل، إنه يكلف العالم هيروشيما جديدة على أيدي جيش أميركي مدجج بالآليات الدموية وكأن قادته يعيشون في دغل مأهول بالحيوانات الكاسرة. إنهم يدفعون بالعالم إلى انتحار كوني يشمل سكان الشمال مثل سكان الجنوب».

٥- إنَّ الادعاء بنشر الديمقراطية في العالم هو استعباد ولكن بحلة جديدة، كما يرى ذلك الفيلسوف الفرنسي ريجيس دوبريه في كتابه «حوليات الحماقة الظافرة» بقوله: إنَّ أية حضارة ترى أن بمقدورها تخطي كل الحضارات ولا تنظر إليها إلا على أساس أنها تهديد محتمل أو اعتداء هي حضارة تسعى حتماً إلى حتفها. إنه لمن الأخطاء الجسيمة أن تنزل الديمقراطية بالمظلات كما حاولت واشنطن في العراق. إنَّ زرع الديمقراطية يتطلب الكثير من الحنكة والفن حتى لا تُفسر الديمقراطية على أنها استعباد بحلة جديدة. ومن هنا فإنَّ الإشادة بالديمقراطية تكون فادحة وهي كلمة تستخدمها اليوم واشنطن كمرادف لكلمة حضارة، أي قناع بشري لوجه غير بشري». وضمن هذا السياق كتب الباحث الأميركي ديفيد بولوك من معهد واشنطن لشؤون الشرق الأوسط يقول: «لا تصدقوا البيت الأبيض حين يتكلم عن القيم والديمقراطية، فهذه مسألة تعني «الرومنسيين فقط»، أمَّا هو فتعنيه قعقعة المصالح ومن أهمها النفط. في الحقيقة لم يشهد التاريخ الحديث تداخلاً في المصالح بين السياسة والنفط مثلما شهدته إدارة جورج بوش حين ضمت وزارته (٦) وزراء كانوا يعملون في شركات نفطية كبيرة مثل غونداليزا رايس وديك تشيني، هذا الآخر الذي عمل مديراً لشركة هاليبرتون الأميركية للنفط في العام ٢٠٠٠م وحقق أرباحاً خيالية وصلت إلى (٤٥) مليون دولار، ثم عينه بوش وزيراً للدفاع. وخلال احتلال العراق سيطرت الشركات النفطية الأميركية على عقود الاستثمار النفطي العراقي. والحال نفسه بالنسبة لغزو أفغانستان التي تعتبر الحوض الضخم للنفط المسمى (حوض أوراسيا) الذي يحتوي ٦٠٪ من الناتج النفطي العالمي. وهذا ما يثبته الجنرال الأميركي المتقاعد

ويسلي كلارك الذي شارك في حربي فيتنام وكوسوفو حين قال: «إنَّ الاحتياطات النفطية تشكل الهدف الرئيسي لشن الحروب الأميركية في الشرق الأوسط كتلك التي تشهدها اليوم المنطقة العربية في ٧ دول هي: العراق، سورية، لبنان، الصومال، ليبيا، إيران، السودان، وهي تندرج ضمن مخطط أميركي يعود إلى العام ٢٠٠١م لأن معدلات استهلاك النفط خلال العقدين القادمين ستكون في تزايد مستمر، وستكون هناك فجوة بين الإنتاج والكمية المستوردة، أي إن واشنطن ستكون بحاجة إلى كميات أكبر من النفط لردم هذه الفجوة ولهذا السبب صرح وزير الدفاع الأميركي هارولد براون في عهد الرئيس جيمي كارتر: «إننا لن نسمح لأية قوة دولية في الاقتراب من منطقة الخليج العربي لأنّ مصالحنا فيها إستراتيجية بسبب وجود النفط». وهكذا رأينا أنه بعد الانتهاء من عملية يوغسلافيا ١٩٩٩ بدأت واشنطن بمد خط أنابيب النفط عبر البلقان والتي تمتد من بلغاريا وتنتهي في ألبانيا. كما أنَّ حرب الخليج أدت إلى بسط سيطرتها على أهم مصدر من مصادر الغاز حيث استوردت في العام ٢٠٠٥م ما مقداره ١٦ مليون برميل يومياً يشكل النفط العربي ٤٠٪. إن الحاجة العالمية للنفط هي اليوم بحدود ٧٩ مليون برميل يومياً ولسوف تصل إلى (١٢٠) مليون برميل يومياً في العام ٢٠٣٠م. وعندما سئل وزير الخارجية الأميركي الأسبق جيمس بيكر في إدارة جورج بوش الأب في أواخر العام ١٩٩٠م في قاعة الكونغرس لماذا تريد أميركا إرسال (٥٠٠) ألف جندي إلى صحراء الخليج الحارقة فهل هي حقاً لتحرير الكويت من سيطرة الرئيس العراقي صدام حسين أجاب: نحن هناك من أجل ثلاثة أحرف هي (OIL) أي النفط. لقد كان هذا الجواب كافياً لنيل موافقة الكونغرس لخطة عاصفة الصحراء في مطلع عام ١٩٩١م. إن إقامة الديمقراطية في العراق على سبيل المثال لا يمكن أن يسوغ لها كل هذه الدماء والأموال، فالحرب لم تؤتِ ثمارها وإن نجاح أية عملية مضادة للإرهاب يجب أن يعتمد على حساب دقيق للمستقبل وعلى رجاحة العقل».

وضمن هذا المنظور يؤكد البروفسور «إيغور لوكيش» أستاذ مادة التاريخ والعلاقات الدولية في جامعة بوسطن» إن إستراتيجية الولايات المتحدة الأميركية بتصدير الديمقراطية منذ مطلع هذا القرن قد باءت بالفشل الذريع، وإن هذا الأمر ليس سوى هراء. بالأمس عندما هاجر أهلي من تشيكوسلوفاكيا في منتصف القرن العشرين كانت أميركا موضع جذب للشباب لكونها كانت تضم العدد الأكبر من حملة جوائز نوبل، وتنتج أفضل الأفلام السينمائية وتصدر أفضل الكتب وتحوي أرقى الجامعات. أما في القرن الحادي والعشرين فقد تغيرت صورتها في نظر العالم بأسره لتظهر وكأنها

تهوى الحرب والسيطرة وتقوم بالتدمير والقصف هنا وهناك. وما الأحداث التي يعيشها العراق مع تنظيم داعش إلا نتيجة مباشرة للغزو الأميركي للعراق في العام ٢٠٠٣م، علماً أنني كنت من المعارضين لهذا الغزو. يجب أن تعي أميركا تماماً أنها ليست لوحدها على الساحة الدولية وخاصة من الناحية الاقتصادية، وأن هناك دولاً تسعى للوصول إلى مستواها والتفوق عليها في المدى المنظور. ويتوقع علماء الاقتصاد أنه في العام ٢٠٤٠م سيكون الناتج القومي في البرازيل والهند والصين يفوق بكثير الناتج القومي لكل من: أميركا وكندا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا مجتمعين كلهم».

٦- إنَّ الإمبراطورية الأميركية تتبنى أيديولوجيا دينية خاصة بها من أجل التغطية على مشاريعها في الهيمنة والتسلط، لكنْ وزير الخارجية الفرنسي السابق هوبير فيدرين يحذرها من مغبة هذه الظاهرة، لأن الأيديولوجيا بحسب رأيه، مهما كان لونها دينياً أو سياسياً لا بد لها أن تدمر البلد الذي يحملها لأنها ستلحق أذى بليغاً بالعقلانية علماً أن الأزمنة أو جدلية الأزمنة لا تمضي في وتيرة واحدة، وكذلك الأمكنة والمواقع. فأين هي أوروبا اليوم، أوروبا شارلمان، وبسمارك ونابليون وهتلر وتشرشل وديغول وأدينادر أمام بروز دول البريكس؟ إنَّ الأيديولوجيا تؤدي إلى الأصولية القبيحة.

وهكذا بدأنا نسمع مؤخراً عن وجود أصولية مسيحية في أميركا ربما تكون هي المسؤولة الوحيدة عن تنامي الأصولية الإسلامية الجهادية فالأصوليات تغذي بعضها بعضاً. ألم تكنْ أصولية جورج بوش تتكامل مع أصولية أسامة بن لادن لكي يستمر العنف والعنف المضاد؟

إنَّ المزج بين صوغ السياسة وبين مفاهيم دينية من أجل تشكيل رؤية سياسية هو خطر فادح لأن مثل هذه السياسة تكرس الانغلاق وبناء علاقات ملتبسة لا بل عدائية مع الغير»، كما يرى ذلك الفيلسوف المعاصر ريجيس دوبريه في كتابه «حوليات الحماقة الظافرة» حيث يقول: «على أميركا أن تستفيد من تجربة أوروبا الاستعمارية لا لتبنيها بل لمعرفة نهاياتها الخاسرة فأوروبا أسقطت من حساباتها وتفكيرها مفهوم المطلق وأدرجت بدلاً عنه مفهوم النسبية. وسياسة واشنطن اليوم: من ليس معنا فهو ضدنا لا تنتمي إلى المفهوم النسبي. لقد استطاعت أوروبا فصل الدين عن السياسة بخلاف ما هو الحال في الولايات المتحدة الأميركية. كما أسقطت الوهج الحضاري الذي رافقها طوال فترة الاستعمار وهو وَهْم تحضير العالم وتطويره، وأوروبا اليوم لم تعد تعتبر أن حضارتها هي الحضارة الأوحد لأنها تعرفت على الحضارات الأخرى واستفادت منها، وهذا ما ينقص أميركا فيما يبدو» إنَّ

الخطورة في السياسة الأميركية تكمن في كونها ذات منطلقات لاهوتية، بحيث تجعل أميركا رهينة إحساسها بأنها ذات رسالة لاهوتية تحمل الخير لتقارع به البشر. إنَّ التحول في شخصية جورج بوش الابن من مدمن كحول إلى مدمن رؤى تطالبه بالذهاب إلى العراق أمر مثير للريبة. إنَّ مثل هذه السياسة ليس أمامها إلا الحائط المسدود، وهو ما آلت إليه اليوم السياسة الأميركية. وينصح دوبريه القادة الأميركيين بأن يعوا هذا المنحى الخطير ويعيدوا النظر في حساباتهم وبألا يفكروا دوماً بمنطق الحرب الباردة وقاذفات القنابل لأن الإبقاء على وتيرة العنف سيخلق آثاراً كارثية. وإذا لم تعد واشنطن إلى رشدها فإنه لمن المستحسن قيام تحالف عالمي لمواجهة أطماعها». وبالفعل كانت أول مبادرة تتخذ في وجه الإمبراطورية الأميركية ما حصل في ٨ تموز من العام الحالي ٢٠١٤م، حين قاد الفرنسي كريستوف دو مارجيري رئيس شركة توتال النفطية الفرنسية حملة على مستوى الاتحاد الأوروبي تتمثل في تعزيز سبل استخدام عملة اليورو في الأنشطة التجارية العالمية بدلاً من الدولار وذلك بعد أن فرضت الولايات المتحدة الأميركية غرامة ضخمة على بنك (بي إن بي) باريباس، الذي يعد أكبر مصرف في فرنسا.

وخير ما نختم به مقالنا حول الانهيار الأميركي ما جاء في الحديث الذي أدلى به وزير الدفاع الفرنسي السابق جان بيير دوشوفنمان في عهد الرئيس جاك شيراك، والذي قدم استقالته على خلفية الحرب التي شنتها أميركا على العراق إلى مجلة «لوبوان» الفرنسية الصادرة بتاريخ ٢٠٠٤/٤/٢٧م حين قال: «إنَّ الانحطاط الأميركي بات اليوم حتمياً ولو أنه سيكون بطيئاً. لقد أصبحت الإمبراطورية الأميركية تدرك اليوم في ظل إدارة أوباما أنها لا تستطيع القيام بدور الشرطي في العالم. فهي لم تعد وحدها على الساحة الدولية وخاصة من الناحية الاقتصادية وذلك لوجود دول عدة تسعى للوصول إلى مستواها والتفوق عليها في المدى المنظور. كذلك لم تعد قوتها العسكرية بديلة عن الدبلوماسية التي تتطلب الانفتاح على الغير واحترام الدول الأخرى. ويكفي أن نقدم مثالاً على ذلك فشلها في كل من العراق وأفغانستان من حيث لم تتمكن بعد من القضاء على الإرهاب. هكذا يبدأ عادة غروب الإمبراطوريات حين يتم التعامل مع الكائنات الأخرى على أنها أخشاب ناطقة من دون زيادة أو نقصان، ومع أن أميركا تنفي عن نفسها صورة الدولة الإمبريالية إلا أن العديد من شعوب العالم لا يرونها إلا بهذه الصورة أي دولة عدوانية وإمبريالية».

المراجع

- جريدة «لوفيغارو» الفرنسية تاريخ ٢٠٠٧/٢/١٧ و٢٠٠٤/١١/٨م.
- جريدة «ليبراسيون» الفرنسية، تاريخ ١٩٧٥/١/٢٩م.
- نشرة «معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية» الفرنسي، تاريخ ٢٠٠٩/٤/٢م.
- كتاب «مدينة على جبل»، تأليف طارق تيري الصادر بعام ٢٠٠٢م.
- ملخص لكتاب «أميركا عند مفترق الطرق» الصادر في العام ٢٠٠٦م.
- جريدة «لومانيتيه» الفرنسية، تاريخ ٢٠٠٥/٣/٥م.
- جريدة «لوموند دبلوماتيك» الشهرية الفرنسية، تاريخ تموز ٢٠٠٥م.
- مجلة «لوبوان» الفرنسية، تاريخ ٢٠٠٤/٦/٢٧م.
- جريدة «لوموند» اليومية الفرنسية، تاريخ ٢٠٠٤/٨/١٨، و٢٠٠٤/٨/١١م.
- جريدة «لوموند» اليومية الفرنسية، تاريخ ٢٠٠٥/١١/١م.
- جريدة «لوموند» اليومية الفرنسية، ٢٠٠٣/١٢/٩م.
- جريدة «لوفيغارو» اليومية الفرنسية، تاريخ ٢٠٠٧/٢/١٧ و٢٠٠٤/١١/٨م.
- جريدة «هيرالد تربيون» تاريخ ٢٠٠٠/٦/٢م.
- جريدة «الديار» اللبنانية، تاريخ ٢٠١٤/٧/٨ و٢٠١٤/٧/٢١م.
- جريدة «الشرق الأوسط» تاريخ ٢٠٠٤/١٠/١٠ و٢٠٠٣/٥/٦ و٢٠٠٤/٤/٣ و٢٠٠٦/٣/١٧م.
- جريدة «الديار»، تاريخ ٢٠١٤/٤/٤ و٢٠٠٣/١٠/٨ و٢٠١٤/٥/٤م.
- جريدة «الحياة»، ٢٠٠٤/٧/١٩م.
- جريدة «الثورة»، تاريخ ٢٠٠١/٣/٢٧ و٢٠٠١/٩/٢٤ و٢٠٠٦/٣/١٧م.
- مجلة «الوطن العربي»، تاريخ ٢٠٠٦/٢/٢٦ و٢٠٠٩/٤/٢٦م.
- صحيفة «بلدنا»، تاريخ ٢٠١١/١/١٠م.
- مجلة «الحوادث، تاريخ ١٩٩٧/٢/١٤م.
- ملخص لكتاب «الحرية»، تأليف جوناثان فرانزنيا، الصادر في عام ٢٠١١م.
- ملخص لكتاب «الحلم الأميركي في خطر»، الصادر في عام ١٩٩٤م.
- جريدة «البعث»، تاريخ ٢٠٠١/٨/١م.
- جريدة «تشرين»، تاريخ ٢٠٠٤/٦/٢٥م.

النمو والتنمية

غسان وديع العيد ❁

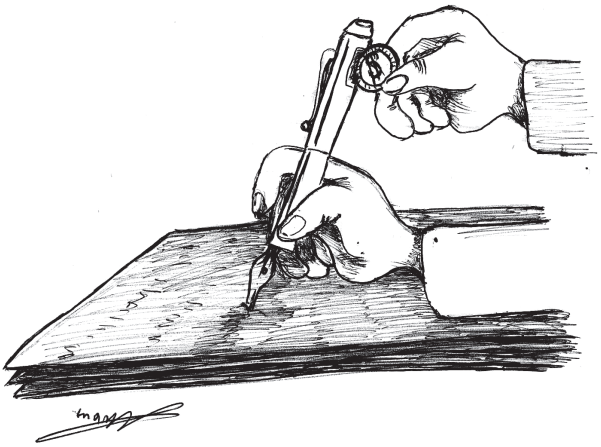

ترى العالمة الاقتصادية أورسولاهيكي أن اصطلاح النمو ينطبق على الدول المتقدمة اقتصادياً التي تتميز بأن معظم مواردها معروفة ومستغلة فعلاً أما مفهوم التنمية عندها فيرتبط بتلك الدول المتخلفة التي لديها إمكانات التقدم واستغلال الموارد التي لم تستغل بعد.

ويقدم شومبتر في كتابه (نظرية التنمية الاقتصادية) تفسيراً لكل من مفهوم النمو والتنمية إذ يرى أن النمو هو تغير تدريجي منتظم يحدث في الفترة الطويلة نتيجة الزيادة العامة في الموارد وأما التنمية فهي نتاج قوى تعمل في داخل

❁ باحث وخبير اقتصادي.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

النظـام الاقتصـادي عندما تكـون العوامل الأخـرى ثابتة وهي بذلك تغيـر تلقائي غير متصل بفعل قوى توسعية ضاغطة.

وعلى الرغم من أن المشكلة الاقتصادية وجدت منذ بـدء الخليقـة إلا أن النظريات العلمية الاقتصـادية لم تبدأ بالظهور سـوى مع خروج كتاب آدم سـميث (ثروة الأمم) إلى النور عام ١٧٧٦م. حيـث كانت هناك أفكار اقتصـادية يبثها رجـال الدين والفلاسـفة والسياسـيون، أمَّا الاقتصاديون فلم يكن لهم وجـود، وكان لابـد من الانتظـار حتى يولد نظام السـوق الذي تباع وتشـترى فيه السلع والخدمـات وعوامل الإنتاج والـذي بدأ في القرن الثالث عشـر وتطور وتبلور بالفعل في القرن العشـرين وكانت كتابات التجاريين ثم الطبيعيين (الفيزيوقراط) مفتقرة إلى عناصر أساسية لنظرية ديناميكية التطور الاقتصادي ولكن في الوقت نفسـه نجـد أن التجاريين أكدوا على أهمية الدور الإستراتيجي للتجارة والصناعة وعلى ضـرورة التدخل الحكومي في الحياة الاقتصـادية بينما أكد الطبيعيون (الفيزيوقراط) على دور القطاع الزراعي في خلق الناتج الصـافي. هذا ليأتي الكلاسيك مؤكديـن علـى دور التراكم الرأسـمالي في النمو الاقتصادي وفي تحليل آدم سميث يرى أن النظام الاقتصادي نظام طبيعي قادر على تحقيق التوازن تلقائياً وعليه لابد من الحرية الاقتصـادية وعدم تدخل الحكومة بأي شكل في النشـاط الاقتصادي لأن ذلك يعرقل نمو الاقتصـاد القومـي حيث يـرى أن القوانين الطبيعيـة هـي التي تنظـم مسـار الحياة الاقتصـادية من خلال ما أطلق عليه مفهوم اليد الخفية كما نادى بالتخصـص وتقسيم العمـل بما يكفل زيـادة الإنتـاج والإنتاجية وبما يـؤدي إلـى زيـادة الدخـل والإدخار فزيـادة معدلات التكوين الرأسـمالي. بينما بنـى ريكاردو أفكاره وتحليلـه على دعامتين أساسيتين هما نظرية مالتس للسكان وقانون تناقص الغلة حيـث إن الزراعة هي القطاع الرئيسي الهام في النشاط الاقتصادي والذي يخضـع لقانون تناقص الغلة نتيجة التسابق بيـن الفقراء من ناحية والسـكان من ناحية أخـرى وقد جعـل ريكاردو علـى الرغم من تأكيده لأهمية التراكم الرأسمالي من عنصر الأرضـ عاملاً محـدداً للنمو الاقتصـادي حيث يرى أن عنصـر السـكان عندما يكون قليلاً بالنسبة للموارد الطبيعية تتوافر فرص الربحية أمـام المسـتثمرين الرأسـماليين فيزيدوا من اسـتثماراتهم خاصة في القطاع الزراعي. هذا يؤدي إلى زيادة الربح ومعدلات التراكـم الرأسـمالي وبالتالي يزيـد الإنتاج والريع والطلب على العمـل. فترتفع الأجور فيزيد النمو السـكاني وتشتد المنافسة على الأراضـي الأكثر خصوبة وباسـتمرار النمو السكاني تسـتغل جميع الأراضي حتى الأقل خصـوبة مما يؤدي إلى ظهور قانون تناقص

الغلة وارتفاع أسعار الغذاء. هنا يطالب العمال برفع أجورهم فتنخفض الأرباح والتراكم الرأسمالي ويقل الحافز على الاستثمار فينخفض الطلب على العمل وتتجه الأجور إلى الانخفاض حتى تصل إلى حد الكفاف وتظهر هنا حالة من الركود الاقتصادي الذي يصعب معه استمرار عملية النمو.

يقسم ريكاردو المجتمع إلى ثلاث فئات: فئة الرأسماليين – فئة العمال – وفئة ملّاك الأراضي الزراعية ويرى أن عبء قيادة النمو الاقتصادي يقع على كاهل الرأسماليين من خلال قيامهم بتشييد المصانع وتشغيل العمال واستثمار الأرباح وأن أجور العمال لابد أن تكون عند مستوى أجر الكفاف إذ إن رفع الأجور عن ذلك المستوى يعمل على زيادة عرض العمل هذا وتقوم فئة ملّاك الأراضي الزراعية بإمداد المجتمع بالغذاء والطعام الذي تنتجه أراضيهم.

أما توماس مالتس فكان له أراؤه المشهورة في النمو السكاني باعتباره زعيم المدرسة التشاؤمية الذي وضع نظريته السكانية المعروفة باسمه (نظرية مالتس للسكان) والتي تنص على أن عدد السكان إذا لم يضبط فإنه سيزيد بمتوالية هندسية كل ربع قرن (٢٥ سنة) في حين لا يتزايد إنتاج الطعام وفق أحسن الظروف إلا بمتوالية حسابية خلال الفترة نفسها.

وتشتمل النظرية المالتسية للتنمية على ضرورة زيادة رأس المال المستثمر في القطاعين الزراعي والصناعي مقترحاً إتباع أساليب الإصلاح الزراعي كوسيلة لتحقيق زيادة الإنتاج وتوجيه جزء أكبر من الاستثمارات لزراعة جميع الأراضي الصالحة للزراعة مما يوفر فرص ربحية الاستثمارات فيه ويتم توجيه باقي رأس المال للقطاع الصناعي والذي تتضح فيه الغلة المتزايدة والتقدم التكنولوجي. لتزيد أهمية القطاع مع دوران عجلة النمو.

كما ظهرت النظرية الكينزية بعد أزمة الكساد العظيم ١٩٢٩ – ١٩٣٣م حيث عمت البطالة نواحي الاقتصاد كافة في العالم الرأسمالي ليصاب الاقتصاديون بصدمة فكرية قوية مذكرين بأن الفكر الكلاسيكي أنكر احتمال حدوث بطالة أو قصور في الطلب الكلي عن العرض الكلي للتوظف الكامل. لقد فرضت النظرية الكينزية أن للنظام الرأسمالي قدرة على تحقيق التوازن تلقائياً عند مستوى التوظف الكامل الذي هو حالة خاصة وليست دائمة الحدوث كما ترى هذه النظرية أن التعويل على فكرة مرونة الأجور والأسعار كفيل بإعادة التوازن أمر غير واقعي حيث إن وجود النقابات والإضرابات يحول دون تخفيض الأجور إلى درجة إزالة البطالة وإعادة التوازن والتوظف الكامل ويقرر كينز أن مستوى الدخل القومي يتحدد بالطلب والإنفاق الكلي

على السلع الاستهلاكية والاستثمارية في القطاعين العائلي والحكومي ويرتبط هذا المستوى للدخل بمستوى معين من العمالة والفن التكنولوجي السائد وحجم معين لرأس المال. ويرى كينز أن ارتفاع الدخل غالباً ما يصحبه ارتفاع مناظر في مستوى التشغيل لجميع العناصر خاصة العمالة مع افتراض ثبات الفن التكنولوجي على ما هو عليه . ويشير كينز إلى أن هناك حدوداً للزيادة العمالية التي يمكن أن تحدث نتيجة زيادة الدخل القومي والاستثمار أي عند ما يصل الاقتصاد إلى الحجم الكلي للعمالة حيث لا يمكن بعدها زيادة الدخل القومي لأكثر من ذلك ويسمى الناتج عند هذا المستوى الناتج القومي المحتمل والفارق بينه وبين الناتج الفعلي (الأقل من التوظف الكامل) يمثل مستوى البطالة فإذا أرادت الدولة زيادة الطلب الكلي فلابد من قيامها برفع الإنفاق الحكومي لعلاج البطالة أو الكساد فضلاً عن زيادة الإنفاق الاستهلاكي والاستثماري عن طريق تخفيض أسعار الفائدة أو منح مزايا ضريبية.

ومن الملاحظ أن هذه النظرية لم تأخذ خصوصية الدول النامية التي تكمن في جانب العرض وليس في جانب الطلب كما هو الحال في الدول المتقدمة فمع نقص رؤوس الأموال وضعف الكفاءة في عنصر العمل وتخلف وسائل الإنتاج فإنه لا يتوقع أن تؤدي زيادة الإنفاق الحكومي إلى زيادة الناتج الحقيقي بل إلى حدوث تضخم وارتفاع في المستوى العام للأسعار إضافة إلى أن هجرة العمالة من الريف إلى المدينة أدى إلى ارتفاع نسبة البطالة في المدن ونقص العمالة في الريف وهذا ما سيؤدي بدوره إلى ظهور مشكلة عامة في البطالة في الدولة والذي سيؤدي إلى انخفاض الدخل القومي وهذا ما حدث بالفعل في بعض الدول النامية التي حاولت تطبيق هذه السياسة.

وفي الخمسينيات ظهرت نظرية التحولات الهيكلية للعالم آرثر لويس الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد والتي ركزت على كيفية تحويل اقتصاديات الدول الفقيرة من الاعتماد الحاد على الزراعة إلى الصناعة والخدمات لتصبح اقتصادياتها متنوعة وأكثر مرونة على مواجهة تقلبات وتغيرات الطلب مما يساعد على التحول التدريجي من الريف إلى المدينة أو من الزراعة إلى الصناعة بشكل مقصود ومنطقي كون القطاع الزراعي التقليدي هو قطاع الكفاف حيث يقوم على إنتاجية ضعيفة للعمل أمّا القطاع الصناعي فهو قطاع حديث ترتفع فيه الإنتاجية معتمداً على يد عاملة انتقلت إليه من الزراعة منخفضة الأجر ويعطي إنتاجية أفضل من الزراعة التقليدية مما يزيد الإنتاج الصناعي ويخلق فرصاً جديدة للعمل في القطاع الصناعي استناداً إلى زيادة الاستثمارات

والتراكم الرأسمالي في هذا القطاع مع زيادة في الأرباح التي تنعكس إيجاباً على الدخل القومي مما يؤدي إلى زيادة حقيقية في الأجور وكذلك في الأرباح التي يعاد استثمارها في توسيع المشاريع أو في مشاريع جديدة، وتفترض النظرية استمرار عملية النمو حتى يتم امتصاص فائض العمال في القطاع الصناعي مما يؤدي إلى تحول النشاط الاقتصادي تدريجياً من الزراعة التقليدية إلى الصناعة الحديثة .

لقد انسجمت هذه النظرية مع التطور التاريخي الذي مرت به دول العالم الغربي ولكنها لم تنجح في الدول النامية كون شراء المعدات الرأسمالية أدى إلى انخفاض الطلب على العمل مع ملاحظة أن القوى العاملة الزراعية غير مؤهلة للعمل في الصناعة المتطورة كما أن الأرباح التي تحققها المشروعات في الدول النامية لا يعاد استثمارها فيها وإنما تذهب إلى الخارج لأسباب مختلفة.

ثم ظهرت نظرية الحاجات الأساسية للمواطنين في دول العالم الثالث والتي تتمثل في إتاحة الفرصة للفقراء للعمل وكسب الدخل مع تقديم الخدمات الأساسية لهم من المياه والبنى التحتية ووسائل النقل وتمكينهم من الحصول على الحد الأدنى من المأكل والملبس والمسكن والتعليم والصحة بأسعار مقبولة مع الاهتمام بالنمو والعمالة وتوزيع الدخل.

ويلقى هذا الفكر تأييداً سياسياً فمن الناحية السياسية الاقتصادية يمكن تعبئة الموارد اللازمة لتحقيق أهداف واضحة وملموسة حيث يضمن تأمين الحاجات الأساسية إضافة إلى تحقيق أهداف متداخلة مثل تحقيق العدالة الاجتماعية وزيادة الوعي الصحي والثقافي وتعبئة الموارد البشرية وتأهيلها لتحقيق مزيد من الإنتاجية والرفاهية في المجتمع على المدى الطويل، الذي يضمن زيادة الدخل القومي مع خفض في الإنفاق الحكومي والحد من الإنفاق الاستهلاكي في المجتمع على المدى القصير والمتوسط للمساعدة في نهضة الاستثمار والإنتاج. لذا يجب التأكد من تحقيق النمو الاقتصادي مع تلبية الحاجات الإنسانية للمواطنين التي تمكنهم من العطاء والإنتاج حيث يرى الاقتصادي فيليب دونسان أن استراتيجية الحاجات الأساسية أشبعت بنجاح في ظل نوعين من المجتمعات أولهما مجتمعات ما قبل الرأسمالية كاليابان وكوريا الجنوبية وثانيهما مجتمعات اشتراكية كالصين الشعبية وكوريا الشمالية والاتحاد السوفييتي.

كما ظهر الفكر (النيو كلاسيك) في السبعينيات من القرن التاسع عشر وقد اعتقد هذا الفكر أن الإطار العام للنمو

الاقتصادي هو النظام الرأسمالي كما اعتقد مفكرو هذه المدرسة ومن أبرزهم ألفريد مارشال – فيسكل – كلارك بإمكانية استمرار عملية النمو الاقتصادي دون حدوث ركود اقتصادي حيث إن النمو عبارة عن عملية مترابطة متكاملة ومتوافقة ذات تأثير إيجابي متبادل وإن نمو قطاع معين سيؤدي إلى دفع القطاعات الأخرى للنمو.

كما أن النمو الاقتصادي يعتمد على مقدار ما يتاح من عناصر الإنتاج في المجتمع (العمل – الأرض – الموارد الطبيعية – رأس المال – التنظيم التكنولوجي) حيث يرتبط عنصر العمل بالمتغيرات السكانية وحجم القوى العاملة مع أهمية تناسب الزيادة في السكان أو في القوى العاملة مع حجم الموارد الطبيعية المتاحة وأن عملية النمو هي محصلة التفاعل بين التراكم الرأسمالي والزيادة السكانية فزيادة التكوين الرأسمالي تعني الزيادة في عرض رأس المال الذي يؤدي إلى خفض سعر الفائدة فتزيد الاستثمارات ويزيد الإنتاج ويتحقق النمو الاقتصادي أما عنصر التنظيم فإن المنظم يستغل التطور التكنولوجي بصورة تنفي وجود أي جمود في العملية التطويرية وهو قادر دائماً على التجديد والابتكار ونوه مفكرو هذه المدرسة إلى أن النمو الاقتصادي كالنمو العضوي لا يتحقق فجأة إنما تدريجياً لذا دعوا إلى معالجة المشاكل في المدى القصير أمام المشاريع الصغيرة التي هي جزء من كل نمو بشكل تدريجي منسق متداخل وبتأثير متبادل مع غيره من المشاريع مؤكدين على التخصص وتقسيم العمل وحرية التجارة وذلك في سبيل تحسين معدل التبادل الدولي في صالح الدولة.

ويمكن القول بأن تجارب النظريات التنموية خلال الفترة الماضية أسفرت عن عواقب وخيمة تكبدتها دول العالم الثالث وجعلت من الصعوبة بمكان التسليم بجدوى تلك النظريات والأساليب التنموية وعليه تبرز فكرة التعارض بين النمو الاقتصادي من جهة وإعادة توزيع الدخل من جهة أخرى إلى فكرة التوفيق بين هذه الأمور والعمل على تحقيقها بآن واحد وبالتالي لن يتحقق النمو الاقتصادي ما لم تتم تلبية الحاجات الإنسانية للمواطنين بما يمكنهم من العطاء والإنتاج كما أنه من المستحيل إشباع حاجات المواطنين الأساسية دون تحقيق معدلات عالية نسبياً من النمو الاقتصادي لتوفير متطلبات ذلك الإشباع كما أشرنا آنفاً.

وفي السبعينيات من القرن الماضي وبعد خيبة الأمل التي أصابت الدول النامية من محاولاتها المستمرة لتطبيق نظريات ونماذج تنموية غير ملائمة ظهرت نظرية التبعية للنظام الرأسمالي العالمي الجديد حيث تعتبر هذه النظرية الدول النامية أسيرة لتنظيم مؤسسات اقتصادية وسياسية

جامــدة على المســتويين المحلــي والدولي حيث أصــبحت اقتصــاديات الدول النامية تابعــة لاقتصــاد العالم المتقــدم ومحكومة منــه حيث ركــزت النظرية علــى نموذجين الأول هو نموذج التبعية للاســتعمار الجديد وبذلــك كان هذا النموذج امتــداداً للمفهوم الماركســي الذي يرجع استمرار تخلف دول العالم الثالث لهيمنة النظام الرأســمالي على الاقتصــاد العالمي وعدم تكافــؤ العلاقات بين جانبــي العالم المتقدم والعالم المتخلف التي لا يمكن أن تحقق التنمية دون أن تتحرر من تبعيتها الاقتصــادية مما يتطلب إحداث تغيرات جذرية للنظام الاقتصــادي العالمي بما يضــمن قيام علاقات اقتصادية متكافئة بين دول العالم.

أما النموذج الثاني فهو المفهوم الخاطئ للتنميــة في دول العالم الثالث نتيجة اتباعها سياســات اقتصــادية غيــر ملائمة بســبب الضغوط التي تمارســها المؤسسات الدولية من البنك الدولي إلى صــندوق النقد الدولي لتنفيذ توصــياتها التي هي انعكاس للفلسفة الفكرية للاقتصاديات الرأسمالية.

وظهــرت فــي الثمانينيــات مــن القرن الماضــي النظرية الكلاسيكية الجديدة التي شــددت ضــغوط الدول الغربيــة على دول العالم الثالث لتطبيق سياســات اقتصــادية مماثلــة لتلــك المطبقة في الــدول الغربية والمتمثلة بتدعيم دور القطاع الخاص وتقليص دور القطــاع العام مع تصــفية مشــروعاته وتحويلهــا للقطاع الخاص وانعكس ذلك على المســاعدات المقدمة لــدول العالم الثالث ســواء تلــك المقدمة من خــلال الاتفاقيات الثنائية أو سياســات المنظمات والمؤسسات الدولية، ويرى كتَّاب هذه النظرية ومن أبرزهم بيتر باور – هاري جونسون – بلا بلاسار أن ســبب التخلف الاقتصــادي في بلدان العالم الثالث ليس بالضرورة أن ينشأ نتيجة عوامل خارجية شــكّلها النظام الاقتصادي العالمي وتقســيم العمل الدولي وإنما يرجع بالدرجة الأولى لعوامل داخلية تتمثل في زيادة التدخل الحكومي في الحياة الاقتصادية لدول العالم الثالث والذي أدى إلى سوء تخصيص الموارد فضــلاً عن السياســات الخاطئة للتســعير وانعدام الحوافز الاقتصــادية وتدني مستوى الأداء الاقتصــادي لمشروعات القطاع العام وتفشي الفساد الإداري وبناء على هذه النظرة لأصحاب النظرية الكلاسيكية الجديدة يكون علاج مشــكلات التخلف الاقتصادي مرهوناً بالتحول نحو اقتصــاد الســوق الحر وإزالة العوائق والقيود أمام القطاع الخاص للنهوض بعملية التنمية وترك المنافسة الحرة وآليات الســوق تقومــان بعملية تخصــيص الموارد الاقتصادية.

ثــم ظهــرت النظريــة الجديــدة للنمو وتحديد الأسعار أسوة بتجربة النمو الآسيوية في مجال التصــنيع نتيجة الفشل في تطبيق

نظريات ومناهج التنمية خلال الثمانينات وبداية التسعينات والتي تعتمد على الإنتقائية لنظرية النمو السابقة وتعتمد هذه النظرية على مبدأ أن عملية النمو هي نتيجة طبيعية للتوازن الاقتصادي في الأجل الطويل وأن الادخار والاستثمار عاملان أساسيان في تسريع عملية النمو الاقتصادي وأن التباين في معدلات عوائد الاستثمار مرجعه التباين في الاستثمار في رأس المال البشري في التعليم والتدريب والبحث والتطوير إضافة لتوافر البنى التحتية للاقتصاد الوطني كما يؤكد اقتصاديو هذه النظرية على دور القطاع العام في تحقيق أهداف التنمية بعكس ما جاءت به النظريات الأخرى.

مما تقدم نستنتج أن هناك أبعاداً أساسية للتنمية الاقتصادية نلخصها بما يلي:

أن يكون التغير في حجم النشاط الاقتصادي بالزيادة.

أن تستمد عملية التنمية بالدرجة الأولى من القوى الدائمة في المجتمع.

أن تضمن التنمية تحقيق تجدد موارد المجتمع بشكل دائم.

أن تحقق التوازن بين القطاعات الاقتصادية المختلفة في المجتمع.

أن تلبي حاجات الغالبية العظمى لأفراد المجتمع.

أن تحقق العدالة في توزيع الدخل وفي الحقوق بين أفراد المجتمع.

أهداف التنمية الاقتصادية:

إن الأهداف الأساسية للتنمية تدور حول رفع مستوى المعيشة وتوفير أساسيات الحياة الكريمة للمواطنين وبالتالي فهي وسيلة لتحقيق الأهداف المنشودة لتطوير المجتمع وهي :

زيادة الدخل القومي – الذي هو الدخل القومي الحقيقي المتمثل في زيادة السلع والخدمات والذي تحكمه عوامل معينة كمعدل الزيادة في السكان وإمكانيات البلد المادية والتكنولوجية الذي سينعكس إيجاباً على تحقيق مستوى معيشة أفضل من تحقيق الضروريات المادية للحياة وتحقيق مستوى ملائم للصحة والثقافة وهذا يتطلب ضبط مسألة النمو السكاني وتحقيق العدالة في توزيع الدخل إضافة إلى هدف اجتماعي وهو تقليل التفاوت في المدخول والثروات فمن المعروف أن ٢٠٪ من سكان العالم يستحوذون على ٨٠٪ من ثرواته بينما يملك ٨٠٪ من السكان ٢٠٪ فقط من ثروات العالم وهذا يؤدي إلى اضطرابات شديدة فيما ينتجه المجتمع وما يستهلكه وكلما زاد هذا الاضطراب زاد معه رأس المال المعطل في المجتمع ذلك أن الطبقات الغنية لا تنفق في العادة كل ما تحصل عليه من أموال بسبب ارتفاع ميلها الحدي للاستهلاك إضافة إلى أن الجزء الذي تكنزه الطبقة الغنية ولا تنفقه يؤدي في الأجل الطويل إلى ضعف قدرة

الجهاز الإنتاجي وتعطل العمال ذلك كونه لو أعيد إنفاقه على شراء السلع والخدمات في السوق المحلية أدى ذلك إلى زيادة نشاط الأعمال وبالتالي تشغيل العمال ومن هنا يتبين أهمية العدالة في توزيع الدخل وهناك أمر على قدر كبير من الأهمية للتنمية الاقتصادية وهو تعديل التركيب النسبي للاقتصاد القومي وتحقيق التوازن بين القطاعات المختلفة وعدم الاعتماد على قطاع واحد مثل الزراعة وإنما يتطلب دعم الصناعة وتطوير تجارة الخدمات حتى لا تتعرض البلد إلى خطر التقلبات الاقتصادية الشديدة في الإنتاج والأسعار وكون غالبية الدول النامية هي بلدان زراعية فإن الأمر يحتاج إلى تطوير تدريجي للزراعة باستخدام التكنولوجيا المتطورة مما يرفع من السوية الثقافية للمجتمع والذي يساعد لاحقاً على تصنيع الزراعة وانخراط العمال الزراعيين في العمل الصناعي تدريجياً في أماكن سكنهم في الأرياف بعد تأمين الخدمات الأساسية والبنى التحتية اللازمة لهم بما يضمن عدم الهجرة الداخلية لسكان الريف إلى المدن مع الانتباه والوعي الحادين اتجاه التحول إلى التكنولوجيا المعقدة جداً والتي لا يمكن استيعابها في المراحل الأولى للنمو من قبل المجتمع في الدول النامية.

تواجه التنمية الاقتصادية مشكلة التمويل التي يجب أن تعتمد على الموارد المحلية بالدرجة الأولى والتي يعبر عنها بالإدخار العائلي المتمثل بالفرق بين الدخل المتاح والإنفاق الاستهلاكي للأفراد في القطاع العائلي من خلال زيادة الوعي الثقافي للإدخار واتباع سياسة مشجعة لذلك بمنح فوائد مجزية وإيجاد صناديق التوفير والبنوك إضافة إلى إدخار قطاع الأعمال المتمثلة بالأرباح المحتجزة وغير الموزعة في هذا القطاع وهنا نميز بين قطاع الأعمال المنظم الذي يشمل الشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية الكبيرة في القطاعين العام والخاص والتي تنظم حسابات وميزانيات تبين أرباحها التي يجب إعادة توظيفها في مشاريع جديدة في البلد وإن كان لبعض شركات القطاع الخاص أن تقوم على إخراج أرباحها إلى خارج البلد أما القطاع الثاني في الاقتصاد فهو القطاع غير المنظم والمتمثل بالمتاجر والمشاغل الصغيرة والحرفية والتي غالباً ما تقوم باستخدام مدخراتها في تطوير عملها مما يدعم الاقتصاد ويساعد في تحويلها إلى قطاع منظم يمكن تحديد حجمه ووضع السياسات الاقتصادية والمالية لدعمه وتنميته.

أما الإدخار الحكومي وهو الذي ينجم عن الفائض المتولد من الإيرادات المتمثلة بالضرائب والرسوم وتحقيق زيادة مناسبة كافية لتحقيق دفع الاقتصاد نحو التنمية وهذا يتم من خلال سياسة ضريبية عادلة

وإنفاق حكومي منخفض وحتى تكون السياسة الضريبية عادلة يجب أن تعمل على رفع الميل الحدي للإدخار وتعبئة الفائض الاقتصادي وتوجيهه لأغراض التنمية دون المساس أو التأثير سلبياً على عملية توليد الفائض إضافة إلى لعب الضرائب دوراً هاماً في الحد من الاستهلاك غير الضروري وبالمقابل علينا أن نستهدف تغير نمط الاستثمار من خلال استخدام الضريبة كأداة تميزية لتشجيع نوع من الاستثمارات الأساسية والحد من الأخرى الكمالية ومع ذلك فإن عملية التنمية الاقتصادية تحتاج في مراحلها الأولى إلى رأس مال أجنبي لعدم كفاية رأس المال الوطني بسبب النمو المتسارع وانخفاض مستوى الدخل والإدخار المحلي ويأخذ رأس المال الأجنبي شكل الاستثمار لرأس المال الأجنبي محلياً من خلال إصدار تشريعات تشجع رؤوس الأموال الأجنبية للدخول والاستثمار في الاقتصاد المحلي مع ملاحظة أن لا تتحول هذه الاستثمارات إلى استعمار اقتصادي من خلال وضع ضوابط لهذا الاستثمار في الدولة بشروط ميسرة من بعض الدول الصديقة أو الهيئات الدولية شريطة عدم تحول هذه القروض إلى أداة ضغط وتدخل في الشؤون الداخلية للدول النامية وأن تتم هذه القروض استناداً إلى دراسات الجدوى الاقتصادية وتحقيق التنمية الشاملة وحدوث تحسن في توزيع الدخل لصالح الطبقات الفقيرة والتخفيف من ظاهرة الفقر وما يحقق متطلبات التنمية الاقتصادية في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية والتنظيمية والتأكد من تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي كشرط هام وأساسي يتمثل بالسيطرة الوطنية على الموارد المتاحة للمجتمع وبالتالي تحقيق القدرة على توجيهها واستغلالها بالشكل الملائم وعدم تحول القروض إلى شكل استعماري لاستغلال الثروات والسيطرة على الدول النامية.

وفي المجال الثقافي تتطلب التنمية الاقتصادية تغيرات جوهرية في نظام التعليم وجعله قادراً على مواجهة متطلبات التطور التكنولوجي وبما يلائم احتياجات النمو من خلال خلق الطاقة الإبداعية لدى الأفراد وخلق العقل الذي ينقل التكنولوجيا ويوطنها ومن ثم الإبداع في التكنولوجيا من خلال فهم الواقع والمحيط وجعلهما مواكبين للتطور العلمي.

أما في المجال الاجتماعي فالأمر يتطلب التأثير في العادات المعيقة للتنمية وتغييرها من خلال التأثير في سلوك الأفراد ونظرتهم للنشاط الاقتصادي والعمل كقيمة اجتماعية والتخلي عن الانتماءات القبلية والعشائرية والطائفية التي ستنعكس على عمل المديرين، والتأثير في العملية التنموية من خلال الإعلام الذي يصل لكل فرد في الدولة

والذي نستطيع أن نؤثر من خلاله أيضاً على المعتقدات والطرق المألوفة لأداء الأعمال وتوجيهها وتغيرها نحو الأفضل أو لكي تكون أكثر ملائمة لعمليات التطوير والتنمية وأن نشجع الاستخدام الأمثل والكامل للمهارات والموارد البشرية.

أما في مجال التنظيم الإداري الذي هو أساس العمل الاقتصادي الذي يجب أن يكون هدفه رفع معدل الاستثمار مما يتطلب رفع كفاءة الجهاز الحكومي أولاً من خلال إعادة تنظيم الإدارات وتحديث التشريعات الاقتصادية والمالية والضريبية وتوجيه عملها لخدمة التنمية الاقتصادية ودراسة العلاقة بين النمو والقوى العاملة من حيث حجمها ومعدل نموها في قطاعات الإنتاج والصناعة والزراعة والخدمات وكذلك من حيث جودتها ومدى تناسبها ومعدل نمو إنتاجها إضافة إلى استثمار الموارد الطبيعية بشكل اقتصادي وإعادة هيكلة قطاع التجارة الخارجية بما يخدم الصادرات وهذا يتطلب الاستفادة من مزايا الإنتاج الكبير أو الاستفادة من الصناعات التكنولوجية النوعية كصناعة البرمجيات وأنظمة المعلوماتية وهذا يتطلب يداً عاملة ماهرة بالشكل الكافي والتأكيد على تصنيع الموارد الطبيعية المحلية للتخلص من تقلبات أسعار المواد الأولية عالمياً والتي تتحكم بها الدول الغنية.

وبالنتيجة فإن التنمية الاقتصادية تحتاج إلى تساند وتعاضد اجتماعيين واسعين من فئات الشعب لوضع ركائز التنمية الاقتصادية والاجتماعية من خلال سيادة القانون وضبط النمو السكاني والاعتماد على الإدارة الرشيدة والعمل المؤسساتي بما يضمن الاستقرار السياسي.

استخدام الموارد الاقتصادية:

إنَّ استخدام الموارد الاقتصادية المتجددة وغير المتجددة يمكن أن يؤثر على النمو والتنمية الاقتصادية بل على البشرية وحياتها ورفاهيتها.

حيث إن قيام الدول المتقدمة بالاستخدام الجائر لأساليب الإنتاج التي قد تكون اقتصادية ولكنها تؤثر على البيئة وتوازنها مما يؤثر على الموارد ذاتها وطبيعتها بالسلب في المستقبل وبالتالي تؤثر على النمو الاقتصادي حيث التغير في المناخ يؤثر على الإنتاجية الزراعية ويؤثر على التركيب الكيميائي لبعض الموارد الاقتصادية ويرفع درجات الحرارة التي تزيد التبخر وتؤثر على الموارد المائية.

كما أن الدول النامية تقوم على استخدام أساليب علمية تكنولوجية واقتصادية في التعامل مع الموارد الاقتصادية غير المتجددة من خلال الاستغلال المكثف لها مما يؤدي إلى سرعة نضوبها إضافة إلى عدم التخلص من النفايات والغازات الناتجة عن المصانع بطرق علمية وبيئية صحيحة مما

ينعكس سلباً على الطبيعة والصحة العامة ويؤدي إلى انخفاض الإنتاجية.

مما يستوجب قيام الدول بإصدار التشريعات اللازمة للاستخدام الأمثل للموارد وتنظيم الصناعة ووضع الضوابط المناسبة لحماية البيئة والمحافظة على صحة العاملين في هذه الصناعة ضمن قواعد الأمن الصناعي المعتمدة لذلك على اعتبار أنه يجب التوجه من المنتجين أو المستثمرين للمشروعات التي تضمن تحقيق النمو والتنمية الاقتصادية بشكل علمي وبيئي صحيحين مما يضمن الترشيد في استخدام الموارد واستحداث بعضها حتى يمكن للأجيال القادمة أن تحصل على نصيبها من الرفاهية والتقدم الاقتصادي بشكل مضمون من خلال اتباع سياسة التنمية المستدامة وهذا يستدعي دوراً واعياً للدولة لسن القوانين والتشريعات التي تنظم الاستثمار والصناعة ضمن قواعد بيئية وصحية لتحقيق أقصى استفادة من الموارد الاقتصادية والتنمية الاقتصادية.

وحسب تقرير لجنة الأمم المتحدة للتنمية والبيئة الصادر عام ١٩٨٧م فأن التنمية المستدامة هي التي تفي باحتياجات الحاضر دون أن تضر بقدرة الأجيال القادمة في الحصول على احتياجاتها أي إن التنمية المستدامة هي التي تستخدم المخزون من الموارد الاقتصادية بشكل يتناسب مع تأمين احتياجات المجتمع منها مع المحافظة على نصيب الأجيال القادمة ورفاهيتها من هذه الموارد بمعنى أخذ البعد الزمني بالاعتبار من خلال إقامة مشروعات تساهم في نهضة البلد الاقتصادية والتي تؤسس للأجيال القادمة. وقد لجأت بعض الدول إلى تأسيس صندوق إدخاري للأجيال القادمة حتى لا تتحمل أعباء الجيل الحالي حيث إن التنمية الاقتصادية المستدامة حسب تقرير لجنة الأمم المتحدة أكد على ما يلي:

١- إنه يجب المحافظة على مصادر الإنتاج وعدم الاستغلال غير الاقتصادي للموارد الطبيعية المتجددة والذي يضر بالإنتاج منها بل واستنباط ما يمكن من طرق لضمان زيادتها في المستقبل.

٢- عدم الاستغلال غير الاقتصادي للموارد غير المتجددة والتي يصعب تجديدها في المستقبل القريب أو البعيد نظراً للتغير الكبير في المناخ والخصائص الجيولوجية التي تضمن توفير الموارد غير المتجددة في المستقبل أو أنها تحتاج لفترات زمنية طويلة لتجددها مما يتطلب تكثيف البحث العلمي والتكنولوجي لإنتاج بدائل لها أو إعادة الإنتاج والتدوير أو اكتشاف طرق تكنولوجية جديدة تقلل من استخدام الموارد أي المدخلات منها في العملية الإنتاجية مقابل الحصول على عدد أكبر من السلع المنتجة أي المخرجات.

مع ملاحظة أنه إذا استهلك المجتمع

المخـــزون من رأســـ المال الطبيعـــي لإنتاج الدخـــل الجـــاري فـــإن الطاقـــة الإنتاجية والاقتصـــادية للحفاظ على مســـتوى الدخل سوف تتناقص في المســـتقبل لأن استهلاك رأس المال الطبيعي يتناقص مع الاستخدام إلا إذا اســـتطاع المجتمع أو الدولة استخدام طرق إحلال رأس المال الطبيعي بعوامل إنتاج أخرى حيث تمثل الموارد الطبيعية والغابات والمعادن ومصـــائد الأسماك والمياه والبيئة رأس المال الطبيعي.

مما سبق نصل إلى أن التنمية المستدامة يجـــب أن تأخـــذ فـــي اعتبارهـــا الإهـــلاك والاستهلاك في الموارد الطبيعية والانخفاض الـــذي يحدث في الزراعة والغابات والتعدين وغيرهـــا من النشـــاطات الاقتصـــادية التي تعتمـــد على المـــوارد الطبيعية فـــي مقابل الانخفاض في الصناعات السابقة التقليدية توجـــد زيـــادة أو نمـــو في قطاعـــات أخرى كالصناعات المتطورة أو الخدمات والتشييد والبنـــاء والنقل والتجـــارة وغيرها وكل هذه القطاعات تعتمد على اســـتخدام الموارد في الإنتاج.

لذا يجب النظر باهتمام عند وضع برامج التنمية المســـتدامة في المســـتقبل فعندما تعتمد التنمية على الموارد الطبيعية بشـــكل أساسي فإن المنفعة الكلية المحققة يجب أن تســـاهم في إمداد قطاع الصـــناعة بالتمويل اللازم، وجزء من هذا التمويل يجب أن يوجه إلى برامج الأبحاث والتطوير من أجل التوصل إلى تكنولوجيا جديدة يمكنها أن تحقق إحلال الموارد النادرة وزيادة الإنتاجية.

عـــوائـــق الـتـنـمـيـة الاقـتـصـاديـة المستدامة:

تواجه التنمية المســـتدامة عـــدداً كبيراً من العوائق تؤثر على المســـتوى الاقتصادي والاجتماعـــي والثقافي والعلمي والصـــحي والنمو في كل دولة، منها:

١- مســـتوى الفقـــر والعمـــل الجاد على مواجهته لأنه يقلل من التنمية المستدامة.

٢- عـــدم المســـاواة في متوســـط دخل الفرد داخل الدولة وبين الدول على مســـتوى العالـــم، حيـــث يرتفـــع متوســـط الدخل في الدول المتقدمة ويصل إلى أن يعادل ٢٢ مرة متوسط الدخل في الدول النامية.

٣- الحروب والصـــراعات التي لا تنتهي على الدول النامية بسبب الرغبة في السيطرة على الموارد واســـتجلاب البعض الآخر من بعض الدول الفقيرة لضـــمان استمرار تقدم الدول الصناعية وزيادة نهضتها.

٤- التلـــوث البيئي الذي وصـــل إلى حد يعيق حياة البشر ليس فقط في الدول النامية بل والمتقدمة أيضـــاً، فارتفاع درجة الحرارة نتيجـــة لانبعاث الغـــازات الملوثـــة للطبيعة ســـتؤثر على الموارد الزراعية والصـــناعية والخدمات أيضـــاً هذا إضافة للتأثير السلبي على الصحة.

٥- الاستهلاك المتزايد للمياه العذبة مما يؤثر على الاحتياطي وقدرته على سد احتياجات الأفراد أو الإنتاج.

٦- تدهور التربة الزراعية وأراضي الرعي والغابات والأراضي المشجرة مما ينعكس على الإنتاجية والإنتاج من هذه المحاصيل.

٧- التنوع الإحيائي، إذ انقرضت كثير من الحيوانات والنباتات مما قلل من التنوع بشكل كبير خاصة في الدول النامية التي تعاني من الفقر والمرض والتصحر.

٨- مصائد الأسماك وانخفاض إنتاجيتها بسبب النشاط البشري غير العلمي.

كل هذه المعوقات السابقة التي أشارت إليها التقارير الصادرة عن المؤسسات الدولية تؤثر على ديناميكية التنمية واستمرارها في المستقبل بالمعدلات المطلوبة وبالتالي تؤثر سلبياً على نصيب الأجيال القادمة من عوائد التنمية.

دعائم التنمية الاقتصادية المستدامة:

إن قياس الاستدامة لا يكفي لتحقيق التنمية الاقتصادية، بل أهمية الموارد وإدارتها وتخصيصها بين الاستخدامات ذات الأولويات المختلفة في المجالات الاستثمارية المؤثرة على التنمية الاقتصادية تعتبر ذات أهمية كبيرة في هذا الإطار فلدينا أنواع عدّة من الموارد التي تعتبر مخزوناً وأصولاً يرتكز عليها في اتخاذ القرارات الاستثمارية من أجل تحقيق التنمية سواء أكانت:

١- موارد بشرية تتمتع بمهارات ومواهب ومؤهلات وقدرات خاصة تتركز بشكل كبير في قطاع التعليم وأيضاً قطاع الصحة مما يمكنها من زيادة الكفاءة الاقتصادية في المجالات الاستثمارية المختلفة.

٢- الموارد الاقتصادية الطبيعية سواء المتجددة أو غير المتجددة والتي لها وظائف هامة لأنها تعتبر الأساس الذي يعتمد عليه في مدخلات الإنتاج ويحقق المنفعة، وبعضها الذي لا يدخل في الإنتاج يلعب دوراً أكثر أهمية في توفير الظروف الصحية الملائمة لحياة الأفراد مثل الهواء والمياه والتربة التي تتأثر بالتلوث والنفايات الناتجة عن الأنشطة البشرية.

إنَّ الطبيعة تقدم خدمات للإنسان وموارد متجددة لا غنى للإنسان عنها حيث إنها تحقق التوازن بين المكونات المختلفة للمحيط الذي يعيش فيه الأفراد فتوافر الأوكسجين بشكل متنام وثاني أكسيد الكربون بكميات محسوبة لمٍ يتوصل إليها كثير من الدول ذات التقدم العلمي والتكنولوجي حتى اليوم، وبالتالي لم تتمكن الدول من إنتاج بدائل عنها لها الخصائص نفسها التي تتمتع بها.

٣- الموارد التي يقوم الإنسان بتصنيعها من الموارد الطبيعية مثل المنتجات المادية وخاصة التي تستخدم في الإنتاج مثل العُدَد والآلات والمباني وشركات الاتصالات، الكهرباء والسدود،...إلخ حيث تعتبر الأساس

الذي يقوم عليه الاستثمار. كما تلعب أيضاً دوراً هاماً في إعادة الإنتاج وتوفير الكميات المتنوعة من السلع والخدمات اللازمة لحياة الأفراد.

٤- رأس المال الاجتماعي الناتج عن العلاقات بين المجتمعات المختلفة وبين الأفراد داخل المجتمع ذاته الذي يرتكز على الثقة بين الأفراد وشركات الاتصال المختلفة مما يسهل التعاون بين المجموعات والمجتمعات والدول.

إنَّ رأس المال الاجتماعي يمكن أن يدعم ويعزز تراكم رأس المال البشري، وأيضاً زيادة إنتاجية رأس المال. كما أن التكامل والتنسيق بين الأنواع المختلفة من الموارد قادران على تحقيق معدلات متزايدة من التقدم والازدهار وتحقيق مستويات مقبولة من التنمية المستدامة. وإذا لم يتم التكامل والتنسيق بين الاستخدامات المختلفة والأنواع المتباينة من الموارد سيؤدي ذلك إلى تحقيق خسائر محققة، مثل انخفاض الناتج الزراعي، تلوث البيئة وآثارها على الصحة ومن ثم انخفاض الإنتاجية، أي انخفاض الإنتاج، ثم انخفاض الدخل مع زيادة التكاليف للإنفاق على الصحة والأمراض الناتجة عن انخفاض الدخل، ويدخل المجتمع في حلقات لانهائية من الفقر كل حلقة تدفع إلى الحلقة التي تليها.

ترتكز التنمية المستدامة على عدد من المقومات أو الركائز أو الدعائم وهي:

١- مقومات اقتصادية ٢- مقومات بيئية ٣- مقومات اجتماعية.

تعتمد المقومات الاقتصادية على الكفاءة الاقتصادية في إدارة الموارد واتخاذ القرارات الاقتصادية بشأن إنتاج السلع والخدمات في الحاضر والمستقبل.

كما تعتمد المقومات الاقتصادية بشكل كبير على قدرة الدولة العلمية والابتكارية في استخدام التقدم العلمي والتكنولوجي وتطويعه لتطوير ما لدى المجتمع من إمكانات. مما يعمل على:

- تقليل الموارد المستخدمة في الإنتاج، مع زيادة المخرجات منها.
- التحكم في الغازات الملوثة للبيئة والتي تؤثر سلباً على الإنسان والمكان والناتج الاقتصادي في النهاية.
- إعادة تدوير المخلفات لزيادة المخزون من الموارد.
- الحفاظ على الموارد المتجددة وغير المتجددة والتعامل معها بحذر لكي يمكن تحقيق زيادة متتالية في الناتج الذي ينعكس على تحقيق وفرة في العرض وتخفيض تكاليف الاستخدام.
- تقديم منتجات جديدة لاستخدامات متنوعة تحل محل عدد كبير من المنتجات ذات الاستعمالات المحدودة.

- إنتاج منتجات ذات جودة أفضل لكي تستهلك في فترة زمنية أطول مما يعطي فرصة للأفراد لتحقيق منفعة أعلى والحصول على سلع أكثر وتخفيض المستخدم من الموارد.

- تطويع التكنولوجيا لإنتاج بدائل للموارد غير المتجددة.

- استخدام الأدوات الاقتصادية في تقييم الاستثمارات وتوجيهها إلى المشروعات ذات الأولوية في برامج التنمية المستدامة.

- وضع الحوافز الإيجابية والسلبية التي تدفع الأفراد للتعاون والمشاركة الفعالة في برامج التنمية المستدامة المختلفة.

- تحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع عوائد الإنتاج ليس داخل كل دولة بل أيضاً على مستوى العالم، وتوجد اليوم كثير من البرامج داخل الأمم المتحدة التي تسعى لتحقيق ذلك.

- تحقيق العدالة أيضاً بين أفراد المجتمع في الحاضر والمستقبل. أي الحفاظ على الموارد بأنواعها المختلفة حتى نضمن للأجيال في المستقبل توفير قدر من الموارد لسد احتياجاتهم.

- دور الدولة في ضبط إيقاع النشاط الاقتصادي بشكل مباشر وشكل غير مباشر لضمان التخلص من معوقات التنمية المتمثلة في الفقر، والبطالة، القلق الاجتماعي، التعليم، الصحة، الإسكان،...إلخ.

ونختم بما جاء في (مؤلفات - ماركس - إنجلز) أنه بظهور الرأسمالية على المسرح العالمي وانتقال رأس المال إلى العالمية والسيطرة وفتح كل الحدود أمامه عبر الاستعمار، يكون قد أنشئ من يومها تقسيم دولي للعمل يتناسب مع توضع المراكز الرئيسية للإنتاج الآلي حيث حول جزء من الكرة الأرضية إلى منطقة يغلب فيها الانتاج الزراعي وجزء آخر إلى منطقة تختص بالإنتاج الصناعي.

وبالنتيجة فإن التنمية الاقتصادية تحتاج إلى التعاضد الاجتماعي والإجماع الوطني على التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ظل سيادة القانون مع نمو سكاني متوازن وتنمية إدارية تكرس الإدارة الرشيدة والعمل المؤسساتي الذي يضمن العدالة الاجتماعية وتوزيعاً عادلاً للدخل.

مراجع البحث

- التنمية الاقتصادية ، د. عصام خوري و د. عدنان سليمان - جامعة دمشق.
- نظريات النمو والتنمية الاقتصادية، د. عبلة عبد الحميد البخاري.
- عن تقرير التنمية العالمية للبنك الدولي لعام ٢٠٠٣م: ما المقصود بالتنمية الاقتصادية - الموارد والنمو والتنمية المستدامة.

الأكوان المتعددة المغايرة

موسى ديب الخوري ❁

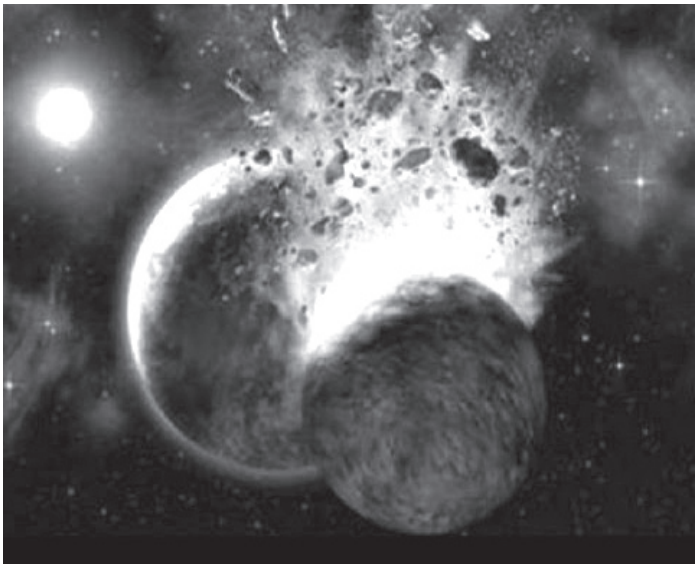

منذ الأنساب الإلهية التي وضعها هسيودوس، وهي لا شك من أهم التصورات القديمة حول تشكل وبداية الكون التي وصلتنا بشكل حاوَل استنفاد جوانب المعرفة كافة آنذاك، لعب الخاوس / الشواش دوراً مزدوجاً. فهو بلا شك الفوضى

❁ كاتب ومترجم ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

التي عاكست القدرة المشكِّلة للكوزموس / الكون، لكنه كان أيضاً الشرخ، و«الهوّة»، والصدع الأصلي الذي سيسمح بـ«انبثاق» فكر (إذا لم نقل بانبثاق وعي) يشكِّل ويسائل نيكس Nyx، السماء الليلية ذات النجوم!

كان الأوادوس، وهو من كان ينشد الملاحم في اليونان القديمة، ويحميه الإله أبولون، حاملاً لمعرفة واسعة، ومنها أنه كان يعرف قائمة حوريات البحر، النيرييد، بل إنه كان ملهماً بوساطة ربات الفن muses، ككينونة شفافة ونفوذة أمام غرابة الواقع وككائن مَسامي أمام عدم وضوح وجلاء الطبيعة. إنَّ عالم الفيزياء المعاصرة ليس غريباً عن حالة الأوادوس. لم يكن ثمة كشف في الفكر اليوناني.

فالدين إذا وجد في ثنايا المجتمع أو الفلسفة كان ديناً ملحِداً، بالمعنى الحديث للكلمة، متأصلاً ومجسَّداً. تحاول الفيزياء الفلكية المعاصرة سبر وتقصي أوجه الكون، بما هو جملة من الأكوان التي تكشف عنها أنواع عملاقة من المناظير الكونية، متجاوزة ولو بشكل جزئي جوازات وقدرات البيولوجيا البشرية. فعيوننا، لواقط الضوء الطبيعية، متأقلمة مع وسطنا البيئي الأرضي: نحن حساسون للإشعاع الصادر من شمسنا. ومع ذلك، ثمة «حبيبات ضوء» لا تصلنا طاقتها بشكل مباشر. حيث الجزء «المرئي» من الطيف جزء ساخر من عيوننا. لكن مقدرتها الفعلية في الكشف عن البنى والمعارج الكونية لا تتقلّص أبداً لهذا السبب. بل على العكس تماماً، فهي تسمح لنا بغوص يصيبنا بالدوار في قلب غرابة كون مبرقش لانهاية لألوانه وغناه ووفرته! وهي تكشف لنا عن أغرب النجوم التي يمكن للخيال تصورها، وعن الصيرورات الأكثر حدية وجمالاً وفرادة! إنها تقودنا نحو هذه العلاقة الجذرية للغيرية التي، باقترانها مع البعد شبه التكويني، الخلقي في صيرورة البناء النظري، فإنها تشكل شيئاً فشيئاً السمة الأكثر جاذبية وفتنةً وسحراً، إذا لم تكن تشكل التعريف نفسه، للفيزياء المعاصرة.

إنَّ المعرفة كصفة بشرية تصبح في أطر الفيزياء المعاصرة صفة كونية، ويصبح التساؤل عن أصول الوعي مماثلاً للتساؤل عن أصول الكون، ويمتد تعدد النموذج المعرفي إلى تعدد كوني لا حدود له! إن إدراكنا للعالم اليوم يتعدد بتعدد مقارباتنا التكنولوجية أو الذوقية أو النظرية. من هنا يتخلل الفن شاعرية الكون، وتتخلل جمالية الكون القصيدة الحرة المعاصرة، وتصبح لوحاتنا متألقة بتعددية منفلتة من إسار النموذج الواحد...

إذا تقصّينا السموات ضمن مجال الطاقات المنخفضة، بوساطة عيون حساسة للأمواج الراديوية، فإن البنى التي تظهر

لنا هي بنية أشبه بالفتائل من الغازات بين المجرات وفيها. ففي مجال الطيف حتى ٢١ سم، الذي يسببه الانتقال الفائق النعومة للهيدروجين، يفرض نفسه كدرجة طول موجة مميزة للمادة المألوفة. وإذا صعدنا قليلاً في درجة الطاقة، في مجال الأشعة تحت الحمراء، فإننا نجد على سبيل المثال الصيرورات الحرارية التي تكشف عن تشكل النجوم التي تكشف بدورها عن بعض أسرارها الأكثر انحفاظاً حتى الآن. وعلى عكس ما تبدو لنا السحب العاتمة الواسعة في الرصد المرئي فإنها تظهر في هذه السوية كمناطق مشعة جداً، فيختلف المشهد الكوني ويعكس لوحة نرسمها بمقاربتنا المختلفة للكون. وإلى ما وراء الطاقات المرئية، يشهد مجال الأشعة فوق البنفسجية على صيرورات حرارية فائقة تتدرج الحرارة فيها بين عشرات عدة من آلاف الدرجات إلى عشرات عدة من ملايين الدرجات.

أما الأشعة السينية فإنها ترتبط بإصدار الغاز المؤيَّن الذي يمكن أن يرتبط بظاهرات متنوعة جداً (سطح نجم مرصوص جدّاً ومضغوط، أو بقايا سوبرنوفا، أو حشد مجرِّيٍّ، إلخ). وأخيراً، فإن فوتونات غاما تمتدّ بالتعريف حتى حدود الطاقات الأكثر ارتفاعاً المكتشفة حتى اليوم. ومع الدفقات التي تزيد عشرات مليارات المرات عن الضوء المرئي، فإن هذه الفوتونات تكشف عن مشهد مختلف تماما للقبة السماوية! إنه عالم معتم تماما، لا توجد فيه «ألعاب» وخيالات الشمس والقمر، وحيث يسطع سديم العقرب في السماء الذي تخفيه عادة الطاقات الضوئية، فيظهر كألف شمس يضيء السماء كنجم النهار! إن هذا النجم النيوتروني الذي يدور بسرعة، والذي تصل كثافته إلى ملايين الأطنان في السنتمتر المكعب، ينشر أشعة السديم المحيط به بوساطة «الجسيمات النسبوية» التي يصدرها. إن فيزياء الجسيمات الدقيقة والنسبية الخاصة هما أهم تصورين في القرن العشرين قدّما فهماً مختلفاً لعوالم ما كنا نعرفها من قبل، وأعادا أيضاً وأيضاً رسم كون مغاير.

كان الدافع الرئيسي لدراسة المركبات الأولية والأساسية للمادة هو الرغبة في التوحيد! والوصول إلى تصور شامل يفسر الكون. وترتكز هذه الدراسة بالتالي بشكل أساسي على مبدأين. الأول هو مفهوم الجوج، وبشكل خاص مفهوم الجوج المحلي.

ومبدأ الجوج يشتمل على تحديد تحوّل يترك عموماً المنظومة الفيزيائية دون تغيير والارتقاء به إلى صف التناظر المحلي. وقد تكرّست صيرورة هذا المبدأ من خلال فعاليتها المدهشة وكانت في قلب التوحيد المعروف بالكهرضعيف الذي سمح لنا. بالارتكاز على مفاهيم التناظر هذه. بوصف

موحَّد ومتجانس للقوتين الكهرمغنطيسية والنووية الضعيفة.

ولكن لابد من الاستنتاج أيضاً أن العالم الذي يحيط بنا ليس موحَّداً. فلا بد بالتالي من استدعاء مبدأ ثان يأتي لكي يوازن بطريقة من الطرق المبدأ الأول: إنها فكرة الشرخ التلقائي للتناظر. على المستوى التقني، هذا يعني أن الحلول لم يعد لها تناظر المعادلات. وعلى المستوى التصوري النظري، فإن الأمر يتعلق بشكل أساسي بإعادة تفسير القوانين كمعاملات بيئية محلية، أي مرتبطة بالوسط الذي وجدت فيه! فابتداء بحالة أولية متناظرة وغير مستقرة، تتطور المنظومة بشكل تلقائي خارقة اللاتغير الأصلي: فإذا وضعنا قلماً مثلاً بشكل عمودي فإنه لا يفضل أي اتجاه إلى أن يسقط ويتّجه بشكل عشوائي وفق محور وحيد أصبح هو اتجاهه المفضل. وهذا الجواز أو الاحتمال يتداخل حتى في الضرورة التي كانت تعتبر حتى اللحظة على أنها الضرورة الأكثر صعوبة ومنعة على التداخل.

إن بوزون هيغز الذي تم الإعلان عام ٢٠١٢ عن اكتشافه في مسرِّع الهادرونات LHC في مركز CERN الأوروبي هو - تحديداً - حقل الفيزياء الذي يسمح بخرق التناظر الكهرضعيف وإعادة ترميم التنوع الظاهر للتفاعلات. إنه الممثل الضروري لمصالحة الرغبة بالواحد(ية) مع يقينية التعدد كما يقول أورليان بارو!

إنها فيزياء الجسيمات الأولية بالتالي، لكنها فيزياء الجسيمات النسبوية.

إن النسبية الخاصة، الأساسية لفهم جوهر الظاهرات الكونية، هي نظرية ثورية قبل كل شيء في أنها كانت أول نظرية جوج في التاريخ. فالثوابت، أو اللامتغيرات، لم تعد تؤخذ هنا في فضاءات مجردة (الإلكترون النيوترينو بالنسبة للتفاعل الضعيف أو البروتون النوترون للتفاعل الشديد) كما في فيزياء الجسيمات، بل في فضاء مألوف ويمكن التعامل معه.

هناك أولاً اللاتغير بالنسبة للإزاحة الزمنية: فقوانين الفيزياء لا تتعلق بالزمن. الظاهرات تتطور، بالتأكيد، لكن القوانين التي تخضع لها الظاهرات لا تتغير. عندما نشر نيوتن كتابه المبادئ Principia،، فإنه لم يفترض أنها صحيحة فقط في عام ١٦٨٧، بل وأنها كانت صحيحة بالأمس كما ستكون صحيحة بالمستقبل.

ثم هناك اللاتغير بالانزياح المكاني: فقوانين الفيزياء لا تتعلق بالموضع. إن الظاهرات ليست بالتأكيد هي نفسها هنا وهناك، لكن قوانين الفيزياء التي تحكمها متطابقة في كل موضع ومكان. عندما أعلن نيوتن مبادئه، لم يفترض أنها صحيحة حصراً في كامبريدج بل كذلك في روما

أو أثينا أو غيرها من مدن العالم! وأخيراً، هناك اللاتغير بالدوران: فلا يهم النجم الذي يوجد في السمت بالنسبة للراصد عندما يتم وضع قانون ما أو يُختبر قانون ما. وابتداء من هذه التناظرات البسيطة (التي تشكل تقريباً شرط إمكانية عقل وفهم فيزيائية، رياضية للواقع)، من الممكن برهان ثلاث نتائج جوهرية بالنسبة للفيزياء المعاصرة: وجود سرعة حدية، الضرورة التصورية لربط المكان بالزمان، والتكافؤ بين الطاقة والمادة. النقطة الأولى ليست متصلة حصراً بالضوء: فهذه السرعة التي لا يمكن تجاوزها يجب أن تعتبر كثابتة لبنية الزمكان.

فهي ليست نتيجة للصيرورات الفيزيائية التي تولد في هذا الفضاء، بل تأتي من بنية مجموعة الزمكان نفسه. فهي تشكل بالتالي «مطلقاً» لا يمكن تجاوزه لهذه الميتا نظرية التي على النظريات الفيزيائية النوعية كافة (فيزياء الجسيمات، والفيزياء النووية، والكهرطيسية، إلخ.) أن تلبيها وتتوافق معها. وتتصل النقطة الثانية بنسبية المكان والزمان. فيمكن لهما أن يتغيرا و«يتحولا» أحدهما إلى الآخر. فزمن جسم متحرك يتمدد، وفضاؤه ينضغط. وبالتالي لا يعود «السفر إلى المستقبل» (بالمعنى الذي لا يعود فيه زمن المراقِب يتوافق مع زمن المراقَب) حكراً على الخيال العلمي بل يصبح مطبقاً بشكل يومي في المسرعات الجسيمية.

إن هذه «الأشكال البدهية» (أو المسبقة، أي التجاوزية في المصطلح الكانطي) للحساسية البشرية هي أشكال لا بد من إعادة تفسيرها في «بَعدية» حركية خاصة. فالطفل المنتقل بسرعة بالنسبة لأقرانه سيصبح بسهولة وواقعية وفعلياً أصغر منهم عندما يلتقون. ربما ثمة تعارض هنا، لكنه بالتأكيد ليس تناقضاً. أما النقطة الثالثة فهي الأكثر إدهاشاً بلا شك: الطاقة تساوي الكتلة في جداء مربع سرعة الضوء ($E=mc^2$)، إنها العلاقة التي تجمع الغريزي (الكتلة) والمكتسب (الطاقة)، الأساسي والحادث، الكينونة والتملك. فمساواة الطاقة والكتلة يعني أن خاصية ما يمكن أن تتحول إلى وجود. وهذا بالضبط ما يحصل في مصادم للجسيمات (أو عندما يصطدم شعاع كوني بالغلاف الجوي الأرضي): فسرعة الجسيم تتحول حرفياً إلى وجود جسيمات جديدة.

يشبه ذلك قليلاً استخدام رنّة بيانو قديم وأصيل لبناء عدد من البيانوهات الأصلية المادية... إن هذه الخاصية الأخاذة للمادة، التي يتم التحقق منها يومياً وتستخدم أيضا في مجالات شتى، تفتح الطريق للعلماء لاكتشاف المادة المضادة وتمهد أيضاً الطريق أمامهم لبناء نظرية الحقول الكمومية، أي إلى «التحوّلية» المنشورة حتى المستوى الأكثر أولية: فحتى الكمات الأساسية يمكن أن تُخلّق وتُدمَّر. فأية عوالم يمكن أن نتخيل عندها؟

إنَّ هــذه الجســيمات تحمــل بالتأكيد معنــى ما بذاتها، طالما أنها تشــكّل الحالة الموضــوعية / الحاليــة لبحثنــا عن هذا المفهوم التصوري الذي يمثله «اللامتناهي في الصغر». إن الكواركات، التي سميت على هذا النحو من قبل جيمس جويس، ليســت مجرد كريات صغيرة مرتبطة بصلات مرنة بــل بالأحــرى تمثيلات لا يمكن تبســيطها لمجموعــات دورانيــة. وبالمثل، يتكشّــف هنا أيضــاً وجه جديد للكون / الكوزموس مــع هذا التجريــد. ليس لأن الرياضــيات ستكون، ضمن نســخة غاليلية، اللغة النقية والجوهريــة للطبيعة، بــل لأنها طريقة بين طــرق أخرى لخلق عالم ذي معنى. فإلى ما وراء أهميتها الخاصة، تعتبر هذه الجسيمات أيضاً كسوابر مضبوطة بشكل خاص لكشف بواعث وموجبات كونية أخرى وأشكال أخرى من بيئتنا المجرية وما وراء المجرية.

إنَّ الأشعة الكونية المشحونة (بروتونات وإلكترونات ونوى هليوم وفحم وحديد إلخ.) تعطينــا منفذاً إلى ديناميكية مجرتنا. وهي تشــير إلى وجود حقل مغنطيســي مشوه أو غير منتظم في مجرتنا وبالتالي فهي تخضع في ارتحالها إلى صــيرورات انتشار وحمل حراري معقدة. وهي تسمح أيضاً بالمساهمة في حل بعض الألغاز فــي الفيزياء الفلكية المعاصــرة: مثل وجود كميــات جهارية من المادة المضــادة في الكون، وطبيعة المادة السوداء، إلخ. هل توجد عوالم مضادة على تخوم كوننا، حيث تأوي كواكب مضادة تدور حول نجومها المضــادة ربمــا.. فيزيائيين مضادين؟!!

وتعــد النيوترينوهات ســابراً آخر غنياً بشــكل خاص بالمعلومات. إنها جســيمات شــبحية كما عُرفت في أدبيات الفيزياء، لا شــحنة لها، ولا لون ولا كتلــة (تقريباً)، ولا تملك سوى التفاعل الضــعيف للتفاعل مع الجسيمات الأخرى. لهذا، فالنيوترينوهات ترى عالماً «شفافاً» ويســمح بالوصول إلى قلب الأجسام السماوية من نجوم ومجرات. إن الفوتونات التي نرصدها آتية من الشمس لا تأتي إلا من طبقة رقيقة جداً من ســطح الشمس.

فنحن لا نرصد باطن الشمس لأن جسمها مثل جسم النجوم ليس شفافاً بصرياً. يحب بــول فاليــري Paul Valéry أن يذكّرنا، فــي مقولــة رواقيــة جــداً يذكرهــا دلوز Deleuze، أن «الأعمــق هو الجلد». ولكن خلف هذا الجلد يختفي الجســم اللامرئي حيث تشــتعل في كل ثانية عــدة مئات من ملايين الأطنان مــن الهيدروجين والهليوم. وعلى عكس الفوتونات، فإن النيوترينوهات تكشف مباشرة موضع التفاعلات الحرارية الاندماجية، وبالنتيجة المناطق الأكثر صلة بالشــمس فيزيائياً. إنَّ علم الفلك الجديد هــذا، الذي لا يزال في بداياته إنما في أوج

انطلاقته، يشير إلى أننا يجب ألا نشكك في وجود أوجه جديدة لم تكن معروفة أو متوقعة للكون.

تسمح أخيراً الأمواج الثقالية برؤية الكون بعيني مهندس، وبناء مشروع ربما كان أفلاطونياً بعض الشيء. فقد تنبأت النظرية النسبية العامة بهذه الرعشات العابرة للقياسية الزمكانية والتي تشهد على صيرورات أقل ما يقال فيها إنها الأكثر كارثية مما يمكن تصوره، والتي سيؤدي اكتشافها إلى فتح الباب أمام طريقة جديدة تماماً لرؤية الكون ولتصوره. إنَّ النسبية العامة هي بالتأكيد النظرية الأكثر جمالاً (وفق عدد كبير من الفيزيائيين على الأقل)! إن الأجسام كافة تسقط بالطريقة نفسها في حقل الثقالة ومن المشروع بالتالي النظر إلى الثقالة كحركة إجمالية للمرجعية نفسها! لكن هذه الحركة متسارعة وفق الاكتشافات الحديثة، ولا تتم بالطريقة نفسها في نقطتين متجاورتين في الكون (ذلك بالتحديد لأن الحقل ليس متجانساً): وهذا يعني بالتالي ظهور انحناءات. فالهندسة لا تتعقد هنا فقط (حيث تتقاطع المتوازيات، ولا يعود مجموع زوايا المثلث أكثر من ١٨٠ درجة، إلخ.)، بل هي تصبح ديناميكية بشكل خاص. إن المنظومة الشاملة ـ الإطار للكون تصبح خاضعة لوجود الأجسام. فكما لو أنه في هذا الجزء من اللعبة الشطرنجية الكونية تصبح مورفولوجيا المربعات نتيجة لموضع القطع عليها!! وكما لو أنه، كما يعرف الشعراء منذ أقدم العصور، تصبح طريقة القول الشعرية غير منفصلة عن طبيعة ما يقال. يصبح الكون ديناميكياً بشكل مطلق، حتى في بنيته ولحمة نسيجه.

وعلى عكس عالم غير مسحور وغير مجسّد، فإن الفيزياء المعاصرة تساهم في بناء (وليس فقط في الكشف) عن كون مبرقع وملون وغني ووافر، تقطعه بشكل متعدد ومضاعف غرابات ولاتوقّعات: كون عاد له سحره. إن علم الكونيات هو علم غريب حقاً، حيث الراصد هو جزء لا يتجزأ من المنظومة التي يحاول وصفها، وحيث تكون الشروط البدئية للرصد أساسية في تحديد المرصود (بحيث يجب أن تكون جزءاً لا يتجزأ من عملية البناء طالما أنه لا توجد خارجية أو أسبقية للمنظومة، الكون)، وحيث تجربة «خلق العالم» هي تجربة غير قابلة للإعادة، وحيث الطاقات الداخلة في اللعبة لم ترصد أبداً على الأرض وحيث لا بد من العودة في مجرى الزمن بشكل تصوري طالما أننا لا نعرف سوى الحالة النهائية. مع ذلك، ورغم هذه التعارضات – وربما بفضلها – وهذه الاحتكاكات وهذه التوترات، فقد أصبح علم الكونيات علما دقيقاً بلا ريب.

يُعدّ نموذج الانفجار الكبير بين

أرصـــاد كثيرة أخرى (تطور المجرات، وأثر العدســـات الثقالية، وغيرهـــا)، وهو نموذج تنبأت به النظرية النســـبية العامة، نموذجا قويـــاً يرتكز علـــى ثلاث دعامـــات: تباعد المجرات، تشـــكل النوى البدئي، والخلفية الكونيـــة من الأمـــواج الميكروية. والنظرية مميزة بشقيها الوصـــفي والتنبؤي. وقد تم اليـــوم قياس مجمـــل المعامـــلات الداخلة فيها بدقـــة جيدة. إن الخلفية الإشـــعاعية للكون تســـمح لنا بفتح باب واســـع على علم كونيات دقيق ومفصل. وإلى ما وراء التوزع الطيفي للإشـــعاعات، المتوافق بشكل كبير مع النموذج، فإن التغيرات الفائقة الصـــغر في درجات الحرارة تسمح لنا بالتأكيد على وجود أنماط انتشار الموجات الصوتية في الكون البدئي.

ولهذا يمكننـــا أن نعتبر دون تشـــبيه أو استعارة أن علماء الكونيات «يستمعون» إلى اللحظات الأولى من عمر الكون، وأن «رنّة» الأداة كما نعلـــم جيداً تقول لنا الكثير حول كيانها. إن هذا «التصوير اللحظي أو الآني» للحظات الأولى من عمر الكون يســـمح لنا بأن نقيس على سبيل المثال كتلته الحجمية وعمره بدقة كبيرة جداً.

يقـــول فيكتـــور هوغـــو: «الموســـيقى ليست سوى ضـــجيج، يفكّر»! ويقول أيضاً: «الموسيقى بالنســـبة للقصيدة هي كالحلم بالنسبة للفكر، وكمحيط من السحب الغنية بالنســـبة لمحيط من الأمـــواج»! بلى، إنها الصوت الآتي من البعيد، من أعماق لا تميز بين أعماق الكائن وأعماق الذات. كتب الناقد ميشيل شنايدر Michel Schneider عن عازف البيانو غلين غولد Glenn Gould إنـــه «من الكائنات النادرة، التي تموت كثيراً وتظـــل فنانة أبـــداً، فهو مثلمـــا كان يعتقد بودلير عن فاغنر يواسينا في لحظات الشدة بأننا هنا. إن باخ عندما يعزفه غولد يحمل هذا اليقين الغامض للأشياء التي لا تنتظر شـــيئاً منا ولا تفترضـــ منا رغبة ولا ذكرى. الموسيقى بالتالي ليســـت ما نسمعه بل ما يســـمعنا»!! إنه يســـتدعي تمامـــاً «تنويعات غولدبـــرغ»، هذا العمـــل الخالد حيث، قبل ســـماع الآريا الافتتاحية، يجب أن نكون قد مررنا بجميع التنويعات الممكنة كمّاً وبعدد مماثل من أنماط الفكر البشـــري. وصـــولاً حتى التناقض، حتـــى الحراجة! أية عوالم اســـتقى منها المبدعون الكبار موســـيقاهم وأي «ذكريـــات» حفظتهـــا لنـــا موســـيقى التراث الشـــعبية؟! أليس تعـــدد العوالم هو الموازي الطبيعـــي لهذا التنوع من جمالات الصـــوت والأداء والوعي؟ إن الكوزمولوجيا المعاصـــرة، المكتوبة علـــى طريقة باخ في كتابة «فوغاته» إنما بشكل عملاق وكوني، لا تنقصها تحديداً مثل هذه التوترات. وبشكل مطابق لنجاحاتها، فإنها تكشف عن العديد من قطاعات عدم الاكتمال، بل واللاتجانس

والتفكك. إنها خطوط خفية من الرقّ الكوني الممسوح!

تدفع الثقوب السوداء، وهي نماذج حقيقية للزمكان، تدفع النسبية إلى منتهاها. وتُعرَّف الثقوب السوداء بأفق «غير مادي» لا يمكن اجتيازه إلا في اتجاه واحد، وهي تخفي فرادة مركزية. شرخ في الزمكان. حيث الكثافة والانحناء يصبحان لانهائيين.

تكون سرعة جسم في سقوط حرّ، على مستوى أفق الحدث، معدومة بالنسبة لراصد بعيد عنه، لكنه يساوي سرعة الضوء بالنسبة لراصد محلي. أما داخل الثقب الأسود، فإن الزمان يتغير إلى مكان والمكان يتغير إلى زمان. وعلى الرغم من أن هذه النتائج مفاجئة لكنها متجانسة تماماً في إطار الوصف النسبوي. تظهر التعارضات عندما نسبر الثقوب السوداء عن قرب أكثر قليلاً... إذ كيف نفهم في الواقع أنها الأجسام الأكثر بساطة في الكون (حيث يتم وصفها فقط بوساطة ثلاثة متغيرات، أي إنها أبسط من نواة ذرية!) وهي في الوقت نفسه التي «تحتوي» على أكبر كمية من المعلومات؟ هناك ما هو أغرب أيضاً: كيف نفهم أنها يمكن أن تتبخر بحيث تبدو كأنها تفقد كل ذكرى للمادة التي شكّلتها ؟ إن الثقوب السوداء تستدعي نظرية كمومية في الجاذبية، وهي نظرية لم تثبت بعد حتى اليوم، وتشكل أماكن مفضلة للتجارب الذهنية من أجل تقدم هذا الطريق. تجارب ذهنية هي عوالم بحد ذاتها!!

لكن هناك ما هو أسوأ. فمن السهل البرهان أن مناطق الكون التي كشفت عنها الخلفية الإشعاعية الكونية والمفصولة بأكثر من درجة زاوية هي مناطق «مفصولة سببياً». ما يعني أنها لا يمكن أن تكون قد تبادلت أبسط المعلومات فيما بينها الأمر الذي يطرح بالتالي سؤالاً مركزياً: كيف يمكن أن تكون درجة حرارتها هي نفسها بالضبط، بدقة تصل إلى رتبة ٠,٠١ ٪؟ لا بد من تعديل النموذج الكوني بالتالي وافتراض مرحلة بدئية حصل فيها انتفاخ أو تضخم (أي توسع متسارع) ازداد خلالها الحجم الكوني بشكل هائل، مما سمح بترميم السببية التي ضاعت في الظاهر. وهذا التضخم مفهوم ومفسَّر بشكل طبيعي من وجهة نظر فيزياء الجسيمات، وهو يسمح أيضاً بحل المشاكل الأخرى في نموذج الانفجار الكبير (غياب الأقطاب، تسطح الكون، إلخ.) ويشكل آلية فعالة لفهم أصل التخلخلات في الكثافة التي هي سبب وجود المجرات والحشود المجرية. إن مورفولوجية الماكروكوزم تعكس بالتالي آثاراً كمومية دقيقة جداً تعمل على المستوى الميكروي في اللحظات الأولى من تاريخ الكون. يضيع هنا الفارق بين عوالم الكبير وعوالم الصغير...

بل هناك ما هو أسوأ أيضاً! فالجزء

الأساسي والأكبر من كتلة الكون غير مرئي. فالنجوم وهي تشكل معظم ما نراه في طول الموجة المرئية لا تمثل سوى ٠,٥٪ من المحتوى الكلي للكون. هناك «مادة عاتمة» في الكون، لا نراها. وما هو أخطر من ذلك، يمكن البرهان أن القسم الأساسي أيضاً من هذه المادة العاتمة لا يتألف من الجسيمات الأولية المألوفة لدينا! بالتالي يشكل هذا التعارض الكوني تعارضا أيضاً في فيزياء المكونات الأساسية التي تتجه باتجاه عدم اكتمال «النموذج المعياري» لفيزياء الجسيمات الدقيقة. فبعد نجاح توحيد القوتين الكهر - ضعيفة، سرعان ما أصبح من المؤكد أن القوة النووية الشديدة يجب أن تضاف هي أيضاً إلى هذا الصرح. وتسمى المجموعة الأبسط التي تسمح بتلبية مثل هذا المطلب بالمجموعة SU(٥). والنظرية SU(٥) تنتمي إلى النماذج التي لا يمكن أن تكون خاطئة.

إنها نظرية طبيعية جدّاً، وتنبؤية جداً، ومؤكدة جدّاً، وساحرة جدّاً، ومتوقعة ومنتظرة جدّاً. وهكذا سرعان ما تم بناؤها رياضياً ووضعت قيد الاختبار. اختبار قام بالتأكيد بإبطالها! إن الطبيعة، Naturus، ما سوف يولد، ما هو في طور الولادة أو في «اتجاه» الولادة، «الصيرورة نفسها صيرورة الولادة والانبثاق والابتكار، المولود الجديد الأبدي» كما كتب ميشيل سيرّ، لا تنفكّ بالتعريف أو تكاد تفاجئنا! كما لو بما يشبه الملذات التي كان تانتال محروماً منها، كذلك النظرية النهائية تهرب ما أن نعتقد أننا نستطيع لمسها... أهي أكوان تلعب معنا لعبة التخفي كما كان ليقول طاغور في شاعريته التنبؤية؟!

هل هناك ما هو أسوأ من ذلك؟ إلى ما وراء المادة السوداء نفسها، هناك «طاقة سوداء» أكثر غرابة تحكم الديناميكية الكونية. وتظهر هذه الأخيرة مباشرة من خلال أثر تسارع التوسع الكوني الذي لا يفسَّر إذا كانت القوة الوحيدة الفاعلة على المستوى الكوني الكبير، أي الجاذبية، هي قوة جاذبة! وقد تم إثبات هذه الظاهرة بوساطة تقنية بسيطة: فبعض السوبرنوفا لها سطوع ذاتي معروف، ويمكننا بالتالي تقدير بعدها اعتماداً على لمعانها المرصود. وبما أن سرعة ابتعادها معروفة من جهة أخرى من خلال أثر دوبلر، فإنه يمكن الاستدلال على السرعة بالاعتماد على المسافة وبالتالي على الزمن. وكانت المفاجأة أن هذه السرعة المرصودة للتوسع تزداد مع الزمن. أي أن الكون يتسارع! وقد تم تأكيد ذلك مذّاك من خلال مقاربات مستقلة عدة. تستدعي هذه الظاهرة الغريبة جداً على الأرجح إعادة بناء لأسس فيزياء الجسيمات الأولية نفسها.

هل من الممكن أن تكون الكمّات

الأساسية ليست عبارة عن نقاط مادية بل بالأحرى بنى أشبه بالفتائل، بنى مطاطة مثلا، وهو ما صار يسمى بلا شك في الموروث العلمي بـ «الأوتار»؟ إن نظرية الأوتار هي قبل كل شيء برج هائل ومدهش من المهارة الرياضية التي تسمح بتخطي مرض متكرر في الكونيات يسمى «الشذوذ». وإلى ما وراء هذا الجانب التقني، تعد نظرية الأوتار نظرية كمومية من حيث بناؤها. وهي نظرية للجاذبية لأن طيف الأوتار يشتمل على بوزونات بلا كتلة لفها ٢، وهي ما يسمى «غرافيتونات» أي جسيمات الجاذبية. وهي أيضا نظرية تسمح بأن نأخذ بعين الاعتبار الخصائص الجهارية (على سبيل المثال المعلومة المخزنة في الثقوب السوداء) ابتداء من وصف صغائري متجانس. تطورت نظرية الأوتار حول ثلاثة «اكتشافات» جديدة. أولها اكتشاف التناظر الفائق (الذي كان قد افترض سابقاً لأسباب أخرى مختلفة)، وهو عبارة عن الصلة التي تؤسس بين عالم القوى وعالم الجسيمات. إضافة إلى ذلك، يقدم التناظر الفائق مرشحاً طبيعيا للمادة السوداء من خلال تنبُّئه بوجود الجسيمات الثقيلة، والمستقرة، وغير المرئية بشكل أساسي.

ثم هناك اكتشاف العلاقات الثنائية، وهي تشابهات بين المسافات القصيرة والكبيرة من جهة، وبين التفاعلات الشديدة والضعيفة من جهة أخرى. وأخيراً، اكتشاف ما يعرف بـ «المشهد»، وهو المرحلة الهامة بشكل خاص في علم الكونيات. نسأل الأطفال أحياناً كيف نبني ثلاثة مثلثات متساوية الساقين بوساطة ستة عيدان كبريت. ليس هناك حل لهذه المسألة في المستوي. ويجب «اختراع» البعد الثالث والتفكير عندها بالنموذج الهرمي. ويشبه ذلك إلى حد ما الصعوبة الماثلة في نظرية الأوتار: لا بد من اختراع ستة أبعاد إضافية، غير مرئية وبالتالي ملتفة لولبيا على نفسها. كيف ندمج هذه الأبعاد؟ هنا يكمن السؤال الجوهري. هناك العديد من الطرق المختلفة للوصول إلى هذه العملية ولكل من هذه الطرق لعبة تقترن بها من القوانين الفيزيائية الفعلية. وعندما نأخذ بعين الاعتبار إضافة إلى ذلك الدفوقات المغنطيسية المعممة، فإننا نصل إلى عدد هائل من القوانين الفيزيائية المختلفة التي تنبثق. إنها الصورة الأولى لما نعرفه بمصطلح «الأكوان المتعددة».

إن التضخم، في نسخته «الأبدية»، يُنتج أكواناً . فقاعات. وتملأ نظرية الأوتار هذه الفقاعات وتشكلها وفق قوانين مختلفة. فثمة هناك، حيث الأكوان، أبعاد أخرى ومكونات أخرى وانتظامات أخرى. إنه عالم أكثر تنوعاً وتلوناً لا تسمح فيزياؤنا المألوفة بتصوره ووصفه! كتب ويتغنشتاين

: «إن العالم هــو كل يحدث» (في افتتاحية كتابه تراكاتوس). وهذا بالضبط هو تعريف الكون المتعدد:

هنــاك حيث يحــدث كل شــيء. لماذا الثوابت الأساسية في الفيزياء هي إلى هذا الحد متوافقة ومنســجمة بدقة في ســبيل وجود التعقيد (وبشكل خاص الحياة)؟ وكيف حدث أن معامــلات الفيزياء كافة اختيرت «بشــكل عجائبي» لتقــود إلــى عالم غني ووفير غنى أعظمياً؟ ربما لأن «رساماً ذكيا» (نســميه عادة الإله) قد نظّم الأشــياء لكي توجد الإنسانية. ذلك هو التفسير أو الرؤية اللاهوتيــة. وربما لأنه بضــربة حظ خارق وغريب ولا يصدّق قادت رمية النرد الأولى للكــون إلى هذه الحالة الخاصــة (الغالبية العظمــى من الخيارات الممكنــة تقود إلى أكوان فقيرة، دون بنيــة فعلية، وبلا أهمية وبــلا تعقيد، أي بلا حياة). وهذه النســخة هي النســخة العشــوائية. أو ببساطة أكثر، وكما تقترح علينا هذه الفيزياء التأملية، لأن حجــارة النرد كانت قد رميــت عدداً كبيراً من المرات.

وهكــذا فنحــن نوجــد بشــكل طبيعي فــي أكــوان متوافقة مع وجودنــا الخاص، أكــوان تطورنا معها. يــا له من جرح جديد يطال «مركزيتنا». فبعد أعمال كوبرنيكوس وداروين ويونغ وغيرهم الكثير، حيث تحررنا من «جحيم» مركزية قاتلــة متعددة الأوجه والعوالم، مركزية حاولت جذب عوالم كونية وحياتية ونفسية إلى نقطة ثابتة تجد صداها في قوة مهيمنة وتحديدية للحياة وللوجود، ها أن كوننا نفســه يجد نفسه وقد تدحرج عن أســسه المكينة، ليصبح مجرد فقاعة، أو جزيــرة، تائهة في ميتا ـ عالم لانهاية له. وبعد عصــور المركزية الأرضية والمركزية الشمســية والمركزية المجريــة والمركزية الكونية، ها هو عصــر جديد يشرق، عصر لامركزية مطلقة!

إنَّ الأكوان المتعددة هي فرضية علمية بالمعنــى الأكثــر أورثوذكســية وتقليديــة للمصــطلح. وللغرابة، وعلــى الرغم من أن هذه الأكوان المتعددة ليســت بمتناولنا ولا يمكننا النفاذ إليها، لكي يمكننا البرهان على أن هذه المســيرة يمكن دحضــها، بالمعنى الفلسفي للمصطلح وفق كارل بوبر.

هذا لأن الأكوان المتعددة ليست نموذجاً بل نتيجة بيــن نتائج أخرى لنمــاذج، ولأن عينة وحيدة (كوننا الخاص) يسمح باستبعاد الافتراضــ عند حد معين مــن الثقة. لكن الأبعاد المتعددة تفتح أيضا المجال باتجاه آفــاق أخــرى. إنهــا تتلاعب مــع نطاقات وحــدود ومجالات عدّة، وهي ترقّ فيما بين حدّين وتستقر في التوازن القلق على هامش الحــدود! أن نصــنع العوالــم علــى حدود العالــم! إنها عودة باتجــاه الميثولوجيا بل توحيد للعقل الأول والأسطورة، حيث للمرة

الأولى بلا شك يقودنا الفكر العقلي (وليس الفكر اللفظي وحده) باتجاه وجود متكلمين غير مرئيين. إنه علم الكونيات كبديل لما يسمى «الانقطاع الأسطوري»، وكخروج من الكليانية التصنيفية للأسطورة. إنَّ الحقول المنهجية كافة تتحول من الداخل: لا تجريدات كادنسكي[1] ولا سلسلة شونبرغ[2] ما كانت لتعتبر كعمل فني من قبل متذوق للفن في القرن التاسع عشر. فإذا حاولت اليوم الفيزياء المعاصرة رسم مسودة أولية لملامحها الخاصة، فعلى أي أساس سوف نثني عليها أو نرد عليها؟

مع ذلك، فإن الأكوان المتعددة ليست بالضرورة بعيدة إلى هذا الحد! كان فان أوكسكول Van Uexküll يهتم بالعوالم الإنسانية والعوالم الحيوانية. ومع مثال القرادة، أبدع مفهوم الـ Umwelt[3] أي الكون الخاص. إن الإنسان يتقاسم مساحة مشتركة مع حشرة القرادة، لكنه لا يسكن عالمها بشكل حصري. فما يشكل المعنى بالنسبة لها لا يشكل المعنى بالنسبة له. هذا هو ربما حال الفيزياء اليوم: إنها مبدعة لبيئتها الخاصة. بعبارة أخرى، فإن النسبية العامة تبين لنا أن الهندسية ديناميكية وتحل محل الجاذبية النيوتونية. ولكن كما يشير كارلو روفيللي، فإننا عندما نفهمها جيداً وحقيقة، فإنها تقودنا بالأحرى إلى إعادة التفكير في الجاذبية في موضع ومكان الزمكان.

إنَّ العالم بما هو مجموعة من الحقول (هي حقول كمومية على الأرجح) يعيش على أو في حقل آخر: هو الحقل الثقالي. إن موافقة الميكانيك الكمومي مع النظرية النسبية العامة ليس أمراً اختيارياً. وهو أمر لا علاقة له بالبحث، الخيالي في جزء منه، عن نظرية لكل شيء، بل يشكل ضرورة تصورية: إن نظرية آينشتاين تتنبأ في الواقع بخسارتها الخاصة! إن مبرهنات الفرادات تبين أن داخل الثقوب السوداء أو داخل الانفجار الكبير لا يمكن أن يوصف بشكل صحيح بوساطة النموذج الكلاسيكي. فلا بد بالتالي من بناء نظرية كمومية للحقل الثقالي، وهي مهمة لا تزال بعيدة اليوم عن الإنجاز رغم وجود بوادر عدة مطروحة لها. وقد بيّن كل من لي سمولين وتيد جاكوبسون أن حلول معادلة ويلر. دي ويت (الحل الكمومي الأبسط لمعادلات أينشيتين) هي عبارة عن حلقات. وهذه الحلقات لا توجد في المكان بل هي تشكّله بنيوياً.

يبدو الفضاء هنا كشبكة عملاقة ولانهائية من الحلقات الدقيقة. إنها عودة إلى الفضاء أو المكان «بالجسم» وفق أنكسيماندر وأرسطو وديكارت وليبنيز وبركلي مقابل المكان «بذاته» (و«لذاته» تقريباً) وفق نيوتن. في الصورة الناجمة عن شبكات اللف الذاتي، تمثل كل عقدة حجماً أولياً للمكان وكل رابط يمثل علاقة تجاور. وفق النظرية النسبية الخاصة،

هــذا العالم بلا مكان هو أيضــا بلا زمان. هــل يمكننا تصــور فيزيــاء دون متغيرات زمنية؟ إن فحصــاً مدققاً يبين أن المسألة ليست مستحيلة، وليســت في النهاية حتى متعارضــة. فنحن لا نقيس أبداً الزمن «بما هو زمن» بل بالأحرى كعدد نوسانات لنابض حلزوني في ساعة بين حدثين.

إن جريان الزمن يعاد تفســيره كنتيجة لعدم معرفتنا بالحالة الأساسية للمنظومات. إنَّ الجاذبيــة الكموميــة ذات الحلقات هي نمــوذج قابــل للاختبار كمونّيــاً: وذلك من خلال علاقات تبدُّد معدَّلة من أجل انتشار الفوتونات عاليــة الطاقة أو من أجل قياس آثــار «التضــخم الكبير» الــذي يحل محل الانفجــار الكبيــر (ويفتح بالتالــي نافذة ضئيلة على الكون المحتمل السابق لكوننا).

إنَّ الفيزياء «على مستوى بلانك» والتي كنا نعتقد أنها غير قابلة للاختبار تدخل بهدوء في حقل الصمت التجريبي، وقد تخبئ لنا مفاجآت من العيار الثقيل...

كما كان كل دلوز وغاتاري قد استشــعرا منذ بداية التسعينيات، فإن الفيزياء لم تعد مســكونة بوحدتها الخاصــة. لقد تعددت وتكاثرت حتى في طبقاتها الوجودية، وهي ترســم اليوم مشهداً معقداً للخاوس البدئي الذي يســتعيد حقوقه كاملة. إنه عالم قابل للفهم وفوضــوي في الوقت نفســه، محدّد وغير قابل للتوقع في الوقت نفسه...

الهوامش

١ -كادنســكي (١٨٦٦ . ١٩٤٤) رســام روسي يعد من أشــهر فناني القرن العشرين إلى جانب بيكاسو وماتيس. من مؤسسي الفن التجريدي.

٢ - شــونبرغ (١٨٧٤ . ١٩٥١) مؤلف موســيقي ورسام ونظري نمساوي، قام بعد قرنين من جان سباستيان باخ وجان فيليب رامو اللذين وضــعا أســس الموسيقى النغمية بوضع أسس جديدة لموسيقى كان لها أثر كبير على موسيقا القرن العشرين.

٣ - مصــطلح يمكن ترجمته بشــكل تقريبي بالبيئة. لكنه يشير بشــكل خاص إلى العلاقات، فالشيء هو بيئته وعلاقاته وليس الشيء بذاته.

المراجع:

A. AGUIRRE, «Making predictions in a multiverse : conundrums, dangers, coincidences», pp 367-368 in B. CARR (éd.) Universe or Multiverse, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

A. Barrau, «Des univers multiples?», La Vie des idées, 24 septembre 2008. ISSN: 21053030-. URL: http://www.laviedesidees.fr/Des-univers-multiples.html.

A. Barrau, Quelques éléments de physique et de philosophie des multivers, Essai publié en libre-accès: http://lpsc.in2p3.fr/ams/aurelien/aurelien/multivers_lpsc.pdf

A. BARRAU, «Could the Next Generation of Cosmology Exclude Supergravity ?», Physical Review D, 69, 2004, p105021.

B. CARTER, «The anthropic principle and its implication for biological evolution», Phil. Trans. Roy. Soc. A310, pp. 4741983 ,363-.

C. CASTORIADIS, Figues du Pensable – les carrefours du labyrinthe VI, Paris, Seuil, 1999.

G. COLLI, P. GABELLONE, La Sagesse Grecque, Paris, l'Eclat, 1991..

P.C.W. DAVIES, «The mind of God», New-York, Simon and Schuster, 1992.

J. DEMARET, D. LAMBERT, Le Principe Anthropique, Paris, Armand Collin, 1994.

J. DERRIDA, La vérité en Peinture, Flammarion, Paris, 1978.

A. D. DOLGOV, M. V. SAZHIN, Ya. B. ZELDOVICH, Modern Cosmology, Gif sur Yvette, Frontières, 1990.

P. DUHEM, Le Système du Monde. Histoire des doctrines cosmologiques de Platon à Copernic, 10 volumes, Paris, Hermann, 1958.

P. FEYERABEND, La Science en tant qu'Art, traduit de l'allemand par F. Périgaut, Paris, Albin Michel, 2003 (1e éd. all. 1983).

J. GARRIGA et alii, «Probabilities in the inflationary multiverse», JCAP, 0601 p17, 2006.

N. GOODMAN, Manières de Faire des Mondes, traduit de l'anglais par M.-D. Popelard, Nîmes, Catherine Chambon, 1992 (1e éd. ang. 1977).

N. GOODMAN, Of Mind an Other Matters, New-York, Harvard University Press, 1984.

A. GUTH, «The Inflationary Universe : a Possible Solution to the Horizon and Flatness Problems», Physical Review D, 23, 1981, pp. 347356-.

S. HAWKING, Information Loss in Black Holes, Phys. Rev. D 72, 084013, 2005.

HESIODE, Théogonie, traduit du grec par J.-L. Bakès, Paris, Gallimard, 2001.

M. KAKU, Introduction to Superstrings and M-theory, Berlin, Springer, 1999.

E. W. KOLB, M. S. TURNER, The Early Universe, New York, Addison-Wesley, 1990.

A. KOYRE, Du monde clos à l'Univers infini, traduit de l'anglais par R. Tarr, Paris, Gallimard, 1973 (1e éd. ang. 1957).

M. LACHIEZE-REY, Initiation à la Cosmologie, Paris, Masson, 1992.

L. LANDAU, E. LIFCHITZ, Physique Théorique, traduit du russe par S. Medvédev, Moscou, Mir Moscou, 1989 (1e éd. russe 1964).

D. LEWIS, «On the plurality of worlds», Oxford, Blackwell, 1986.

J.-P. LUMINET, Le destin de l'univers, Paris, Fayard, 2006.

A. NESCHKE, «Philosophie ou Science : La question des mondes multiples chez Anaximandre», Rech. philos. lang., 1996, no 18, pp. 189200-.

D. PARROCHIA, Philosophie et Musique Contemporaine, Paris, Champ Vallon, 2006.

D. PESTRE, «Les sciences et l'histoire aujourd'hui» Le Débat, n° 102, novembre-décembre 1998.

B. PINCHARD, Méditations mythologiques, Paris, Les empêcheurs de penser en rond, Le Seuil, 2002.

K. POPPER, La logique de la découverte scientifique, traduit de l'anglais par N. Thyssen-Rutten et P. Devaux, Paris, Payot, 1995 (1er ed. ang. 1959).

M.-L. RYAN, «Des mondes possibles aux univers parallèles», in Fabula, « la recherche en littérature», http://www.fabula.org/

L. SMOLIN, Rien ne va plus en physique ! L'échec de la théorie des cordes., traduit de l'anglais par A. Grinbaum, Paris, Dunod, 2007 (1er éd. ang. 2006).

L. SMOLIN, «Scientific alternative to the anthropic principle» pp.323366-, in B. CARR (éd.) Universe or Multiverse, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

STALNAKET, «Possible Worlds», Nous, Vol. 10, pp 651976 ,75-.

L. SUSSKIND, Le Paysage Cosmique, traduit de l'anglais par B. Arman, Paris, Robert Laffon, 2007, (1er éd. en ang. 2004).

L. SUSSKIND, «The anthropic landscape of string theory» pp 247266-, in B. CARR (éd.) Universe or Multiverse, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

M. TEGMARK, «Is the theory of everything merely the ultimate ensemble theory», Ann. Phys. 270, 1, 1988.

M. TEGMARK, «The multiverse hierarchy», pp 99125- in B. CARR (éd.) Universe or Multiverse, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

A. VILENKIN, «A measure of the multiverse», J. Phys. A : Math. Theor. 40, pp 67772007 ,6785-.

S. WEINBERG, «Living in the multiverse», pp 2942- in B. CARR (éd.) Universe or Multiverse, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

S. WOLFRAM, «A New Kind of Science», New York, Wolfram Media, 2002.

سهرة مع الأخطل الصغير

مفيد نبزو ❁

أيُّ سـرٍّ لـلـورى لا يُـرْسَـلُ
أيُّ خـيـطٍ لـلسَّـنـا لا يُـنْـسَـلُ
أيُّ فـجـرٍ لاحَ مـن بـعـدِ الـدُّجـى
والـدُّجـى لـيـلٌ ظـلـومٌ أَلْـيَـلُ
كـانَ لـلـشـلالِ صـوتٌ هـادرٌ
غُـيِّـضَ الـنَّـبـعُ، وغـاضَ الـجـدولُ
كـلُّ تـرجـيـعٍ وصـوتٍ صـادحٍ
مـا تَـغَـنَّـى بـلْ وحـارَ الـبـلـبـلُ
مـذْ سَـألـتُ الـسِّـحـرَ عـنْ سلسالـهِ
والـرحـيـقَ الـعـذبَ أيـنَ الـمـنـهـلُ؟!
مـذْ سـألـتُ الـوردَ عـنْ أسـرارهِ
والـسـنـا والـظـلَّ أيـنَ الـمـغـزلُ؟؟
وامْـتَـحَـنْـتُ الـسِّـحـرَ فـي آيـاتـهِ

أسـكـرَ الـشَّـرْقَ بـلا خـمـرٍ ومَـنْ
يـنـتـشـي مِـنْ كـأسـهِ لايُـعْـذَلُ
يـا أخـي لا تـعـصـرِ الـكـرْمَ كفى
لـمْ تَـعُـدْ خَـمْـرُ الـدوالـي تُـثْـمِـلُ

❁ شاعر سوري.

شاعرَ العّشاقِ يا عطْرَ الهوى
كمْ سبى عينيكَ ظبيٌ أكْحَلُ
إذ خطا يختالُ في نقلاتهِ
وَهْوَ في الثَّوبِ الموشَّى يرفلُ
إنْ رنا يا ربِّ مِنْ ألحاظهِ
كلُّ سهْمٍ كلُّ سهْمٍ يقتلُ
شاعرَ الأحلامِ صيَّادَ الرُّؤى
لمْ تَدَعْ ظبياً شروداً يجفلُ
ما رأيتُ البدرَ إلَّا مرَّةً
قالَ ما عادتْ بدورٌ تكملُ
طالما للشعر بدرٌ كاملٌ
هُوَ للنورِ المليكُ الأوَّلُ
رُحْتُ للأطيارِ أحكي قصَّتي
وَهْيَ أمرٌ مُدْهِشٌ لا يُعْقَلُ
كيفَ أنَّ الكونَ أمسى شاعراً
والورى ويحَ الورى كمْ تجْهَلُ
قالتِ الأطيارُ لو ناغى شجا
كلُّ مَنْ غنَّى بروضٍ يخجلُ
يا حمامَ الدَّوحِ قلْ لي: ما جرى
كانَ ظنِّي كلُّ سربٍ يهدلُ
قالَ ما كنَّا ولا كانَ الهوى
أيُّ لحنٍ ما شداهُ الأخطلُ؟؟!!

❁ ❁ ❁

بيجماليون

مطرقة في اليد تنحتُ تمثالك السرمدي،
وفي عينيك ألق انطفائي الأخير،
لقد تحوَّلت الحجارة من يدي جسداً شهياً ناضجاً،
لم أكنْ أعلمُ أنني مبدعٌ إلى هذا
الحد،،بارعٌ إلى نقطة الجنون،
فاغفري لي أيتها الآلهة إذا تعدَّيتُ على سرِّ مهنتك،
يا إلهي أكادُ لا أصدق!،
أيةُ يدٍ عجيبةٍ تلك التي حملتِ المطرقة،
ونقرتْ بالأزميل،
يا سماءَ الأعاجيب تأمَّلي!،
ياآلهةَ الفنِّ استيقظي،
لقد صنعتُ حبيبتي بنفسي،
هكذا أريدُ حبيبتي يا نساء،
انظرنَ إليها برفقٍ وحياء،
احملنَ إليها العطر واللُّبان،
وقدِّمنَ لها المنَّ والسلوى،
احرقنَ البخور أمامها حين تترنَّح في سيرها،
وتمرُّ برشاقة وخفة وجاذبية،
أفروديت يا سيدة الفن والجمال!
فينوس ياربة الحسن والحب،

يا أم كيوبيد الباسمة العون، العون...

إليك أنحني،

إليك أتضرَّع،

في العيون ضوء

في الشفاه قبلة،

في الغريزة رغبة،

في العروق حياة،

ولكن يا أسفاه عشت مع حبيبتي التي بيدي صنعتها

وملأت عينيَّ حلاوة وعذوبة واشتهاء،

عشت معها الآن ولم أشعر إلا بالمرارة

والخيبة والحرمان.

حكاية جلبت الانتباه

❁
ميرال جان أولوداغ
❁❁
ترجمها عن التركية: جوزيف الناشف

(١)

كنت أريد أن أكتب لك الشعر
كل كلماته استعملها الشعراء
بقيت بعض الكلمات
في الزاوية، جانباً

❁ شاعرة معاصرة من أنقرة- تركيا، عضو اتحاد الكتّاب الأتراك- فرع أنقرة، لها نشاطات ومشاركات شعرية في العديد من المهرجانات الشعرية في تركيا.

❁❁ أديب ومترجم ومخرج وممثل.

ولكنني ناديت كلمات لا أصوات لها
ووحيدة..

(٢)

الزمن
ما زال في نفس الاضطرابات
في لحظات الثواني
وبينما هي مستمرة في رقصها
لم أجد من يقول لا لرقصها
إذن، دعنا نكتب مافي القلب
سوية..

(٣)

سمعوا..
ركضوا مع الرجال
جاؤوا صفوفاً صفوفا..
مالوا إلى ذلك القلب الذي لديك
وعن معرفة قبلوا قدميك..
رفعوا الرؤوس بحياء
نادوا دون صوت..
احتكموا إلى الشعر في قناعتهم
هيا ارفعوا الصوت إذن..

(٤)

هيّا.. اسمع يا صاحب القلب
إلى أصواتهم، وهم لا يرونك
جمال الزهور..
ماء الحياة..
كم يستطيع أن يمنح الحياة
إلى عينيك القانعتين
في هذا القفر..

(٥)

إذن..
مابقي في الخلف
أهو بسبب ضجة الثواني
أم بسبب الانسياب
أم..
أم بسبب الكلمات التي انسكبت
من قلبي..

(٦)

استمتعت بقدر ما سمعت
أنين الكمان في روحك
والعناد في الحياة
سنتعلمها سوية
حركات لرقصة جديدة..

(٧)

قد يعطي أحد أذناً صاغية لهذا الشعر
وقد يراه جسداً لمومياء..

تعانقا..
بخفاء..
مانبع من قلبين
اختلط بالأنفاس..

(٨)

من قال إن الزمن لا يتوقف
انظر واسمع..
من كتب نفسه في هذا الشعر
لم نخسره..
إنه إنسان يقرأ الأرواح
آخر كلمة للذين لا يصدقون
النظرة الأولى
في لحظة الحياة والموت
هل تعرف
أن هذا الشعر ليس لي، وليس لك؟!
فقط.. فقط..
كتب منذ الأزل
يجب أن أنتبه لهذه الحكاية!

زجاج النافذة

سليمان علي شرمك ❁

إنَّه أوَّل أيام المدرسة. كان غسان يتوق لرؤية هذا اليوم، وكم كان يحلم بأن يأخذ التوءم: (كفاح وثورة) إلى المدرسة بيديه، ولكنه رحل بسرعة خاطفة عندما لوّثت الأفق سحب العدو السود، إذ نشر عينيه في السماء زرقة صافية.

أخذت أم كفاح ترقب الشارع بعينين دامعتين

❁ أديب وروائي وقاص.

حيث بدا الأطفال كزهور وعصافير تطفو على مويجات نهر مغرّد. رضخت لنصيحة صديق قريب لغسان ووضعت كفاح وثورة في مدرسة أبناء الشهداء، ومع ذلك، فهي تراهما الآن يسبحان في هذا النهر العذب ويلوحان بأيديهما الواعدة.

غصَّ قلبها بفرحة مجروحة وامتلأت عيناها بغمامة ندية، غير أنها تبينت القبعة الزرقاء تحوم وتحوم وكأنها تتابع مهمتها التي لم تكتمل. التفتت إلى الخلف، نشفت عينيها بقفا يدها، وكحلتهما برؤية الصغير: مجد، الذي لم يره أبوه، ورجعت تلاحق القبعة الزرقاء التي أخذت تحلق بعيداً.

كان غسان مديد القامة، أبيض الوجه، أزرق العينين، وقد لقب بالقرية بالأزرق. ولما أخذ يرتدي تلك القبعة الزرقاء، احتارت أمل ماذا تفعل بعينيها الشهلاوين. في تلك القرية: قريتها وقرية غسان، التي تعتلي إحدى قمم البلاد الشامخة، كانت تفتح النافذة ذات المصراعين الخشبيين في منزلها، وتترك لعينيها حرية متابعة القبعة الزرقاء. كانت تظن أنَّ حبها من طرف واحد، ولكنه فاجأها بأنه كان يحبها قبل أن يتطوع في الجيش.

عندما كانت تعلم، بشكل أو بآخر، بأنه قادم في إجازة، كانت تأخذ مكانها عند النافذة المطلة على الطريق الصاعد من الطريق العام إلى القرية، وتبدأ بالانتظار كي تراه أول ما يغادر السيارة. ستعرفه من قبعته الزرقاء، وستراقبه وهو يصعد الطريق بسرعته المعهودة حتى يصل إلى قبالة بيتها، حيث يتهادى بمشيته فيراها بوضوح ويبتسم، فتبتسم ويبتسم قلبها ثم تبادر إلى إغلاق النافذة. وحتى في أيام الشتاء الباردة، حيث الريح الجليدية تجول في كل الاتجاهات، كانت تواظب على جلستها تلك بانتظار القبعة الزرقاء، ولكنها تضطر إلى إغلاق النافذة للحظات، ثم تعاود فتحها من جديد خشية أن يمر فلا تراه. كم تمنت أن يكون لديها نافذة من زجاج حتى تشبع من رؤيته.

التفتت مرة ثانية تراقب مجدها النائم، وعادت ترقب، بغبطة مخنوقة، جلبة الشارع الذي لا يزال يحتفل بالضجيج الجميل لأول أيام المدرسة.

بعد أن تزوجا، قصت عليه أكثر من مرة، كيف كانت، أحياناً، تكاد تتجمد من البرد وهي تنتظر طلته المشرقة، وعدها ببناء

بيت عند تلك الصخرة التي كانت شاهد حبهما، تلك الصخرة التي تحملت بصبر نقش اسميهما عليها، وقال لها: لعيونك يا أمل سأجعل في كل جدار نافذة كبيرة من زجاج حتى تراقبي الاتجاهات الأربعة، فربما خدعتك وأتيت من اتجاه غير متوقع. ولكنه، ودون أن يخدعها، ترك قبعته الزرقاء على الأرض، وطار باتجاه الأعلى.

استطاعت أمل، بعد جهد جهيد، أن تقنع أهل زوجها، بأن بقاءها في دمشق أفضل، لأنها ستكون قريبة من كفاح وثورة، وكذا فعلت مع أهلها، ولكنها ظلت مشدودة إلى ذلك البيت المتكئ على صخرة حبهما، والذي وقف على العتب، ينتظر من يكمل بناءه. إنها تراه الآن بعين قلبها، وهي مصممة على إتمام بناء البيت الواعد.

وعدوها ببيت كزوجة شهيد، وهي واثقة من تنفيذ الوعد. هذا البيت سيكون للأولاد، أما هي فهي تعد نفسها، بعد حين، بالرجوع إلى تلك القرية البعيدة العالية: شاهدة حبها وحاضنة أحلامها، ستكمل بناء البيت وسترصع واجهاته بالنوافذ الزجاجية البراقة، وستنتظر أولادها وأحفادها يتوافدون إليها من كل اتجاه، سترصد قبعاتهم المختلفة الألوان والأشكال، وستهفو لتقبيل وجناتهم من خلف كل نافذة من كل الاتجاهات وفي كل الفصول، دون أن تنسى القبعة الزرقاء التي اندمجت بلون السماء ودون أن تشعر بالبرد.

سـرُّ الصـراع

سامر منصور ❁

كان هناك تيتانٌ[1] عظيم يجوب راقصاً مبتهجاً مشـارق ومغارب الأرضـ القاحلة الموحشة. وعيناه تتأملان السماء والشمس.. تستقيان من العُلى السلوى.. تدبُّ قدماه على الأرض السمراء يطارده ظله يقلد رقصاته.. بينما قلبه يتسنم النظرات الحالمات فيجسُّ قبة السـماء.. أمضـى التيتـان أيامه يلهو ويتنعم بالرضـى.. وذات يـوم تدلى من ذرا الأولمب العاليات نهرٌ عظيمٌ وجرى في الأرض تنبعـث منه أغنيـةٌ عجيبةٌ عذبـةٌ متجددة النغمات.. يرقص لها على ضـفتيه التراب والأثير ثم يتحدان في أشكالٍ تدبُّ وتزحف وتسـبح وتطير.. تنبثُّ في الأرض مطروبةً بما باح به النهر العظيم.. عن مسـالكه في جنـات النعيم.. وعن كونه ابن شـلالٍ هو قيثـارةٌ عزفت عليها أنامل الكمال.. وهكذا فاضت الأرض بصخبٍ لذيذ.. وباتت تلبس غلالةً مـن أغانٍ وترانيم.. وكاد يسـتغني بجمالها التيتـان عن حلمه بجنات النعيم.. وفي ذات يوم همَّ التيتان يجوز النهر فوجد ظلّـه يأبى الحركة.. أهاب التيتان بظله أن اتبعنـي.. فقال له الظل مللـتُ اتباعك لن أرقصـ معك بعد الآن.. فقال التيتان.. هل يوجـد ما هو أجمل من الرقص؟!.. فأجاب

❁ أديب وقاص وناقد.

الظـل لا أدري.. قال التيتـان ماذا تريد أن تفعـل؟.. فأجـاب الظـل.. لا أدري.. قال التيتان ما المشـكلة إذن؟.. فأجاب الظل.. أنت لا تسـتحق أن أدور حولـك.. ألا ترى حين الصـباح والمغيب إلى طولي الشاسع وامتدادي الواسـع.. ألا تلاحـظ أن كلّ ما فيَّ يتناغم مع حركة الشـمس وكأنني دليلٌ على وجود النور في هـذا العالم.. أنا خيرٌ منك فلمـاذا أتبعك.. لم يبـالِ التيتان لما قاله ظله.. وجاز النهر وحده وما إن وطئت قدماه الضـفة الأخرى حتى صفعه الوهن فخرَّ أرضاً وبات ينتابه شعورٌ بالعجز وفجأة انكمش جسـد التيتان حتى غدى على وجه الأرضـ بالكاد أن يُرى.. وغارت موسـيقى النهـر في طمي الصـمت.. سـمع التيتان الضـئيل عديم الظل صـوتاً غريباً فالتفت ونظر شـطر ظله فوجده ينسلخ عن الأرض وينهض منتصباً وقد تجسم شيئاً فشيئاً حتى غدا عملاقاً ذا قامةٍ سـامقة.. قهقه الظل بصـوتٍ ذي جلجلة وقال.. أنـا حرٌّ.. حين كنت أسـير خلفك وكنت تقودُ حركاتي كنت آكل دون أن أعرف التخمة أما الآن سأقصد أشجار التين وأقطف منها و آكل و آكل حتى التخمة.. نعم سأسحق كل الأزهار وأقتلع كل الورود والخضرة والأشجار ثم سأزرع أشجار التيـن في كلِّ مكان وفي كلِّ زمان.. سـآكل التين حتى الامتلاء.. رفع التيتان الضـئيل عديم الظل رأسـه نحو السـماء وصاح.. يا زيوس العظيم أخشى أن يبتلع توءمي الأسود كلَّ شيءٍ دون أن يشبع.. يا زيوس العظيم إنّ توءمي العملاق له صورتي لكنه لا يشبهني.. فهـو لا يعرف الليل.. وقد امتنع عن اجتياز النهـر ومن يأبـى اجتياز النهـر لا يخوض البحر.. صـاح الظل.. بل أنا أعرف الليل.. إنه حين يغرق العالم بالسـكون فأعجز عن سماع صـراخ التين.. أنا أكره الليل.. وأكره البحر فلو لم يوجـد البحر لزرعت المزيد من التين..

وأردف الظلُّ فقال.. يـا زيوس العظيم فلتعلـم أننـي سـأغير أقطـاب الأرض.. سأمسـك الأرض عن الدوران.. فأنا أخشى أن أفنى إن انتصـبت الشـمس في صـدر السماء وأحاطت بنورها كلَّ شيء.. ولتعلم يا زيوس أنني أنا التيتان الجبار العظيم.. ومن قبيل التمييز سأسـمي ذلك الضـئيل على الضـفة الأخرى إنسان.. نعم.. إنه الإنسان وأنا ما فوق الإنسان.

لكن ما إن انقضى رهطٌ من الزمان حتى أخفـى الظل غروره.. وعاد فقال كذباً.. أنا توءمك أيها الإنسان.. وهكذا حاكى حركات الإنسان وسـمى نفسه إنسـاناً فهو يخشى

عقاب زيوس والزوال إن ترك الوحدة تفتك بالإنسـان. هربت قطرات النهر شيئاً فشيئاً وارتقت إلى السـماء فاسـتحالت بحراً من سـحاب.. بين أهل الأرضـ وذرا الأولمب ينتصب حجاب.. وهكذا بات النهر العظيم مهدداً بالانقطاع عـن الجريان وبات الليل والبحر للإنسـان.. وأما التين، فللظل الذي يحسب نفسه تيتان.

الهوامش

١- التيتان: مخلوقٌ جبار هائل وهو أقوى ما خلقت الآلهة ومن أول المخلوقات التي أوجدتها وفقاً للميثولوجيا الإغريقية.

عندما الشوقُ أضنى الفؤادَ الرهيف

ساجدة الموسوي ❁

في اشتياق القمر

قذفتني موجة عارمة من أمواج القدر فعشت في لندن عاصمة الضباب لم أرَ ذات يوم وجه القمر الذي أحبه، فالسماء غيوم داكنة تلقي بظلالها على الغريبة الحزينة حزناً آخر كلما ظنت أنه سينجلي استطال، وظلت خيمتها الصغيرة واقفة عليه لا هي تبرح ولا هو يسقط فتستريح.

لكن ذات ليلة وفي عز الضيق والأسى أزاحت ستارة المطبخ ذات مساء فإذا بقمرها الزاهر يلوح مشرقاً بين غيمتين

❁ أديبة وشاعرة من العراق الشقيق.

كبيرتين، شـــهقت وتنفســـت بعمق وفركت عينيهـــا لتتأكد من أن الذي تراه حقيقة لا خيالاً. ترى ما الـــذي حمله القمر لها في تلك الليلة الخريفية الصمّاء؟

قـــال لهـــا: لا تحزني، وابتســـمي، فلا الحزن يدوم ولا الغربة تدوم.

قالت: قـــل ياقمري الجميـــل المتربع على عرش الســـماء، كيف حـــال أهلي في العراق، وهل هم أحياءٌ أم أموات تحت وابل القصـــف الهمجي على العراق على مدى أربعين يوماً بلا هوادة، لقد دمر القصـــف كل منظومات الاتصـــال، فلا أعرف عنهم شيئاً ولا أسمع إلا أخبار الموت..

ابتســـم القمـــر وقـــال: دار أهلك الآن مطفأة الأنوار فلم أتبين حالهم...

قلت له: ألا تســـتطيع أن تمنحهم شيئاً من ضوئك كي تتبين حالهم؟

قال: غداً عندما تحل الشـــمس مكاني اسأليها!

قلـــت: لا أظـــن أني ســـأراها فهي هنا بعيدة ودائماً محتجبة خلف الغيوم. ولكن قل لي هل ترى الآن دجلة والفرات؟

قال: يتلألآن تحت ضوئي...

قلت: وبغداد؟

قال: تتوهج بحرائق المغول الجدد...

قلت: طيّب، سلّم لي على دجلة والفرات وبغداد الحبيبة وقل لهم:

«اسم الله على وطني
اسم الله على من فيه
وعلى من يعشقهُ مثلي
ويغارُ عليه...».

ثم سالت مزاريب عيني، ولم يكن القمر قريباً ليكفكف دمعي الهتون.

في اشتياق البحر

وذات يومٍ عصـــفت بـــي الرياح الهوج إلى بـــلاد أجمل ما فيها ومـــا عندها هو البحر... وأنا أعشـــق البحر حد الجنون.. بي توق لمرآه ولسحره وشاعريته منذ كنت أرى صوره على صفحات المجلات أو عبر شاشة التلفاز، واسع، عميق، مهيب، هادر، قوي، مخيف وأليف، هـــادئ وجبار، أزلي مهيمن، مرهف وشـــفاف، أحبُّه وأتمنى لو تكون لي قدرة السيد المسيح عليه السلام في المشـــي عليـــه دون أن أغـــرق، وهذا أمر مســـتحيل، لكن الخيال لا مســـتحيل أمامه «فياما حلمت وأنا صبية بأني أسبح فـــي البحـــر ولا أغرق رغم أنـــي لا أجيد السباحة».

ولما كبرت وســـافرت كنت أرى البحر من الطائـــرة فيرف قلبي عليه، وأمر عليه أحيانـــاً خطف غزال فلا تشـــبع عيني من رؤيته وانســـراحه وتدرج ألوانه، عطشـــي

له كامن في نفسي وأتمنى لو أن لي من كل هذا العالم نافذة واحدةً تطل على البحر، بلادي بلاد الشطوط والأنهار والبحيرات، فلا مجال لهذا الحلم العابر كغيمة صيف.

هدأت الريح لتلقي بي في مكان لا يبعد عن البحر إلا خمس دقائق بالسيارة... واحتفلت أشواقي: سأراك أيها الغائب البعيد، سأشم عبقك وأقبل وجهك...

وذات مساء لازوردي لأول مرّة مسّت خطاي رمال ذلك الشاطئ الذي يعج بحشرٍ من النساء والرجال والأطفال ممن قصدوه ليلقوا همومهم على صدره الواسع، وقفت لوحدي أتأمله بشوق المحب، وإذا بي بجوار امرأةٍ في الخمسين من شبابها، جالسةً على الرمل تحدث نفسها وتبكي

اقتربت منها لأسمع ما تقول، لكنها خشيت من فضولي فسكتت، أخرجتُ من حقيبتي منديلاً وعبوة ماء صغيرة، فالتفتت إلي ولم تحدثني بشيء، حاولت استنطاقها لعلّي أساعدها فلم تنطق بحرف واحد.

بعد لأيٍ من الزمن جاء شاب فجلس قربها همس لها بكلام ثم أخذها باتجاه المدينة، أسرعت الخطا لألحق به ولأطمئن على حال تلك السيدة الحزينة، قال: أخي هاجر من هنا ولم يعد، وقيل أن البحر ابتلعه هو والمهاجرين الذين كانوا على سطح المركب ... لذلك تأتي أمي كل يوم تجلس على الشاطئ بانتظاره!!

«لـمَ يا بحـرُ هذه القسوة على الناس؟ كنت أظنك طيباً ورحيماً...».

عدت والألم يعتصرني والحزن يبعث الخدر في قواي، حاولت أن أنسى... لكن الأخبار بدأت تترى عن قوافل من الشباب المهاجرين الذين يبتلعهم البحر...

حين وقعت بيدي رواية (تيتانيكات أفريقية) للأديب الأرتيري المبدع أبو بكر حامد كهال ما كنت أتصور أو أفهم بحق معاناة آلاف من الشباب العربي والأفريقي ممن يجازفون في عبور البحر المتوسط ليصيروا على الضفة الأخرى، حيث الحلم في الوصول إلى الغرب والعمل هناك في المطاعم أو النوادي أو السفن...

عكست تلك الرواية حجم الألم ومخالبه المتوحشة التي تنهش قلوب المهاجرين وعوائلهم حتى يصلوا إلى بر الأمان وقد لا يصلون، فبطن البحر تسع الآلاف وهي على استعداد أن تقدمهم طعاماً سائغاً لقروشه وحيتانه.

تأملت ما قاله المفكر الغربي نعوم تشومسكي في كتاب (الإرهاب الغربي من هيروشيما إلى حرب الطائرات من

دون طيار) قال: «هناك غضب عارم في الغرب تجاه الهجرة غير الشرعية، لكن لماذا يهرب هؤلاء الناس؟...» سؤال مهم يلخص حكاية استبداد وهيمنة النظم السياسية والاقتصادية في الغرب في سعيها المحموم إلى سعادة شعوبها على حساب الشعوب الأخرى مخلفة لهم الفقر والأمراض والحروب.

وماذا بعدُ أيها البحر، تقول لاذنب لي فيمن هاجروا سراً على مراكب هزيلة لا تتحمل ثقل أجسادهم، لي قوانيني التي يعرفها البحارة الجيدون، لا ذنب لي في الفقر الذي ألجأهم إلى الهروب من أوطانهم، لا ذنب لي في النظام العالمي وشروره، ولكن لمَ لم تكن رحيماً بهؤلاء الشباب عندما سقطوا في مائك؟ أيرضيك أن الآلاف من الأمهات والأخوات والزوجات فقدن الأعزة وتسربلن بثياب الحزن والدموع. أنت قاس أيها البحر، ماعدت موئلاً لأحلامي وأشواقي،

سأترك شوقي يبحرُ مع الريح إلى مدائن أخرى... مدائن ليست على الأرض قطعاً هذه الأرض الثكلى بالحروب والقهر والدمار. وداعاً أيها البحر.

في اشتياق المطر..

ومرة أخرى قذفت بي أمواج القدر إلى بلاد صحراوية الطبيعة، وفي مدينة لا تحب المطر ولا المطر يحبها، ولو كان الحب من طرف واحد لهان، هي غضّت الطرف عنه وتحدته بسقي حدائقها ومزارعها بمياه الآبار أو المياه المكررة، حتى النرجس الغض رغم سخونة صيفها نجده بكل الألوان شبعاناً من شبكات السقي التي تتوزع كشرايين الجسد تغذيه بالماء الزلال.

ليس المطر مشكلة المدينة ولا أهلها الذين يكدون بالليل والنهار فلا يشعرون بحاجتهم إلى المطر والأجواء الرومانسية التي تبعثها خيوطه الفضية المتلألئة، المطر مشكلة الشعراء.

ذات صباح تجمعت في السماء الغيوم، وقلت يا ألله، ربما هناك نية مطر، لكن ريحاً قويةً هبت فأزاحتها، وكلما يحل الشتاء أنتظر بلهفة المشوق لعل السماء تجود بمطرها، ولكن دون جدوى، الأمر الذي فوجئتُ به الشتاء الماضي هو أنني كنت خارجة من البيت صباحاً فوجدت المياه تغطي مساحة لا بأس بها من الطريق، وحين سألتُ جارتي التي كانت خارجةً مصادفة في نفس اتجاهي، قالت: هذا من مطر الليلة الفائتة، فصعقت... قالت: الساعة الثالثة صباحاً حتى الفجر كانت تزخ على غير العادة!

في ذلك الوقت كنــت نائمة، أهكذا يا مطر، تجيء على حيــن غفلة وترحل دون أن أراك؟ كم أنت قاسٍ يامطر، ألا تعلم كم أحبك؟ وفتشــت بين أوراقي فثمة قصيدة عــن المطر ســأقرأها لأواســي خاطري، وبدأت أقرأ حتى أحسستُ أن المطر هطل مدراراً سخياً رائقاً، ليس من السماء، ولكن من عيوني.

«في هدأة الكرى
تساقط المطر
والريح وشوشت
تداعب الأوراق في الشجر
وهفهفت في روحيَ الظمأى
صور
مطر.. مطر
وزهرة بيضاء كاستدارة القمر
وغربة تكاد تثقب الحشا
فتسقط الدموع كالدرر
وفي الجوى حكايا جدتي
وخبــز بيتنا وتمر نخلنا وزورقٍ من ورقٍ
في بركة المطر
مطر.. مطر
لم ننتبه لروعة الحياة في المرآة
كيف تنكسر
برميةٍ من جاهلٍ
أو حاقدٍ
أو ظالمٍ
لا يدرك الخطر
مطر.. مطر
من دمنا.. ودمعنا
تواصل المطر.

«مريانا المراش: الأديبة الرائدة»

إبراهيم محمود الصغير ❁

كانت حلب، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد بدأت روح النهضة والتقدم تسري في أوصالها، كما بدأت تتفتح في أجوائها المشاعر الوطنية والقومية قوية أخاذة، يغذيها فكر نير وجديد يحمل في طياته بذور الحرية والانطلاق، وتفوح منه أنفاس عربية أصيلة، وآمال مشرقة ومشبعة بالثقة والتفاؤل والتصميم من أجل مستقبل حافل بالحرية والمجد والازدهار لكل بلاد الشام. ورغم عسف الأتراك وظلمهم وجبروتهم في تلك الفترة، فقد أخذت أصوات الأحرار، في حلب كما في

❁ أديب وناقد وباحث في التراث العربي.

غيرها من بلاد الشام، تعلو وتعلو متحدية كل العراقيل والموانع، التي كان الأتراك يضعونها بالحديد والنار أمام هؤلاء الأحرار، الذين كانوا يشكلون صفوة المجتمع، ومنهم في حلب: رزق الله حسون، وجبرائيل دلال، وعبد الرحمن الكواكبي، والشيخ كامل الغزي، وعبد المسيح الأنطاكي، وقسطاكي الحمصي، وغيرهم من الأدباء والشعراء ورجال الدين والصحافة ولم يكن اتصال هؤلاء الأعلام مع أفراد الشعب فقط، بل كانوا دائماً على اتصال مع بعضهم بعضاً، إذ كان الأدب والفكر والحس الوطني يجمع بينهم، ويؤلف بين قلوبهم برباط من الود وثيق. فلا يكاد أحدهم ينظم قصيدة، أو يكتب مقالة، أو ينشئ مقامة، حتى يبحث عن صديق أديب تتجاوب نفسه معه، ويشاطره أفكاره ومشاعره.

وكثيراً ما كانوا يلتقون في منازل بعضهم، يتناشدون الشعر، ويتبادلون الأفكار، ويستمعون إلى الطرب الأصيل، والألحان الشرقية الساحرة، وينثرون النكات، ويتحدثون بالأحاديث التي تمس المجتمع ومشكلاته أحياناً، أو أمور البلاد بشكل عام. فإذا تجاوزت هذه الأحاديث إلى أنباء السياسة، كانت تعليقاتهم وآراؤهم مهموسة وفي جو من الخوف والحذر، خوفاً من بطش الأتراك، إذ لم يكن العهد الحميدي الذي نشأوا في ظلاله ليسمح لهم أن يتحدثوا هذه الأحاديث بروح منطلقة، وبجو من الصراحة، فقد كانت تخيفهم الروح الوطنية، والنزعة القومية العربية من الوطنيين الأحرار، فأخذت تفتح لهم السجون، وتنصب لهم المشانق، كما رأينا ذلك فيما بعد، حين أعدمت الأحرار شنقاً في دمشق وبيروت في السادس من أيار عام (١٩١٦).

في تلك الفترة نشأت مريانا المراش، الأديبة والشاعرة التي عرفتها حلب وأحبتها، فكانت زينة المجالس ومنتدياتها الأدبية، ومنافسة حقيقية للأدباء والشعراء المشهورين في حلب. ولكي نتعرف عليها أكثر سنستعرض حياتها وأعمالها كإنسانة وأديبة وشاعرة.

مريانا المراش: حياتها وأعمالها

هي مريانا بنت فتح الله بن نصر الله ابن بطرس مراش، ولدت في حلب عام (١٨٤٨). كانت ولادتها في بيت يُعنى بالعلم والأدب والقضايا الوطنية والقومية، كما كان شأن البيوت الحلبية آنذاك، بدأت دراستها الابتدائية الأولى وهي بسن الخامسة في مدرسة (مار يوسف) أو (الراهبات) في حلب، وتعلمت فيها اللغة الفرنسية. وكانت مريانا في حداثتها تصغي لمن يتحد ث عن بيروت، فتتمنى أن تدرس في أحد المعاهد الأجنبية فيها.

وقد تحقق أملها فدخلت المدرسة

الإنكليزية في بيروت، التي أنشأها الدكتوران (أدي وورتبات). وفيها تعلمت مبادئ اللغة والحساب وبعض العلوم، غير أنها لم تبق طويلا فيها. وفي الخامسة عشرة من عمرها، أخذ أبوها يعلمها الصرف والنحو والعروض، ثم تتلمذت على أخويها فرنسيس وعبد الله، وكانا أديبين موهوبين. فالأول كان شاعراً موهوباً وطبيباً متمكناً، والثاني كان تاجراً وأديباً. ولا عجب في ذلك، فقد كان بيت أبيها من البيوت العريقة التي لها مشاركة بحياة الفكر والأدب في حلب. وفي هذا البيت نشأت مريانا، وأشرب قلبها حب الأدب، فحفظت في بدء نشأتها الأدبية الكثير من شعر سلطان العاشقين عمر بن الفارض. وكان شعر ابن الفارض الوجدي قد غزا البيوت الحلبية، فما من بيت إلا قد حفظ بعض أفراده أكثر قصائد هذا الشاعر المتصوف.

وكانت مريانا كغيرها من السيدات الحلبيات ممن حفظن الكثير من شعر ابن الفارض. كما كان للشعراء العذريين أثرهم في نفسها أيضاً. وكما أحبت شعر ابن الفارض، وإمام الغزليين عمر بن أبي ربيعة، تعلقت أيضاً، بشعر (لا مرتين ودي موسييه) الفرنسيين. وكانت ترى في تعبير أولئك الشعراء عن وجدهم وحبهم وشعورهم وأحاسيسهم إثارة لوجدها وشعورها وأحاسيسها، وهي فتاة في رونق الصبا، كانت تمر بهذا الجو من الشعر والموسيقى والجمال. وإضافة إلى كل ما تعلمته، تعلمت الموسيقى، وفي ذلك يقول عنها خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام، الجزء السابع: «كانت (مريانا) حسنة الصوت، لها علم بالموسيقا، تضرب على القانون» وعرف أدباء تللك الفترة، وهم يترددون على بيت أبيها، ما ينبض به قلب مريانا من حب للأدب، وميل إلى قول الشعر، إلى ولع بالموسيقى، فأحبوا فيها هذه الخصائص.

وكانت ملاحتها، وسحر جاذبيتها، قد بدأت تجذبهم. وليس كالأديب أو الشاعر إنسان يعشق الجمال، ويحترق في سنا أضوائه. فإذا اقترن الجمال بالجاذبية، وكان من جملة عناصره الأدب والشعر والموسيقى والذكاء والانطلاق، كان ذلك مدعاة لأن ترقص النفوس على مباهجه وأضوائه.

كان أبوها قد علمها العروض، كما ذكرنا سابقاً، وما لبثت أن جربت النظم فأبدعت فيه، كما أبدعت في النثر، واستطاعت أن تجمع الأبيات والقصائد في ديوان صغير أسمته (بنت فكر). وتعتبر مريانا المراش أول أديبة عربية سورية كتبت في الصحف والمجلات، كما ذكر الفيكونت دي طرازي صاحب كتاب (تاريخ الصحافة العربية) ففي عام (١٨٧٠) نشرت مقالات عدة في مجلة (الجنان) وفي جريدة (لسان الحال)، وفي

غيرها من صحف ومجلات بيروت. فمن مقالاتها مقال بعنوان (جنون القلم) شكت فيه حال انحطاط الكتاب. وقد حرصت على تحسين الإنشاء، وترقية الموضوعات والتفنن فيها، وأفادت إفادة كبيرة من اختلاطها بأدباء عصرها، فنهجت نهجهم، وسارت على غرارهم.

كما احتذت أساليب الشعراء أيضاً، فنظمت قصائد ومقطوعات من الشعر الوجداني، كما كتبت في المديح والرثاء والوصف والغزل. ولم يكن بيت العائلة ملتقى الشعراء والأدباء فحسب، بل كان يؤمه رجال الحكم ورجال السلك السياسي، إذ مدحت والي حلب، آنذاك (جميل باشا)، ذلك الرجل العمراني الذي كان أول من أسس المدارس المدنية في حلب، من ابتدائية وإعدادية، وكانت حلب محرومة من المدارس المدنية، وليس فيها سوى الكتاتيب والمدارس الدينية الإسلامية، وبعض الإرساليات الأجنبية. ولم تمدح هذا الرجل فقط، بل مدحت غيره من رجال السلك السياسي.

وكانت مريانا في زمنها من الشاعرات المشهورات، فإذا ذكرت عائشة التيمورية في مصر، ووردة اليازجي، ووردة الترك في لبنان، ذكرت مريانا المراش في سورية.

تزوجت ماريا من (حبيب الغضبان)، وكان لها أولاد منه. وقد جعلت من بيتها ندوة أدبية للأدباء والشعراء والفنانين وغيرهم. وكان يحضر ندوتها من حلب نخبة فاضلة ومعروفة، منهم الشاعر المبدع جبرائيل دلال والشاعر اللغوي قسطاكي الحمصي، والمطرب المشهور باسيل الحجار وغيرهم من مشاهير حلب المشهورين في ذلك الوقت.

وكانت مريانا قد سافرت إلى باريس، وشاهدت الندوات الأدبية النسائية هناك، فكان عملها في حلب محاكاة لما شاهدته في باريس، وفي ذلك تقول عنها السيدة الأديبة وداد سكاكيني في كتابها (سابقات العصر): سبقت (مريانا) عصرها في إقامة ندوة للأدباء، ويبدو أن أكثر الأديبات بعدها سرن على غرارها.

لقد عاشت مريانا المراش حياتها في جو من النغم والألم. عاشت مع الأدباء والشعراء ورجال الفن، وقرأت ما كتبه الأدباء الفرنسيون، والأدباء العرب فتكونت عندها ثقافة تجمع بين القديم والحديث. وكانت تأنس إلى هذه الأجواء، التي تغمرها أنغام الموسيقا، ونفحات الأدب، وهمسات الأشعار لأنها في روحها أديبة، وفي أحاسيسها موسيقية، وفي قلبها إنسانة مرهفة. يقول عنها الأديب الشاعر قسطاكي الحمصي أحد معاصريها: ((كانت مريانا مليحة القد، رقيقة الشمائل، عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة العشرة، تميل إلى المزاح، حسنة الجملة، عصبية المزاج.

وكان منزلهـا مثابة الفضـلاء، وملتقى الظرفـاء النبهـاء، وكان لنـا عندها منزلة ترتد عنهـا أعين الحسـاد كليلة. فسـقياً لأيام الشـباب، ومجالس الآداب والأحباب، ومسـاجلاتنا فـي المحفـوظ والبديه من الأشـعار ورقصـنا على العـود والمزمار، وصوت بلبل ذلك العصر المدعو بالحجار» (يريد باسـيل الحجار أحـد مطربي حلب المشـهورين بجمال صوته، وحفظه الأدوار القديمة والموشحات الأندلسية).

نعم لقد كانـت مريانا تأنـس إلى هذه الأجـواء التي تغمرهـا أنغام الموسـيقى، ونفحات الأدب. وكانت حياتها شبيهة بحياة (مي زيادة)مع فارق الزمن وملابسات حياة العصر. فتحت صالونها للرجال المرموقين، فكانوا يجدون عندها هـذه النفحات التي تذهب عنهم سـأم الحياة، وضـجر العمل، كما كانت تفعل (مي زيادة). ومن المفارقات الغريبـة أن يتمكـن الـداء العصـبي من الاثنتيـن في آخر حياتيهما. وكانت كلتاهما عصـبية المزاج. وقد يرجع هذا إلى فرط حساسـيتهما. ولئن كان الكبت الجنسي هو الـذي أورث (مـي زيادة) هذا الـداء، فما كانت مريانا مثلها، ولاسيما وقد ركبها الداء العصـبي وهي متزوجة ولهـا أولاد. ويقول خير الدين الزركلي: ((إنها أصـيبت بمرض السـوداء (الماليخولية) في السنين الأخيرة من حياتها)). وقد توفيـت مريانا المراش في حلب عام (١٩١٩) ودفنت فيها.

لقد كانت مريانا المراش أديبة عصرها في تلـك الفترة من الزمـن، حيث الجهالة طاغيـة، وكانـت نجمـة من نجـوم الأدب المشعة في سماء ذلك الليل البهيم.

مريانا المراش: الأديبة والشاعرة:

كان بيـت مريانا المراش، كما مرَّ معنا، ملتقى النخبة من الأدباء والشعراء والفنانين في حلـب، وربمـا كان بيتها أول صـالون أدبي عـرف في الشـرق العربـي، فكانت تعقد فيه الاجتماعات، وتطول السـهرات، وتثور المناقشـات، وتكثر فيه المساجلات والمطارحات. لذلك اكتسبت مريانا المزيد من الخبـرة الأدبيـة، من روَّاد صـالونها، وتمكنت من الشعر والنثر على السواء، وكانت مسـتمرة في القراءة والمطالعة في الوقت نفسـه، فتشـبعت بروح الإبداع والشاعرية ورهافة الحس وعمق التذوق الأدبي والفني، وسـحر الأخلاق وصفاء القريحة والتفكير، مما جعلها شـاعرة وأديبة مرموقة يشـار إليها بالبنان وتنال الإعجاب والاستحسـان من الجميع.

وفي زاوية من زوايـا بيتها، كان الإلهام يتنـزل علـى قريحة الشـاعر قسـطاكي الحمصي فيكتب إلى خاله الشاعر جبرائيل دلال، الذي كان مقيمـاً آنذاك في باريس، قصـيدة يبثه فيها عواطفه، ويبلغه شـوقه، ويحدثه عن معابثـات إخوانه في الندوات

التي كانت تجري في بيت مريانا، فتثير هذه القصيدة قريحة الشاعر الدلال فيجيبه بقصيدة طويلة يشكره فيها على عواطفه، ويصف شوقه إلى حلب، ثم يمدح صفات مريانا، ويشيد بنبوغها وأدبها وأخلاقها ويقول فيها هذه الابيات:

وإذا لم يكن هنا غير أن الـ
حر فيها يعيش دون منازع
فهو يكفي حظاً لقلبي وإن سا
لت على غربتي غروب المدامع
لا ولا أشتهي سواكم ولا أر
غب فيها من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الـ
صون والحسن والذكا والبدائع
ربة الفضل والفضائل مريا
نا التي ذكرها يسر المسامع
والتي زانها الكمال إذازا
ن سواها الحلي وسدل البراقع

هذه المطارحات الأدبية كانت تدور في ظلال السهرات الممتعة والجميلة، التي تعقد في بيت مريانا. ونحن نعلم أن صالونات الأدب، التي ترعاها السيدات المترفات والأديبات الموهوبات، تصبح ملتقى كبار الرجال من أدباء وشعراء وفنانين وساسة ومفكرين وغيرهم، وقد عرف ذلك في بعض الدول الأوروبية، وفي التاريخ العربي القديم، وكذلك في النصف الأول من القرن العشرين في الوطن العربي، مثل صالون الأميرة فاطمة إسماعيل الذي كان يضم أعلام مصر، ومنهم محمد عبده، وقاسم أمين، وسعد زغلول وغيرهم من الأفذاذ. وأيضاً صالون هدى شعراوي زعيمة الحركة النسائية في الشرق العربي، وصالون مي زيادة المشهور، حيث كان يجتمع في صالونها كل يوم ثلاثاء، أكابر أدباء العرب وشعرائهم، والصفوة المختارة من القضاة والساسة والصحفيين وغيرهم. وقد كانت مريانا المراش من أوائل الأديبات العربيات، إن لم تكن الأولى، التي فتحت بيتها لاستقبال الأدباء، مع أن العصر، الذي عاشت في ظلاله، كان عصر تزمُّت وتقاليد.

وقد جمعت مريانا قصائدها، ومقطوعاتها الشعرية، في ديوان صغير بعنوان (بنت فكر)، كما ذكرنا ذلك سابقاً، وهذا الديوان يضم قصائد المدح وقصائد الوجد والحكم والرثاء. وشعرها الوجدي يدل على إحساس عميق، متقد، وعاطفة صادقة. وقصائد الحكم لديها تدل على أنها عاشت تجارب الحياة بعقل كبير وفؤاد بصير. ومن منظوماتها في الحكم قولها:

شرف الفتى عقل له يسمو على
كل الورى فينال غايات المنى
وكذلك حسن الخلق فخر مسود
متسربل بالعطف نعم المقتنى
المرء إن شهدت له أفعاله
بالفضل والآداب يكتسب الثنا

ما كل من طلب الكرامة نالها
من رام صيد الظبي حل به العنا
ذو المال يذهب ذكره مع ماله
لكن ذكر الفاضلين بلا فنا

وكان للرثاء دور كبير في شعر مريانا، حيث رثت أخاها فرنسيس المراش، وهو الشاعر الأديب، والعالم الطبيب، والذي غادر الدنيا باكراً.

وكان رثاؤها لأخيها قطعة جمر من كبد محروقة، وكأنها الخنساء ترثي أخاها صخراً. فقد اسودت الدنيا في عينيها، وعبرت أصدق تعبير عن حالتها النفسية. ومن رثائها في أخيها الأبيات التالية، وهي من قصيدة طويلة:

مالي أرى أعين الأزهار قد ذبلت
ومال غصن صباها من ذرى الشجر
مالي أرى الروض مكموداً وفي كرب
والماء في أنّة، والجو في كدر
هذا الذي جابت الأقطار شهرته
قد صار مُطَّرحاً في أضيق الحفر
خنساء صخر بكته حينما نظرت
إليه ملقى بلا سمع ولا بصر
أقلام أهل النهى ترثيه وا أسفي
هل عاد من عودة يامفرد البشر؟
في لجة الحزن نفسي ضاق مسكنها
من ذا يسلي فؤادي؟ قَلَّ مُصْطَبري

ولمريانا قصائد كثيرة في شتى الأغراض الشعرية الأخرى، كان بودنا أن نأتي ببعض الأمثلة عنها، ولكن ضيق المجال في هذه المقالة القصيرة يمنعنا من ذلك. ونكتفي بما أوردناه من شعرها، راجين أن نكون قد وفينا حق هذه الأديبة والشاعرة والإنسانة بما هي جديرة به من التعريف وإظهار مزاياها وفضائلها الشخصية والأدبية والإنسانية لديها.

المصادر والمراجع

١- الأدب العربي المعاصر في سورية، سامي الكيالي، دار المعارف بمصر، القاهرة- ١٩٦٨.
٢- سابقات العصر: وعياً وسعياً وفناً- وداد سكاكيني، الناشر: الندوة الثقافية النسائية بدمشق، دمشق، ١٩٨٦.
٣- الأعلام، ج ٧، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢.
٤- أعلام النساء، ج٥، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢.

مأساة الحياة و تفعيلات البحر الخفيف مع «نازك الملائكة»

ظهير خضر الشعراني ❁

لماذا لايشبه الإنسان الطبيعة؟ فهي تزهو وتُزهر بعد الشتاء، وهو يذبل ويسقط بعد عواصفه، ما حياة الإنسان في هذه الدنيا إلّا كفصول السنة.

فصلُ شتاء محزن، تتلبد غيوم الشدائد في سماء مظلمة ناقمة، تعصف ريحُ الجزع، فتتلاعب بأوراق الآمال الذابلة، وتقصف رعود المصائب، فترمي القلب البشري بصاعقة اليأس القتّالة.

وفصل ربيع مُزهر مثمر، يطيب فيه الهواء، ويروق أديم السماء، تُشرق شمس الهناء والإقبال، فتبدّد غياهب الكروب، ويسطع على الأفق بدر السعادة والآمال فيضيء ظلمة القلوب، وتتفتّح أزهار الصفاء، وتنضج أثمار الرجاء.

تلك هي حياة الإنسان ! يسرٌ وعسر، راحة وشقاء، شدة ورخاء، وردٌ وأشواك، طلوع ونزول، شروق وأفول، حلاوة العسل، ومرارة الحنظل، ابتسامة ثغرٍ، وقطرة دمع، فليس عليه أن تُبطره النعمة إذا ارتفع، ولا تُذلله الفاقة إذا اتضع، بل عليه أن يكون حاذقاً ثابتاً في حالتي السرّاء والضرّاء.

❁ كاتب وناقد

ويبدو أنّ رحلة «نازك الملائكة» في هذه الحياة تُشبه إلى حدٍ بعيد حياة الفيلسوف الألماني «شوبنهاور» الذي قال: (لست أدري لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل الستار على هزيمة أو موت. لست أدري لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التي تثور حول لاشيء؟ حتامَ نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي؟ متى نتذرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأنّ حب الحياة أكذوبة، وأنّ أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت ؟).

وقد عقبت « نازك الملائكة « على تشاؤمية «شوبنهاور» بقولها: (والواقع أنّ تشاؤمي قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه، لأنه – كما يبدو – كان يعتقد أنّ الموت نعيمٌ لأنه يختم عذاب الإنسان. أما أنا فلم تكن عندي كارثة أقسى من الموت. كان الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سنٍ متأخرة)[1] فكيف تبدو حياة الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة.

حياتها:

وُلدت نازك الملائكة في بغداد عام ١٩٢٣ م، ونشأت في رعاية أمّها الشاعرة سلمى عبد الرزاق، وأبيها صادق الملائكة، فأتاحت لها هذه النشأة ما لم يتح لغيرها، فتربّت على الدعة والهدوء ،وهُيئت لها أسباب الثقافة والعلوم، فتخرّجت من دار المعلمين العالية عام ١٩٤٤م، ثمّ يممت شطر الولايات المتحدة الأميركية للاستزادة من معين اللغة الإنكليزية وآدابها عام ١٩٥٠م، إضافة إلى آداب اللغة العربية التي أجيزت فيها.

تُجيد من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية، عملت كأستاذة مساعدة في كلية التربية بجامعة البصرة، بعد عودتها من الولايات المتحدة، ومثّلت العراق في مؤتمر الأدباء العرب الذي عُقد في بغداد عام ١٩٦٥م. نازك الملائكة شاعرة كبيرة، ورائدة مجددة طليعية في تكتيك الشعر الحر، ودراسته ونقده، يتصف شعرها بالحساسية المفرطة، وبالألم الحاد، إنه شعر امرأة من الشرق، أحبّت أن تعيش وتحيا وتُحب، وأن تحقق ماتصورته في فجر عمرها من غدٍ موعود، فلما أدركت الحياة رأتها على عكس ماتصورت واشتهت، رأت فيها الصرامة والتزمّت والقيود، وألف سدّ من الكبت والتضييق، فأصيبت بخيبة أمل مريرة.

يؤخذ على نازك الملائكة الضرب المستمر على أنغام اليأس والكآبة الحزينة، مع تشاؤم من الوجود، وإهمال الحقيقة، والانطواء على الذات انطواء يُشبه

المرض، ويُؤخذ عليها الإطالة في المعاني وتضخيم الصور. نهلت من المهجريين بعض رومانسيتها، فتغلفَ شعرها بمسحة من الكآبة والحزن من شكوى مريرة حتى خلقت لذاتها عالماً من الألم وجدت فيه لذّتها. وبدأت نظم الشعر بالشكل التقليدي الكلاسيكي، ثمّ تحولت عنه عن وعي وتعقّل إلى الشعر الحر.

في ديوانها «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» الصادر عام ١٩٨١م نجد عندها اللون السريالي، واللون الرمزي الوجودي تقول في مقدمته:

(وهكذا بدأتُ نظم المطوّلة، وقد اخترتُ لها بحراً عروضياً مرناً هو البحر الخفيف، الذي يجري بين يديّ الشاعر كما يجري نهر عريض في أرض منبسطة، وقد نظمت معظم قصائد هذا الديوان على منوال واحد، قافية واحدة لكل بيتين من الشعر ضمن القصيدة الواحدة)[٢].

ومن قصيدة كآبة الفصول الأربعة التي بدأتها بفصل الخريف نقرأ:

قد عبرنا نهر الحياة حيارى
في ظلام الفصول والسنوات
وثبتْنا على أسانا خريفاً
وربيعاً فما جمال الحياةِ ؟
طالما مرّ بي الخريف فأصغيـ
ـتُ لصوت القمريّةِ المحزون
وأنا في سكون غرفتي الدجـ
ـياء أرنو إلى وجوم الغصون
وغصون الأشجار مصفرّة الأو
راق والزهر ذابلٌ مكفهرُّ
ورياح الخريف تعبث بالأوراق
والسحب في الفضاء تمرُّ[٣]

الكآبة ترفرف على الأغصان والحزن مخيم على كل شيء والطيور حزينة وأوراق الأغصان تتكسّر تحت وقع الخطا، والجداول قد جفّ ماؤها، والفضاء يلبس رداءه الأسود القاتم، والناس هجروا حقولهم وتقوقعوا في منازلهم، فلا اخضرار في الأرض، ولا رعاة، والرياح العاتية تصفر في سكون الليل ،والوحشة تسيطر على صباحات الخريف وأمسياته.

ثمّ يأتي الشتاء بالثلج والأمـ
طارِ والريح في سكون الليالي
وتمرّ الأيام موحشة الخط
ـوِ بِطاءَ الأصباح والآصال
وتموتُ الأزهارُ في قبضة الثلـ
ـج ويعرو الأشجار لون الزوالِ
وتغيب الأطيار في الموقد المهـ
ـجور أو في كهفٍ وراء الجبالِ
ويجيء المساء بالمطر المنـ
ـهلّ يبكي على شجا الإنسانِ
وتظلّ الرياح تعصف بالنخـ
ـل وترثي لكل قلبٍ عانِ[٤]

فرق كبير بيــن أن تعيش المأســاة وأن تدركهــا، وهو الفرق نفســه بيــن أن تكون حزيناً وأن تدرك معنى حزنك، فبين الرؤية الغائمة والإدراك الناصع يتراوح الوجود بين ظاهر ماثل للعيان ومدرك كلي.

إنّ الرؤية الحسية ذات وجه واحد، فأنت حين تنظــر فإنك تنظر فــي اتجاه واحد، فتــرى وجهاً واحداً من الأشــياء، وقد ترى أنصــع الوجوه أو أبشعها فإذا تعددت وجوه الرؤية لم يعدّ ظاهر الأمر موضــع التقدير حين تصل إلى مرحلة الحكم على الأشياء، وإنمــا يتولد مــن تعارض الوجــوه المرئية مدرك شعوري يختلف عن كل وجه من وجوه الرؤية، لأنه تنازل عنها وتجاوزها.

وفــي هذه الحالة ســرعان مايتكشّــف للإنسان ذلك التعارض المحزن بين عالمين همــا في ظاهر الأمر وفي الحقيقة لابدّ أن يكونا عالماً واحــداً. وفي هذا الاتجاه كان تساؤل أبي العلاء المعري حين قال:

أبكَت تلكم الحمامة أم غنّــت على فرع غصنها الميّـاد

فالبكاء والغناء من صنعة الحمامة، ولو قلــت أنها تبكي وســكتّ، أو قلت إنها تغني وكفى، لما أدركت في الحالين شيئاً من سر الحمامــة. قد يُقال. كمــا يُقال في العادة. إنَّ حالة الإنسان المعنوية قد تجعله لايسمع في صوت الحمامة إلا البكاء والنحيب، كما أنها قد تجعله لايسمع في صوتها إلا الغناء والطــرب، ولكن إذا كانــت الحالة المعنوية لاتجعلنا نرى من الأشــياء إلا جانباً واحداً فإنّ هــذا أول مطعــن في ســلامة الرؤية وأصدق دليل على ابتعادها عن الواقع. ومن ثمّ فقد عبّر أبو العلاء المعري في بيته هذا عمَّا ســميناه المأساة، مأســاة هذا الوجود الــذي يمتزج فيه البــكاء بالغناء، أو الحزن بالسعادة، وهو من أجل ذلك يعبر عن حزن أعمق مــن أحزان الآخريــن وإن لم يذرف دمعة واحدة.

ننتقل بعد هــذا إلى فصــل جديد من فصــول المأســاة في ديوان نازك الملائكة وهو فصــل الربيع وتبدو هنــا أكثر تفاؤلاً ولكنه تفاؤل قصــير محدود الزمن تتخلله بعض الآهات، والأحلام تقول:

الربيع الجميل فصلُ الطيور الـ
ـبيض والزهر والسنا والعطور
عندما تكتسي العرائشُ بالكر
مِ وتشدو طيورها في البكــورِ
عندما يخرج الرعاة إلى الوا
دي بأغنامهم وتزهو الضفــافُ
عندما يُزهر البنفسجُ والخبـّ
از والبرتقال والصفصــافُ
ياضياع الأحلام في مسمع الموت
ومــاذا تُفيدنا الأحــلامُ
ليس يبقى الربيع إلا قليلاً
ثمّ يخبو الجمال والأوهــامُ(٥)

ولعلّ هذا المهاد ييسر لنا الآن قبول فكرة أن الشاعر الحزين ليس من بكى، وأن الشعر الحزين ليس صرخات وتأوهات ونحيباً وأن ننظر إلى المرثيات في شعرنا. وما أكثرها على أنها في الغالب تعبير عن الحزن الأول الساذج، عن الانتفاضة الحسية المباشرة ذات الوجه الواحد. ومن ثمّ فإن أبا العلاء المعري يُعَد من هذه الوجهة ظاهرة فريدة في أدبنا القديم.

وفي شعرنا المعاصر استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر. بل يمكن أن يُقال أنّ الحزن قد صار محوراً أساسياً في معظم مايكتب الشعراء المعاصرون من قصائد. ويتضح هذا فيما يُنشر في المجلات والصحف من قصائد مفردة وفيما نستمع إليه في الندوات الأدبية، وفيما يُنشر من دواوين. وقد استفاضت هذه النغمة حتى أثارت كثيراً من المناقشات والجدل في المنتديات الخاصة، وأبرز ما يُوجه إلى هذه النزعة التي استفاضت هو أن الشعراء قد صاروا يُلحّون على إبراز جانب واحد من الحياة هو جانب القتامة فيها، وأنهم يُغمضون عيونهم عن جانب البهجة. وليست الحياة جهمة كلها، وإنما هي تتضمن إلى جانب الجهامة صوراً من الإشراق كذلك، ونفس الشاعر التي تتسع لاستيعاب كل أشكال الحياة ينبغي أن تهزّها الأشكال المشرقة كما تستوقفها الصور الجهمة والقاتمة.

ننتقل إلى فصل الصيف وغباره وحرارته وسكونه وجفاف ينابيعه وهجرة طيوره وعرق فلاحيه ومعاناة عماله. فكيف صورته نازك الملائكة:

كلُ شيء في الصيف ينطق بالقسـ
ـوة والشمسُ شعلة ولهيبُ
تتشكى عريشة الكرم لكن
ليس يُجدي توسّلٌ ونحيبُ
وبكاء الحمامة الخافت النا
ئي وصوت الغراب بين الكرومِ
وأزيزٌ من نحلة تملأ القلـ
ـب ملالاً بصوتها المسؤومِ
لم يعدْ للنسيم قلبٌ يحبّ النـ
ـهر والمرج في ظلام الأماسي
لم يعد للأزهار لون جميلٌ
يتجلّى لمرهفي الإحساس(٦)

نظرة قاتمة للطبيعة وما يجري فيها، لكن هذا الجدل على أساس من عزل الظواهر الحيوية بعضها عن بعض، والفصل الحاسم بين أشكال الحياة المختلفة. والملاحظة الأولية توضح لنا أنّ هذا الأساس تعسفي، فتمازج الأشكال المختلفة، بل المتناقضة، هو في الحقيقة الشعورية التي استقرّت في أعماق الكيان الإنساني منذ البداية، والتي تكشفُ عن ذاتها بين الحين والآخر فحين

يستبدّ الضحك بجماعة إلى حد الاستغراق الكلي فيه إذا بصوت من بينهم يرتفع معقباً: «اللهمّ اجعله خيراً»، وتقع هذه الجملة موقعها من الجميع. إنها لن تمنعهم من الاستمرار في الضحك، ولكن ضحكهم بعدها تنكمش نغمته انكماش الحذر. فإن دلنا هذا الموقف على شيء فعلى أنّ الإنسان في قمة شعوره بالبهجة، هو مدركٌ كذلك للوجه الآخر، للنقيض. وليس الحال هنا هو مجرّد استدعاء النقيض، بل الامتزاج الحقيقي بين النقيضين.

فإذا كان هذا هو شعور الإنسان في المواقف العادية من الحياة، فكيف تتطلب من الشاعر إذاً أن يركز رؤيته على الجانب المشرق وحده من الحياة؟ لو كان لنا الحق لفرضنا على الشاعر رؤية موجهة أي تلك الرؤية ذات الاتجاه الواحد، التي لاتستكشف في الأشياء إلا جانباً واحداً. ونحن بذلك إنما ندعو إلى الوقوف بالعملية الشعورية عند مرحلة معينة، الأمر الذي لايمكن فرضه على الشاعر، بل الذي لايستطيع الشاعر نفسه فرضه على نفسه. قد يتوقف هو من تلقاء نفسه عند هذه المرحلة، فمرّة يرى الجانب السار، ومرة أخرى يرى الجانب المُحزن. ولكن هذه الخصوصية للرؤية تقف بالتجربة الشعورية عند حدّ بذاته من المعاينة تقرره مقدرة الشاعر الخاصة.

فالاختلاف إذاً بين شاعر وآخر يتركز بصفة أساسية في طريقة الرؤية وفي محدوديتها أو شمولها. وهذا الاختلاف يوضّح لنا لماذا صار الحزن ظاهرة في شعرنا المعاصر، ولم يكن كذلك بالنسبة لشعرنا القديم. فالشاعر القديم كان يقف برؤيته. في الغالب عند حدود الوجه الواحد، فإذا هو رأى الوجه المطرب طرِبَ، وإن هو رأى الوجه المحزن حزِنَ. أمَّا الشاعر المعاصر فقد اتسع مجال رؤيته واكتسب نوعاً من الشمول، فلم تعد أشكال الحياة أمامه ألواناً مختلفة يستقلّ بعضها عن بعض، وإنما تتمازج فيها الألوان لكي تصنع الصورة العامة.

ومن ثمّ لم يعد الشاعر المعاصر يرى الجانب الناصع وحده، أو الجانب القاتم وحده، وإنما هو يرى الجانبين ممتزجين، فإذا هو رأى الجانب الساطع مازجت هذا الجانب قتامة، وإذا هو رأى الجانب القاتم استشرف فيه السطوع والضوء. هو في قمة بهجته، وهو في قمة تعاسته، يدرك أنّ ضوء الصبح ينسلخ من ظلام الليل، وأنّ صوت النعي كما قال أبو العلاء قديماً. شبيه بصوت البشير.

ويُقال كذلك أنّ هذه النزعة الحزينة في شعرنا المعاصر ليست إلا نوعاً من التأثر بأحزان الشاعر الأوروبي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على الروح الغربي خاصة في القرن العشرين.

لكــن مايمكن تبينه من تأثيــر لهذه النزعة لايرتبط بنوعية الموقف الحزين الذي يعبر عن شــاعرنا، فشــاعرنا لايصدر في حزنه عن موقــف خاص من الحضــارة المادية، لأنّ أزمة الروح لم تصل بعد في حياتنا إلى الحدة التي تجعلها منطلقاً لأحزان الشاعر. فــإذا كان هناك تأثير فيمكن التماســه في ظاهرة أخرى في شــعرنا ،تتمثل في اتخاذ معظم الشــعراء من « المدينة « موضــوعاً شعرياً.

وقــد يبــدو غريبــاً أن تكــون المعرفة مصــدراً للحزن، لكن شــيئاً من التأمل في موقف شاعرنا المعاصر يجعلنا ندرك كيف أنّ بعداً من أبعاده يرتبط بقضــية المعرفة ارتباطاً وثيقاً أي الإلمام بكل شيء فعصرنا عصر الثقافة العريضة المتشعبة، والشاعر المعاصر نموذج للإنســان المثقف، وتمتد هــذه الثقافة إلــى التراث القديــم والنتاج الحديــث، العربي وغير العربي، في شــتى فــروع المعرفة، ولاشــك في أنّ تحصــيل المعرفة متعة في حد ذاته، ولكن قد يصــل الإنســان إلى مرحلــة لابــدّ أن يلقي على نفســه فيها هذا الســؤال: «ثمّ ماذا؟». ذلك أنّ كل مبذول ســرعان مــا يبتذل بالتكرار، ويبقى الأمــل دائماً معلقاً بالشــيء الباهر الجديد، الشيء البكر، وإلى أن يحدث هذا لابد أن يمشي الضجر بالنفوس ويخلّف لها التعاسة. وبهذا ارتفع صوت الشاعر صلاح عبد الصبور حين قال في قصيدته «أحلام الفارس القديم»:

يامن يدلّ خطوتي على طريق الدمعة البريئة
يامن يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئة
لك السلام.....لك السلام(٧)

ومن ديوان نازك الملائكة اخترنا قصيدة بعنوان «مرثية الإنسان»، وهي لاتختلف عن مأساة الفصول الأربعة فهي تخاطب الإنسان الشــقي، الحزين الباكي المتألم والصــارخ بالوتيرة والمعنى نفسهما:

أيُ غبنٍ أن يذبلَ الكائن الحيُ
ويــذوي شبابهُ الفينــــــانُ
ثـمّ يمضي بـه محبّوه جثمـا
نـاً جفتـه الآمــال والألحـــــان
ذلـك المـيت الـذي حملـــوه
جثّـةً لاتحسّ نحو القبـــور
كـان قلبـاً بالأمس تـملأه الرغـ
ـبة والشـوق بـين عطر الزهـور
كـان قلبـاً لـه طمـوحٌ فمـــاذا
تـرك المـوت من طمـوح الحيـاة
يـالحزنِ المسكين لم تبْقَ أحلا
مٌ سوى ظلمة البِلى والممات(٨)

لايمكننا أن نســلّم بــأن ظاهرة الحزن في شــعرنا المعاصر أثرٌ من آثار اليأس من الحضارة المادية والنقمة عليها، وإنما هي تعلو علــى المادي والروحي معاً، وتصــدر عن النظرة الرحبة إلى الأشــياء في شــتى

جوانبها، وعن استهلاك موضوع الرؤية خلال التكرار، وإنَّ بعض محاور النغمة الحزينة في الشعر المعاصر قد تكون أصولها وافدة، كالإحساس بالغربة والضياع والتمزق، واستجابة شاعرنا المعاصر لهذه المحاور أمر طبيعي تدفعه إليه طبيعة الموقف العام، طبيعة تجربة الحزن.

فأغنيات نازك الملائكة للحزن ربما لاتمثّل أبعاد موقفها الحزين وهو نوع من مواجهة الذات للوجود والتمرد عليه، لأن المفارقة في نظامه تبدو للشاعرة أشد ما تكون حدّة، وهي تنعكس بدورها على نفسها فتسبب للذات عذاباً مضنياً.

هذه هي أبعاد ظاهرة الحزن في شعرنا المعاصر، ومحاورها الرئيسية، وكلها تدور إذا شئنا التلخيص حول موقف الذات الواعية النامية من الكون ومن المجتمع ومن نفسها، والحق أنّ نزعة الحزن في شعرنا العربي المعاصر قد أضافت إلى التجربة الشعرية عامة آفاقاً جديدة زادتها ثراءً وخصباً. ومهما يكن تقديرها في الميزان الأخلاقي أو العرفي أو غيرهما فإنها قد ولّدت طاقات تعبيرية لها أصالتها وقيمتها.

يبقى أن نقول: إنّ لنازك الملائكة حضورها الشعري والنقدي المؤسس لمفهوم جديد في تطور الشعر العربي، وهي عميقة الغور متعددة الأساليب وتبقى حاضرة في النص الشعري والأدب العربي في مختلف مطالعه، يقرّ بها الجميع بدور مؤسس تؤديه بكل تجرّد، وانسحاب من اللجة الصاخبة لحياة الأدب اليومية مثلها مثل النجمة التي تبتعد لتضيء.

الهوامش

١. مقدمة ديوان نازك الملائكة «مأساة الحياة وأغنية للإنسان »
٢. مقدمة الديوان
٣. الديوان
٤. الديوان
٥. الديوان
٦. الديوان
٧. شاعر من مصر
٨. الديوان

المراجع

١. الشعر العربي المعاصر. د: عز الدين اسماعيل. بيروت ١٩٨١م.
٢. كتاب في جريدة « تشرين» آذار ٢٠٠١م.
٣. نازك الملائكة . ديوان مأساة الحياة وأغنية للإنسان ط٣ ١٩٨١م بيروت.

مدار وذاكرتان عزازيل وابن سينا

د. محمد فاتح زغل ❁

ما معنى هذا الظهور العقدي في الجانب الروائي العربي؟

هل هو تمظهر جديد للرواية العربية قاربته الفلسفة ولم تقاربه الرواية وكانت تحاذره؟

أم أنه سعي متعمّد وراء الغرائبية أو البحث عن معمار جديد للرواية؟

❁ أديب وناقد سوري.

أم أنــه انعكاســ للماضــي والحاضــر الذي شــهد ولا يزال يشهد صراعات فكرية وعقدية؟

وهــل يحــاول الروائــي فــي الروايات العقدية وســرد الأحداث التاريخية الدينية إبــراز موقفه مــن الأديــان أو الطوائف أو الملل والمذاهب بإبراز تناقضاتها من خلال الأحداث والوقائع؟

أســئلة كثيرة راودتنــي وقد انتهيت من قــراءة روايتين اخترتهمــا للكتابة في باب «مــدار وذاكرتــان» والروايــة الأولى رواية «عزازيل» ليوســف زيدان التي صدرت عام ٢٠٠٩، وحــازت على جائزة البوكر العربية، وحققت شــهرة إعلامية واسعة، ونالت من الدراســات النقديــة أكثر مــن حقها نظراً لشهرة الكاتب وموقعه في الساحة الثقافية المصرية.

والروايــة الثانيــة لجيلبــرت ســينويه «الطريــق إلــى أصــفهان» أو كمــا عربت بعنوان: «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان» وهي مؤلفة عام ١٩٨٩م وصــدرت عن دار الجمل عام ١٩٩٩م، وآخر إصــدار لها كان بترجمــة: آدم فتحي، ومن منشــورات دار الجمل، ٢٠٠٦م.

وتشــترك الروايتان وتختلفان في نقاط عدة ســأحاول في هــذه الدراســة إجراء مقاربــة نقديــة أولية بينهمــا وأولى نقاط الالتقاء هــي الفكرة المبتكرة للروايتين في البحث عبر اللاهوت وعبر التاريخ العقدي ســواء من خلال الشخصــيات أو من خلال المعتقــدات كما فعلت رواية «عزازيل» حين استعارت اسمها من أحد أسماء الشيطان في الأديان، وتناولت الصــراع الفكري العقدي في الديانة المســيحية فــي القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ومزجت بين التاريخ الحقيقي والتاريخ التخييلي وهذا بحد ذاته موضــوع مثير إلى حــد كبير كما هو جديد في الرواية العربية، وقد حكت الرواية قصة رحلة راهب اســمه «هيبا» رحــل هرباً من قريته، لأن أمه المسيحية وشت بأبيه الوثني وتسببت بمقتله، وقد كان يقضي وقته بحثاً في اللاهوت وأســرار العلوم الطبية وزادت في طغيانها عندمــا تزوجت من قاتل أبيه، ولــم يعد يطيــق «هيبا» البقاء فــي القرية فقرر الرحيل.

وقد اختــار المؤلف شــكل المخطوط المترجــم للرواية، إيهاماً بــأنّ المترجم قد وجد مخطوطاً وترجمه من اللغة السريانية إلى اللغة العربية وقســم الرواية في واحد وثلاثين رقّاً هي فصول الرواية وقد أخذ كل رقّ عنواناً مستقلاً.

أمَّــا رواية «ابــن ســينا أو الطريق إلى أصــفهان» فهي مبنية على فكرة الاضطهاد الديني من خلال سيرة ابن سينا وتتناول حياة بطــل الرواية الطبيب والعالم والفيلســوف نابغــة ذلك العصــر ابن ســينا. وذلك على

لسان تلميذه «أبو عبيد الجوزجاني» الذي لازمه كظله، وقدم سيرة الشيخ الرئيس أبي علي الحسن بن سينا التي تشير إلى كونه إسماعيلي المذهب، وكيف أصبح طبيباً ومعلماً وهو لم يبلغ الثامنة عشرة إلى جانب سيرة رحلاته وهو يتنقل من ملك إلى أمير متجاوزاً العديد من المصاعب التي تعرض لها وفيها من ظلم الملوك واستبدادهم ما فيها، وذلك بما تتضمنه من تفاصيل ومغامرات.

وقد اتكأ المؤلف في معمارية الرواية على نظام المقامات في سرد حكايته، فقسم الرواية إلى ٣١ فصلاً، وتحدث فيها عن سيرة حياة ابن سينا وأهم الأحداث التي مرت في حياته وأهمها ما تفشى من إشاعات في ردهات «بخارى» عن أصل ابن سينا وفصله، وعن والده الذي عزم في زمن سابق أن يلتحق بملة الإسماعيليين وعن جذور أمه التي أشيع أنها يهودية، وسوف نرى أن هذه الدسيسة تلاحقه على صفحات الرواية.

ونقطة التلاقي الثانية في الروايتين اتكاؤهما على أدب الرحلة ففي «عزازيل» تقوم الرواية على تدوين رحلة كاملة، تبدأ في مصر، وتنتهي بحلب، ومن أخميم يقرر الراهب هيبا أن يتركها، ويذهب إلى الإسكندرية ليدرس الطب، وفي رحلته تلك يمر بأسيوط، ثم يصل إلى الإسكندرية، ثم يذهب إلى الكنيسة، ويقيم هناك ثلاث سنوات، ثمّ يحصل أن تقتل هيباثا، العالمة الوثنية، أمام عينيه، فيقرر الهرب من الإسكندرية، إلى أورشليم، وتواجهه بعض الصعوبات في صحراء سيناء وغيرها، لكنّه يصل في النهاية، وهناك يعرف نسطور القادم في زيارة حج، ويدلّه نسطور على مكان يمكن أن يعيش فيه آمناً، وهو دير يقع شمالي حلب، فيسافر إلى حلب ومنها إلى الدير، وهناك يعرف «مرتا»، ويحبها، ويرتكب معها الخطيئة، وفي الأثناء تحدث المؤامرة على نسطور وآرائه في العذراء، وينتصر المتآمرون عليه، ويحرم، ويطرد، وينسد الأفق أمام هيبا، فيقرر الرحيل.

أمَّا في رواية «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان» فتقوم أيضاً على فكرة الرحلة ولكنها رحلة في حياة أحد أكبر العلماء المسلمين جمعت في تمازج عجيب بين الأضداد.. فيها العذاب وفيها النعيم.. فيها الفقر المدقع والثراء الفاحش.. وفيها أيضاً إبراز لقوة العقل والفلسفة ومحطات للتدبر والتفكر في آيات الله وجمال الكون.. وفيها العلم والتجارب الطبية هي رحلة المعتقد التي شغلت فكر ابن سينا وتسببت باضطراب حياته بين الشقاء والنعيم.

وتبدأ الرحلة من ٢٥ عاماً وهي الأعوام التي رافقه فيها تلميذه الجوزجاني الذي كان يتحدث تارة باسمه بحضوره الشخصي

وتارة يتحدث باسم المؤلف نفسه واصفاً الأحداث كما رآها في الحالة الأولى وكما تقمصها في حالة المؤلف.

رحل ابن سينا إلى جرجان، وأقام فيها مدة، وألَّف كتابه «القانون في الطب»، ولكنه ما لبث أن رحل إلى «همذان» فحقق شهرة كبيرة، وصار وزيراً للأمير «شمس الدين البويهي»، إلا أنه لم يطل به المقام بها؛ إذ رحل إلى «أصفهان» وحظي برعاية أميرها «علاء الدولة».

أمَّا النقطة الثالثة في نقاط الالتقاء بين الروايتين فهي اللغة الماتعة والأسلوب المشوق اللذان كتبت بهما هاتان الروايتان حيث سلاسة اللغة وبساطة التعبيرات وجمال الأسلوب بشكل أخاذ يدفع عن القارئ الملل ويمتعه في القراءة.

ففي رواية عزازيل تبرز مقدرة يوسف زيدان في اللغة العذبة التي تنفذ إلى خبايا الروح مزاوجاً بين لغة الشعر المجنحة وبين لغة الحياة كما جاء على لسان هيبا في مناجاة إلهية: «إني معترف بكل ما اقترف قلبي من اشتياق»، كما أن زيدان نجح في تنويع سرده باهتمامه بالتفاصيل مستفيداً من إنجازات السرد الحديث، ومن حسّه الحكائي الذي يسوّغ كلّ شيء، ويربطه بالحكاية العامة. ومن الرواية نستل هذا السرد الجميل: «السحاب.. كنت كثيراً وما زلت أحدق في الأفق ساعات العصر والغروب فأشعر أن هيئة السحاب في السماء هي كتابات إلهية ورسائل ربانية مكتوبة بلغة أخرى غير منطوقة لا يقرؤها إلا من يعرف أصولها المؤلفة من الأشكال لا الحروف».

كما اهتم زيدان بتطوير لغته الروائية، وهو الشاعر ومن أقدر من الشعراء والكتاب على تطويع اللغة وحقنها بدماء جديدة تجدد شبابها وتزودها بمفردات وتراكيب جديدة، وهذا ما برز في روايته عزازيل ودلل على امتلاكه لناصية اللغة. «ورحت أتوهّم بعدما أغمضت عيني أنني صرت والشجرة كياناً واحداً، أحسست بروحي تنسحب من ضلوعي، فتتخلَّل جذعَ الشجرة، ثمَّ تغوص في جذورها العميقة، وتتوغّل في قلب فروعها العالية. كان كياني يتمايل مع أوراقها، ويتساقط بعضي مع سقوط الأوراق من أغصانها».

كما استطاعت اللغة أن تتناغم مع الصراع الداخلي في الرواية وبرز ذلك في الحوار بين عزازيل وهيبا: «لم أشأ أن أسمع من عزازيل المزيد لكنه ظلّ يهمس في أذني، أثناء نومي، رأي عجيب، كان يقول أشياء كثيرة، منها أن اليهود أهانوا فكرة الألوهية التي اجتهدت الإنسانية طويلاً كي تصوغها. حضارات الإنسان القديمة علت بالإله، واليهود جعلوه في توراتهم منهمكاً مع البشر، فكان لا بدّ من إعادته إلى السماء».

واقرأ معي كيف يختلط الذاتي بالمعرفي الذي تجلى في حبه للنيل وقوله: «عرفتُ ساعتها أنني لا أحبُّ البحر.. النيل أحلى منه، وأرحم. النيل يجلب إلى ضفتيه الحياة، والبحر يزيح عن شواطئه كلّ ما اخضرّ، فلا يجاوره إلا الصخور».

وفي رواية ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان يتشابك أسلوب المترجم مع أسلوب الكاتب فالكاتب جيلبرت سينويه روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧م ودرس بإحدى مدارس اليسوعيين بمصر ثم انتقل إلى معهد الموسيقى بباريس، ولم يعرف كروائي إلا من بلوغه سن الأربعين حيث نشر أولى رواياته ثم صدرت له رواية ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان في عام ١٩٨٩م وقد تركت دراسته في مصر أثرها على تذوقه اللغة العربية والتوغل في أعماقها، ونجح في وصف الحالات النفسية والفلسفية: «كانت رياح الفزع والهلع قد هبت على الري وأطبقت السماء على الأرض سوداء مثل براقع الحِداد مغشاة بسحب ثقيلة تتدافع ببطء متحفزة للانفجار».

كما حلّق بأسلوبه عندما تناول التفاصيل الدقيقة: «همذان مدينة الأسوار السبعة والألوان السبعة لم تعد الآن غير نقطة غامضة في خط الأفق البعيد فيما كان السهل يمتد إلى الأسفل تائهاً في شفق الفجر.. ترنّح أبو علي على حصانه وقد أوثقت يداه إلى الخلف وحفت به كوكبة المماليك».

غير أنه في الحوار الفكري العميق تأتي الألفاظ مطواعة سلسة محملة بعبق الفلسفة:

«– ليتك تعلمين يا ياسمينة عدد الذين يدّعون لأنفسهم أنهم عقلاء في حين أنهم ليسوا سوى متعبين

– أنا واثقة أنك لو مت وفتحوا جسدك لوجدوا الخمر أكثر من الدم

– الظاهر أنك لن تري هذا اليوم يا عزيزتي فأنا خالد لا أموت

– سأبوح لك بسر كنت واثقاً وأنا طفل بأن البشريّ إذا ظل منتبهاً ومحترساً فإنه لا يمكن أن يموت وأنه لا يموت إلا عن غفلة أو عدم انتباه، لذلك فأنا أظن نفسي من الخالدين».

هذه هي أهم نقاط التلاقي بين الروايتين أما ما أخذته عن الروايتين فأهمه يبرز في أن زيدان كان مرتبكاً في ترتيب الأحداث فلم تكن متواترة ومنتظمة، فقد أحسست في بعض الفصول أنها مملة وجافة لا شيء فيها وكدت أتوقف عن القراءة لولا أنها فازت بالبوكر وحفزني هذا الفوز لإتمام القراءة، وربما كنت أفتقد الحبكة بحيث بدت الرواية وكأنها سيرة ذاتية لأفكار ينطق بها شخوص، وثمة أشياء أخرى مفتعلة تلك

المشاهد الجنسية التي هي في أحيان كثيرة لا طعم ولا رائحة.

أمَّا في رواية «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان» فيظهر جلياً حب سينويه للشرق، وتأثره بأجوائه ويحمل دفء اللغة وحرارة المواقف الشرقية، وهو يزعم ذلك يقول: «غالبية كتبي تدور أحداثها في مصر.. كان جدّي يحكي لي قصصاً وأنا استمدّ أسلوبي من ذلك القص».

ويقول: «أنا لديّ هويّة مزدوجة في جانبها الشرقي والغربي، وأقبل هذين الجانبين من حياتي، ولعل الجانب العاطفي مني هو شرقي والجانب الفكري فرنسي الأصل. وهذا رائع لأنه يسمح لي أن أتخذ مسافة من الشرق ومسافة من الغرب كلما تطلعت إلى كل منهما».

فهل حقيقة حافظ جيلبرت على هذه المسافة من الشرق والغرب؟

لكني أحسب أنه استدرج إلى الوقوع بما اعتقده بعض المستشرقين عن الشرق مع أنه عاش في الشرق، ولم يهتم كثيراً في تمحيص وتدقيق الآراء التي عرضها عن ابن سينا مثل علاقته بالنساء وبشربه للخمر، وأنه كان إسماعيلي المذهب تأثراً بوالده في الاعتقاد، لماذا لم يفعل جيلبرت ذلك؟؟

أمَّا ابن سينا فقد ظهرت المرأة في مراحل فكان مغامراً وعاشقاً على زعم جيلبرت وكانت المرأة رفيقة وعاشقة في آن، وأولى نساء حياته كانت «وردة» ابنة رجل أشرف على معالجته وكان يتبادل معها الحب بشغف ولكنه خلفها وراءه حين غادر بخارى، ليجد نفسه أمام امرأة أخرى تدعى «سنجة»، وهي امرأة مثيرة بعث بها أحد الأمراء الذين نجح الطبيب في معالجتهم.

من يقرأ سيرة ابن سينا لا يستغرب أبداً تلك الخرافات التي جعلت من ابن سينا أسطورة خيالية ونسب إليه بأنه استطاع أن يأخذ العلوم المتنوعة التي تميز بها ابن سينا وهي المنسوبة إلى فيثاغورث من كهف لا تفتح أبوابه إلا مرة واحدة كل ثلاثة سنين فهل نصدق ذلك؟!

قرأت سيرة ابن سينا سابقاً لكن شخصيته في الرواية فاجأتني كثيراً وخاصة في تعامله مع الملوك والأمراء وفي عشقه وجنونه طائعاً متمرغاً في وحلين وحل الطاعة ووحل الخطيئة أشعر أن جيلبرت تمادى كثيراً على الرجل مندون تدقيق واكتفى بالعرض دون ذكر الكثير من الأعلام الذين دافعوا عنه وردوا هذه التهم.

كما اتهم في سياق الرواية بأنه يهودي فقد نقل إليه صديقه ابن سهل المسيحي الأحاديث المتناقلة عنه بالخفاء فيغضب

ابن سينا ويصرخ في وجه ابن سهل «يا ابن الكلب» يرددها مرات عدة ومن ثم يلقي بصديقه ومعلمه أرضاً.

فأيّ عالم هذا الذي يقدمه لنا جيلبرت سينويه على هذه الشاكلة؟هل كانت تآليف ابن سينا في الطب والأدب والفلسفة تنحو المنحى الشيعي أو اليهودي كما اتهم؟ فإسلامه يكاد يظهر في كل سطر خطه الشيخ وكم هم العلماء والأطباء اليهود الذين عاشوا حياة طبيعية بين الناس وفي قصور المسلمين والخلفاء والأمراء من دون أن يضطروا إلى إخفاء دينهم الأصلي كابن ميمون وابن إسحق الموصللي وإفرائيم ابن الزفان وموسى بن العازر الإسرائيلي وغيرهم الكثير.

فهل تعمد جيلبرت سينويه تشويه الصورة الإسلامية التاريخية التي كان التسامح الديني أهم سماتها؟

الحقيقة أن قراءة هاتين الروايتين مرهق تماماً لما فيهما من متاهة ذهنية ومعرفية مقصودة كما أن شكل السرد وطريقة البناء من العنوان إلى السطر الأخير مروراً بالراوي وتقسيم الفصول وطرح الجوانب العقدية والأفكار المجردة زاد من حيرتنا عبر سراديب المتاهة ولكن يبقى دوماً السؤال: هل الرواية هي فن الإجابة أم أنها فن السؤال؟.

رسائل الصابي والشريف الرّضي

عوض الأحمد ❁

فن الرسالة من أقدم فنون النثر الكتابي نشأة إن لم تكن أقدمها.

والرسائل الأولى التي نلقاها في الأدب العربي إنما تقترن بعصر النبوة والراشدين، وبقيت الرسائل قليلة وقصيرة، حتى أواخر العصر الأموي. ومن أسباب ذلك أن الرسائل تحتاج إلى علم بالكتابة وتفتقر إلى الورق، ولم تكن الكتابة منتشرة بين العرب، وإنما كانوا يكتبون في الرقاق (الجلد).

فلما كان عهد الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان حدث انقلابٌ عظيم في هذا الشأن، فحوّل الدواوين إلى اللغة العربية، وكان كتّاب الرسائل من أخص الرجال وأقربهم إلى الخلفاء والملوك، وأسبقهم إلى مناصب الوزارة، كما كان لهم ذوق أدبي جميل، ورأي في النقد، وكانوا عماد الدولة وألسنتها الناطقة المأمونين، ومن أشهر أنواع الرسائل: الرسائل الديوانية، والرسائل الأخوانية، فالأولى ما تصدر عن الدواوين أو ترد إليها خاصة بشؤون الدولة ومصالحها، تيسيراً للعمل، وتثبيتاً للنظام، ويغلب على هذا النوع الدقة والسهولة في

❁ باحث في التراث العربي.

التعبير، والتقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية، من ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وهو يومئذ والي مصر: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام الله عليك، أمَّا بعد فقد بلغني أنه قد فشت لك فاشية من خيل وإبل وبقر وغنم وعبيد، وعهدي بك أن لا مال لك، فأنى لك هذا؟ ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك، ولكني قلدتك رجاء غنائك فاكتب إلي: من أين لك هذا المال؟ وعجِّلْ».

أما الرسائل الإخوانية فهي ما تدور بين الأفراد في تعزية أو تهنئة أو توصية أو عتاب وشوق أو تحذير ووعيد، إلى نحو ذلك مما يصور العواطف والصلات الخاصة بين الأفراد ولذلك أدخل في فن الأدب من الرسائل الديوانية، وأقبل للتخيل والصور البيانية والصنعة البديعية، وتنافس الشعر في جل أغراضه، ومن ذلك ما كتبه عبد الحميد الكاتب إلى أهله، وهو منهزم من العباسيين، حيث قال: «أما بعد، فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ومن عضته بنابها دفعها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها..» وكذلك الرسائل المتبادلة بين الصابي والشريف الرضي هذه الرسائل تقوم بتصوير العواطف والانفعالات، وقابليته للتخيل والصور البيانية والصنعة البديعية، والتأنق في اختيار الألفاظ وتراكيب الجمل.

ويقول الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في تصدير هذه الرسائل: (هذا كتاب مفيد طريف تقدمه دائرة المطبوعات والنشر في حكومة الكويت إلى علماء العربية، أما فائدته فتبدو في أنه أثر من آثار النثر العربي في القرن الخامس الهجري، وأما طرافته فتبدو في أنَّ هذه الرسائل تبادلها أديبان كبيران من أدباء العربية فكانت لهما عنوان صداقة وآية وُدّ. وهما الصابي والشريف الرضي. ولقد عرف الناس للصابي رسائله، لكنهم لم يعرفوا، على الأغلب، للشريف إلا شعره. فلقد طغى شعره العذب المطبوع على سائر إنتاجه، وهذا الكتاب سييسر للناس عرفان جانب ذي شأن من أدب الرضيّ الواسع.

ويشير الدكتور محمد يوسف نجم محقق الكتاب إلى مضمون هذا الكتاب قائلاً:

(وهي على جمال خطها واتساق نسخها كثيرة التحريف والتصحيف. ولذا أبحث لنفسي في المواضيع التي لم تسعفني فيها المصادر، أن أصحح الأخطاء بالرأي، فأرجو ألا أكون قد ركبت في هذا متن الشطط.

وقد حوت هذه النسخة مجموعة من رسائل الكاتبين الفاضلين، جرى تبادلها

بالشعر والنثر بين سنة ٣٧٦هـ وسنة ٣٨٤هـ وقد زيد عليها ما قاله الشريف في رثاء صاحبه وصفيّه شعراً ونثراً، وكان آخر ما قاله فيه قصيدته التي أنشدها حين اجتاز بقبره سنة ٣٩٣هـ).

والشريف الرضي محمد بن الحسين، يُعدّ في فحول الشعراء الذين نبغوا بعد المتنبي وأبي فراس في العصر العباسي الثالث، له ديوان شعر كبير مطبوع بمجلدين، ومن قصائده ما بلغ الشهرة العظيمة كقصيدته التي رثى بها صديقه الأديب أبا إسحاق الصابي وقد تُوفِّي في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمئة وكانت سنوه إحدى وسبعين سنة ومطلعها:

أَعَلِمْت مَنْ حَمَلُوا على الأعواد
أرأيت كيف خَبَا ضِياءُ النَّادي
جَبَلٌ هوى لو خَرَّ في البحر اغتدى
من وقعة مُتتابع الإزبادِ
ما كُنْتُ أعْلَمُ قَبْلَ حَطِّك في الثَّرَى
أنّ الثرى يعلو على الأطوادِ
بُعْداً ليومك في الزَّمانِ فإنه
أقذى العُيون وَفَتَّ في الأعضادِ
فاذْهب كما ذهب الرَّبيعُ وإثرُهُ
باقٍ بكُلِّ خَمَائلٍ وَنِجَادِ

وتتضمن هذه القصيدة توجعاً وتحسراً ولكن هذه الدالية التي ذكرت مطلعها تفوق البقية بفخامتها وحرقتها، فقد كانت الصلة وثيقة والمودة محكمة برزت أحزانه وآلامه بأجلى معانيها، وكان من أعلام الأدب من أصدقاء الشاعر الحميمين ومن أكثر الناس حباً وتقرباً إليه، على ما كان يستهدف له الشريف الرضي في زعزعة مركزه الديني كنقيب للطالبيين حين رثى أبا إسحاق الصابي الخارج عن الإسلام، فإنه لم يندم على ذلك، لأنه لم يكن يجهل قيمة الصداقة التي كانت تربطه بالصابي ولأن قلبه كان زاخراً بمثل هذه العواطف الإنسانية العالية.

وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الصابي، صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بَختيار بن معز الدولة بن بُويه الديلمي، تقلد ديوان الرسائل سنة تسع وأربعين وثلاثمئة، كتب إلى الشريف الرضي يعتذر من تأخره عن زيارته بعلة عرضت له وذلك في ذي القعدة من سنة ست وسبعين وثلاثمئة،

أقعدتنا زمانةٌ وزمانٌ
جائرٌ عن قضاءِ حقِّ الشريفِ
فاقتصرنا فيما تُؤدي من الفَرْ
ضِ على الكُتبِ والرَّسولِ الحصيفِ
والفتى ذو الشَّباب يَبْسطُ في التقـ
ـصيرِ عذر الشيخ العليل الضعيفِ

فقال الشـــريفُ يجيبه وجعـــل الجواب قصيدة لأن الكلام امتدّ به فيها:

كَـــمْ ذَمـيـــلٍ إلـيـكُـمُ ووجـيـفِ
وصُـــدودٍ عَـنّـا لـكـمْ وَصُـــدوفِ
وغـــــرامٍ بـكـم لـو أنَّ غـرامـاً
جَـرّ نفعاً لـلـواجـدِ المشغوفِ
هَـزَّ عطفي إلـى الأغَـرِّ أبـي إسـ
ـحـاق وُدٌّ يَـلْـوِي إلـيـه صَليفي

وكتب إليه أيضـــاً يمدحـــه وكانت هذه القصـــيدة مقرونة برقعة يهنئـــه فيها بعيد الفطـــر من ســـنة أربع وثمانيـــن وثلاثمئة، ويعتذر من تأخره عن قضاء حقه بعلته.

أبَا كُلِّ شيءٍ قِيلَ في وصفه حَسَن
إلى ذَاكَ يَنْحوُ مَنْ كَنَاكَ أبا الحسن
وغـادرنـي حِلفُ المضاجعِ راهنـاً
على خلة في الحال والنفسِ والبدَن

فقال الشريف (رحمه اللّه) يجيبه وجعل الجواب على روّي هذه القصيدة دون وزنها وقد اعتذر عن ذلك في جوابه له عن الرقعة المقترنة بها:

دَعْ من دُمُوعِكَ بُعْدَ البينِ للدِّ مَنِ
غـداً لـدَارهـمِ والـيـومَ للظعُنِ
شـوقٌ ألَـمّ ومـا شـوقـي إلـى أحـدٍ
سوى الذي نام عن ليلى وأيقظني
مَـنْ مُبلغٌ لـي أبـا إسـحـاقَ مَألكةً
عن حِنْوِ قلبٍ سليم السِّر والعلن

وللشريف قصائد شهيرة في الإخوانيات قلما تتفق لشـــاعر آخر في صـــدق قولها، وجمال معناها، وبساطة فكرتها، وقربها من النفس واتصـــالها بالوجدان، وهي متنوعة الأغراض والمعاني والأنغام والصور.

إنَّ للأصدقاء والأنصـــار أثراً كبيراً في حياة الشريف لأنه كان رجلاً معقود الأواصر بالمجتمـــع والسياســـة، يحتاج إلى أنصـــار ودعـــاة، ويحتـــاج إلى قوة تؤيده وتســـاعده لتحقيـــق أمانيـــه ومطامعـــه، وكانت روحه تهفو إلى الخلّ الوفي الذي يشاطره أفراحه وأتراحه، ويشاركه أفكاره وآراءه. وأبو إسحاق الصابي، شيخ الكّتاب ورئيس ديوان الرسائل عنـــد الخليفة المطيع، هو خير من نشـــأت المودة بينه وبين الشـــريف من التوافق في المذاهب الأدبية، ولكن الغريب في الأمر أن الصـــابي يختلف عن شاعرنا اختلافاً كبيراً فـــي العمر والدين كان الشـــريف في مطلع العقـــد الثاني من عمره وكان الصـــابي في أواخر العقد الثامن، وكان الشـــريف مسلماً ومن أكابر المســـلمين بينما أبو إسحاق كان صابئاً، وكان الصابي يعظم الشريف ويزين له أن يطلب الخلافة الإسلامية لأن فراسته أوحت له بأن هذا الشاب سيكون من عظماء الرجال وقد خاطب الشريف بقوله:

أبَـا حَسَنٍ لي في الرِّجال فِراسَةٌ
تَـعَـوَّدْتُ منها أنْ تقول فَتَصدقا

وقد خَبَّرتني عَنْك أنَّكَ مَاجدٌ
سترقى من العلياءِ أبْعَد مَرْتقى
فوفَّيتك التعظيمَ قبل أوانه
وقلتُ أطال الله للسَّيِّد البقا
فإن عشت أو إن مِتُّ فاذكر بشارتي
وأوجِب بها حَقًّا عليك مُحَقَّقا

هذا التعظيم وحده كافٍ لأن يجعل الصابي أعزّ الناس عند الشريف لأن من طبع الشاب أن يحب من يثق بكفاءته الذاتية، ومن يزكيه ويؤيده، ويؤمن بتفوقه، وقد أجاب شاعرنا الشاب صديقه الشيخ على أبياته:

وإن تعطني الإعظام قولاً فإنني
أعطيك فعلاً منه أذكى وأعبقا
فإن قَعَدَت بي السِّنُّ عنها فإنه
سينهض بي مجدي إليها مُحَقِّقَا
فوالله لا كَذَّبتُ ظنكَ إنّه
لَعارٌ إذ ما عاد ظَنُّك مُخفِقا

أصبح الشريف حديث القريب والبعيد، وسار شعره في البلاد ولا غرو في ذلك، فإن شعر الشريف، في إحكام الصياغة، وارتباط المعاني، وجرس الموسيقى، كأنه شيء حي، فلقد ظهر عليه طابع العصر العباسي وما امتاز به، أمَّا أسلوبه فقد كان على نمط كبار الشعراء العباسيين، متين السبك، قوي الديباجة، مصوغاً من الألفاظ الرنانة، المألوفة التداول. فقد كان الشريف يوجه عنايته إلى صقل الألفاظ وقوله يصف نفسه بالسيطرة على الألفاظ:

ألا من كنتُ شاعره
فإن المجد شاعرُه
وإن اللفظ مطروح
على فكري جواهره

توسع الأدباء في استعمال لفظ الرسالة فجعلوه في معنى البحث فيقال: رسالة في الموسيقى، ورسالة في الشعر إلخ..

وقد استعملت في الرسائل أنواع النثر من سجع ومتوازن ومرسل ومن المكاتبات بالنثر رسالة الشريف الرضي لأبي إسحاق الصابي يعزيه في ابنه سنان (ربيع الآخر سنة ٣٨٠هـ) وجواب الصابي ونلمس في هذه الرسالة روح الوصية من خلال التمسك بالحكمة، وعدم الانجرار للعاطفة والتمسك بالصبر والشموخ على الخطو، ومقاومتها بالغلاب والقهر، كل ذلك يعد وصف الفقيد والتعزية والدعاء لصاحب الميت.

ونسخة كتبها الشريف الرضي إلى أبي إسحاق يعزيه عن ابنه سعيد سنان، وقد توفي وهو أسن أولاده. وأنفذها إليه بعد أن لقيه بنفسه معزياً وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وثلاثمئة.

(لَوَيْتُ عِناني في عشية أمسنا عن حضرة سيّدي الشيخ، أطال الله بقاءه، وأدام عزه وتأييده وسعادته وسلامته ونعمته، وأنا

المساهمُ له في تحمل النازلة، والآخذ معه بأوفر الأقسام من النائبة.

إلى كم، جعلني الله فداك، هذا الهمّ والجزع، وفيم هذا القلق والهلع، وأنت المرءُ يوصف حِلمُه، والجليد يُعرف حزمُه، والصبور على تحامل النكبات، والقوي على قراع الرزيات، فالتفاتاً إلى ورائك واعتباراً بقربائك.

هل أبقى الزمان على آبائك فيُبقى على أبنائك؟

والصبر إن لم نقدر على مقاومتها بالغلاب والقهر، لاسيما ومفقودك هذا فرط بعد أن حَلَب الدَّهرَ أشطره، وعرف خيره وشرّه، وقارب سنك العالية أو كاد، وعلم سُرور الآجلة فاختاره على غرور العاجلة، وتوغلت فيه الآمال إلى أقاصيها، وبلغت منه الأماني إلى أبَعد مراميها).

ومن نسخة الجواب من أبي إسحاق الصابي:

(وصلت الرُّقعةُ، أطال الله بقاء سيدي الشريف الجليل، وأدام عزَّه وتأييده ونعمته وكفايته، وحراسته ووقايته... والتعزية التي غمرني إحسانُها وبهرني استحسانُها، فصادفت مني قلباً عليلاً وخاطراً كليلاً ونفساً قد أثخنتها الرزّية، وولتها المصيبة، وأحالتها المحنَةَ عما كانت عليه في جلد وقوة وتماسك ومعرفة).

ومن الرسائل المتبادلة نسخة تذكرة عملها الشريف وأنفذها إلى أبي إسحاق، وقد رُسِمَ له من حضرة الطائع لله أن يكتب عهداً بإفراده بتقليد نقابة نقباء الطالبيين والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام، واستخلافه لوالده على النظر في المظالم والحجّ بالناس، وكانت الخِلَعُ السواد عليه من دور أمير المؤمنين الطائع لله بعقب ذلك وأُنشئ العهد على هذه التذكرة. وذلك في سنة ثمانين وثلاثمئة ومن هذه التذكرة:

(هذا ما عَهِد فلان إلى فلان: ويُذكر الخدمة القديمة والحرُمَة الوكيدة التي للوالد أدام الله عزَّه في هذه الدولة سالفاً وآنفاً وأولا وآخراً، ثم الإشارة إلى الخدمة التي اختُصِصتُ منفرداً واشتملْتُ على أطرافها مستبداً،.. ويُؤتى على شروط النقابة بأسرها ويقال: فَأَفردناك بمكان أبيك من النقابة على أهلك وذويك في كل البلاد شرقاً وغرباً وبعداً وقربا. ونُطنا بك النظر في مصالح المساجد بمدينة السلام لِتَسُدّ خللها وتَلُم شعثها وجعلنا إليك مع ذلك خِلافة والدك على المظالم والتسيير بالحجيج في أيام المواسم.. ولست أحتاج مع فضل سيدي الشيخ أدام الله عزه إلى أكثر من هذا التمثل).

ونفذت هذه التذكرة إلى أبي إسحاق

في درج رقعة من ابنه المحسن بن إبراهيم، فأجابه برقعة أذكر منها:

(فأما حاجةُ سيدي الشريف النقيب أبي الحسن – أدام الله تأييده – وقولك إن التذكرةَ بها عندك منذ أيام، فالذنب في تأخيرها لك والعتب عليك، متوجهٌ منه أيده الله ومني إليك، لأنك خالفت إيثاره وأمره في التأدية إليّ، وعرَّضتني لِتُهمته فيَّ أنَّ التأخير من جهتي، والآن فأمره المسموعُ المطاع. وقد تلقيته بالبِدار والإسراع، على أن عهدي بالعمل بعيد، وذهني بعد المضاء كليل، وخاطري بعد الصحة عليل، وقلبي بعد الفراغ مشغول. وما عليّ إلا الجهد وأنا أبلغ غايته ونهايته، وأعمل نسخة أُنفذها إليك – أنا أفديك – لتوصلها إليه أدام الله عزَّه...).

وهكذا نجد أن هذه الرسائل المتبادلة بين الشريف الرضي والصابي والتي كتبت شعراً ونثراً وتمتاز بأسلوبها البديع هي رسائل تهتم بتصوير العواطف والانفعالات، وغنية بالتخيل والصور البيانية، والتأنق في اختيار الألفاظ وتركيب الجمل.

المراجع

١- رسائل الصابي والشريف الرضي تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم الكويت ١٩٦١م.
٢- وفيات الأعيان وأنباء الزمان المجلد الأول لأبي العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان.
٣- الشريف الرضي طارق الكيلاني.
٤- التعريف في الأدب العربي رئيف خوري.
٥- تطور الأساليب النثرية أنيس المقدسي.

عِشْ أَنْتَ

د. محمّد رضوان الدايّة ❁

من الظَّواهرِ القديمة في حركة الشعر العربيّ، التي استمرّت في العصور الأدبية المُتتالية: ظاهرةُ معارضةِ بعضِ الشعراء لبعضهم الآخر. وهي ظاهرةٌ حيّويةٌ، تربطُ عصرًا بعصر، وشاعرًا بآخر، وتيارًا أدبيًا بتيّار، وتجدّدُ من صَنعةِ الشعر، وتُبرز شخصيةَ الشّاعر من جهة، وتستلهم من بعض مَنْ سَبق من جهة، وتلحظ بعين الرّضا والإعجاب من جهة أُخرى.

والمعارضة لغةً: من عارضَ فلان فلانًا أي باراهُ، وأتى بمثل ما أتى به، يقال: عارضه في الشعر، وعارضه في السير....[1]..

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

فالمعارضة من شاعر لآخر إذن تصدر عن إعجاب الشاعر التالي بشاعرٍ سابق، وتَستلهم قصيدةً، أو تستفيدُ من بعض عناصرها وتترك المجال للشاعر التالي ليضع نتاجه، الصادر عن الإعجاب أصلًا، بمحاذاة ما سَبق دون أن يجد غضاضةً في هذا، إنَّها قضيّة فنيّة أولًا وآخرًا.

والشاعر «الجديد» ينظمُ قصيدة، أو معارَضَةً، هي عادةً، على البحر الذي اتخذه الشاعر المثال، وعلى الرويّ وشُروطه، ويعالجُ الموضوعَ نفسه. ثم ينفردُ، بما له من قدرة شعريّة، ورؤية فنية بما يدلُّ على شخصيته، وينسجم مع أُسلوبه، وينمّ عن شاعريته.

وظاهرةُ المعارضة هذه تكونُ بين شعراء تيّار أدبيّ معيّن ومذهبٍ فنيّ في الشعر كالذي نجدهُ عند شعراء المذهب الأوسي (أو كما يقال أحيانًا: المدرسة الأوسيّة) التي رأسها أوس بن حجر[٢]، ثم تسلسلت في شعراء كبار مثل زهير وكعب (ابنه) والحطيئة... إلخ. ونجده عند جرير، وأبنائه وأحفاده ومن جاراهم في العصر الأموي، ومن ثَمّ عند أبي تمّام وصديقه، والمستفيد من مذهبه الفني البُحتري...

وقد لا ترتبط المعارضة باتباع تيّار أدبيّ معيّن، وتكون إعجابًا من شاعر بقصيدة شاعر آخر، فينظم على نهجها وأُسلوبها راضيًا باختياره، محققًا رغبةً فنيّة عنده، أو ملبّيًا طلبًا ممن اقترح عليه ذلك... إلخ.

ونرى في العصر الحديث كبيرَ شُعرائه أحمد شوقي لا يجد بأسًا في أن يعارضَ شعراء سبقوه، من مثل أبي الطيب المتنبي، وابن زيدون، والبوصيري...

وحين أنشد ابنُ زيدون مقطوعته الشّهيرة «وَدَّعَ الصَّبْرَ» جرى شوقي على نسقها، وأنشد «رُدَّت الرُّوح»؛ قال ابن زيدون[٣]:

وَدّع الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعكْ
ذائعٌ من سِرِّهِ ما استودَعَكْ
يقرع السنَّ على أنْ لم يكنْ
زادَ في تلك الخُطا إذْ شيّعَكْ
يا أخا البَدْر سناءً وسنًا
حفظ اللهُ زمانًا أطْلعَكْ
إنْ يَطُلْ بعدك ليلي فلكم
بتُّ أشكو قِصَرَ اللَّيل مَعكْ!

(وقد نسب المقرّي الأبيات إلى وَلّادة، على أنّ القطعة تنضحُ عن أسلوب ابن زيدون، وموقفه من ولادة).

وقال شوقي: مسترسلًا في تسعة أبيات، قال فيها[٤]:

رُدَّت الرّوحُ على المُضْنى معكْ
أحسنُ الأيام يومٌ أرْجَعَكْ

مَــرَّ مــن بُــعــدك مــا رَوّعــنــي
أتُـرى - يا حُلوُ - بُعدي رَوّعـكْ؟
كـم شـكـوتُ الـبـيـن بـالـلـيـل إلـى
مطلع الفجر عسى أنْ يُطلعَكْ
وبعثتُ الشوق في ريح الصَّبا
فشكا الحرقةَ ممّا استودعَكْ

....إلخ...

وذاعــت أبيــات شــوقي وغَنّاها محمد عبد الوهاب؛ وعارض شوقي قصائد أُخرى لابــن زيدون أعجبه نَمَطُها مثل قصــيدته: «يــا جارة الــوادي...» وقصــيدته «يا نائح الطلح...» إلخ.

❁ ❁ ❁

ومعارضــة قصــائد مُعْجِبة من أشعار الجاهليّيــن والإســلاميّين نهج فنّــيٌّ بدأه البارودي رائدُ الإحياء في العصر الحديث، وجرى على ذلك شعراء كثُر في مصر، وفي أقطار العَــرب الأُخرى، فــإنّ حركة الأدب عامّة، والشــعر خاصّــة، موصــولٌ بعضها ببعضها الآخر.

وفي هــؤلاء الشــعراء المُبدعين الذين مارســوا فــن المعارضــة بشــارة الخوري (الأخطل[٥] الصَّغير)؛ وحَظِي شعره بالتفاتٍ كثيرٍ من الملحنيــن والمغنين، فقد اختاروا قصائد كثيرة لحنّت وغنّيت، ومنهم: محمد عبد الوهاب وأســمهان، وعفيفة إســكندر وفيــروز، وناظم الغزالــي، وفريد الأطرش وغيرهــم. وما يزال لحن (عِشْــ أنت) حيًّا متداولًا بين المطربين والمغنّين، ومطلعها:

عــش أنــت إنــي مــتُّ بعدك
وأطِــلْ إلــى مــا شئت صدّك

وســيرجع الحديث إليها، وإلى قصائد ذات صلة.

(٢)

في رجال القرن السادس الهجري شاعر أديب فقيه، له نظر في علوم الأوائلُ، كان له ديوان شعر رآهُ ابن خلِّكان ذكره في معجمه: وفيات الأعيان، ونقل عنــه، وقال فيه: «له ديوان شعر أجادَ فيه» والشاعر هو أبو العباس أحمد بن أبي القاســم اللخمي الفُطْرُســي واشتهر بلقب النفيس.

والشــعر المنقول فــي تراجمه - على قلته - يدل على شــاعريّة حســنة، ومقدرة عالية على النظم. وشارك الفَطْرُسِيّ النفيس شعراء عصره في المَدْحِ بشِعره.

وكان في جملــة الممدوحيــن رجلٌ من كبار رجال الدَّولة هو أبو المظفر عتيق، تقي الدين عمر؛ وعُرِف باســم: «جَلْدَك»؛ أو هو لقبٌ غلبَ عليه؛ ولكنــه كان يخاطَبُ بذلك، ويَذكرُه الشــعراء بهذا الاسم. وتولى جَلْدَك أعمالًا إدارية وسياســيّة في مصــر والشَّام.

وكان، كما وَصَـفه ابن شاكر الكُتبي: «سَمْحًا جَوادًا، محبًّا للعلماء، مكرمًا لهم....»[٦] إلخ.

واختار ابنُ خلّكان من شـعر الفُطرسي النّفيس قطعةً حسـنةً من قصـيدة له في مـدح الأمير جَلْدَك، أطـال فيها الغَزل، ثُمّ التفتَ فَمدح الأمير بأسـلوب بلاغي لطيف كما سيأتي.

والأبياتُ المختارةُ من قصـيدة النّفيس في مدح جَلْدَكْ هي:

قـل للحبيبِ أطَـلْـتَ صَـدَّك
وجَـعَـلْـتَ قَـتْـلي فيـه وَكْـدَكْ
إن شـئت أنْ أسْـلُـو فُـرُدَّ
... عـليَّ قلبي فهو عِـنـدَكْ!
أخْـلَـفْـتَ حـتّـى فـي زيـا
.... رتنا - بطيفٍ منكَ - وَعْدَكْ
وأنـا عـلـيـك كـمـا عَـهِـدْ
... تَ، وإن نقضتَ عليَّ عَهْدَكْ
أحْـرَقْـتَ يـا ثـغـرَ الحبيـ
...ـبِ حَشايَ لمّا ذُقْتُ بَـرْدَكْ!
وشـهـدْتَ أنّـي ظـالِـمٌ
لـمّا طـلـبْـتُ إلـيـكَ شَـهْـدَكْ
أتَـظُـنُّ غُـصْـنَ الـبـانِ يُـعْـ
... جِبُني، وقد عايَنْتُ قَدَّكْ؟!
أم يـخـدعُ الـتـفّـاحُ ألـحـا
...ظِـي، وقـدْ شـاهَـدْتُ خَـدَّكْ؟
لا والّـذي جَـعَـل الـهَـوى
مـولايَ حـتّـى صـرتُ عَـبْـدَكْ
يـا قـلـبَ مـن لانَـتْ معا
... طِـفُـهُ عَـلـيـنـا مـا أشَـدَّكْ!
أتـظـنـنّـي جَـلْـد الـهَـوى؟
أو أنَّ لـي عَـزمـاتِ جَـلْـدَكْ؟!

وقد استفادَ الشّـاعر من غَرض بلاغي هو الاسـتطراد، وأصلُه أن يُرِيَ الشّاعر أنه في سياق موضوع، وما يلبث أن يستطردَ إلى ما يُريد من غرضٍ آخر[٧]. فبعد أنْ وصـف المحبوبـة بما وصـف من ملامح الحُسـن والجمـال، وأبـدى مـن وجـده وعواطفه، وأشواقه، ووصـل إلى تعنّت المحبوبة الذي يحتاج إلى صبر وجَلَدٍ لا يطيقه: التفت إلى المـدح، وركّزه في البيت الأخير مُسـتفيدًا من معظم ما قال سابقًا.

والقطعـةُ، على تقليديّـةٍ ظاهرةٍ فيها، حَسـنةُ النظم، استطاعَ الشـاعرُ أن يُضفي عليها من عند نفسه، ويُحْكِمَ اللّغة والعبارة، وهو اختارَ مجـزوءَ بحر الكامل، وأصـلُه: متفاعلن متفاعلن مرّتين في كل شطرٍ. لكنّه اختار من هذا المجزوء نوعًا يُزَادُ في ضَرْبِهِ (التفعيلة الأخيرة من البيت) سـببٌ خفيف أي حَركةٌ وسـكون (– o) وهو نوعٌ يُسَـمّى المرفّل، ومثله قصيدة أبي فراس:

إنْ زُرْتُ خـرشـنـةً أسـيـرا
فـلـكـم حـلـلـتُ بـهـا مُـغِـيـرا

وأضفى اختيار هذا الإيقاع على النصّ طاقة

موسيقية عالية، فاجتمع الجرس الموسيقي والإيقاع المختار المتحرّك، اللعُوب، والسياق الغزلي المعجب، والإرصادُ للمدح، في اجتماع ذكيٍّ، رائق بين الغزل والمدح.

(٣)

وقصيدة الأخطل الصَّغير، المُغنّاة هي على الوزن والرويّ الذي رأيناه في قصيدة النّفيس المتوفى سنة ٦٠٣ هـ. ويستوي - عندي- أن يكونَ الأخطل الصغير عارضَ القصيدة المذكورة، أو يكون ركب هذا الوزن (بحرًا وقافيةً) ابتداءً من عند نفسه، فهو أمرٌ يقعُ بين الشُّعراء؛ ولكنَّ الظاهر أن الشاعر المعاصر أعجبه ذلك الشكل: مجزوء الكامل المرفّل، مع اختيارٍ لِرَوِيّ الدّال المفتوحة، ووراءها كاف الوصل. فالقصيدة داليّة[٨].

وكانت قصيدةُ الأخطل المذكورة مدارَ إعجاب أصحابه، ومحبّي شعره، وغيرهم منذ أن نظم تلك القصيدة. ويُخبرنا الشاعر الأديب حليم دمّوس[٩] في كتابه «المثالث والمثاني» عن مسابقة أجرتها جريدة «الأحرار المصوّرة»؛ فقد فتحت المجال لمن يحب أن يشارك في المسابقة، وقوامها: معارضة قصيدة الأخطل الصغير.

وأثبَتَ حليم دموس قصيدتين من هذه المعارضات وهما القصيدتان الفائزتان بالدرجة الأُولى (أعني أن اللجنة وضعت قصيدتين اثنتين معًا في الدرجة الأُولى: لم تفضل واحدة على الأُخرى[١٠].

- وفي «القصيدة الأُولى» قال دمّوس ٩١/٢ (١٦): «وهي التي ربحت الجائزة الأولى في معارضة قصيدة الأخطل الصغير؛ وهي من نظم الشاعر جرجي نخلة سعد[١١]، والجائزة: قلم حبرٍ ذهبي من إدارة جريدة الأحرار المصوّرة؛ والقصيدة هي:

واللهِ ما أقْصَرْتُ وُدَّك
مهما أطَلْتَ عليَّ صَدَّكْ
ما كان قبلك من أحَبّ
... ولا أحبّ سواكَ بَعْدَكْ
ما بال ليلي لا يحو
...لُ فهل مَنَعْتَ الفجرَ خَدَّكْ؟!
أحْيَيْتُهُ ظمأً إليـ
...ـكَ إذا شربتُ ذكرتُ شَهْدَكْ
حتى إذا طلع الصّبا
....حُ عرفتُ في رَيّاهُ بَرْدَكْ
يا ظالمي في حُبِّهِ
ما ضَرّ لو شاوَرْتَ قدّكْ؟
أنا ليس لي ذنبٌ سوى
أنّي أبَحْتُ الصّدرَ مَهْدَكْ
رُحماك! إن تجلسْ على
عرش الهوى، لا تَنسَ عَبْدَكْ!

فـــي كـفّـــه بَـــنْـــدُ الـبـيـا
...نِ إذا أقـامَ الـحُسْنُ بَـنْـدَكْ
ويـــلاهُ مـنـكَ أضـعـت رُشْـــ
...ـدِي في هـواكَ وصُنْتُ عَهْدَكْ
أرهـــفـــتَ لـحـظـك وانـثـنَـيْـ
...ـتَ فهل علمتَ القلبَ غِمْدَكْ؟
لـــو أن طـرفـك مُـــــدْرِكٌ
جـرحـي الـخَـفِـيّ بكى وهَـدَّكْ
قـــد شـاقـنـي يـا روضُـــ أنّ
...يـد الـربيع كستك مَجْدَكْ
عـطـفًـا عـلـى الـعـبـد الـفـقـيـ
...ـرِ جَـثـا بـبـابِك واسـتَـمـدّكْ
مـــاذا عـلـيـه يـــؤمُّ وِرْ
...دَك خلسةً ويشمُّ وَرْدَكْ؟
وإذا رأيـــتَ غـضـاضـةً
دَعْـهُ يَـمُـتْ، وسلمتَ وَحْـدَكْ!

❁ ❁ ❁

وعَقّب حليم دمّوس بالقصيدة الثانية التي قاسمت القصيدة الأولى: المركز الأوّل في المسابقة، وهي لحليم دَمُّوس نفسه صاحب كتاب (المثالث والمثاني)، وكان أديبًا شاعرًا، منخرطًا في علاقات وروابط أدبيّة في دمشق مع مجموعة من الأدباء والشعراء وكانت الجائزة المقررة قلمَ حبرٍ ذهبيًا، وكان الأدباء والشعراء (وغيرهم) مولعين بالقلم المدّاد (الذي فيه خَزّان يُملأ بالحبر ويمدّ الكاتب زمنًا قبل أن ينفد حبره) وكان هذا من نحو مئة عام شيئًا جديدًا، حسنًا شكلًا، وعملًا. ونقرأ للشاعر حليم دموس ثلاثة أبيات في صدر الجزء الثاني من (المثالث والمثاني) بعث بها إلى صهره شاهين أفندي عبود، وقد أهدى إليه مدّادًا ذهبيًا (من بحر الكامل):

أهديتَ لي قلمًا لطيفًا مُذهبًا
أمْسى سميرَ مهارقي ودَواتي
(الـمَـهـارق جـمـع الـمُـهْـرَق)
هو عُدّتي عند ازدحام بلابلي
هو مُؤنسي في وحدتي وسُهادي
ويـمـدّنـي أبـدًا بـحـبرٍ جَـيّـدٍ

ولذاك قد سمّوه بالمَدّادِ[١٢]

ونظم دَمّوس قصيدته التي عارض بها قصيدة الأخطل الصَّغير، وفيها:

وَدّعـتـنـي وأطَـلْـتَ بُـعْـدَكْ
فـهَـجَـرْتُ طيبَ العيشِ بَعْدَكْ
آهًـــا لـعـهـدِك فـي الـهـوى
لـو تـرجـعُ الآهـــاتُ عـهـدَكْ!
عـــهـــدٌ ألـــذُّ مـــن الـمُـنـى
أيّـــامَ وَجْـــدِي هَـــزّ وَجْـــدَكْ
والـحـسـنُ دولـتُـك الـرفـيـ
...ـعـةُ والـقـلـوبُ رَفَـعْـن بَـنْـدَكْ

(جعل الشاعرُ للحسنِ دولةً، ومقامًا رفيعًا: وذلك كلّه لهذه المخاطَبة بالشّعر،

وجعل للقلوب بَنْدًا= عَلمًا كبيرًا يُرْفَعُ تقديرًا لها، ولجمالها).

يـا لَـيّـنَ الأعـطـافِ في
قَـهْـرِ الـمُـتَـيَّـمِ مـا أشَـدَّكْ
يـا نـاعِـس الأجـفـانِ في
يـوم الـرمـايـة مـا أسَـدَّكْ
أنـا لا أصـونـك فـي الـعـيـو
...نِ فقد رأيتُ العينَ ضِدَّكْ
فـي الـروحِ، فـي مـثـوى الـسَّـرا
...ئـرِ، في الضمير أصونُ ودّكْ
يـا وَيْـحَـهُـمْ..... لـم يَـعْـدِلُـوا
إذْ عـادلـوا بـالـغُـصْـنِ قَـدَّكْ!
أفـيـنـكـر الـعـشـاقُ أنْ
لـم يـخـلُـقِ الـرحـمـنُ نِـدّكْ؟!
أوْلاكَ سِـرَّ جَـمـالِـهِ
وبـروح رضـوانٍ أمَـدَّكْ

❁ ❁ ❁

مُـرْكـل جـارحـةٍ تُـطِـعْ
وأشِـرْ تَـرَ الأرواحَ جُـنْـدَكْ
أيـذيـع سـرّكَ مُـدَّعٍ
أوَ يَـثْـلِـمُ الـحُـسَّـادُ حَـدَّكْ؟!
حـاشـا لـمـثـلـك أن يـقـو
...لَ لهُ المُحِبُّ: «خَفَرْتَ عهدكْ»!

(خفَر العَهْدَ: نقضه. يليّن الشاعر قَلْبَ المخاطَبة، فمثلُها،... أي هي: لا تخفر العهد، ولا تُخلفه!)

تَـهْـوِي الـعـروشُ جـمـيـعُـهـا
ورفـيـعُ عـرشـك لـيس يَـنْـدَكْ
والأمـرُ أمـرُك فـي الـهـوى
فاحكم، وسُدْ - يا حُلْوُ - وحدَكْ!

❁ ❁ ❁

أنـا إن سـريـتُ أرى جَـلا
...لـك في الدجا أبدًا ومَجْدَكْ
فـالـبـدرُ مُـسـتَـرِقٌ سـنـا
...كَ، وأنجمُ الجوزاءِ عِقْدَكْ
فـغـدًا أراك مُـعـانـقـي
وأبُـلُّ بـالـعَـبـراتِ خَـدّكْ
الـرَّوْضُ يُـحْـيِـيـهِ الـغَـمـا
...مُ، وهكذا مَنْ ذاقَ شَهْدَكْ
قَـسَـمًـا بـحـبّـك وهـو أقـ
...ـدَسُ حلفةٍ عندي وعندكْ
مـا حـالُ شـعـبٍ بـائـسٍ
هـتـفـوا بـه: بُـلِّـغْـتَ قَـصْـدَكْ
وغـدوتَ حُـرًّا مـطـلـقًـا
وأتـمّـت الأيـامُ سَـعْـدَكْ
يـومًـا بـأهـنـأ مـن فـؤا
...دي حين يغدو الصَّدْرُ مَهْدَكْ!

وحَسَنٌ هذا الختام للقصيدة، فإنّ الشاعر استفاد من الاستدارة التشبيهية، حين ربطَ بين موضوع الغزل- وهو الأصل في هذه المعارضة - وبين معاناة الوطن (في سورية ولبنان خاصة وسائر بلاد الشام) من

الاحتلال... فسعادةُ الشاعر بلقيا الحبيب كسعادة هذا الشعب حين يقال له: لقد جلا العدوّ المحتلّ، وتمت سعادة الناس.

ومن إعجاب حليم دموس بنمط القصيدة وزنًا وقافية نظم قطعة من أربعة أبيات نقشت على شاهد ضريح أحد أقاربه[١٣].

(٤)

وقضية المعارضات الشعرية قضية موصولة الأطراف بين الأدب، والنقد، وتاريخ الأدب، ولها أيضًا جوانب موصولة بالحياة الاجتماعية والفنيّة؛ وإذا كان الشكل (العروض والقافية والموسيقى) هو اللافت الأساسي للشاعر اللاحق للنظر في القصيدة المثال (السابقة) فإن هناك ملامح أُخرى لا تغيب عن الدارس: مثل طبيعة الموضوع، والجانب الموسيقي الإيقاعي، والميل الجمعي الاجتماعي (كشعر المدائح النبوية) إلى غير ذلك من العوامل والمؤثرات.

وكان لتطلع الأندلسيين إلى الإبداع الفني والأدبي أثر في مجاراة بعض النماذج المشرقية مثل خمريات أبي نواس، ووصف أبي تمام للقلم (في قصيدةٍ مَدَح بها الوزير الكاتب الشاعر محمد بن عبد الملك الزيّات)، وطبيعيّات الصنوبري الحلبي، وقِطَعِ البُستي في الجناس، وديباجات البحتري، وأهاجي ابن الرومي.... والسلسلة طويلة متشعبة....

– ونذكر على سبيل المثال أن الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال صنع قصيدة نواسية ونحلها أبا نواس فلما نالت إعجاب الحاضرين (في مصر) صرّح لهم بأنها من نظمه.

– وحين امتحنت لجنة ديوان الشُّعراء في قرطبة ابن دَرَّاج القسطلي طلبوا إليه أن يعارض قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب (حين زاره في مصر) فنظم قصيدته.

دعي عَزماتِ المستضام تسيرُ

فتنجُدُ في عُرض الفَلا وتغورُ

–وعارض ابن زيدون قصيدةً للبحتري، فبقيت قصيدةُ أبي عبادة في الديوان، وسارت قصيدة ابن زيدون في المشرق والمغرب، وهي قوله:

أضحى التنائي بديلًا من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهي التي عارضها أحمد شوقي حين كان في الأندلس العريقة (فقد نفاه الإنكليز عن مصر فاختار برشلونة) وقال:

يا نائحَ الطَّلْحِ أشباهٌ عَوادينا

نأسى لواديك أم نأسى لوادينا؟!

– ونظم الحصري القيرواني نزيل الأندلس قصيدته:

يـا لـيـلُ الـصَّـبُّ مـتـى غَـدُهُ

أقـيـامُ الـسَّـاعـةِ مَـوْعِـدُهُ؟

فذاعت، وعارضها عشرات الشعراء، ووصل ذلك إلى شوقي فنظم غنائيّته:

مُـضـنـاك جـفـاهُ مَـرْقَـدُهُ

وبـكـاهُ ورَحَّـمَ عُـوَّدُهُ

.... إلخ.... ثم أقول:

إنَّ فن المعارضة فن قديم لم يلقَ من الدارسين (الأدباء والنقاد) دراسة فنيّة متأنيّة تُستخلص منها نتائج ذات أهمية في حركة الشعر العربي في أقطاره (شرقًا وغربًا) امتدادًا مع الزمان، من العصر الجاهلي إلى اليوم.

❁ ❁ ❁

ومن الشعراء الذين عورضت قصائد من أشعارهم وهم كُثُر: جرير والأخطل والفرزدق من الأمويّين، وأبو العتاهية وأبو نواس وصريع الغواني (مسلم بن الوليد) وأبو تمام والبحتري وابن الرّومي والمتنبّي وأبو الفتح البُستي والمعرّي من العباسيين، وابن زيدون وابن خفاجة ولسان الدّين بن الخطيب من الأندلسيّين ومحيي الدين بن العربي وأبو الحسن الششتري من الأندلسيين الذين انتقلوا فنزلوا المغرب والمشرق. وفي الشعراء الذين عورضت قصائد من أشعارهم البوصيري صاحب البردة، وابن الفارض الصوفي المشهور وابن الخِيَمي من شعراء عصر المماليك، والكيواني الدمشقي من العصر العثماني... ثم صار بعض شعراء العصر الحديث قدوة تُعَارَضُ بعضُ أشعارهم مثل أحمد شوقي في مصر وخير الدين الزركلي ونزار قباني في الشام.

وفي المعارضة إبداع، وكم من قصيدة أو موشحة كان التالي المعارِضُ أكثر حظًا في ذيوع نصّه وسابقًا المبدعَ الأوّل؛ مثل قصيدة ابن زيدون (أضحى التّنائي) وموشحة لسان الدين بن الخطيب:

جـادك الغيثُ إذا الغيثُ همى

يـا زمـان الـوصـل بـالأنـدلـس

لـم يـكـن وصـلـك إلا حُـلـمـا

في الكرى أو خلسة المختلسِ

وهي معارضة لموشحة صنعها، ورتب أقفالها وغصونها وخَرَّجَتها ابن سهل الإشبيلي، ومطلعها:

هل درى ظبْيُ الحِمى أنْ قد حمى

قـلـبَ صَـبٍّ حَـلّـهُ عـن مكنسِ

فـهـو فـي حَـرٍّ وخـفـق مثلما

لـعـبـتْ ريـحُ الـصَّـبـا بـالـقَـبَـسِ

وقد عارضها وشاحون كثر أيضًا.

والحديث موصول... وهو ذو شُجون!

(٥)

وأرجع إلى قصيدة (عشْ أنت) التي رَدَّدتْ نغمةَ قصيدة تراثية من حيث الوزن والقافية ونالت سبقًا، وشهرةً، فعارضتها الشعراء. وأقدّمُ لها بما كتبه خير الدين الزركلي في الأعلام (ج٢) عن الأخطل الصغير (١٨٨٥-١٩٦٨): «بشارة بن عبد الله الخوري البيروتي، الأخطل الصغير: أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث...». والزركلي، شاعر، أديب، ناقد، وأحكامه على الشعراء في كتابه تستحق دراسة متأنّية.

وقصيدة الأخطل الصغير هي:

عش أنت

عشْ أنتَ إنّي متُّ بعدك
وأطِلْ إلى ما شئت صَدَّكْ
ما كان ضَرَّك لو عَدَلْـ
...ـتَ، أما رأتْ عَيناك قَدَّك؟

يقول للمخاطَبة: أن تعدلَ في حُبّه، وأن تقتبسَ الاعتدالَ من قَدّها الممشوق! (وفي البيت تشبيه ضمني بديع لم يُسبق إليه).

وجَعَلْتَ من جفنيَّ مُتّـ
...ـكَأ، ومن عينيَّ مَهْدَكْ
ورَفَعتَ بي عَرْشَ الهوى
ورفعتَ فوق العرش بَنْدَكْ
وأعدْتَ للشعراء سيّـ
...ـدَهُمْ، وللعشاق.... عَبْدَكْ

يا مَنْ أساءَ بيَ الظُّنو
...نَ ثَلمتني وثَلَمْتَ خَدَّكْ
إن لم يكنْ أدبي، فَخُذ
...قُكَ كانَ أولى أنْ يَصُدَّكْ!
أغضاضةً يا رَوْضُ إنْ
أنا شاقني فشمَمْتُ وَرْدَكْ؟
وملامةً يا قَطْرُ إنْ
أنا رَاقَني فأمَمْتُ وِرْدَكْ؟
أنقى من الفجر الضَّحُو
...كِ فهل أعَرْتَ الفَجْرَ خَدَّكْ؟
وأرقُّ من طبع النَّسيـ
...ـمِ فهلْ خلعت عليه بُرْدَك؟
وألَذُّ من كأس النديـ
...ـمِ، فهل أبَحْتَ الكأسَ شَهْدَكْ؟

❁ ❁ ❁

وحياة عينك وهي عنـ
...ـدي مثلما الإيمانُ عِنْدَكْ
ما قلبُ أمّك إن تفارقـ
...ـها ولم تبلغ أشُدّكْ
فهوت عليكَ بِصَدْرِهَا
يومَ الفراقِ لِتَسْتَرِدّكْ
بأشدّ من خفقانِ قَلبـ
...ـبي يوم قيل خَفَرْتَ عَهْدَكْ!

ونلاحظ أن الأخطل الصّغير استخدم أسلوب الاستدارة التشبيهيّة.

- ومن جهة أُخرى فإن مطلع قصيدة

الأخطل الصَّغير الرائعة «عِشْ أنت إنّي متُ بعدك» فيه حيوية الشعر، ولمحة الغزل المعجب، وفيه طلاوة أسلوب الأخطل التي عُرِفَ بها في سائر شعره، ولكنّ الكلام فكرة وصورة يلتقي، ولو من بعيد، بمثل قول: البهاء زهير، من شعراء العصر المملوكي[١٤]:

تَعيش أنت وتبقى
أنا الذي متُّ عشقا
حاشاك يا نورَ عيني
تَلْقَى الذي أنا ألقى!
يا أنعم الناس قل لي
إلى متى فيك أشقى؟
يا ألف مولاي أهلا
يا ألفَ مولايَ رِفْقا!
لم يَبْقَ مِنّيَ إلّا
بقيّةٌ ليسَ تبقى!!

وبعيدًا عمّا يقال من التّناصّ، واختلاس النظر، وما شابَهَ من مصطلحٍ جديد أو قديم: إن الإبداع عند المبدع من شعرائنا يختلط ويمتزج مع التوليد.. ويجتمع العنصران ليكوّنا صورة الموهبة الشاعرية من جهة وحيوية النص الأدبي ونصاعته من جهة أُخرى..

وقد يكون في هذا-في المعارضات وغيرها-وثاقة الصّلة في حركة الأدب من قديمه إلى اليوم.... وإلّا فلماذا نأنَسُ ونُعْجَبُ ونتذوق، ونَرْضى بقول امرئ القيس:

أفاطم مهلا بعضَ هذا التدلل؟

وقد تُوفّي امرؤ القيس شتاء عام ٨٢ قبل الهجرة (٥٤٠م)؟....[١٥].

الهوامش

١- انظر مثلًا: المعجم الوسيط (ع ر ض).

٢- ينظر كتب تاريخ الأدب العربي مثل كتاب د.فروخ ١: ١٧٠-١٧١، وكتب تاريخ النقد الأدبي.

٣- ديوان ابن زيدون (تحقيق كامل كيلاني) ص: ١٢.

٤- ديوان أحمد شوقي (بعناية د.أحمد الحوفي) ٢: ١٣٣.

٥- الأخطل الصغير: ١٤٣ - ١٤٥.

٦- وفيات الأعيان- ابن خلكان (تحقيق د.إحسان عباس) ١: ١٦٤ - ١٦٨.

٧- فوات الوفيات- ابن شاكر الكتبي (ت:إحسان عباس) ١: ٣٠٠-٣٠٢.

٨- العمدة لابن رشيق القيرواني (ت:قرقزان) ١: ٦٢٨ - ٦٣٠.

٩- ينظر لقضية مُصطلحات علم القافية، في مثل هذه القصيدة كتاب فن التقطيع الشعري-مثلًا-للدكتور صفاء خلوصي: ٢٥٨-٢٦٠. إذا كانت الكاف ضميرًا مسبوقًا بحركة عُدّتْ وصلًا والتزم الشاعر معها حرفًا

آخر يكونُ هو الرّوِيّ، وإذا كانت الكاف مسبوقة بسكون كانت هي الرّوِيّ.

١٠- ترجم له الزركلي في «الأعلام» في موضع اسمه من الجزء الثاني، وقال فيه حليم دمّوس (١٨٨٨-١٩٥٧) متأدّب، له نظم كثير، في بعضه إجادة، ولد ونشأ في زحلة، وسافر إلى البرازيل وأقام مدّةً، ثم رجع، وشارك في التحرير الصحفي، واستوطن دمشق بعد الحرب العالمية الأولى إلى آخر حياته. وتوفي في أحد مستشفيات بيروت. له ديوان حليم، والمثالث والمثاني (من نظمه) وغير ذلك.

١١- القصيدتان، متتابعتان في (المثالث والمثاني) ٢: ٢٩١.

١٢- ذكره دموس في: (المثالث والمثاني) ٢: ٢٩٠، وقال فيه: الشاعر المشهور والصيرفي المشهور الأستاذ جرجي أفندي نخلة سعد، ونقل عنه رسالة مؤرخة في سنة ١٩٢٨م.

١٣- المثالث والمثاني ٢: الصفحة (د) من المقدّمة.

١٤- المثالث والمثاني ٢:

١٥- الصفحة ك من (المثالث والمثاني) الجزء الثاني.

أشهر أمثال العرب

د. كارين صادر ❁

المثل مأخوذ من المثال؛ وهو قول سائر يشبّه به حال الثاني بالأول، ويشتمل أحياناً على حكمة صائبة مستخلصة من تجارب من سبق. ولكن يبقى الأصل فيه التشبيه. قال زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً

وما مواعيدها إلا الأباطيل

وللمثل تعاريف عدة بعدد أوجه دراسته؛ فهو يدرس من الناحية اللغوية، والبيانية، والاجتماعية، والتاريخية، والدينية...، ولكل من هذه المعارف تعريفها الذي ينطبق مع اهتمامها.

وما يهمّنا منها في هذا السياق تعريف أهل البيان، وعلى رأسهم ابن السكيت الذي يعرف المثل بقوله: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك، شبّهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره.

وقال آخر: المثل جملة من القول تشتهر فتنقل عمَّا وردت فيه إلى كل ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها، والمثل أحد قسمي الاستعارة التمثيلية، ولذا تعرض له علماء البيان.

❁ كاتبة وباحثة في التراث العربي من لبنان الشقيق.

قال أبو يعقوب السكّاكي في مفتاح العلوم في مبحث التشبيه: «إنَّ التشبيه التمثيلي متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير سُمّي مثلاً».

وأضاف في مبحث الاستعارة: «ومن الأمثلة استعارة وصف إحدى صورتين منتزعتين من أمور لوصف الأخرى، مثل أن تجد إنساناً استفتي في مسألة فيهمّ تارة بإطلاق اللسان ليجيب ولا يهمّ أخرى، فتأخذ صورة تردده هذا فتشبهها بصورة تردد إنسان قام ليذهب في أمر فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً وتارة لا يريد فيؤخّر أخرى، ثم تدخل صورة المشبّه في صورة المشبّه به دوماً للمبالغة في التشبيه، فتكسوها وصف المشبّه به من غير تغيير فيه بوجه من الوجوه على سبيل الاستعارة»[1].

والمثل في عرف علماء اللغة: هو الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله[2]. وهو ما يضرب به من الأمثال، ومثل الشيء أيضاً صفته، وإن المثل الصفة غير معروف في كلام العرب إنما معناه التمثيل. وقالوا إن المثل مأخوذ من المثال والحذو. والصفة تحلية ونعت. ويقال: تمثّل فلان ضرب مثلاً.

والمراد بضرب الأمثال هو اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به، وهي تجري على ما جاءت عليه ولا تتغير وتشتمل على إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه، ولذا عني العلماء بها وشرحوها وبيّنوا ما تومئ إليه المقاصد والأغراض، وحثّوا على معرفتها والوقوف عليها، وعدّوا من لم يُعن بها أو بغيرها ناقصاً في الأدب غير تام الأدوات فيه. ومن بين أشهر الأمثال التي جرت على الألسن نورد ما يأتي:

١- سبق السيف العذَل[3]:

وتفيدنا قصة المثل أن ضبّة بن أدّ ابن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد كان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد، وان إبل ضبة نفرت وهما معها فخرجا يطلبانها فتفرّقا في طلبها، فوجدها سعد فجاء بها، وأما سعيد فذهب ولم يرجع، فجعل ضبة يقول بعد ذلك إذا رأى تحت الليل سواداً مقبلاً: أسعد أم سعيد، فذهب قوله مثلاً.

ثم أتى على ذلك ما شاء الله أن يأتي، لا يجيء سعيد ولا يعلم له خبر، ثم إن ضبّة بعد ذلك بينما هو يسير والحارث بن كعب في الأشهر الحرم وهما يتحدثان إذ مرّا على سرحة بمكان، فقال له الحارث: أترى هذا المكان؟ فإني لقيت فيه شاباً من هيئته كذا وكذا فوصف صفة البرد وسيفاً كان عليه.

فقال ضبة: فما صفة السيف؟ قال: ها

هــو ذا عليّ. قال: فأرينيه فأراه إياه، فعرفه ضــبّة ثم قال: إن الحديث لذو شــجون، ثم ضــربه حتى قتله. فذهب قوله هذا أيضــاً مثلاً، فلامــه الناس وقالوا: قتلت رجلاً في الأشــهر الحرم فقال ضــبة: ســبق السيف العذَل. فأرسلها مثلاً.

٢- ضرب أخماساً لأسداس[٤]:

والخمس هــو أن ترعى الإبل ثلاثة أيام وترد في الرابع، والسدس هو أن ترعى أربعة أيام وترد في الخامس، وهما بالكسر.

وفي شــرح المثل قال صــاحب مجمع الأمثال: الخمس والسدس من أظماء الإبل، والأصــل فيه أن الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عوّد إبله أن تشرب خمساً ثم سدساً حتى إذا أخذت في السير صبرت عن الماء. والمعنى أظهر أخماســاً لأجل أســداس أي رقّى إبله مــن الخمس على الســدس. يضــرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره.

وقال صــاحب الجمهرة: قولهم ضــرب أخماساً لأسداس يضرب مثلاً في المماكرة والخداع، وأصــله في أوراد الإبل، وهو أن يظهــر الرجــل أن ورده ســدس وإنما يريد الخمس، وأنشد ثعلب:

إذا أراد امــرؤ مكــراً جنــى عِللاً
وظــلَّ يضــربُ أخــماساً لأسداس

قــال: وهؤلاء قوم كانوا في إبل لأبيهم عُزَّاباً. فكانوا يقولون للربع الخمس والخمس الســدس، فقــال أبوهم: إنمــا يقولون هذا لترجعوا إلى أهليكم، فصــارت مثلاً في كل مكر.

٣- وافق شَنٌّ طبَقَه[٥]:

يقال إنه كان ثمة رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شــنّ فقال والله لأطوفنّ حتى أجد امــرأة مثلي أتزوجها. فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطريق فسأله شــنّ: أين تريد؟ فقال: موضع كذا، يريــد القرية التي يقصــدها شــنّ فرافقه حتى إذا أخذا في مســيرهما قال له شــنّ: أتحملنــي أم أحملك؟ فقال لــه الرجل: يا جاهــل أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟

فسكت عنه شنّ وسارا حتى إذا قربا من القرية إذّ بزرع قد استحصد، فقال له شنّ: أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فقال له الرجل: مــا رأيت يا جاهــل ترى نبتاً مستحصــداً فتقول أكل أم لا؟

فسكت عنه شــنّ حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال له شنّ: أترى صاحب هذا النعش حيّــاً أم ميتاً؟ فقال له الرجل: ما رأيت أجهل منك ترى جنازة تســأل عنها أميت صاحبها أم حيّ.

فسكت عنه شنّ فأراد مفارقته، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله فمضى معه، وكان للرجل بنت يقال لها طبقة، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياه وشكا إليها جهله وحدّثها بحديثه فقالت: يا أبت ما هذا بجاهل، أما قوله: أتحملني أم أحملك، فأراد أتحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع الطريق، أما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا، فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا. وأما قوله في الجنازة فأراد: هل ترك عقباً يحيى بهم ذكره أم لا.

فخرج الرجل فقعد مع شنّ فحادثه ساعة ثم قال: أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه قال: نعم ففسره، فقال له شنّ: ما هذا من كلامك فأخبرني من صاحبه؟ قال: ابنة لي، فخطبها إليه فزوجه إياها وحملها إلى أهله. فلما رؤوها قالوا: وافق شنّ طبقه، فذهبت مثلاً يضرب للمتوافقين.

وقال الأصمعي: هم قوم كان لهم وعاء من أدم فتشننّ (اهترأ) فجعلوا له طبقاً فقيل وافق شنّ طبقه. هكذا رواه أبو عبيدة في كتابه وفسّره.

٤- عند جُهينة الخبر اليقين:

اختلف العلماء في هذا المثل، فكان الأصمعي يقول: جفينة بالنون والفاء وقال: هو خمّار. وكذلك قال ابن الأعرابي.

وكان أبو عبيدة يقول حفينة بحاء غير معجمة، وابن الكلبي يقول: جهينة بالجيم والهاء، وهو الصحيح. ذلك أن أصل هذا المثل أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خرج في سفر ومعه رجل من جهينة يقال له الأخنس بن شريق، فنزلا في بعض منازلهما، فقتل الجهينيُ الكلابيَ وأخذ ماله.

وكانت لحصين أخت تسمى صخرة، فكانت تبكيه في المواسم وتسأل الناس عنه فلا تجد من يخبرها بخبره.

فقال الأخنس في ذلك شعراً بات شطر منه مضرب مثل:

وكَم مِن فَارسٍ لا تزدَريهِ
إذا شخصَتْ لموقعهِ العيونُ
يذلّ لهُ العزيزُ وكلّ ليثٍ
حديدُ الناب مسكنهُ العرينُ
عَلوتُ بياضَ مفرقهِ بعضبٍ
يطيرُ لوقعهِ الهامُ السكونُ
فأضحَت عِرسه ولها عليه
هدوّ بعدَ زفرتها أنينُ
كصخرةٍ إذ تُسائلُ في مراحٍ
وفي جُرمٍ وعلمهما ظنونُ
تسائل عن حُصينٍ كلَّ ركبٍ
وعند جهينةَ الخبرُ اليقينُ

٥- أعزُّ من كُليب بن وائل[٦]:

هو كُليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير، وكان سيّد ربيعة في زمانه. وقد بلغ عزّه أنه كان يحمي الكلأ فلا يُقرب حماه، ويجير فلا يهاج. وكان إذا مرّ بروضة أعجبته أو غدير ارتضاه كنع كليباً (أي حبس كلباً صغيراً) ثم رمى به هناك فحيث بلغ عواؤه كان حمىً لا يرعى.

وكان اسم كليب بن ربيعة وائلاً، فلمّا حمى كُليبه المرميّ الكلأ قيل أعزّ من كُليب وائل، ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنّوه اسمه.

وكان من عزّه أنه لا يتكلم أحد في مجلسه ولا يحتبي أحد عنده، لذلك قال أخوه مهلهل بعد موته:

نُبِّئت أنّ النارَ بعدكَ أوقدتْ
واستبَّ بعدكَ يا كُليبُ المجلسُ
وتكلَّموا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ
لو كنتَ شاهدَهم بها لم ينبسوا

وكليب هذا هو الذي قتله جسّاس، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة.

٦- أوفى من السموءل[٧]:

هو السموءل بن عاديا اليهودي، أودعه امرؤ القيس دروعاً وسيوفاً وخرج إلى الروم، فقصده ملك من ملوك الشام فتحرّز منه السموءل. فأخذ الملك ابناً له وكان خارجاً من الحصن، وقال: إن سلّمت إليّ الدروع والسيوف وإلاّ ذبحت ابنك، فقال: شأنك فإني غير مُخفرٍ ذمّتي، فذبحه وانصرف بالخيبة، فقال الأعشى:

كُن كالسموءل إذ طافَ الهُمامُ به
في جحفلٍ كسوادِ الليلِ جرّارِ
فقال ثُكلٌ وغدرٌ أنت بينهما
فاختر وما فيهما حَظٌّ لمُختارِ
فشكَّ غيرَ طويلٍ ثم قالَ لهُ
اقتل أسيركَ إني مانع جاري[٨]

والذين يُضرب بهم المثل في الوفاء كثر، منهم عوف بن مُحلّم والحارث بن ظالم، والحارث بن عبّاد وأمّ جميل.

٧- على أهلها تجني براقش[٩]:

براقش هي كلبة كانت لقوم من العرب، فأغير عليهم فهربوا ومعهم براقش، فاتبع القوم آثارهم بنباح الكلبة براقش، فهجموا عليهم فاصطلموهم.

وأبو براقش هو طائر يتلوّن في اليوم ألواناً. ويقال للرجل الكثير التلوّن أبو براقش.

٨- في بيته يؤتى الحكم[١٠]:

وهو مما زعمت العرب على ألسن البهائم. قالوا إنَّ الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان

إلى الضــبّ. فقالت الأرنب: يا أبا الحسن، فقال: سميعاً دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عــادلاً حكّمتما، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم.

– قالت: إني وجدت ثمــرة. قال: حلوة فكليها.

– قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير.

– قالت: فلطمته. قال: حرٌّ انتصر.

– قالت: فاقضِ بيننا. قال: قد قضيت.

– فذهبت كلها أمثالاً.

وأخيراً نقول بأن العرب لم تضع الأمثال إلاّ لأســباب أوجبتهــا وحوادث اقتضــتها، فصار المثل المضروب كالعلامة التي يُعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها ولا أشدّ اختصاراً. وعلينا أن نحترمها ونستعين بها في تدبّر أمور حياتنا ومشاكلنا لأن فيها عصارة تجارب السلف وحكمتهم.

الهوامش

١– السكاكي، مفتاح العلوم، ٣٤٩.

٢– لسان العرب، ابن منظور، مادة: مثل.

٣– معجم البكري، ص ٦٧،٦٩، مجمع الميداني، ٣٢٨/١، جمهرة العسكري، ٣٧٧/١.

٤– معجم البكري، ص ١٠٥، مجمع الميداني، ٤١٨/١، جمهرة العسكري، ٤/٢.

٥– معجم البكري، ص ٢٦٢، مجمع الميداني، ٥٣/٢، جمهرة العسكري، ٣٣٧/٢.

٦– مجمع الميداني، ٤٤٧/١، جمهرة العسكري، ٢٧/٢.

٧– مجمع الميداني، ٤٠٩/٢، جمهرة الأمثال، ٣٥٣/٢، المستقصى، الزمخشري، ٣٠٦/١.

٨– ديوان الأعشى، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٢م، ص ٢٣٤.

٩– معجم البكري، ص ٤٥٩، مجمع الميداني، ٣٧/٢، جمهرة العسكري، ٥٢/٢، المستقصى، الزمخشري، ٢/ ١٨٩.

١٠– مجمع الميداني، ٧٢/٢، جمهرة العسكري، ٣٦٨/١، المستقصى، الزمخشري، ٢٠٦/٢.

المصادر والمراجع

– أشهر الأمثال، طاهر الجزائري، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م.
– جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، مصر، دار الكتاب العربي، لا تاريخ.
– لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ١٩٨٥م.
– مجمع الأمثال، الميداني، بيروت، المطبعة اليسوعية، ١٩٣٥م.
– المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، حيدر آباد، ١٩٣٥م.
– معجم الأمثال، البكري، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦٥م.
– مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مصر، دار العلوم، ١٩٧٥م.

أبو بكر الرازي وعِلْم الفراسة

د. محمّد ياسر زكّور ❁

علم الفراسة Physiognomy:

هو من فروع العلم الطبيعي- أي الغريزة Physiology، وهو علم يكثر استعماله عند العرب والهنود، لذلك فقد اشتهروا بهذا العلم وفاقوا به غيرهم من الشعوب، ويعرّف بأنّه علم يُعْرَف منه أخلاق الناس من أحوالهم الظاهرة؛ من الألوان والأشكال والأعضاء، وبالجملة الاستدلال بالخَلْق الظاهر على الخُلُق الباطن، وموضوعه ومنفعته ظاهران،

واشتقاق هذه اللفظة من قولهم: فرسَ

❁ طبيب وباحث سوري.

السبعُ الشـاةَ، فكانت الفراسـة عبارة عن اختلاس المعارف بهذا الطريق المعيّن.

وكفـى بهذا العلم شـرفاً قولـه تعالى: «**إِنَّ فِـي ذَلِكَ لَآيَـاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**»[١]، وقوله: «**تَعْرِفُهُـمْ بِسِيمَاهُـمْ**»[٢]، وقولـه: «**لَـوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُـمْ فَلَعَرَفْتَهُـمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِـي لَحْـنِ الْقَـوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَـمُ أَعْمَالَكُـمْ**»[٣]. وقوله صـلى الله عليه وسلّم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»[٤].

إنَّ الكتـب والمقـالات المؤلّفة في علم الفراسـة كثيرة وقديمة، ومـن الأمثلة على تلك الكتب نذكر: كتاب «الفراسـة» لأرسطو طاليس، وهـو منحول، وكتاب «الفراسـة» لأفليمون يختص بالنسـاء، والمقالة الثانية مـن كتاب المنصـوري لأبي بكـر الرازي، وكتاب «الفراسة» للإمام فخر الدين الرازي خلاصـة كتاب أرسـطو مع زيادات مهمّة، وكتاب «السياسـة في علم الفراسة» لمحمد ابن أبي طالب الأنصاري الدمشقي الصوفي المعروف بشيخ الربوة.

فراسة أبي بكر الرازي

أبو بكر محمد بن زكريّا الرازي (٢٥١-٣١٣هـ) طبيب المسلمين الأول، وجالينوس العرب، غنـيّ عن التعريف، فهـو الطبيب السريري الأوَّل، وصاحب التآليف المشهورة في الطـب والكيمياء وغيرها مـن العلوم، ومـن كتبـه في الطـب؛ الحـاوي، والطب الملوكي، والتقسـيم والتشجير، والخواص، والمنصوري في الطب، وغيرها كثير.

أمّا مقالة الفراسة- موضوع بحثنا- التي وضعها أبو بكر الرازي في كتابه «المنصوري في الطب»، فتقع ضـمن المقالة الثانية من كتاب «المنصـوري» وذلك في سياق حديثه عـن شـراء المماليك؛ حيث يجـب أولاً أن يتفقـد من المملوك لونـه وأطرافه وكلامه وعقله وشعره وبصـره وأنفه وفمه وأسنانه وصدره وبطنه ومشيته وقوّته، إلى أن يقول:

وأما سـائر أمورهم فإنه يسـتدل عليها من يعرف الأمزجة أو من الفراسة.

دلائل الشعر

- الشعر اللين يدلّ على الجبن، والخشن يدل على الشجاعة.
- كثـرة الشـعر على البطـن تدل على الشـبق، وكثرته علـى الصُـلب دليل على الشجاعة.
- كثرة الشعر على الكتفين والعنق دليل على الحمق والجرأة.
- كثرة الشعر على الصدر والبطن دليل على قلّة الفطنة.
- الشعر القائم على الرأس وعلى جميع البدن دليل الجبن.

دلائل اللون

- اللون الأشقر والأحمر يدل على كثرة الدم والحرارة.
- اللـون الـذي بين الأبيضـ والأحمر

يدل على اعتدال المزاج إذا كان الجلد معه أزعر.[٥]

– مـن كان لونـه مثل لهيـب النار فهو عجول مجنون.

– ومـن كان لونـه أحمـر رقيقـاً فهو مستحي.

– من كان لونه أخضر أو أسود فهو سيئ الخلق.

دلائل العين

– من عظمت عيناه فهو كسلان.

– من كانت عيناه غائرتين فهو داهية خبيث.

– من كانت عينـاه جاحظتين فهو وقح مهذار[٦] جاهل على الأمر الأكثر.

– إذا كانت العين ذاهبة في طول البدن فصاحبها مكّار خبيث.

– من كانت حدقته شـديدة السواد فهو جبان.

– من كانت عيناه تتحركان بسرعة وحدّة وكانتا حادّتي النظر فهو مكّار خبيث محتال لصّ.

– مـن كانت حركة عينيـه بطيئة كأنها جامدة فهو صاحب فكر.

– من كان نظره مشابهاً لنظر النساء من غير تخنيث فهو شبق صلف[٧].

– مـن كان فـي نظره مشـابه من نظر الصبيان وكان فيه وفي جملة الوجه ضحك وفرح وسرور فإنه طويل العمر.

– إذا كانـت العيـن عظيمـة مرتعـدة فصاحبها بطّال كسلان محبّ للنساء.

– إذا كانت العين صغيرة زرقاء مرتعدة فصـاحبُها قليـل الحيـاء مختـال محب للنساء.

– إذا كانـت العين حمـراء مثل الجمرة فصاحبها شرّير مقدام.

– الحدقـة السـوداء دليل على كسـل وبلادة.

– العين الزرقاء التي في زرقتها صـفرة كأنها صُـبغت بالزعفران تـدل على رداءة الأخلاق جداً.

– النقط الكثيرة في العين حول الحدقة تدل على أن صـاحبها شرّير. فإن كانت في عين زرقاء كانت أشرّ.

– الحدقة التـي حولها مثل الطوق تدل على أن صاحبها حسود مهذار جبان مضمر للشر.

– العين التي تشبه أعين البقر تدل على الحمق.

– إذا كانت الحدقة سـوداء فيها صفرة كأنها مذهّبة فصاحبها قتّال سفّاك للدماء.

– العيـن المنقلبة إلى فوق شـبه أعين البقـر إذا كانـت مع ذلك حمـراء عظيمة فصاحبها جاهل زنّاء[٨] سكّير.

– أحمـد العيـون الشـهل، وإذا لم تكن الشُّهلة شديدة البريق ولا تظهر عليها صفرة أو حمرة فإنها تدل على طبع جيد.

– العيـن الزرقـاء التي تبرق بصـفرة

وخضـــرة كالفيروزج أصـــحابها أردياء، فإن كان فيهـــا مع ذلك نقط حمـــر مثل الدم أو بيض فإن صاحبها أشرّ الناس وأدهاهم.

– إذا كانت الحدقة كأنها ناتئة وســـائر العين لاطئ فصاحبها أحمق.

– إذا كانت العين صغيرة غائرة فصاحبها مكّار حسود.

– إذا كانت العين صـــغيرة ناتئة بمنزلة عين الســـرطان دلّ علـــى الجهل والميل مع الشهوات.

– إذا كانت العين صغيرة خفيفة الحركة كثيرة الطرف فصاحبها دنيء خدّاع.

– إذا كان الجفن من العين منكســـراً أو ملتويـــاً من غير علّة فصـــاحبه كذّاب مكّار أحمق.

– صـــاحب العين الكثيرة الرعدة شرير إن كانت العين صـــغيرة، وإن كانت عظيمة نقص بعض الشر وزاد في الحمق.

– صـــاحب العيـــن الزرقـــاء الشـــديدة الخضرة شرير خائن.

– العين الدائمة الطرف تدل على الجبن والجنون.

دلائل الحاجب

– الحاجب الكثير الشـــعر صاحبه كثير الهمّ والحزن، غثّ[٩] الكلام.

– إذا كان الحاجـــب طويـــلاً يمتـــد إلى الصدغ فصاحبه تيّاه صلف.

– وكذلـــك مـــن كان حاجبـــه يميل من ناحية الأنف إلى أســـفل ومن ناحية الصدغ إلى فوق فصاحبه صلف أبله.

دلائل الأنف

– من كان طـــرف الأنف منه دقيقاً فهو محبّ للخصومة.

– من كان أنفـــه غليظاً ممتلئاً فهو قليل الفهم.

– من كان طرف الأنف منه دقيقاً طويلاً فهو طائش خفيف.

– من كان أفطس الأنف فهو شبق.

– مـــن كان ثقبا أنفه شـــديدي الانفتاح فهو غضوب.

دلائل الجبهة

– من كانت جبهته منبســـطة لا غضون فيها فهو مخاصم سفيه.

– مـــن كان مقطّـــب الجبهـــة مائلاً إلى الوسط فهو غضوب.

– من كانت جبهته صغيرة فهو جاهل.

– من كانت جبهته عظيمة فهو كسلان.

– من كانت جبهته كثيرة الغضـــون فهو صلف.

دلائل الفم والشفة والأسنان

– من كان واسع الفم فهو نهم شجاع.

– من كان غليظ الشفة فهو أحمق غليظ الطبع.

– من كان قليل صبغ الشفة فهو ممراض.

– مــن كان ضــعيف الأســنان رقيقهــا ومتفرّقها فهو ضعيف البنية.

– مــن كان طويــل الأنيــاب فهــو نهم شرير.

دلائل الوجه والصورة

– إذا كانت صــورة الإنســان في الحالة التــي تكــون عليها صــورة الســكران فهو سكّير.

– وإذا كانــت بحالــة الغضــبان فهــو غضوب.

– وإذا كانــت بحالــة الخجل فهو خجل حيي.

– مــن كان لحيــم الوجه فهو كســلان جاهل.

– من كان كثير لحم الخدّين فهو غليظ الطبع.

– من كان نحيف الوجه فهو فهيم مهتم بالأمور.

– من كان شــديد اســتدارة الوجه فهو جاهل.

– من أفرط عِظم وجهه فهو كسلان.

– من صَغر وجهه فهو رديء خفيف خِبّ خبيث ملق.

– السَّــمِج الوجــه لا يكاد يكون حســن الخلق إلا في الندرة.

– من كان طويل الوجه فهو وقح.

– من كانت أصــداغه منتفخة وأوداجه ممتلئة فهو غضوب.

دلائل الأذن

– من عظمت أذناه فهو جاهل طويل العمر.

دلائل الصوت والنفَس والكلام

– من كان صوته غليظاً فهو شجاع.

– من كان كلامه سريعاً فهو عجول قليل الفهم.

– من كان كلامه عالياً سريعاً فهو عجول سيِّئ الخلق غضوب.

– من كان كلامه منخفضاً فبالضد.

– مــن كان نفســه طويــلاً فهــو رديء الهمة.

– من كان صوته ثقيلاً فهو رغيب[١٠] البطن.

– مــن كان أغنّ الصــوت فهو حســود مضمر للشرّ.

– حُسْــن الصــوت دليلُ الحمــق وقلة الفطنة.

دلائل اللحم

– اللحم الكثير الصــلب يدل على غلظ الحس والفهم.

– اللحــم الليّن يدل على جــودة الطبع والفهم.

دلائل الضحك

– مــن كان كثيــر الضــحك فهو دمث مساعد قليل العناية والاهتمام بالأمور.

– من كان قليل الضحك فهو مضاد مخالف لا يرضى بما يعمل الناس.

– من كان عالي الضحك فهو وقح.

– من كان يقع عليه عند الضحك سعال أو ربو فإنه وقح سليط سخار.

دلائل الحركات

– الحركة البطيئة تدل على البلادة. والسريعة على الطيش.

دلائل العنق

– من كان عنقه قصيراً جداً فهو مكّار خبيث.

– من كان عنقه طويلاً فهو صيّاح أحمق جبان.

– من كان عنقه قوياً غليظاً شديداً فهو قوي غضوب بطّاش.

دلائل البطن

– شدّة الأضلاع وكثرة لحمها تدل على الجهل.

– لطافة البطن تدل على جودة العقل والفهم.

– عِظم البطن يدل على كثرة النكاح.

– دقة الأضلاع ورقتها تدل على ضعف القلب.

دلائل الظهر

– عرض الظهر يدل على الشدة والكبر والنخوة وشدة الغضب.

– انحناء الظهر يدل على رداءة الخلق.

– استواء الظهر علامة محمودة.

دلائل الكَتِفَيْن

– الكتف الرقيق يدل على قلة العقل.

– الكتف العريض يدل على جودة العقل.

– شخوص رأس الكتف جداً يدلّ على الحمق.

دلائل الذراع

– إذا كان الذراعان طويلين حتى تبلغ الكفّ الركبة، يدل على نبل النفس والكبر وحب المراس.

– إذا قصر الذراعان جداً، فصاحبه محبّ للشرّ، جبان مع ذلك.

دلائل الكفّ

– الكف اللينة اللطيفة تدل على سرعة العلم والفهم.

– الكف الفاحشة القصر تدل على الحمق.

– الكف الدقيقة الطويلة جداً تدل على السلاطة والرعونة.

دلائل الحَقْو[11] والورك والساق والقدم

– القدم اللحيم الصلب يدل على سوء الفهم.

– القدم الصغيرة الحمشة[12] تدل على أن صاحبها صاحب فخر ومرح.

– دقّة العقب تـدل على الجبن، وغلظه وقوّته يدلّ على الشدّة.

– غلظ السـاقين والعرقوبين يدلّ على البله والقُحّة[١٣].

– كثـرة لحـم الورك تدل على ضـعف القوّة والاسترخاء.

– شـخوص عَظـم الوركين يـدل على الشجاعة.

– إذا كان الحقـوان شاخصـيّ العظام فذلك علامة الشدّة والجبروت.

– دقّـة الحقو تـدل على حبّ النسـاء وضعف البدن والجبن.

دلائل الخُطا

– من كانـت خطاه واسـعة بطيئة فهو متأنٍّ منجح.

– من كانت خطاه سريعة فهو عجول ذو عناية بالأمور غير محكم لها.

دلائل الشجاع

– أن يكون قويّ الشعر، خشنه، منتصب القامة، شديد العظام والأطراف والأضلاع والمفاصـل، قويها، كبيرها، عظيم الصدر والبطن والأكتاف، قويّ الرقبة، قليل اللحم عليها، عريض القصّ، ضامر الورك، ويكون العضـل الذي في بطن سـاقه منجذباً إلى أسـفل، والجلـد منـه واللحم أزيد يبسـاً، وجبهته معرّقة[١٤] لا غضـون فيها، وليست عديمة الشعر.

– وأيضـاً علامات الشجاعة الاعتدال في اللحم، وانتصاب القامة، وقوّة المفاصل والأصابع، وخماصة البطن، ممسوح الأليتين، بعيد ما بين المنكبيـن، ممدود الحاجبين، أملس الجبهة، له شدة حقد وغضب، أزَبّ[١٥] الصدر والكتف، قويّ العرقوبين.

دلائل الجبان

– أن يكون شـعره ليّناً، وقامته منحنية، وعضـل بطن ساقه منجذباً إلى فوق، ولونه أصـفر، وعيناه ضـعيفتين تطرفـان طرفاً متواتـراً، ونظره نظر كئيـب حزين، ويداه ورجلاه لطيفتين قضيفتَين.

دلائل الرجل الرقيق الطبع والفهم

– أن يكون لحمه ليّناً رطباً قليلاً، ويكون بين العبل والقضيف، ولا يكون لحيم الوجه، ويكون شـائل[١٦] الأكتاف، عديم اللحم في الصـلب، لونه بين الأبيض والأحمر، للونه بريـق ورونـق، رقيـق الجلد، ليس شـعره بالكثير، ولا بالصـلب، ولا بالشديد السواد، وتكون عيناه شهلاوين رطبتين.

دلائل البدن المعتدل الجيّد الطبع

– أن يكون بين الطويل والقصير، والعبل والنحيل، أبيض مشرباً بحمرة، معتدل الكف والرجل فـي العِظم والصـغر، وقلة اللحم وكثرته، معتدل الرأس في العِظم، في رقبته غلظ قليل، وشـعره إلى الحمرة قليلاً، بين السبط والجعودة، وأن يكون وجهه مستديراً،

وأنفه مستوياً، حسناً جدّاً، معتدلَ العظم، وعيناه شهلاوين فيهما رطوبة وصفاء.

دلائل الرجل الفيلسوف

– استواء القامة، واعتدال اللحم، أبيض مشرب بحمرة، معتدل الشعر في القلة والكثرة، والسبوطة والجعودة، والسواد والحمرة، سبط الكف، منفرج ما بين الأصابع، عظيم الجبهة، أشهل العينين، رطبهما، كأنما يخالط نظره أبداً ضحك وسرور.

دلائل الرجل الغليظ الطبع

– أن يكون مفرط البياض أو السمرة أو الكمدة، عظيم البطن، قصير الأصابع، مستدير الوجه جداً، كثير لحم الخدّيْن.

– ومن علاماته أيضاً: أن يكون كثير اللحم في العنق والرجلين وما يليهما، وبطنه ناتئ باستدارة، وأكتافه منجذبة إلى فوق، وجبهته مستديرة كأنها حدبة نصف كرة، لهزمتاه[١٧] ولحياه عظيمتان، وساقاه طويلتان، ووجهه طويل، ورقبته غليظة.

دلائل الوقح

– أن تكون عيناه مفتوحتين برّاقتين، وأجفانه غلاظاً، وقامته قصيرة منجذبة إلى الأمام قليلاً، وأكتافه منجذبة إلى فوق، سريع الحركة، أشقر اللون، كثير الدم، مدوّر الوجه، منجذب العين إلى فوق.

– ومن علاماته أيضاً: أن يكون مفتوح العين جداً، شديد التحديق، طويل الأشفار، معوجّها، شديد الكلام.

دلائل العنين

– أن يكون كالح الوجه، آدم اللون، قحلَ جلدة الوجه والجسد، قضيفَها، متشنجَ الوجه، شعره سبط أسود.

دلائل الشبق

– أن يكون أبيض اللون أحمره. شعره كثير سبط غليظ أسود، وعلى أصداغه شعر كثير، وعيناه سمينتان، فيهما رعونة.

أخلاق الخصيان

– الخَصيّ سيِّئ الخلق، أحمق، شره، متهوّر.

– ومن لم يخصِه الناسُ، لكنه وُلد بلا خصيتين، أو له منهما ما لا يكاد يبين لصغره، ولم تنبت له لحية، فهو شرّ.

أخلاق الأنثى

– الأنثى من كل جنس أموَتُ نفساً، وأقلّ جلَداً، وأسهل انخداعاً وانقياداً، وأسرع غضباً، وأسرع سكوناً، وأشد مكراً وتهوّراً وقحّة.

– والأنثى أيضاً أصغر رأساً، وألطف وجهاً، وأدقّ عنقاً، وأضيق صدراً وكتفاً، وأقلّ أضلاعاً، وأعظم وركاً، وألحم فخذاً، وأدقّ ساقاً، وألطف كفّاً وقدماً، وأشد جبناً، وأسوأ أخلاقاً من الذكر في كل جنس.

جُمل يُحتاج إليها في أحكام الفراسة واستقصائها

– ينبغي أن لا يُسرع إلى الحكم من دليل واحد، لكن يجمع منها ما أمكن، ثم تكون قضيّتك بحسب ذلك، ومتى جاءتك دلائل متضادّة، وزنْت قواها وشهاداتها، ثم ملت إلى الأرجح.

– واعلم أن دلائل الوجه والعين خاصّة أقوى الدلائل وأصحُّها.

خاتمة

إنَّ الطبيب يلزمه التبحّر في علم الفراسة، فبذلك قد يخلّص الكثير من الناس ممن لديهم استعداد للإصابة بأمراض قد تظهر دلائلها في ملامح الشخص وصفة أعضائه، ولاسيما الأمراض النفسيّة والعصبيّة منها، وأبو بكر الرازي في مقالته السابقة في علم الفراسة، تبدو لنا عبقريتُه، وهو الطبيب السريري الأول، في الجمع ما بين علم الفراسة والعلامات السريرية الطبيّة، فأعطانا هذه المقالة النادرة في هذا العلم، وقد نالت هذه المقالة اهتمام العديد من علماء العرب والغرب سابقاً لما لها من مكانة طبيّة وعلميّة رفيعة.

الهوامش

١– سورة الحجر: الآية (٧٥).
٢– سورة البقرة: من الآية (٢٧٣).
٣– سورة محمد: الآية (٣٠).
٤– كشف الخفاء– الحديث رقم (٨٠).
٥– الأزعر: إذا قلّ شعره وتفرق، والزعَر: هو قلة الشعر في البدن.
٦– الهَذَر: هو الهذيان في الكلام، والمهذار الشديد الهذيان، ومن يكثر في كلامه من الخطأ والباطل.
٧– صَلَف: هو مجاوزة الحد في الظَّرَف وادّعاء الإنسان ما ليس عنده تكبّراً.
٨– الزَّنّاء: الكثير الزنى.
٩– الغث: الرديء الفاسد من كل شيء.
١٠– الرغيب: واسع الجوف.
١١– الحَقْو: موضع شد الإزار وهو الخاصرة (الخصر).
١٢– الحمشة: الدقيقة، قليلة اللحم.
١٣– القُحّ: الجافي من الناس.
١٤– المعرّق: القليل اللحم، المهزول.
١٥– الأزَبّ: كثير الشعر، وهي زَبّاء.
١٦– الشائل: كل ما ارتفع.
١٧– اللهزمتان: عظمان ناتئان من اللحيين تحت الأذنين.

فلسفة العلم

أسعد طرابيه ❁

إنَّ مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، مسألة ذات أهمية كبرى فقد كان موضع اهتمام العلماء والإبستمولوجيين. إنَّ علماء الفيزياء أمثال هايزنبرغ ولوي دوبرويه، أثاروا قضية الواقع هل هو ذو بنية انفصالية، جسيمية أو موجية أو كليهما معاً. ثم إنهم أي علماء الفيزياء سيكونون فلاسفة علم رغماً عن أنوفهم عند طرح مسألة بنية الواقع وطبيعته.

لم يفعل أرسطو سوى أن لخص طريقة نظر الإنسان للأمور في حياته اليومية، وأضفى عليها طابعاً فلسفياً إلا أن المنهج

❁ باحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

الفيزيائي الرياضي لم يعد ينظر للواقع على أنه جوهر بل أصبح ينظر إليه على أنه مجموع علاقات. هذا المنهج العلمي ينقد الرياضية الأفلاطونية التي تنظر للكائنات الرياضية على أنها صور خالصة غير ذات علاقة بالواقع، إنَّ المنهج العلمي إذاً هو ثورة على واقعية أرسطو ووضعية باركلي الظاهراتية، ورياضيوية أفلاطون.

بعد الثورة الفيزيائية الكوانتية لم يعد الموضوع العلمي معطىً حسيّاً ندركه بالملاحظة بل هو من تركيب العقل وإبداعه (علاقات) إنَّ فلسفة العلم حسب باشلار ليست مادية شيئية وليست عقلانية ميتافيزيقية مثل أفلاطون، إنما هي مادية عقلانية وعقلانية تطبيقية. فالفكر العلمي ملزم بأن يبرهن ويستدل ويحاكم عندما يجرب وأن يجرب عندما يحاكم ويبرهن ويستدل. فالعقلانية المعاصرة تقوم على كشف مواطن الخطأ النظرية في التصورات الوضعية للواقع ولكن العقلانية المعاصرة كانت تتصيد الجدلي على المستوى النظري ولكنها لم تكشف عن الأيديولوجي داخل الممارسة العلمية نفسها ومن هنا تأتي أهمية نقد ألتوسير لتلك العقلانية ولكن هذا لا يعني دحض للعقلانية بل تتميم وتكميل لها. فالعقلانية المعاصرة تهمل البعد التاريخي والاجتماعي للممارسة النظرية أي إنَّها تدير ظهرها لشروط إنتاج المعارف النظرية والتصورات والمناهج والتي هي شروط مادية.

ويمكن تصنيف الاتجاهات الرئيسية للنزعة الوضعية بما يلي:

١- النزعة الذرية المنطقية المنتشرة في انكلترا (جماعة كامبريدج التي يتزعمها برتراندراسل).

٢- النزعة الوضعية الجديدة الوضعية المنطقية والتي هي امتداد لحلقة فيينا المنحدرة من نزعة ماخ الفيزيائية.

٣- النزعة المنطقية المعاصرة المنتشرة في أميركا.

هناك تيار رابع هو المواضعاتية يمكن رده للوضعية، لأنه يلتقي معها في الإشكالية الاختبارية نفسها، أمَّا مدرسة كوبنهاغن فوضعيتها واضحة من حيث التقائها مع أراء ماخ.

لابد من الإشارة إلى أن المتفلسفين العرب الذين أتموا دراساتهم في إنكلترا كانوا أقرب للجو الذي انتشرت فيه الذرية المنطقية، فاهتموا براسل وحده وبعض الأحيان بفنجشتاين لذلك بقينا نحن العرب نعاني نقصاً في نظرتنا للفكر الوضعي ثم إن الفكر الوضعي لا يمثل نسقاً مكتملاً ولا يمثّل مذهباً مغلقاً ذا أسس راسخة ثابتة، صحيح أن هناك وحدة في الإشكالية ولكن لاتنفي اختلاف وتنوع أشكال الإفصاح عنها.

إنَّ اعتقاد بوبر بأن العمل العلمي هو عمل اختباري ضيق وتجزيئي صرف لا يعطي صاحبه الحق في إصدار قضايا ذات

يقين موضوعي، وبالتالي إنكار وجود فلسفة للتاريخ وإنكار إمكانية التنبؤ بالمستقبل وبالتالي إنكار وجود فلسفة للعلم.

إنَّ الفلسفة في جميع عصورها صدى للعلم فهي لا تولد ولا تنبعث إلا لأن ثمة علوماً قد ظهرت إلى النور. ومع الثورة الكوانتية آخر تطورات الفيزياء النظرية طرحت اعتبارات فلسفية ونظرية جديدة تعجز الفلسفات التقليدية عن استيعابها. في مؤتمر سولفي الخامس ١٩٢٧م استطاعت مدرسة كوبنهاغن بزعامة نيلزبور وفيرنرهايزنبرغ أن تروج لتفسير مفاده استحالة معالجة الظواهر الذرية بوساطة مفهوم الحتمية نظراً لعلاقة الارتياب (عدم التعيين) وبالتالي في نظرها يصعب الحديث عن واقع، والشك في أن تكون نتائج قياساتنا بالمستوى الذري نتائج موضوعية لأن تدخُّل آلات القياس يؤدي إلى تأثير على الظاهرة الملاحظة نفسها تأثيراً بارزاً.

قوبلت هذه الآراء بالترحيب الكبير، فدوبرويه انساق تحت تأثيرهم منذ انعقاد المؤتمر المذكور وحتى عام ١٩٥١م والتزم حرفياً بآراء بور وهايزنبرغ، وأكثر الحاضرين بالمؤتمر انساقوا وراء بور وهايزنبرغ باستثناء آينشتاين الذي أعلن عن عدم رضاه عن الاتجاه الاحتمالي وقال: «فليلعن ذلك العلم الذي اسمه ميكانيك الكم».

يطرح سؤال مهم ما النفع الذي يجنيه المثقف العربي من الخوض في مثل هذه المواضيع؟ الجواب: إنَّ الخوض في هذه المسائل يجعل المثقف العربي يعيش جانباً من جوانب الفكر العالمي، ويواكب تطور الفكر العلمي. إذن، هل نبقى أسرى كتب عدّة لا تتجاوز أصابع اليد تتناول فلسفة العلم مثل كتاب «الفيزياء الحديثة والفلسفة» للدكتور عبد الكريم اليافي، و«فلسفة المصادفة» لمحمود أمين العالم، و«مدخل إلى فلسفة العلوم» للدكتور محمد عابد الجابري،

يضعنا العلم المعاصر أمام اعتبارات جديدة، علمية وفلسفية مخالفة لتلك الاعتبارات التي يقوم عليها العلم الحديث خصوصا للفيزياء الكلاسيكية والتي كانت تبنى على فروض ومفاهيم سرعان ما انهارت أو ضاق مجال صلاحيتها.

إنَّ الفيزياء الكلاسيكية قد شاركت الفيزياء القديمة اليونانية بالقول بوجود الأشياء وجوداً واقعياً خارج الذات، أي إنَّ الفيزياء الكلاسيكية كانت تنظر للأشياء، على أنها جواهر، وعلى العلم أن يحدد حركتها وسلوكها في الزمان والمكان تحديداً مضبوطاً ودقيقاً، وتأثير بعضها على بعض.

إنَّ الفلسفة التي تشوي خلف الفيزياء القديمة هي فلسفة جوهرية تؤمن بأن العلم مؤلف من جواهر ثابتة. هذه الفلسفة هي واقعية ساذجة تؤمن بما تمدُّنا به الحواس.

عرفت الفيزياء الكلاسيكية اكتمالها

ونضجها منذ القرن السابع عشر مع نيوتن الذي مكَّنها من أن تصبح نظرية متكاملة الجوانب تعطي تصوراً متماسكاً للظواهر الكونية. وهي نظرية تقوم على بديهيات وفروض ومقدمات. لقد ظل العلم طوال ثلاثة قرون يقف على أرضية الفيزياء الذي رسم حدودها نيوتن.

لقد سار نيوتن في الطريق نفسه الذي سار فيه غاليلو والذي يعتبر أب العلم الحديث، ولكنه لا يتفق معه في رأيه حول علاقة الرياضيات بالتجربة. يعتبر نيوتن بحق أوَّل من أرسى دعائم العلم الحديث باعتباره أوَّل من وضع تصوراً عاماً للكون، إذ أرجع الكون لشبكة من العلاقات والقوانين المتكاملة والمتجانسة.

ما هي المفاهيم التي قامت عليها الفيزياء الكلاسيكية؟

كان أرسطو يعتقد أن داخل الأشياء طبائع معينة هي التي تحدد سلوك هذه الأشياء وحركتها، فالسقوط مثلا تابعا لخصائص الأجسام بذاتها، فالجسم إذا كان ثقيلاً مركباً من التراب والماء يسقط بطبيعته إلى الأسفل، أمَّا إذا كان خفيفاً مركباً من عناصر كالهواء أو النار فإنه بطبيعته يتجه نحو الأعلى وهذا ما جعل غاليليو يقيم قطيعة معرفية مع مفاهيم أرسطو الميتافيزيقية المتعلقة بمسألة السقوط. والبحث عن صيغة رياضية مفسرة. وقد تم ذلك لغاليليو عن طريق اعتماد منهج الملاحظة والمعاينة الدقيقة.

إنَّ قانون التسارع الذي اعتمدته الفيزياء الكلاسيكية يذهب إلى أن تزايد سرعة سقوط الجسم متناسبة مع المسافة دون أخذ الكتلة بعين الاعتبار، فالفيزياء الكلاسيكية تقوم على ثبات الكتلة. إن كل ما يتغير هو سرعة الجسم التي تزداد كلما اقترب الجسم من الأرض.

بجانب مبدأ التسارع قالت الفيزياء الكلاسيكية بمبدأ العطالة، الذي يخالف الفيزياء القديمة، فقد كان أرسطو يعتقد أن الأصل هو السكون، وأن الجسم يحافظ على سكونه مالم يتعرض لمؤثر خارجي يحول سكونه لحركة. فما من حركة إلا وتكون ناتجة عن سبب، وفي حال غياب الأسباب الكافية لوجود الحركة يبقى الجسم في حالته الطبيعية، حالة السكون.

يؤكد غاليليو أن الأصل في الأشياء هو الحركة، أمَّا السكون فمجرد حالة عابرة، فلو افترضنا وسطاً خالياً من المعوقات التي تعيق حركة الكرة مثلا، لاستمرت الكرة في حركتها إلى الأبد، فالعطالة كما يحددها نيوتن هي أن يستمر الجسم في حركته حركة مستقيمة منتظمة مالم يتعرض الجسم لتأثير قوة خارجية. إن مبدأ العطالة مبدأ أساسي من مبادئ الحركة.

أمَّا المفهوم الثاني الذي قامت عليه الفيزياء الكلاسيكية هو مفهوم الكتلة، حيث أن كتلة الجسم ثابتة لا تتغير، وهذا المفهوم

أي ثبات الكتلة لم يتم التأكد من صحته إلا في القرن التاسع عشر، ولكن هذا المفهوم يطابق ماقالت به فيزياء أرسطو، فالوجود عنده جوهر، والجوهر هو مطلق لا يقبل الزيادة أو النقصان مهما تغيرت الظروف. كذلك اعتقدت الفيزياء الكلاسيكية إن الكتلة لا تتأثر بزيادة سرعة الجسم أو تناقصها وإنما تبقى هي هي «مبدأ تكافؤ الكتلة والمادة» يتابع نيوتن فيقول كلما كبر الجسم زادت عطالته أي زادت مقاومته لتغيير سرعته، لذلك يحافظ على السرعة التي هو عليها.

طور نيوتن مبدأ أسماه التثاقل، وهو مبدأ يقوم على القول بأن جميع الأجسام تتجاذب فيما بينها تجاذباً يتناسب طرداً مع كتلتها وعكساً مع مربع المسافة الفاصلة بينهما. والملاحظ إن مبدأ الجاذبية يرتبط ارتباطا صريحا بباقي المبادئ الأخرى كالتسارع والعطالة والكتلة.

إنَّ قانون الجاذبية العام سيسمح بوضع نظرية للكون والتي بدورها ستفسر المد والجزر والحركات الفلكية. ولكن السؤال الذي حير نيوتن، كيف ينتقل التأثير الجاذبي بين الأجسام، وكيف يؤثر بعضها على بعض رغم عدم تلامسها، وقد تمت الإجابة عن السؤال بافتراض وجود الأثير وهو مادة لطيفة تخترق الأجسام وبوساطتها تنساب الجسيمات الضوئية والموجات الصوتية.

أقام نيوتن من مفهوم الأثير مفهوم المكان وألصق به صفات الأثير، فالمكان مطلق ولا متناه ولا يرتبط بالأشياء، فكل الأحداث الطبيعية تجري داخل المكان. والشيء نفسه بالنسبة للزمان إنه متجانس ومطلق ولا يتعلق بالأشياء، وهو أي الزمان لا يتأثر بالأشياء دون أن يطرأ عليه أي تغيير. هذه هي المفاهيم التي قام عليها العلم الحديث والذي بقي طوال قرنين من الزمن يدور في فلك مقولات نيوتن وغاليليو.

ولكن المبدأ الذي يجمع كل تلك المبادئ هو مبدأ الفعل ورد الفعل. وتأتي أهمية هذا المبدأ من اعتباره أن جميع الظواهر تخضع لقوانين وعلاقات محددة ضرورية تربط بينها. وهنا القطيعة بين العلم الحديث والعلم القديم فإذا كان العلم الأرسطي علم كيفيٌ يصف الواقع فإن العلم النيوتوني علم كمي يركِّب الواقع تركيبا علائقيا قانونيا. مثلا لتحديد الجاذبية لا بد من تحديد الكتلة والمسافة ولمعرفة القوة الخارجية لا بد من ضرب الكتلة بالتسارع وهكذا لم يعد الكون مع العلم الحديث سوى كتل تتحرك حسب قوانين رياضية.

إذن، يمكن القول تحت تأثير غاليليو نشأت الفلسفة الحديثة على يد ديكارت، وتحت تأثير نيوتن أعطى كانط الفلسفة أساساً جديداً. لقد كان تصور ديكارت يقوم على إن الكون محكوم بوساطة القوانين الطبيعية الميكانيكية وإنه نظام رياضي متوازن، ولذا كانت فلسفة ديكارت فلسفة

عقلانيــة لا تعير العنصــر الاختيــاري إلا قســطاً قليلاً من الاهتمام ويعتبر الإدراك الحسي عاجزاً أن يكون طريقا مأمونا للعلم لأنه لا يرينا إلا كيفيات الأشياء وهو ما اهتم به العلم الأرسطي، وأنه لأجل إقامة معرفة علمية يقينية، لابد من البحث عن أساســها في يقينيات العقل نفسه، أي في تلك الأفكار التي بلغت حدّاً من الوضوح والبداهة نعجز معها أن نشكَّ في قيمتها وصحتها.

ومــا علينــا إلا فحصــ العقل نفســه والبحث عن مــا يحتويه من بديهيات، وعن ما يستطيع معرفته بالحدس وليس بالخبرة والإحســاس وهنــا ديــكارت لا يثبت فقط حقيقــة بداهة الفكر بل يثبت حقيقة وجود المــادة، ولكن هل للمادة كيفيات وصــفات كما تصور أرسطو.

إنَّ المــادة عند ديــكارت تعكس الفكر لا تفكر لكنها تحتل حيــزاً من المكان. إن المــادة ليس ما تقدمه لنــا الحواس بل ما يقدمــه لنا العقــل. إن طبيعة الأجســام لا تقوم على الصلابة ولا على الثقل والحرارة وباقي الكيفيات.

إنَّ الجسم لكي يوجد لا يكون في حاجة إلى تلــك الكيفيات، وإن الأســاس الأوحد الذي تقوم عليه طبيعته هو أنه مادة ممتدة. إن المادة تتخذ صفات هندسية مثل الحجم والشــكل والعدد والموقع الحركة. إن العالم هو امتــداد وحركة، وكل شــيء في الواقع يتفــكك إلى مادة متحركة، لــذا تكون غاية العلــم هي البحث عن الأســاس الرياضــي الهندسي للأشــياء، واكتشاف القوانين وراء الظواهر. هذا ما قاله ديكارت.

إنَّ نزعــة ديــكارت الميكانيكية ترفض العلل الغائية، وإن كل شــيء يتحرك بحركة ســابقة، إن الله حسب ديكارت عندما خلق المــادة خلقهــا بصــفتين رئيســيتين هما الامتداد والحركة وحركتها كانت بدفعة منه. فالحركة هي الأســاس وليس السكون. وبذا يكون ديكارت استعاد مبدأ العطالة استعادة فلســفية. وبلور، فلســفياً، نظرة ميكانيكية للكون اكتملت قواعدهــا العلمية فيما بعد مع نيوتن ولابلاس.

إنَّ الميكانيكيــة الديكارتية لا تنطبق إلا علــى المادة فالفكر ليس امتداداً ولا يتحيز في المكان بينما المادة امتداد متحيز

إنَّ ســبينوزا يستمر بمذهب ديكارت في الوقت نفسه الذي يحاول إصلاحه لقد نبذ سبينوزا الثنائية الديكارتية، إذ جمع سبينوزا الفكر والمادة في جوهر واحد هو الطبيعة، واعتبر أن للطبيعة صــفتين متلازمتين هما الامتداد والفكر(يقول سبينوزا: سوف أنظر إلى الأفعال الإنسانية كما لو كنت أنظر إلى الخطوط والســطوح أو الأجسام، إن كل ما هو موجود يتحــدد بقوانين الحركة والفعل ورد الفعل، والحرية الحقيقية هي أن تخضع للطبيعة وتعمل في وفاق مع قوانينها.

أراد كانط بتأثير من نيوتن إعادة تنظيم الفكر الفلســفي انطلاقا مــن الاعتبارات

الجديدة التي طرحها العلم، فكانط يبرهن علـى أن الواقـع امتداد وأشـكال وحركة. يلتقي كانط مع نيوتن الذي يعتقد أن العالم ظواهر وأن الظواهـر متجاورة في المكان أو متعاقبـة في الزمـان، فالزمان والمكان صـورتان قبليتان للحدس. والملاحظ أن الصفات التي يعطيها كانط لهما في أدلته علـى قبليتهما هي الصـفات نفسـها التي أعطاها نيوتن، أنهما مطلقان وواقعيان.

وفي إطـار ربط كانط المعرفة بالمكان والزمـان كإطاريـن حدسـيين خالصـين، سـيعتقد أن الحدس الحسـي هـو النطاق الوحيد المشـروع للعقل، أي دائرة الواقع، أمَّا الشـيء في ذاته فليس في وسـعنا بأي حـال من الأحـوال تكوين مفهـوم إيجابي عنه، بل كل ما نستطيع فعله هو أن نتصوره بطريقة سـلبية، فهو يمثل ما يمكن التفكير فيـه وما لايمكن معرفته، أي ما لا يمكن أن نقيم بصـدده علماً تجريبياً. فكانط يقصر الواقـع علـى دائـرة الظواهـر، إن الواقع المشروع علمياً هو واقع الظواهر، أي الواقع الذي اسـتطاع العلم الميكانيكـي أن يؤكد نظـام قوانينه وقانون نظامـه: قانون العلة والمعلول والحركـة. عند كانط إن الطبيعة والواقع هي مجمـوع الظواهر القابلة لأن تصـاغ في قوانين، أمَّا ما لا يقبل الصياغة فإنـه ليس بظاهرة. بل شـيء في ذاته غير قابل للمعرفة.

يقـول مارتيـن: هـذا الـرأي منقـول بحذافيـره من نيوتن، لذلك حسـب كانط، إن الفيزياء النيوتونية هي الفيزياء الوحيدة الممكنة، وهذا هو سـبب دفـاع كانط عن المطلقـات النيوتونية (الزمـان والمكان). فالمعرفة العلمية هي معرفة ظاهرة.

إنَّ الكانطيـة غطاء فلسـفي للنيوتونية وللعلـم الـذي ينظر إلـى الواقـع على أنه أجسـام وإن هذه الأجسام كتل حسية مادية قابلـة للتحديد الزمانـي والمكاني وللتعين بدقـة، والمقـولات التي تصـورها كانط واعتبرهـا قبلية وسـابقة علـى كل تجربة ليسـت في الحقيقة سوى اسـتعادة للحقل المعرفي للعلـم النيوتونـي. فمقولة ثبات الجوهر تعكـس مفهوم نيوتن لثبات المادة والكتلة وحفاظهما. إن الفيزياء الكلاسيكية ورثت مقولة الجوهر عن الأرسـطية كذلك الكانطيـة، لذلك نجد كانـط لا يدخل أي تغيير على المقولات الأرسطية، على الرغم من الفارق الزمني بينهما، على أن المقولات رسـوم ذهنية عملت على إدراك الأجسـام الواقعية والربط فيما بينها ربطاً علائقياً.

إنَّ الفيزيـاء النيوتونية اهتمت بدراسـة الظواهـر الماكروسـكوبية، أي الظواهـر والأشـياء في المقياس البشـري والتي يمكن إدراكها مباشـرة. لذا كانت تصوراتها متلونة بلون الظواهر والموضـوعات المدروسـة أي تناسب مستوى الظواهر الكبرى وتلائم الحدس الحسـي للإنسان. لذلك العلم النيوتوني ورث مفهوم الجسم من الفلسفة القديمة.

حصلت تحولات عميقة زعزعت العلم القديم وزعزعت تصوراته التي عجزت عن استيعاب الواقع الجديد الذي طرحته الفيزياء الكوانتية.

كانت الفلسفة القديمة والحديثة تقر بوجود الجوهر، والمعرفة هي وصف لتلك الجواهر وإن وقع اختلاف حول أساس موضوعية المعرفة، أهو في العقل وفي إضفائنا صفة التركيبية والهندسية على الواقع (غاليليو- ديكارت- كانط إلى حد ما) أو في الاقتصار على استنباط النظريات من الظواهر، دون الاعتماد على أية فرضية أو فكرة خيالية سابقة.

ماهو المفهوم الجديد للواقع الذي بشرت به الفيزياء المعاصرة، وماهو التصور الجديد الذي كونه الفلاسفة والفيزيائيون المعاصرون له؟

لقد أدى الاهتمام بالبحث في طبيعة المادة والضوء ابتداء من القرن التاسع عشر إلى القول بأن لها بنية ذرية وجسيمية، وقد كانت دهشة العلماء والفلاسفة عظيمة. وأن خيبة أملهم كانت أعظم، عندما وجدوا استحالة معالجة الظواهر الذرية بوساطة المفاهيم نفسها الموروثة من العلم الميكانيكي النيوتني. فإذا كان الواقع أجساما والأجسام قابلة للتحديد اليقيني والمطلق في الزمان والمكان، فان علاقات الارتياب ستؤكد عدم صحة ذلك في المجال الميكروسكوبي حيث أبرز هايزنبرغ الطابع الاحتمالي الذي تتسم به الظواهر الكوانتية.

وإذا كان التصور النيوتني يرى للأجسام وجوداً عينيا قائما بذاته في الزمان والمكان لا يتأثر بوسائلنا في بحثه ودراسته والقياس عليه، فإن الإشكالية الكوانتية أبرزت أنَّ هناك تداخلاً بين موضوع البحث ووسائلنا المستعملة في بحثه. أي إن هناك تأثيراً كبيراً تمارسه آلات قياسنا على الظاهرة التي نقيسها. لذلك أصبحت الموضوعية تركيبا جديداً بين الظاهرة المدروسة وأداة دراستها.

إنَّ تطور الفيزياء الكوانتية جعل العلم يعتمد اعتماداً كبيراً على الرياضيات، وهو أمر استدعى تغير نظرتنا للواقع، وإنَّ كثيراً من الموجودات العلمية هي موجودات ذهنية تجد أساس كينونتها في الرياضيات، لذا طغى الطابع الرياضي العلاقي على الواقع. فهي بنيات غير ذات وجود واقعي بالمعنى النيوتوني، ولايمكن إطلاقا التعامل معها كواقع كما يقول هايزنبرغ.

إنَّ البنية المعرفية الكوانتية تحد من معرفتنا وتجعلها ناقصة. إن الجسيمات والأمواج والجزيئات الدقيقة التي أصبحت تزخر الفيزياء الحديثة بها هي أمور ذهنية يعتمد عليها، لإيضاح خواص الضوء والمادة بالنسبة لبعض التجارب. أي إن التصورات الرياضية هي نفسها التي غدت حافزاً على خلق الواقع وإغنائه وهنا تتجلى أسبقية

العلاقة على الوجود، كما يتجلى ضيق صلاحية النظرة الجوهرية إلى الواقع.

إنَّ الفكر العلمي المعاصر لم يعد يقوم على إعطاء وصف لصفات الامتداد الجسمية والعلاقات القائمة بين الأجسام بل أصبح يبدع الأجسام نفسها إبداعا رياضيا مجرداً.

أي أصبح إنشاء للمجرد مباشرة وإضفاء للصبغة الواقعية عليه وبهذا المعنى يمكن الحديث عن انهيار المطلقات الإبستيمولوجية التي ارتكزت على الميكانيكا النيوتونية والعلم القديم. وهذا ما جعل العقلانية الباشلارية تذهب إلى أن التفكير العلمي المعاصر الذي يود لو لم تفلت من أمام ناظريه البشائر الأولية للوجود الواقعي، أي إن الحقيقة لم تعد مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان، بل مطابقة ما في الأعيان لما في الأذهان، وكأن الموضوعية غدت تجد أساسها فيما وراء الواقع نفسه أي في البناء الرياضي العقلي لهذا الأخير.

ويذهب هايزنبرك أحد أعضاء مدرسة كوبنهاجن إلى أن الرجوع إلى التصور الفيزيائي الكلاسيكي في فهم الواقع الكوانتي أمر غير معقول ومستحيل. لأن للظواهر الذرية طبيعة نوعية خاصة.

كما يرى نيلز بور إنَّ النظرية الكوانتية تضطرنا إلى التخلي عن تطبيق السببية والتحديد المكاني والزماني مجتمعين في آن واحد، عندما نريد وصف الظواهر الذرية. وإلى التخلي عن المفهوم الكلاسيكي للموضوعية. إذ إنَّ أي ملاحظة نقوم فيها في الظواهر الذرية تؤدي إلى التداخل والتفاعل بين الظاهرة المدروسة وأدوات القياس، وبالتالي يصبح من غير الممكن اعتبار الظواهر وأدوات القياس كأشياء تتمتع بوجود واقعي فيزيائي مستقل، والملاحظة لا تصف واقعاً بالمعنى الكلاسيكي، بل تخلق الظاهرة الملاحظة خلقاً يتوقف أساساً على اختيار موضوعات يعتقد فيها أنها تشكل جزءاً من المنظومة موضوع الملاحظة. إن الملاحظة ترتد في النهاية إلى إدراكاتنا الحسية، وبما أن تأويل الملاحظات وإعطاءها تفسيراً ما يتطلب استعمال مفاهيم نظرية، فإن اختيار لحظة معينة دون غيرها أثناء وصفنا للظواهر، والتفسير المبني على أساس هذه اللحظة يختلف من حالة إلى حالة.

إذا كان ممكناً تحديد الجسم تحديداً مطلقا في الفيزياء الكلاسيكية، فإن النظرية الكوانتية ترفض ذلك، والاكتفاء بالتحديد في المكان أو التحديد في الزمان، أنهما مظهران يتكامل بهما تصورنا للنتائج التجريبية فمحاولة تحديدهما معاً في آن واحد تصبح متعذرة.

لهذا تنتهي مدرسة كوبنهاغن (بور وهايزنبرغ) إلى إبطال صلاحية التصور الكلاسيكي للواقع على أنه أجسام وبضرورة

إبطال صلاحية المنطق الأرسطي الذي نشأ في أحضان نظرة فلسفية جوهرية باعتباره منطق يعجز عن استيعاب المظهر التكاملي للظواهر الذرية كازداوجية الجسيم والموجة التي تظهر وكأنها تناقض.

وانطلاقا من الانقلاب الذي أحدثه ظهور النظرية الكوانتية في مجال تصورنا للواقع. ذهبت العقلانية الباشلارية إلى أن على الفكر الفلسفي أن يعيد النظر في قيمه وأن يستجيب لهذا التحريض العلمي الجديد بتجديد نفسه لا سيما وأن فلسفة الفكر العلمي الجديد لا ترى أن ثمة مذهباً واقعياً أو مذهباً عقلياً يستطيعان استيعاب الواقع العلمي الجديد في جدليته.

إن الواقع في الميكروفيزياء لم يعد معطىً حسياً، ندركه على صورة أجسام، بل صار تركيبا، أي أنه أصبح ذريعة للتفكير ولم يبق موضوعا للاستكشاف، وأن الشيء أو الجسم فقد أساسه الأنطولوجي في الميكروفيزياء، كما فقد فرديته، وصار مجرد جسم ميكروفيزيائي لا يزيد من معرفتنا عندما نعزله، وإذا نظرنا إليه من خلال دوره الفيزيائي داخل مجموع، فإنه يرتد إلى مجرد وسيلة تحليل، فالواقع لم يعد قابلا للتفرد وهذا ما يجعله ينقلب إلى علاقات وبنيات رياضية، ويجعل تصوره يتحول إلى تصور رياضي لا فيزيائي واقعي، وبهذا يعلن باشلار عن إفلاس النزعة الواقعية التي تنسب إلى الموضوعات العلمية الواقعية العلمية والجوهرية نفسها التي تنسبها إلى الظواهر التي ألفنا التعامل معها في عالمنا الاعتيادي.

يؤكد باشلار إن أهم درس يمكن استخلاصه من الثورة العلمية المعاصرة هو إن الواقع بفقدانه صفته الواقعية الجوهرية، لم يفقد أساسه الموضوعي، بل ازداد هذا الأساس موضوعية، وأصبحت الموضوعية تقترن بتركيبنا للواقع وإنشائنا له رياضياً وهذا يدل على الحوار المستمر القائم بين العقل والتجربة. إنَّ الفيزياء المعاصرة تحقق الالتقاء الذي كان يبدو متعذراً بين الفكر الرياضي والفكر الفيزيائي.

المراجع

١- سالم يافوت، الفلسفة والعلم في العصر الكلاسيكي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٩م.
٢- جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، دار الحقيقة، بيروت، ترجمة أنور عبد الملك، ط٢، ١٩٧٣م.
٣- محمد عابد الجابري، المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م.
٤- زكريا إبراهيم، كانط والفلسفة النقدية، مكتبة مصر، ١٩٦٣م.
٥- فيرنر هايزنبرغ، المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
٦- عبد الكريم اليافي، تقدم العلم، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤م.

الإنسان وديناميكية الشعور بالزمن

د. منير سويداني ❁

في تقديراتنا وحسنا الإنساني المجرد يبدو أن إيقاع الزمن يمر، في بعض الأحيان، بسرعة كبيرة توحي بالذهول. لكنه، في بعض أحيان أخرى، يترنح في مشيته بطيئاً متثاقلا حد الشعور بتوقف ثوانيه. يفسر ذلك البروفيسور جون ماك كومي أستاذ علم النفس بجامعة أريزونا

❁ كاتب وباحث.

فـي تونسـون، قائـلاً: « لا توجـد ثانيتان متساويتان زمنيا ولا يوجد شخصان يشعران بهاتين الثانيتين بالطريقة نفسها.

الخطـأ يكمن في أدمغتنـا التي تهتدي بوساطة ساعات بيولوجية خاصة بها غالبا ما تكـون غير دقيقة ولا يمكن إخضـاعها لقوانين وحسـابات ثابتة، بل لحالات نسبية شـديدة التعقيـد «. والأسـئلة التي تطرح نفسها بهذا الصدد: هل هناك أعراض عامة ملازمة لشرود أدمغتنا؟ هل هناك تعديلات عند الذين يصلون متأخرين عن مواعيدهم؟ لماذا يمضي الزمن أحيانا بسرعة متناهية، وفي أحيان أخرى ببطء شديد؟

إن علـم النفـس يمكـن أن يقدم بعض التوضيحات لمثل هذه الأسئلة، بل إن بعض العلماء والمختصـين من حـاول حل اللغز المتعلق بكيفية شعور العقل البشري بمرور الزمن، وبالعوامل الخارجية التي تؤثر على شـعورنا به، وبماهية البنية الدماغية التي تسيطر على إحساسنا به، من هنا – حسب ماك كومي – فإن قلة الانتباه هي السـبب الرئيسي لتأخر بعض المزمنين بهذه العادة ولشرود بعض الأشخاص الذين لا يتذكرون أبدا أعيـاد الميلاد. وبالتالـي فإن تقدير الزمـن في كلتا الحالتين قد يكون عاديا، لا سيما أن الذين يعانون من ذلك لا يحتاجون لعلاج دائـم في معظم الأحيان. ويضـيف قائـلاً: « إنهم، ربما، لا يرضـون أن تحدث هذه الظاهـرة، لأن الشـخص الذي يفقد الشعور بالزمن يكون خاضعا لكمية كبيرة من المعلومات، وبالتالي غير قادر على تذكرها، وهذا ما يجعله يضـعها في المرحلة الثانية مـن الأهميـة «. أما عالمة النفس سـارا فيرنانديز، المدرِّسـة في جامعة كمبلوتشي بمدريد، فإنها تعطي مثالاً على ذلك قائلة: « يحـدث أحيانـاً أن يتعرض شـخص ما لضـغط نفسي عال جداً، لأن عليه واجبات كثيرة يجب إنجازها وليس لديه قدرة سريعة علـى التعامل مع هذه المهام المتعلقة بهذه الواجبات».

آراء مختلفة في تقدير الزمن

يعتبـر البعضـ أن الانتبـاه هـو أحد المتحولات المهمـة الأكثر ارتباطاً بطريقة تقديرنا لمرور الزمن، ومؤيدو هذه النظرية (موديـل الانتباه)، يسـلمون بوجود سـاعة إدراك أو (timer) مهمتهـا إنتاج أو تعديل معلومات مرتبطة بالزمن، هي ساعة قياس الوقـت في الدمـاغ، التي تخـزن وحدات الزمـن الذاتية وتحسـب المدة الفاصـلة حسب عددها، فعندما يكون دماغنا متيقظاً لكثيـر من الأشـياء، تزداد كميـة وحدات الزمن هذه، وتقر تلـك النظرية نوعين من العلاقـات: من جهة، عندمـا يكون الانتباه كبيراً، يستوجب مهمات أخرى، وبالتالي دقة

الساعة تكون سيئة، ومن جهة أخرى، عندما تكون النشاطات غير متعلقة بالزمن وتحتاج لانتباه أقل، تكون الدقة عالية، وفي هذه الحالة نمل أكثر، وكمثال على ذلك، عندما نحاول إنجاز عملين معاً في الوقت ذاته، من المحتمل أن يكون تقديرنا لزمن أحد العملين المحسوبين غير صحيح.

وإضافة إلى عامل الانتباه يشير بعض المؤلفين إلى أن تقدير الزمن يكمن في كمية المعلومات المخزنة في الذاكرة، ويرى البعض الآخر أنه يوجد معالجان مختلفان، الأول مخصص لمعالجة المعلومات الزمنية والثاني مخصص لمعالجة المعلومات غير المتعلقة بالزمن، ويشيرون إلى أن المعالجين لا يعملان بشكل متوازٍ في هذه الحالة. وما دمنا نتحدث عن الزمن وتقديرنا له، تجدر الإشارة إلى أن هناك أشياء تجعلك تحس به أكثر من أشياء أخرى، وعلى سبيل المثال، إن فترة عرض الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية تنتهي وفترة قراءة الكتب تنتهي. أما الإنترنت فقد زعزعت بشكل كامل مفهوم الزمن، فعندما تشغل الحاسوب وتدخل إلى الشبكة العالمية للمعلومات لفترة قصيرة بقصد رؤية الرسائل الإلكترونية المرسلة إليك، وإلقاء نظرة سريعة على آخر الأخبار العالمية في المجالات السياسية والثقافية والعلمية، فلا تحس بعد إقفال الحاسوب إلا بأن الوقت قد زاد على ساعتين، لأن الإنترنت ليس لها وقت بداية ووقت نهاية فكل صفحة تؤدي إلى مئة صفحة أخرى والأمور الجديدة التي تقدمها هذه الصفحات تنسيك الوقت، لاسيما إذا كان مؤشر الوقت غير مرئي، وهذا لا يحدث عند متابعة الأفلام مهما كانت طويلة.

دور الانفعال في الإحساس بالزمن

هناك بعض العوامل مثل الانفعالات أو حالات النشاط تؤثر في إحساسنا بالزمن، ويقول عالم النفس في جامعة بادونا، أليكساندرو أنغولي، إن انشغال البال والغضب، على سبيل الذكر، يطيلان الوقت، إضافة إلى الإحساسات الفيزيائية السلبية مثل وجع الرأس والجوع، وليس مصادفة أن تكون الاختلافات الزمنية الأكثر وضوحاً هي التي تحدث في اللحظات التي يكون فيها الشخص في حالة خوف أو توتر شديدة. وغالباً، ما يشعر الأشخاص الذين يتعرضون لحادث سير بأنهم يعيشون اللحظات الأكثر خطراً وأنها بطيئة جدّاً ويندهشون لكثرة التفكير الذي يدور في رؤوسهم خلال أجزاء من الثانية.

يمكن أن تكون تناوبات الزمن الذاتية محرضة صناعيا بوساطة عينات مهيجة أو مهدئة حسب ما يؤكد روسل تشارش المختص

بالأعصاب في جامعة يرون الأمريكية والذي أعطى أدوية معالجة نفسية لقرود وقوارض، وكان يقيس في كل مرة سرعة الإجابة حيال مهيجات محددة، وتنص فرضية هذا العالم على أن هذه العينات النفسية تؤثر على الساعة الداخلية للمخ، معدلة إيقاعه الطبيعي، ويشير باحث آخر في الموضوع ذاته إلى أن العينات النفسية المباشرة تؤدي إلى تغيرات (تناوبات) في الحالة الانفعالية عند الأشخاص الذين يتناولونها وتؤثر بشكل غير مباشر على سرعة مؤشر الزمن وعلى تقديرنا له.

دور الجنس والعمر في تقدير الزمن

هل تختلف قدرة الشخص على قياس الثواني أو الساعات بدقة عند الذكر عن الأنثى؟ حسب المعلومات المتوافرة حتى الآن وكما يقول البعض: لا توجد نتائج نهائية تسمح بالحكم في ذلك، إلا أن بعض الدراسات تدل على أن الرجال أكثر دقة من النساء في تحديد الوقت، ولم تؤكد جميع هذه الدراسات ذلك حسب قول لورديس اسبينوسا، أما فيما يتعلق بالعمل، فقد أعدت فرضيات مختلفة إلى حد ما عن تأثير العمر في تقدير الزمن، منها: يشير بعض الباحثين إلى أن التسارع سرعة مرور الأشهر والسنوات عند الكبار، يعود إلى أن الكبار يستعملون أعمارهم لتقدير السرعة، لأن الخبرة الطويلة للمعمرين تعطيهم توقعاً خاصاً فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل، ولهذا فإن عاماً من عمر الشخص هو شيء بسيط مقارنة بالأعوام الطويلة التي مرت عليه، وحسب قول هذا الفريق من الباحثين، فإن المعمرين يحسون بأن الأيام تمر ببطء ولكن الأعوام تمر بسرعة، ويشير باحثون آخرون إلى أنه مع مرور الأعوام، توجد عناصر جديدة أقل بروزاً في الحياة، تكون مخزنة في الذاكرة، ويشير البعض الآخر إلى أن الزمن الفيزيائي يتسارع مقارنة بالباطني، لأنه مع مرور الزمن تنقص سرعة الدورات الداخلية مع التحولات الغذائية (الاستقلابات) بشكل عام. لهذا يمكن القول: تنقص الدقة في تحديد الزمن مع ازدياد العمر. وإضافة إلى ذلك، فقد أقرت دراسة أنجزت في إسبانيا أن تحديد الزمن يكون أكثر دقة عند الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ عاماً، وبعد الـ ٣٠ من العمر تبدأ دقة تحديد الزمن بالنقصان.

الساعة البيولوجية وحساب الزمن

حاول بعض الباحثين من خلال أبحاثهم التي أجروها في السنوات الأخيرة تحديد البنية والآلية الدماغية المرتبطة بتقديرنا للزمن، وقد ساعدت تقنيات الصور، التي

تسمح بدقة تحديد أي جزء من المخ ينشط عند إنجاز مهمات محددة، على القول – ولو بتحفظ – إن العقد القاعدية والمخ يلعبان دوراً مهماً في تحديد الشخص لزمن، وقد أجريت تجارب على ١٧ متطوعاً صحيحي البنية، فكان المشاركون يسمعون إشارتين صوتيتين في برهتين من الزمن، ووجب عليهم تحديد ما إذا كان عندهم المدة نفسها. خلال التجربة أشار جهاز التجاوب المغناطيسي العامل إلى أن المراكز العصبية بدأت بالعمل، ونتيجة التجربة المنشورة في المجلة العلمية Nature Neuroscience، أشارت إلى أن الساعة، التي كان المشاركون يستعملونها لقياس مدة الصوت، تتواجد في ما يسمى العقد القاعدية.

مما تقدم يمكن القول إن هناك عوامل متعددة تتعلق بتقديرنا للزمن، هذا الموضوع المهم الذي يخصنا جميعاً، ولا سيما في هذه الأيام التي كثرت فيها مشاغلنا واهتماماتنا وتعددت الوسائل العلمية المتطورة المساعدة على ترفيهنا وعلى كسب المعلومات التي تقيدنا، وعلى سرعة تواصلنا. الأمر الذي حث الكثيرين من المهتمين على الخوض فيه، سواء بنشر المقالات أو بإعداد الدراسات، أو بتخصيص مواقع على شبكة المعلومات العالمية تتعلق به. في حالة الخطر، يشعر الشخص بأن الوقت بطيء جدّاً.

« تيك تاك. الليل طويل لمن يعانون الأرق. أين تكمن ساعة تغيير الزمن ؟». . هذا السؤال المشاغب الذي يطرح نفسه لدى الكثيرين ممن باتوا ينسون حتى استحقاقات علاقاتهم الاجتماعية والإنسانية. .

الأحـــلام

نصر الدين البحرة

حـلـم لاح لـعـيـن الـسـاهـر
وتـهـادى فـي خـيـال عـابـر
وهـفـا بـيـن سـكـون الـخـاطـر
يـصـل الـمـاضـي بـيُـمـن الـحـاضـر

«أحمد فتحي»

كثيرة جدّاً هي الأحلام التي رأيتها في نومي، خلال سنواتي العديدة الماضية، وهذا أمر طبيعي، لكن ثمة حلمين، بينهما فسحة طويلة من العمر، لا أنساهما.

كان الأول عام ١٩٤١، وأنا في الصف الابتدائي

أديب وناقد وإعلامي.

الأول، وقـد حفظـت بعض سـور القرآن الكريم القصـار. كنت نائمـاً بجانب أمي، وأبي في الطرف الآخر، وقد استيقظت بعد الحلم المخيف مباشرة: رأيت والدي جالساً على كنبـة وثيرة أنيقة في بزته البيضـاء، وعن جانبيه شـيطانان، في رأس كل منهما قرنان، وذيله الطويل، بدا من خلفه. وكانت هذه صـورة الشيطان في الفولكلور الشعبي. أيقظت أمي وأنـا أرتعد رعباً، فقالت لي: اقرأ في سـرك، سـور الإخلاص والفلق والناس، وكرّرها ثم ضع رأسك.. ونم.

بعد هذا الحلم بشهور قليلة، أغمض أبي عينيه وفارقنا.

الحلم الثاني رأيته عـام ١٩٥٥، وكانت أسرتي قد انتقلت للإقامة في حي القيمرية (سـتي رابعـة)، وفيه غرفة علـى الطريق بأربعة شبابيك أحبها، وأبحث عن مثيلاتها. الآن. لأتأملها في حالة عشق عجيبة.

لسـت أذكر الوقت الذي شاهدت نفسي أطير فيـه وأُحلق حتى أبلغ سـقف الغرفة ذاتها مرات عدة، ولكني في ذلك الصـيف أرسلت قصة قصيرة عنوانها «أبو دياب يكره الحرب». نشرت في مجموعتي الأولى «هل تدمع العيون». مع ترجمتها إلى الفرنسـية، إلى المسـابقة الأدبية في مهرجان وارسـو العالمي للشباب والطلاب الخامس ففازت بالجائـزة الثانية، وكان بعض القصاصـين السوريين قد شاركوا في هذه المسابقة التي كان رئيس لجنة المحكمين فيها الشـاعر التركي الكبير ناظم حكمت.

حتى الثدييات.. تحلم

يعـرّف الأسـتاذ نعيم الرفاعـي الحلم Dream فـي «الموسـوعة العربيـة» بأنه تركيب نفسـي يضم سلسـلة من الأحداث المتخيَّلـة، ويتميـز بأن النائـم يعدّ الحلم الذي يجري لديه أمراً واقعاً.

ويمر الإنسان النائم بعدد غير قليل من الأحلام في الليلة الواحدة، وإن ما تشـغله الأحلام من نوم شخص في العشرينات من عمـره، في كل ليلة يعـادل ما بين ٢٠. ٢٢٪ من ساعات نومه. كما أن أحلام النوم تحدث لدى الإنسـان في مختلـف مراحل عمره، وتؤكـد الدراسـات أن الحيوانـات الثديية تحلم أيضاً.

ترى.. هل هنالك من لا يحلم؟

يلاحـظ الأسـتاذ الرفاعـي أن الواقع العلمـي يؤكد أنـه ما من إنسـان لا يحلم، ولكن عدم تذكره لأحلامه، يعود إلى عملية كظم لديه، وذلك بإبعاد الذكريات الخاصـة بآلامه، لأن وصـولها إليـه يؤدي إلى تهديد يشعر معه بخطرٍ ما يؤثر تفاديه.

الأحلام.. في سرعة هائلة

والأحـلام، كما يذكر الدكتوران سـامي

الدروبـــي وعبد الله عبد الدائم في كتابهما «الموجز فـــي علم النفس» تجري بســـرعة هائلة غالباً غير حاســـبة أي حساب للزمن «ففـــي دقائق، بل في ثـــوانٍ معدودات يرى الإنســـان في المنام جملة مـــن الأحداث لا يمكـــن أن تجري في الواقـــع إلا خلال أيام بل.. شـــهور» وهكذا رأى عالم النفس موري Maury أنه في عصـــر الإرهاب الذي تلا الثورة الفرنســـية، وأنه شهد فظائعه وكثيراً مـــن حوادثه، وســـيق إلى المقصـــلة وقطع رأسه. وقد أكدت أمه التي كانت تراقبه وهو نائم، أن كل ما هنالك أن قضـــيب الســـرير الذي كان نائماً فيه ســـقط على عنقه، ولم تمض عليه سوى ثوان معدودات.

أصناف الأحلام

تذهـــب الدراســـات المتأثرة بمدرســـة التحليل النفسي إلى وضع الأحلام في أربعة أصناف:

الأحـــلام النموذجية، أحـــلام العقاب، أحلام القلق، أحلام الكابوس، وأضـــيف أنا إليها الأحلام الهيبناغوجية Hypnagogic وأحلام اليقظة.

يعرّف قاموس علم النفس. طبعة بنغوين منـــذ عـــام ١٩٥٢. تأليف: جيمســـ دريفر الأحلام الهيبناغوجيـــة بأنها ما يحدث في حـــال النعاس قبـــل الوقوع فـــي النوم. بين حالـــي النوم واليقظة. وتتخـــذ في الأغلب شكل هلوسة Hallucination.

جرة العسل وأحلام اليقظة

وتحـــدث أحلام اليقظة لدى استســـلام الإنســـان إلـــى التأمـــلات، وإلقـــاء العنان للخواطر، فيجري الانتقال في غير ما نظام مـــن فكرة إلـــى فكرة، ويجمـــح الخيال من مكان إلى مكان، ويذكّرنا هذا الشيء بذاك، وفي أحلام اليقظة تُبنى قصـــور في الهواء، ويُتخيل المستقبل الزاهر، ويُخاصم الأعداء ويرد على الخصـــوم، كما يقـــول الدكتوران الدروبي وعبد الدائم.

وهناك حكاية «جرة العســـل» التي تروى في هذا المجال، وهي من المأثور الشعبي، فإن صاحب هذه الجرة المعلقة في السقف فوق رأســـه، اســـتوحى منها صـــوراً عِذاباً وأحلاماً طوالاً: فهو ســـوف يبيعها ويشتري بثمنهـــا دجاجـــاً، وســـوف يتكاثـــر الدجاج فيشتري بثمنه خرافاً، وسوف تحمل الخراف وتُتئم، فيشتري بثمنها بيتاً يتخذ فيه زوجة تنجب له ولداً مطيعاً، وسيؤدب ذلك الولد، ولن يكون جزاؤه إنْ عصا، إلا العصا، وهوى بالعصا، فأصابت الجرة وحطمتها.

بائعة حليب «لافونتين»

ومثلها قصة «بائعة الحليب» التي ينقلها الدروبي وعبد الدائم عن الفرنسي لافونتين

La Fontaine ١٦٢١. ١٦٩٥، الشـاعر صـاحب كتاب الأمثال. فهـو يذكر ما بنته على وعاء الحليب الذي تحمله فوق رأسـها من آمال وأحلام أذهلتها عن واقعها، وجعلت قدمها تزل ووعاءها يسـقط إلى الأرض مع أمانيها الجميلة.

إنَّ مؤلفَـي «الموجز في علـم النفس» يلاحظان أن صـاحب أحلام اليقظة يبغي عن طريقها أن يؤكـد احترامه لذاته، وهي ضرب من الترويح عن النفس والتنفيس عن الرغبـات، والتعويض عـن نقائص العالم الواقعـي وقسـوته، وهناك من يسـتغنون بأحلام اليقظة عن عالم الواقع، مثلما يعيش مدمنـو المخدرات في عالمهم المسـحور، ومثـال هـؤلاء الحالميـن المسـتيقظين «دون كيشـوت» في رواية الكاتب الإسباني سـرفانتس، فهو يعيش في عالم صنعه من أحلامـه، ويظنـه واقعاً، يحـارب طواحين الهواء ويسـجل لنفسه نصراً عليها، ويعدّها حصوناً فتحها، ويبقر بطون الخراف بسيفه ويحسـبها أعداء له، ويُنصّب نفسه مدافعاً عن اليتامى والأيامى.

الكابوس وأحلام النوم النموذجية

أمَّا أحلام النـوم فإن «النموذجية» منها تؤلف الأشـكال الشـائعة بين الأحلام من حيث المحتوى والدلالة، كأحلام الامتحانات وموت شخص عزيز. وأحلام العقاب تنطوي على تحمل الشـخص عقاباً ما في محتوى الحلم، ويتصـل ذلك بمكونـات الحلم التي تكون محرّمـة في حال اليقظـة، وتحدث أحـلام القلق حين يخفق الحلم في وظيفته الهادفة إلى تحقيق رغبة لا شعورية، وتكون النتيجة ظهور القلق واستفاقة الشخص من نومه.

علـى أن الغالـب في أحـلام الكابوس Nightmare أن تكون قاسـية، ويمر بها كل إنسان، خاصة الأطفال، وهي في النتيجة ضرب من أحلام القلق.

محتوى الأحلام.. والمسائل والرؤى

يقول الأستاذ نعيم الرفاعي تحت عنوان «محتوى الأحلام» في «الموسوعة العربية»: تتأثر كميـة الأحلام لدى النائم ومحتوياتها بمـدى عمق الخبرات السـارة أو المزعجة التي يكون ذلك الشـخص قد مـرّ بها في نهاره، وتزداد مع ازدياد ما يضايقه، وترتفع عادة كمية الأحلام لـدى الذين يعانون من توتر عاطفي دوري أو من اضطراب نفسي، يكون في مطلع تكونه أو شدته.

ويسـتطرد الأستاذ الرفاعي قائلاً: «من الممكـن القول إن التركيـب التخيلي الذي يتألـف منه الحلم، والذي يتذكر الشـخص الكثير منه حين يسـتفيق مـن نومه، يمكن

أن يقدم إشـــارات يستفيد منها اليقظ، وقد يكون بين هذه الإشـــارات ما يقدّم المفتاح لحل المســـألة التي كان الشـــخص يناقشها قبل النوم».

وأتذكر الآن ما ســـبق أن قرأته في سيرة الخوارزمي محمد بن موســـى المتوفى سنة ٢٣٢هـــ . ٨٤٧م وهو أول مـــن حلّ معادلات من الدرجة الثانية، وأول من أطلق مصطلح «الجبـــر» وأهـــم مؤلفاته «المختصـــر في الحســـاب والجبر والمقابلة»، فإنه رأى مرة وقد غفا في المســـجد، حيـــث كان يحاول أن يحـــل إحدى المعـــادلات، في الحلم حل تلك المعادلة. ومثل ذلك ما جرى للشـــاعر الإنكليـــزي كولريدج صـــموئيل تيلر ١٧٧٢. ١٨٣٤ حيـــن رأى فـــي الحلـــم ٥٤ بيتاً من قصـــيدته «كبلاخـــان» تذكرهـــا كلها لدى صـــحوه فسجلها ولكنه لم يســـتطع إتمامها حول «قصر همجي مقدس وساحر، بضياء قمر، يتضـــاءل منزعجاً بعويـــل امرأة على حبيبها اللعين».

«تفريغ طاقات مخزونة»

مـــن جانب آخر، فـــإن وظيفـــة الحلم، أنـــه يمكّن من تفريغ طاقـــات مخزونة، بأن يحقق رغبات لصـــاحبه، منـــع من ظهورها في الحياة الواقعية عدد من الظروف، بينها ضـــعف إمكانات الرائي أو شـــعوره بما هو محرم اجتماعياً أو غير مقبول.

علـــى أن الوظيفة الأهـــم للحلم تتجلى في تيسيره استمرار النائم في نومه وتمتعه بخيـــرات النوم عن طريق مـــا تنطوي عليه الأحلام من تمويه وتحويل، ومما هو جذاب ومُلذّ.

لابد قبل الاسترســـال فـــي الحديث عن تفسير الأحلام، من الإشـــارة إلى أن القول بوجود دلالة للأحلام قديم في حياة الإنسان، وواضح الانتشار في حضاراته المختلفة، ولا بد أيضاً من الوقوف عندما يدعوه الأستاذ الرفاعي «حالة خاصـــة في قصـــة يوسف» الواردة في القرآن الكريم، وهي المتصـــلة برؤيا الملك ســـبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وتأويل يوسف لهذه الرؤيا بأنها تدل على سبع سنوات خصاب، تأتي بعدها سبع سنوات يســـودها القحط... «إن الله اجتبى يوسف وعلمه من تأويل الأحاديث ما لم يكن يعلم».

حلم.. فسره فرويد

ومن الضروري تقديم مثال من الأحلام التي فســـرها فرويد Sigmund Freud: ١٨٥٦-١٩٣٩ وأورده الدكتـــوران الدروبـــي وعبـــد الدائـــم، لتبيان الفـــرق بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن:

قصت ســـيدة الحلم التالي على فرويد:

«أود أن أقيم مأدبة عشاء، غير أنني لا أجد لدي من مؤن البيت سوى قليل من السردين، فأمضـــي إلى الباعة لأشـــتري ما أحتاجه. ولكنني أتذكر أن اليوم هو الأحد والمحلات مغلقـــة، فأحاول الاتصـــال ببعضـــ بائعي الجملـــة، لكني ألاحـــظ أن الهاتف معطل، عندئذ أضـــطر إلى التخلي عن رغبتي في تقديم العشاء».

إنَّ ظاهر هـــذا الحلم لا يدل على إرواء رغبة، بل يـــدل على معاكســـة الرغبة، أما فرويد فإنه بحث معناه الخفي، فوجد لدى سؤال صاحبته أن زوجها جزار ـ لحام ـ وأنه قال لها منذ أيـــام إنه يزداد بدانة يوماً بعد يوم، وإنه يرغب في اتباع نظام حمية خاص ليصبح أقل بدانة، كأن يستيقظ باكراً ويقوم ببعضـــ التماريـــن الرياضـــية، ويتبع حمية صارمة ولا يقبل أي دعوة على العشاء.

«لن أدعوك ليحبك زوجي»

تبين لفرويد أيضاً، بعد أن سأل السيدة ملحاً عن أحوالها، أنهـــا زارت أمس إحدى صـــديقاتها، وأنها مصابة بغيرة شديدة من هذه الســـيدة، لأن زوجها الجزار يمتدحها دوماً. ولكن هذه السيدة ـ هي لحسن الحظ ـ نحيلة رقيقة في حين أن زوجها يحب النساء الممتلئات البدينات، ولهذا كان حديث هذه الســـيدة النحيلة التي يودهـــا زوج الحالمة يدور دائماً حول رغبتها في أن تســـمن، بل إنهـــا ســـألت بالأمس صـــاحبة الحلم: متى ســـتدعينا إلى العشـــاء من جديد. إن المرء يأكل جيداً عندك.

واســـتنتج فرويد المدلول الباطني لهذا الحلم: «هيهات يا صديقتي! إنك تريدين أن أدعوك إلى العشـــاء، لتأكلي جيداً وتسمني فيحبك زوجي» وهكذا حقق الحلم رغبتها، فجعلهـــا في موقف من لا تســـتطيع تقديم عشـــاء، ولا تقدر بالتالي أن تلبي رغبة هذه الصديقة الطامعة في زوجها.

فرويد: كل حلم بناء نفسي

في ضـــوء هـــذا الحلم، نتذكر ما ســـبق أن قالـــه فرويد في مقدمة كتابه «تفســـير الأحـــلام»: «ســـوف أقيـــم البرهـــان فـــي الصـــفحات التاليـــة، على أن ثمـــة منهجاً ســـيكولوجياً يمكن به تفسير الأحلام، وأننا إذا استطعنا هذا المنهج، تكشف أمامنا كل حلم فـــإذا هو بناء نفســـي ذو معنى، يمكن الربط بينه وبين مشاغل اليقظة في موضع معلوم».

ويفصّـــل فرويـــد القـــول في مـــا يلزم لتفســـير الحلم، ويلح على ضرورة فهم نوع الارتباطـــات الموجودة بين عناصـــر الحلم والرغبات التـــي تحركـــه، والأغراض التي ينتهي إلى تحقيقها.

ابن سيرين وتعبير الرؤيا

مهما يكن من أمر، فيعسر تجاهل ابن سيرين. محمد البصري (٣٣ ـ ١١٠هـ = ٦٥٣ـ ٧٢٩م) وتفسيره الأحلام في كتابه «تعبير الرؤيا» فإنه أورد في كتابه هذا ـ الذي لا يزال يطبع ويعاد طبعه حتى اليوم ـ الكثير الكثير مما يمكن أن تنطوي عليه الأحلام، وما يحتمل أن تدل عليه، مع الإلحاح على أن العلم عند الله. ويقول الأستاذ الرفاعي: إن الغالب عند ابن سيرين أن يقدم الحل ـ أي: تفسير الحلم ـ جاهزاً ذاكراً ما يدل عليه هذا الرمز أو ذاك.

وينتهي نعيم الرفاعي في حديثه عن تفسير الأحلام في «الموسوعة العربية» إلى الإشارة إلى أصحاب الاتجاه الحديث الذين يعبرون عن منحى فرويد ويتابعون خطواته، ويُحِلّون الأحلام مكانة خاصة في فهمهم الشخص ومشكلاته. يضعون قوائم مطوّلة في الرموز التي يمكن أن تظهر في الأحلام ودلالتها. ولكن تأويل الحلم يبقى لديهم عملية فردية خاصة بكل حلم وكل شخص. مع العلم أن الشخص الحالم يساعد عالم النفس العامل في تفسير الحلم، على الوصول إلى غرضه، عن طريق ما يذكره هذا الشخص من شروح وبيانات في شأن الحلم، موضوع التفسير.

أحلام تفسيرها في المستقبل

حلم الشاعر الإنكليزي المشهور شيلي Shelly ١٧٩٢ـ ١٨٢٢ صاحب «بروميته» و«إلى طائر» أنه رأى «أليغرا» ابنة الشاعر الآخر لورد بايرون Byron ١٧٨٨ـ ١٨٢٤ صاحب «دون جوان» و«رحلة تشيلد هارولد» الصبية «أليغرا» وكانت متوفاة تنهض من خليج «سبيزيا» في إيطاليا، فتمسك في يديه وتبتسم له.

وفي حلم آخر شاهد صديقيه «إدوارد وجين ويليامز» يلقيان حتفهما في منزل يكتسحه الفيضان قرب البحر. ولم يمض زمن طويل حتى غرق شيلي وإدوارد ويليامز في خليج سبيزيا، كما هو ثابت تاريخياً.

ويذكر الشاعر الألماني العظيم غوته Goethe ١٧٤٩ـ ١٨٣٢ وهو من أكبر أدباء ألمانيا وصاحب «فاوست» و«آلام فيرتر» في ترجمته الذاتية هذه الحكاية الغريبة: انطلق يوماً ممتطياً حصانه في إحدى الغابات، فشاهد «حلم» في لحظة ما صورة أخرى له قادمة باتجاهه من طرف الطريق المقابل، وبعد ثمانية أعوام، فيما كان غوته راكباً في الطريق نفسه، انتبه فجأة إلى أنه يرتدي الثوب نفسه الذي شاهد صورته فيه، في تلك الومضة ـ الحلم، وكان يسير على حصانه في الاتجاه المعاكس، أي في الاتجاه نفسه الذي كانت صورته قادمة باتجاهه قبل ثماني سنوات.

وعاشــ الروائـــي الإنكليزي المشـــهور تشارلز ديكنز Dickens ١٨١٢ـ ١٨٧٠ وهو مؤلف «قصـــة مدينتين» و«أوليفر تويست» رؤيا مشابهة، فقد غفا في مكتبه ذات ليلة، فرأى في الحلم ســيدة ترتدي شالاً أحمر، وقد أدارت ظهرها إليه، ولم يعرفها عندما التفتــت في الحلم، لتقدم نفســها على أنها «ميســ نابيــر». وفــي الليلة التاليــة، زاره أصدقاؤه وكانت معهم ضــيفة ترتدي شالاً أحمر، قدموها إليه على أنها «ميس نابير».

وفي كتابه «خطوات على قاع المحيط» يتحــدث د. فخــري الدبــاغ عما يســميه: الإدراك المســبق Precognition، وهــو قابليــة الفرد في اســتباق الحوادث، وتوقع ما ســيحدث قبل وقوعه بساعات أو أيام أو أشــهر، وأكثر ما يحــدث ذلك في الأحلام، ويقــدم د. الدباغ المثــال التالي من خلال واقعة سجلها العالم اليوناني د. تانا غراس Tanagras، تفيد بأن طفلاً رأى شبحاً أبيض كلمه وحذره من أنه ســيموت حين تدهسه إحدى السيارات، فهرول الطفل خائفاً ليعيش بين الجدران، في دار جدته، وذات يوم خرج الطفل ليلعب في الطريــق، عندما اقتربت منه ســيارة، فســارع إلى الرصيف والتصق بالجدار في منتهى الحذر، غير أن السيارة صعدت الرصــيف، واتجهت نحوه لتسحقه على الحائط.

الدبلوماسية العربية ...
فنٌ رصين وعلمٌ أصيل

منيب هائل اليوسفي ❁

من المعروف أن الاصطلاح في العصر الحديث قد استقر على أن السفير هو وكيل حكومته المرخَّص له بتمثيلها لدى دولة أخرى في جميع المفاوضات الهامة، فالسفير في عرف علم السياسة هو ذلك الشخص المرسل رسمياً من دولة إلى دولة أخرى ليكون نائباً لا وكيلاً.

ولقد كان هذا المعنى الحديث معروفاً في تاريخ العرب والإسلام، فكانت السفارة في الجاهلية من المناصب التي دانت لقريش وبطونها، وكان معناها عندهم أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير مفاخراً ورضوا به.

أمَّا معنى السفارة في صدر الإسلام فلم ينزر من معناها في الجاهلية، إذ كانوا يتبادلون السفراء للصلح والمخابرة، كما في سفر علي بن أبي طالب بين الناس وعثمان ابن عفان في الفتنة التي حدثت قبل مقتله، واستمرت الحال كذلك في عهد بني أمية، فكانوا في حروبهم وفتوحاتهم إذا تداعوا إلى الصلح مشى السفراء بينهم، إلاّ أنهم لما تحضَّروا وأخذوا بأسباب المدنية بعد

❁ محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

رسوخ قدمهم في مملكتهم واسعة الأطراف وكثرت علاقاتهم بالدول والممالك المعاصرة لهم تغير معنى السفارة عندهم قليلاً، فكانوا يرسلون السفراء، وعلى الأخص في عهد العباسيين، إلى الملوك والأمراء، ليس في أحوال الصلح فقط، بل كذلك في المخابرات والمفاوضات السياسية والودية وحوادث المصاهرة.

ولم تقتصر السفارات على الخلفاء والأمراء المسلمين بعضهم وبعض، بل شملت علاقاتهم التجارية والسياسية مع رؤساء الدول الأجنبية، فجرت السفارات الإسلامية بين العباسيين وملوك الشرق في الهند والصين، كما جرت بين ملوك أوروبا وملوك الإسلام في الشرق والأندلس.

والتاريخ حافل بأخبار السفارات التي كانت لا تنقطع بين الخلفاء المسلمين في الأندلس وبين ملوك الفرنجة.

ويتبين من استعراض الأغراض التي كانت تستهدفها السفارات الإسلامية مدى أهمية الأعمال التي كان يضطلع بها السفراء في البلاد الإسلامية بوصفهم جماعة من الممثلين الرسميين الدائمين أو المؤقتين الذين يأخذون على عاتقهم مهمة تنفيذ سياسة حكومتهم في الخارج، والذين يتخذون من هذا العمل وظيفة لهم تتسم بشرف أدائها ودقتها وخطورتها على المجتمع الإنساني بأسره، فهي من أعظم المهن التي يكرس الفرد النابه حياته لإتقانها والإفادة من رسالتها.

فالفن الدبلوماسي، كما يطلق على هذه الوظيفة في المصطلح الحديث، يمثل قوة الدولة في صلاتها بالعالم الخارجي، لأنه يجمع بين جنباتها العوامل المختلفة التي تمثل هذه القوة، ويحاول رجاله استغلال هذه العوامل بمهارة في دعم سلامة الدولة والمحافظة على كيانها، وذلك بكسب الأصدقاء وشل إرادة الأعداء وتحطيمها، ويصل التوفيق بهؤلاء الرجال إلى الذروة عندما ينجحون في تحويل الأعداء إلى أصدقاء أو على أقل تقدير إلى محايدين، وهم يقومون بدور الدعاة لقوة الدولة وإمكاناتها وإليهم يرجع الفضل في تبوؤ الدولة المركز اللائق بها والذي تؤهلها له مقوماتها حين يحسنون أداء واجبهم ويعرفون كيف يكوّنون رأس مال من الثقة والصداقة وفي ميدان السياسة الدولية.

لهذا، فإنه يتبقى أن تتوافر في السفير المواهب والمؤهلات التي من دونها لن يستطيع الوفاء بالتزاماته الكبيرة، فهو يمثل مصالح بلاده ويعبر عن سياستها لدى الموفد لديهم، ومن ثم يجب أن يكون مثلاً عالياً في الخلق الممتاز لأنه عنوان دولته والناطق بلسانها. وهو كذلك يتتبع أنباء البلاد المضيفة وينقلها أولاً بأول إلى حكومته مع محاولة التنبؤ مقدماً بأي اتجاه

جديد قد يظهر فيها، وهنا يحضرني ما كان يقوله لي الدكتور محمد عزيز شكري (رحمه الله) والذي كان يشغل منصب عميد كلية الحقوق وأستاذ القانون الدولي في جامعة دمشق بأن السفير هو جاسوس شريف، ولذلك يجب أن يتصف السفير بالكياسة و الذكاء في عمله.

ولما كانت المهمة الأولى للسفير هي توثيق علاقات دولته مع الدول الأخرى حتى تطمئن إلى سلام يساعد حقاً على السير قدماً في جو من الاستقرار دون الزج بها في حمأة التهور السياسي وفقدانها مكانتها الدولية وانغماسها في مغامرات قد تضيع عليها مصالحها الحيوية، مما يضعف من شأنها ويورث الشعب الوهن ويفقده قوى هامة مادية ومعنوية وقد يزج بها في حرب مدمرة تقضي على مستقبل الأمة، ولما كان الأمر كذلك فلا مناص من اختيار السفراء ممن يتصفون بالقدرة على المفاوضة، لأن تنظيم العلاقات الدولية إنّما يبدأ بالتفاوض فعقد الاجتماعات ثم إبرام الاتفاقات والمعاهدات.

وقد يسير هذا العمل سيراً منتظماً كمجرى النهر الضخم في الوادي المنبسط السهل، وقد تعترضه العقبات والشلالات فيتعثر في المسير، والسفير الكفء هو الذي يتلافى المنازعات ويحل المشكلات ويكسب المعركة بالإقناع والتأثير في الطرف الآخر تأثيراً خفياً أو ضمنياً دون أن يظهر لهفته وتهافته على حل المشكلة.

ونظراً إلى أنه لم تكن ثمة دراسات تدريبية منظمة (بالمفهوم الحديث) للسفراء في العصور القديمة لتربية ملكاتهم وتنمية كفاياتهم وتوفير عدد كبير من المتخصصين في الفن الدبلوماسي، فقد كان اختيار السفراء يتم في الدول الإسلامية على أساس المواهب والملكات الفطرية والتجارب، فلا ينتقون من طبقة ممتازة أو غنية لأنه لا طبقية في الإسلام، وإنما يُختار الرجل القدير الذي يجمع بين سعة الأفق والإحاطة بظروف الدولة التي يمثلها والدولة التي يوفد إليها وبين اتساع الثقافة وسمو العقل والمنطق، ولقد عبّر معاوية بن أبي سفيان عن جوهر الصفات والمناقب التي يجب أن يتحلى بها السفير في قولته المأثورة: « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا أرخوها شددتها، وإن شدوها أرخيتها».

وفي هذا التعبير المجازي عن تصريف الشؤون العامة للدولة وسياسة الحكمة في اتصالها بالأفراد والقبائل والأمصار في الداخل، أو بتنفيذها في علاقاتها الدولية في الخارج، قدم لنا العرب تعريفاً لما اشتهروا به من مرونة ومهارة دبلوماسية في لقاء خصومهم وكسب أعوانهم وتنفيذ سياستهم في الداخل والخارج، وينم هذا

التعريف عن أصالة الفهم لما يجب أن يتصف به فن السفارة من خصائص أبرزها: الاتصال بالواقع، وعدم الانعزال عن الناس، ومعالجة الأمور باللين والحزم، والأخذ والعطاء، والصبر والذكاء والروية والأناة، كما أن تشبيه العلاقات السياسية بالشعرة، هو بلوغ الغاية في روعة التصوير لما تكون عليه هذه العلاقات من دقة وحساسية تتطلب معالجتها مهارة خاصة، هي ما نعرفه بالدبلوماسية.

وعلى الرغم من عدم تنظيم دراسات تدريبية للسفراء في العصور الإسلامية، كما هو الشأن في العصور الحديثة، فقد كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد التي لا تختلف عن النظم التي تتبعها الدول الحديثة اليوم عند انتقاء سفرائها، والمعروف أن هذه الدول تتبع أسلوبين في اختيار الممثلين الدبلوماسيين: الأول اختيار المبرزين الأولين في مسابقات علمية عامة، تُجرى بعد اختبار دقيق للمرشح، وتتبع لأحواله وصفاته، إذ تكشف هذه المسابقات عادة عن مبلغ فهم المرشح وثقافته، وفي أغلب الأحيان يكون هذا الأسلوب خاصاً بانتقاء الدبلوماسيين المبتدئين.

أما الأسلوب الثاني، فهو اختيار من لمست فيه الكفاية والركانة وعرف بالدهاء ليكون رسولاً أو سفيراً من دون امتحان يُجرى أو مسابقة تعقد.

وقد اتبع العرب نفسيهما هذين الأسلوبين مع تعديل يسير في الأسلوب الأول إذ كان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة، وكان في الدولة الإسلامية في صدرها الأول ديوان يسمى ديوان الرسائل يختص بالمكاتبات مع الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة للدولة الإسلامية، وقام كتاب الرسائل في العصر الأموي والعباسي بالتمهيد لاختيار السفراء وإعداد الكتب التي يحملونها.

ولقد حفلت المصنفات العربية القديمة بأمثلة لتلك الاختبارات الطريفة التي كان يحرص الخلفاء على إجرائها بأنفسهم، ومن ذلك ما حدث لأحد المرشحين للسفارة إلى بلاد الروم لتمثيل الخلافة الأموية، وهو عامر بن شراحيل الشعبي، فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها وحجة في تاريخ العرب قبل الإسلام وأنسابهم وأشعارهم، ووقع عليه اختيار الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق آنذاك، ليبعث به إلى الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، الذي أراد أن يوفده سفيراً إلى البلاط البيزنطي.

وعندما قابل الشعبي الخليفة جرى الاختبار التالي:

– قال الخليفة: يا شعبي، ما العلم؟

– فقال: هو ما يقربك من الجنة، ويباعدك من النار.

– قال الخليفة: يا شعبي، ما العقل؟

– فقال: ما يعرفك عواقب رشدك، ومواقع غيك.

– قال الخليفة: متى يعرف الرجل كمال عقله؟

– فقال: إذا كان حافظاً للسانه، مدارياً لأهل زمانه، مقبلاً على شأنه.

– ثم قال الخليفة عبدالملك: يا شعبي، أنشدني أحكم ما قالته العرب وأوجزه.

– فقال الشعبي: يا أمير المؤمنين، قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يَفِرْهُ ومن لا يتق الشتم يُشتم!

وقول النابغة:

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث، أي الرجال المهذب!

وقول عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

وقول الحُطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العُرفُ بين الله والناس

وانتقل الخليفة عبد الملك بن مروان بعد ذلك إلى اختبار الشعبي اختباراً أشبه باختبارات الذكاء اليوم، فنجح أيما نجاح، وأثبت قدرة على ضبط النفس، وسرعة خاطر، ومقدرة على اجتياز المآزق، وعلماً غزيراً.

ولقد جرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة في مهام محلية بسيطة، لاختبار مدى ما عندهم من مواهب، وفي بعض الأحيان كان يخفق المرشح للسفارة في هذا الاختبار، وعبَّر أحد الشعراء عن هذا الإخفاق بقوله:

وكنت إذا بعثت به رسولا
يداني قبل أن يمضي بياس
وأنساني ما وجهتُ فيه
على أني ذكورٌ غير ناسي
ويرجع - لا رعاني الله فيه -
إليّ بخيبةٍ بعد احتباس
يردُّ برأسه أبداً جوابي
أراني الإله بغير رأس

ونستدل من هذا على أنه كان هناك ما يشبه تدريب المرشحين لأعمال السفارات العربية الإسلامية، يتم قبل تقلدهم مناصبهم وإرسالهم إلى خارج البلاد.

وقد كان العرب يختارون سفراءهم من بين الشخصيات البارزة في الدولة ذات المنزلة العامرة والمشهورة بحصافة الرأي، وبلاغة القول، ورجاحة العقل، وسرعة البديهة، واحتيال الحيل، وتقليب الأمور، مما يجعلهم أهلاً لما يمهد به الخلفاء والسلاطين إليهم من أمور السفارة

ومفاوضة الملوك ووزرائهم، وقد حفلت المؤلفات العربية بالوصايا التي خلفها الحكماء والقادة والحكام في شأن السفارة وصفات السفير ووسائل اختباره واختياره، وما يستحب فيه من طباع وأوصاف ليكون أهلاً للرسالة وتمثيل مرسله، فلم يكن يقع الاختيار إلاّ على الأكفاء لأداء السفارات، من ذلك أن الخلفاء المسلمين قد عهدوا بالسفارة إلى القضاة والفقهاء كالشعبي رسول عبدالملك بن مروان إلى الروم كما سبق وأن بيّنت، والمحدثين كالزينبي، والعلماء كيحيى بن الربيع، والمتصوفة كالسَّهروردي رسول الخليفة الناصر إلى كبار موظفي الدولة كالوزراء والكتاب والأطباء كعبيد الله بن نصر، وكبار التجار كالسلامي رسول السلطان الناصر محمود لعقد الصلح مع أبي سعيد ملك المغول.

ولعلَّ أبلغ ما كتب في صفات من يصلح للسفارة ما جاء في (رسل الملوك) لابن الفرَّاء على لسان أحد الحكماء:

«اختر لرسالتك، في هُدنتك وصلحك، ومهماتك ومناظرتك، والنيابة عنك، رجلاً حصيفاً و حُولاً قلباً، قليل الغفلة، منتهز الفرصة، ذا رأي جزل، وقول فصل، ولسان سليط وقلب حديد، فَطناً للطائف التدبير، ومستقبلاً لما ترجو أَو تحاول بالحزامة وإصابة الرأي، ومتعقباً له بالحذر والتمييز، سامياً إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك. حاضر الفصاحة، مبتدر العبارة، ظاهر الطلاقة، وثابتاً على الحجج، مبرماً لما نقض خصمك، ناقضاً لما أبرم، يحيل الباطل. عالماً بأحوال الخراج والحسابات وسائر الأعمال..وليكن من أهل الشرف والبيوتات، فإنه لا بد مقتف آثار أوليته، محب لمناقبها مساو لأهله منها..».

والصفات التي تشترط في السفير على نوعين:

أولهما، خاص بالمظهر الخارجي، والثاني خاص بالطباع والخصائص النفسية.

ومن أخبار السفراء المسلمين الذين عرفوا بالوسامة وبهاء الطلعة والرَّواء في المظهر والزي أن نصر بن الأزهر - وكان رسول المتوكل إلى ميخائيل بن نيوفيل امبراطور الروم سنة ٢٤٥م -٨٦٠ م. وصل في أبهى زينة متشحاً بالملابس السوداء، وهي الزي الرسمي للعباسيين، وعلى رأسه قلنسوة، وكان متمنطقاً سيفاً وخنجراً، فأبى القائم بأمور الإمبراطور إدخاله عليه بهذه الهيئة، ولكن السفير حرص على تقاليد دولته الدبلوماسية، ودخل على الإمبراطور وجلس في مكان قرب سريره الكبير بملابسه الكاملة.

ومن أشهر السفراء العرب فيما اتصفوا به من رُّواء المظهر، سفير عبد الرحمن الثاني خليفة الأندلس إلى ملك النورمان

سنة ٢٣١م ه – ٨٤٥ م الملقب بالغزال نسبة إلى جماله الظاهر، وكان شاعر الخليفة أديباً مشهوراً بين أدباء عصره، وقد أثبت لدى قيامه بمهمته من ضروب النشاط وإجادة فنون الرياضة واللباقة وسعة العلم ما أثار إعجاب النورمان وملكهم وملكتهم «نود» التي أعجبت بدعاباته معها وتغزله بشبابها وجمالها.

ونخلص من تحليل الصفات التي كانت تستحب في السفير الموفد لأداء رسالة أن منها ما يتعلق بصحة الجسم، وما يتعلق بالقيافة وحسن الهندام، وما يتعلق بحسن النطق وسلامة الأداء، فيستحب في الرسول « تمام القد وعبالة الجسم، حتى لا يكون قميئاً و لا ضئيلاً..، فأعين الملوك تسبق إلى ذوي الرُّواء من الرسل.. يملأ العيون المتشوقة إليه فلا تقتحمه، ويشرف على تلك الخلق المتصوبة له فلا تستصغره»، «صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعبارة، بصيراً بمخارج الكلام ووجوهه، صدوق اللهجة». وقد أوصى الوزير السلجوقي نظام الملك في مؤلفه (سياسة ناما) أي فن الحكم، أن يكون السفير (عالماً).

ويستدل مما أولاه الخلفاء والحكام المسلمون من عناية بمظهر سفرائهم، إذ كان الرُّواء شرطاً عند اختيار السفير، على سعة أفقهم، وعمق نظرتهم، وسلامة بصيرتهم، ذلك أن الصفات العقلية والخلقية لا تكفي وحدها ولاتكفل بذاتها نجاح السفير في مهمته مما يرجع إلى طبيعة السفارة وأغراضها بوصفها وظيفة رسمية تعنى بالشكليات المتعارف عليها والمراسيم النابعة من العرف والتقاليد السائدة، كذلك، فإنَّ أهمية الشكل في عالم الدبلوماسية ترجع إلى ما له من تأثير في الموضوع، وفي النص السالف إشارة إلى هذا المعنى: «فأعين الملوك تسبق إلى ذوي الرُّواء من الرسل». ومن الثابت في النظريات الحديثة أن الشكل هو إطار الموضوع الذي يحدد أبعاده، أو هو الوعاء الذي يحتوي المضمون ويصوغه في قالبه ويخلع عليه لونه وطابعه.

أمَّا الصفات التي تتعلق بالطباع والخصائص العقلية والنفسية التي ينبغي أن يتحلى بها السفير فهي حسن الرأي، ورجاحة العقل والتصرف، والنزاهة عن بيع الأمانة أو خيانة مرسله، والحذر من تجاوز ما رسم له أو تغيير شيء من رسالة من اختبر ثقته أو رد من أرسل إليه، ويعدد ابن الفرَّاء هذه الصفات في عبارة أخرى فيقول: إن السفارة تقتضي حسن أخلاق السفير كأن يكون عفيفاً نزيهاً أميناً لا أمين عليه، بحيث لا يقبل الرشا، ولا يستدره العطاء، فيقصِّر فيما يحب لصاحبه، ويبالغ فيما لا ينبغي لمن أرسل إليه، وأن يكون جيد اللسان لا تبدر منه البذيَّة، كاظماً للغيظ

لا تلحقه سورة الغضب، يؤثر الصدق في القول، محتالاً في محاورته ومكائده، يناظر كلاً بحسب ما يراه من صوابه وخطئه، وأن يكون وقوراً ذا حزامة، حليماً ذا أصالة رأي جريئاً لا يرتاع لتهديدات مرهبة، ولا يتغير بأطماع مرغبة، بل يضع الأمور في مواضعها، ويقابل كل فعل بما يليق به.

قال البحتري في وصف الرسول:

وكأن الذكاء يبعث منه
في سواد الأمور شعلة نار

وقال الآخر:

وأبعث رسولاً في ملاطفة
قد أحكمتْ أحكامهُ الحِيلُ

ومن الأبيات المشهورة:

إذا كنت في حاجة مرسلاً
فأرسل حكيماً ولا توصه

ومن الصفات التي اشترطها العرب فيمن يحمل الرسالة ويقوم بالسفارة ألا يكون ميالاً للنساء حتى لا يستخرجن أسراره، أو ممن يحب شرب النبيذ. «فمن كان شارب خمر فليتركه في ذلك الوقت بالكلية، فإن الخمر تفضح شاربها وتطلع على ما في نفسه من الأسرار. فقد كانت الحَزمَةُ من ملوك الفرس تحرم على الرسل شربها وتضرب عليه الأعناق عند المخالفة».

وثمة خلال ومناقب أخرى من مقومات شخصية السفير وهي أن يكون غزير العلم واسع الثقافة، كأن يكون جامعاً للشريعة والسنن والأحكام والسير (التاريخ)، أديباً، راوياً للشعر وما يتبعه من جودة البيان وقوة اللسان وحكمة الأوائل وأمثالها، عالماً بأصول فرض الضرائب وتحصيلها وبالقواعد المالية، وهي علوم من يصلح للسفارة من القضاة والفقهاء والعلماء كما تقدم.

ولم يشترط العرب إلمام السفير بلغة الملك المبعوث إليه، لأن العادة قد جرت على استخدام الترجمة في هذا الشأن، وإن كان المماليك قد بعثوا إلى المغول رسلاً من جنسهم ومن العارفين بلغتهم، كذلك جرت العادة في القرنين السابع والثامن للهجرة أن يقوم بالسفارة من تخصص في الغرض منها كأن يبعث أحد رجال الجيش بقصد المفاوضة في عقد هدنة، وأحد الفقهاء أو العلماء لتبادل المسائل العلمية أو بحث الشؤون الفقهية، على أنه يلزم أن يكونوا جميعاً من المتأدبين «بأدب الله تعالى فيما أدب رسله الكرام حيث يقول» «فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» (البقرة:٨٣).

وليس أدل من هذا على المنزلة العالية التي رفع العرب السفراء إليها، من أنهم لم يكفهم اشتراط المقومات القيادية في السفير بل اشترطوا أن يتخلق بأخلاق الرسل والأنبياء إشارة إلى سمو مهمته وجلال قدرته.

وأخيراً، فقد كان يشترط في صفة

السفير أن يكون شريف الأصل نبيل المحتد، وذلك حتى يكسب سفارته المهابة والجلال، لأن الأصل العريق سبيل للسلوك الحسن واقتفاء آثار الأجداد بتراثهم، وفي هذا أيضاً يقول نظام الملك: «أن نبالة السفير تكون سبباً في علو قدره وما يلقاه من إكبار وإجلال وترحيب»، على أن هذا الشرط قد انعدم بانتقال السلطة إلى غير العرب، ولاسيما في عصر المماليك.

فإذا لم يجد الخلفاء والسلاطين في رجل واحد من يصلح لمهام السفارة من حيث توافر الشروط والصفات اللازمة كونت السفارة من أكثر من شخص، كأن يكون «أحدهما صاحب سيف والآخر من أهل الشريعة، وقد تعزز بثالث من الكتاب، فصاحب الشريعة يقرر ما يسوغ منها ويدفع ما لا يسوغ، وصاحب السيف يرتب ما لا مضرة فيه على الملك ولا جنده ولا حيف ولا مخاطرة، والكاتب يحفظ قوانين السياسة ورسوم المكاتبات وأدب المخاطبات».

وقد يزيد عدد أعضاء البعثة تبعاً لأهميتها وعلو قدر السفير رئيس البعثة، ورئيس دولته، من ذلك أن سفارة قتيبة بن مسلم إلى بلاد إمبراطور الصين سنة ٩٦هـ قد بلغت حوالى ١١ أو ١٢ شخصاً، وازداد عدد أفراد هذه البعثات زيادة كبيرة في عهد سلاطين المماليك حتى بلغت إحدى سفاراتهم إلى بغداد (سنة ٧١٣ هـ - ١٣١٣م) ١٧٤ شخصاً، تلك هي خلاصة المناقب والسجايا التي كان يشترطها العرب المسلمون عند اختيار مبعوثيهم لدى الدول الأخرى تقديراً لجلال المهام التي كانوا يوفدون من أجلها وأثرها البالغ في سلامة الدولة واستقرار أحوالها الخارجية وانعكاس ذلك على شؤونها الداخلية.

وفي مجال المقارنة بين سفراء العرب والمسلمين وبين سفراء أوروبا في العصور الوسطى فيما كان يشترط فيهم من صفات مميزة تتكافأ مع سمو رسالتهم، نجد أن الأمر عند الغربيين لم يجر على النهج الذي رسمه المسلمون، فلم تجر العادة منذ البداية على اختيار ملوك أوروبا وأمرائها لسفرائهم من بين النبلاء أو أبناء الأسر المعروفة، بل كان منصب السفارة لا يلقى حفاوة أو ترحيباً من قبل أبناء هذه الطبقة، لما كان يفرضه على من يتولاه من تكاليف مالية وشروط في العمل ورقابة على تصرفاته، فضلاً عن ابتعاده عن مسقط رأسه وحرمانه من المشاركة في السياسة الداخلية لوطنه، ولهذا كانت السفارة تفرض على بعضهم قسراً في البندقية، وتوقع الغرامات المالية على من يرفض منهم قبولها، كما جاء بمرسوم سنة ١٢٧١ وأشارت إلى ذلك تعليمات مماثلة صدرت عن حكومة فلورنس سنة ١٤٢١ بتوقيع العقوبات الجنائية وإسقاط الحقوق المدنية

عمن يرفض القيام بالسفارة، حتى إذا جاء القرن السادس عشر أشار جيسباردينى في كتاباته إلى تهرب نبلاء فلورنس من قبول مهمة السفارة، ومن ثم اضطرت حكومة فلورنس أن تختار سفراءها من بين كتاب الدولة وموظفيها المدنيين أمثال نيقولا ميكافيلي.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن أوروبا كانت تنظر إلى السفراء بوصفهم رجالاً محترفين يقومون بتمثيل بلاط بعد بلاط، ويخدمون كل فترة من الزمان أحد الملوك حين لم يكن عنصر المواطنة أساساً في اشتراط من يقوم بمهام السفارة، على أن هذه النظرة قد تغيرت فيما بعد حين تقدمت الدبلوماسية في أوروبا ونظمت أساليبها واستقرت تقاليدها.

أمَّا السفارة عند العرب فلم تكن احترافاً بقصد الحصول على مغانم، بل كانت شرفاً يتسابق إليه كبار الشخصيات، ورسالة يتنافسون في أدائها مهما كلفهم الأمر من تضحيات، إذ كانت تقترن في نفوسهم برفعة بلادهم ونشر العقيدة الدينية، ولم تكن مقصورة على طبقة دون أخرى، وإنما هي حق وواجب وفي الوقت ذاته يجب أن تتوافر فيهم الصفات التي تؤهلهم لهذه الرسالة أياً كانت فئتهم.

فلا غرو أن يحرز السفراء نجاحاً في مهامهم، وأن يسهموا في توطيد دعائم دولتهم التي كانوا يمثلونها وبسط نفوذها وتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية والفكرية.

المراجع

١- كتاب رجال حول الرسول (للكاتب خالد محمد خالد).
٢- كتاب تاريخ الدبلوماسية (الدكتورة حنان أخميس).
٣- كتاب مهام السفير في عصر القوة العظمى (الدكتور محمد نعمان جلال).

القناع وجه الثقافة ..

لميس أحمد ❁

القناع هــو ما يتم ارتــداؤه على الوجه للحماية والتمويــه، والأداء أو الترفيه. وقد اســتخدمت الأقنعــة منذ القــدم لأغراض احتفالية وأخرى عملية.

تاريخ وأصول

ظهرت كلمة «قناع» في اللغة الإنجليزية في عام ١٥٣٠م. إلا أن هذه الكلمة من أصل غير مؤكد وقد تعددت الآراء حول أصــول التسمية ويعتقد البعض أن كلمة قناع مشتقة أصلا من الإسبانية ماس كيو لا كارا (حرفياً، أكثر من وجه). وليس من السهل تحديد أول

❁ كاتبة ومترجمة.

ظهور للقناع فـي العالم، أو تحديد وظيفته بدقة. فقد وجد في المقابر وأماكن أخرى، ما يؤكد تعدد وظائفه واختلافها من شـعب لآخـر، ومن زمن لآخر. إذ يعود اسـتخدام الأقنعـة لآلاف عـدّة من السـنين. و يعود اكتشاف أقدم الأقنعة لـ ٩,٠٠٠ سنة، إلا أن أغلب الظن أن ممارسة فن الإخفاء والأقنعة هو أقدم بكثير.

اسـتخدم الناسـ الأقنعة عبـر التاريخ للتنكر في كل أو معظـم المجتمعات. وإن استخدام الأقنعة في الطقوس أو الاحتفالات هو ممارسة قديمة جداً للإنسان القديم في جميـع أنحاء العالم، حيث تم اسـتخدامها في الصيد و الرياضـة وفي الأعياد أو في الحروب و لأغراض الشفاء وكوسطاء من قوى خارقة للطبيعـة. ويعتقد أن الأقنعة الأولى قد اسـتخدمها عامة الناسـ للارتباط مع بعض الأنواع من السلطة التي لا يرقى إليها الشـك، مثل «الآلهة» أو لإعطاء مصداقية لادعـاء الشـخص دوراً اجتماعيـاً معيناً. فمن المعروف أن للقناع وظائف عدة يمكن حصرها في الوظائف اللاهوتية والروحانية، والوظائف الأسطورية، والوظائف الطقوسية والشـعائرية، والوظائـف الدراماتوجيـة. فالأقنعة تشـكل عنصـراً مألوفاً وحياً في العديد مـن المواكب الشـعبية والتقليدية والشـعائر والطقوسـ والمهرجانات. وهي عادة جزء من الزي الذي يزين الجسـم كله ويجسـد تقليـداً هاماً في الحيـاة الدينية والاجتماعيـة للمجتمـع ككل أو لمجموعة معينـة داخل المجتمع. وتسـتخدم الأقنعة للحفاظ على القوة والغموض على حد سواء. كما يساعد القناع على التحييد الاجتماعي والطبقي، والاختفاء عـن الناس داخل دور معيـن، والتنكـر فـي أزياء وأقنعـة تخفي حقيقة الشخصية، فتثير الإبهام والالتباس والفضـول لدى الراصـدين الحاضـرين. وباستخدامها تُعلق ضوابط السلوك، وتمرح الناس فـي الاحتفالات خارج رتبهم العادية وتراتبيتهم أوحالتهم، حيث يتساوى الجميع وراء الأقنعة على وجوههم. وبإخفاء ملامح الوجـه، تمنـع الأقنعة الآخريـن من تمييز شخصـية المُقَنَّع وشـكله. وهـذا ماجعل الطبقة البرجوازية فـي أوروبا أن تتخذها تقليداً لهـا في إحياء الحفـلات التنكرية المخصصـة للمجون والعبث مـن دون أن يعرف أحد الآخر.

أنواع ووظائف

يمكننا الحديث بصـفة عامة عن أنواع وظيفية عدة للأقنعة بدءاً بالقناع الطقوسي الشعائري الذي يوظف في سياقات لاهوتية وأنتروبولوجيـة مروراً بالقناع الأسـطوري الـذي يحمـل دلالات ميثولوجية، وصـولاً للقناع الدراماتوجي.

قناع الطقوس

للطقوسـ أقنعة في جميع أنحاء العالم، وعلى الرغم من أنها تتشارك في العديد من الخصائص إلا أن لها أشكالاً مميزة للغاية. قد تكون وظيفة الأقنعة سحرية أو دينية، أو

أنها قد تساعد على التواصل مع الأرواح.

يرتبط القناع ارتباطاً وثيقاً مع الطقوس سواء في ارتدائه الذي يخفي الوجه الحقيقي، أو في تبني الوجه العام. و يساعد القناع على الانفصال عن الوقت الراهن والتواصل مع الأوقات الغابرة أو القديمة وهي قلب ومحور هذه الطقوس. وفي المجتمعات البدائية نجد الصلة وثيقة بين أنواع الفنون والأرواح والأشباح والجن كافة كمصدر رئيسي لتلك الفنون في إلهامها للبشر، وأيضاً نلاحظ تلك الصلة بين الطقوس التي تصاحب ممارسة تلك الفنون والهدف منها إرضاء القوى الروحية وتكون بمثابة تمثُّل واستحضار لقوى الطبيعة المعظمة أو لأرواح الموتى.

ويكون القناع تمثّلاً للأشخاص المحترمين أو من هم موضع سخرية. وتهدف الأقنعة إلى إيقاظ بعض العواطف المطلوبة في المجتمع مثل الشجاعة أو الغرور أو غيرهما. وقد تكون تعويذة ضد الأرواح الشريرة في الطقوس التي تقام للعلاج أو عند البلوغ أو للزراعة، أو إبقاء للأرواح المطلوبة عن طريق التعرف عليها واسترضائها لتحقيق الصحة أو زيادة الصيد أو إنبات المحاصيل أو تحقيق أي من الأشياء الأخرى الضرورية للحياة. كذلك تهدف إلى الضبط الاجتماعي عن طريق الرعب أو السخرية. كما تهدف إلى التسلية وذلك بتمثيل القصص الدينية والدنيوية.

وتستعمل بعض الأقنعة في الطقوس التي تقام للاحتفال بانتقال الأطفال إلى مرحلة البلوغ أو في الشعائر التي تقام لإجراء الحدود الاجتماعية أو الدينية، كما تستخدم أقنعة أخرى في احتفالات دينية وشبه دينية على حد سواء لتمثيل بعض المفاهيم المصطنعة كزفاف الشمس إلى القمر، كما هو الحال في الأقنعة المزدوجة، ويجري تعريف المتفرجين إلى قوة الروح التي يمثلها القناع نفسه، وقد تكون قوة الروح كبيرة جدّاً فيكلف بحملها ثلاثة رجال يرتدون ثلاثة أقنعة متماثلة..

القناع الميثولوجي

على وجه الإجمال يمكن القول بأن الدين هو البؤرة التي تمركزت فيها الثقافات. في هذه البؤرة ارتبطت الأقنعة بالسحر والخرافات، مع العلم أن أشكال الدين تختلف اختلافاً ملحوظاً من جماعة لأخرى إلا أنه في المجمل فقد تأثرت هذه الثقافات بالطبيعة وتغيراتها وصار القناع فيها شكلاً من أشكال محاكاة الطبيعة ومحاولة لاستدرار عطفها وعطف الكائنات الخفية التي تعتقد بها هذه الثقافات فكان القناع يُسّهل الحصول على الهوية المرغوبة وارتباطاتها الوثيقة بالكائنات فوق الطبيعية. وهو استحضار لقوى الطبيعة المعظمة أو لأرواح الموتى أو للحيوانات المصطادة. وتتفاوت الأقنعة في مدى الأشياء التي تمثلها فمنها ما يمثل آلهة أو أشخاصاً

أظهــروا قوى خارقة إبان حياتهم، ومنها ما يمثل خدم هذه الآلهة أو رســلها، وقد يكون هؤلاء حيوانات أو أشخاصــاً يحملون رموزاً ويعكفون على عبادة الآلهــة، إلا أن وظيفة الأقنعة هي طرد الأرواح الشريرة والأمراض والابتهال إلى الآلهة والأسلاف.

القناع الدراماتوجي (في المسرح)

تستخدم الأقنعة في جميع أنحاء العالم لقوتها التعبيرية باعتبارها سمة من سمات الأداء المقنع في مختلف تقاليد المســرح. وتستخدم الأقنعة جنباً إلى جنب في كل من الكوميديا والمأســاة على نطاق واسع وذلك لأداء أدوار مسرحية.

إذ تلعب الأقنعة دوراً رئيسياً في تقاليد المســرح العالمي ولا تزال تكوّن قوة حيوية داخل المســرح المعاصر، واســتخداماتها تأخــذ أشــكالاً متنوعــة. فالقنــاع مفهوم مركزي ذو قيمة عالية في كثير من التقاليد الثقافيــة للأداء. فقد تم ارتداء الأقنعة في المســرح اليوناني القديم، كمــا هو الحال في الدراما اليابانيــة التقليدية. وغالباً ما يستخدم القناع جنباً إلى جنب مع العرائس في الأداء المسرحي.

وقد تم اســتعمال القناع في المســرح للتعبير عن القيم الإنســانية المتناقضــة، كما اســتعمل للتعبير عن الحالات النفسية المفارقــة التي يكون عليها الإنســان. ومن ثم، فالقناع هو الذي يعكس لنا الشخصــية من الداخل والخارج فوق خشــبة المســرح ، وهو أيضــاً بمثابة ماكياج يحدد ســمات الممثل الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية، ويبيــن أدوار الممثل ووظائفه الدرامية فوق خشبة المسرح.

فالقنــاع هــو الوجــه الآخــر للممثــل والصــورة الاصــطناعية له حيث يساعده على أداء مجموعة من الأدوار التمثيلية في سياقات درامية مختلفة. وهو كذلك الغلاف الفني والجمالي الذي يحيط بالوجه الثابت للممثل المســرحي. ويعبر عن طبيعته فوق الخشبة، ويعكس لنا أيضاً الفئة التي ينتمي إليها: (الخير أو الشر). ويوضح لنا الطبقة الاجتماعيــة التــي يمثلها، (أرســتقراطية أو فقيــرة) كما يحدد لنا عمر الشخصــية الدرامية المشخصــة، وطبيعتهــا، وقيمها الأخلاقيــة، وحالاتها النفســية، ووظيفتها الاجتماعية.

من المعروف أن القناع ظهر مع المسرح اليوناني لتجسيد الكوميديا والتراجيديا أو لتشكيل ثنائية الخير والشر. وكانت الأقنعة ذات وظيفة إيهامية تُشــير إلى الصراعات التراجيدية الموجودة بين الإنســان والقدر، حيث يرتدي الممثل القناع لكي يؤطر دوره ويشــير إلى طبيعته (تراجيدي، كوميدي)،

وكان المتفرج يلتقط الرسالة بسرعة، ويتفاعل مع الدور، بعد أن غاب وجه الممثل وراءه. وانتقلت الأقنعة بعد ذلك إلى الرومان، بيد أنهم لم يستعملوها في بادئ الأمر، ولكنهم بالغوا في استعمالها بعد مدة من الزمن. في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ظهرت في فرنسا وإيطاليا كوميديا دي لارتي [1] المبنية على الارتجال العفوي، والاحتفالية الشعبية، واستخدام الألعاب الكرنفالية، واستعمال القناع الرمزي...

كان للأقنعة وظيفة، اجتماعية وفنية وعلى الرغم من نمطية هذه الأقنعة وأحاديتها، وقدرتها على الاختزال، حيث يكون القناع بديلاً للشخصية وفرادتها، إلا أنها كانت تملك طاقة دلالية، إشارية هائلة، يتلقاها المتفرج بسرعة ويفك شفرتها، التي توضعت على خلفية أو أرضية مألوفة لديه، ثقافياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً.

وازداد الاهتمام بالقناع في إنجلترا وباقي دول أوروبا في القرن الثامن عشر والقرون التي جاءت بعده، وقلما نجد اليوم مسرحيات عالمية لا توظف القناع المسرحي إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. إذ يؤدي القناع وظيفة التشويه الكاريكاتوري وتقبيح الشخصية، والحط من قيمتها، وتسفيه مواقفها الفكرية والأيديولوجية. بل يؤدي القناع أيضاً وظيفة إيهامية. حيث إن الممثل في الحقيقة لايعيش دوره فوق خشبة المسرح عن صدق وإيمان، بل يفصل ذاته عن الدور فصلاً تاماً إلا أنه ما أن يضع قناعه، حتى يتحول رمزاً لأحد الأنماط الاجتماعية. وقد استثمر القناع في المسرح لتجسيد الكوميديا والتراجيديا وإثارة الفكاهة والضحك وتفعيل الدراما الإيهامية.

فن الأقنعة

خامات الأقنعة

غالباً ما تصنع الأقنعة من بعض الخامات المرتبطة والمتوافرة في البيئة ومنها المواد الطبيعية والأشياء المصنعة من المواد الخام والمواد التشكيلية مثل العاج والخشب والمرمر والخزف، والمعادن. وذلك وفق مفهوم اجتماعي، ورموز ودلالات تشير الأقنعة إليها فمثلاً اختلفت مواد صنع القناع في «مصر القديمة» حسب مادة وتطور صنعها، كمايلي:

١ - الأقنعة الجصية. ٢ - الأقنعة الكرتونية. ٣ - الأقنعة الخشبية. ٤ - الأقنعة المعدنية. ٥ - الأقنعة الفخارية.

الدلالات الجمالية

وتختلف ألوان الأقنعة حسب دلالاتها فمثلاً الأقنعة الملونة بالأبيض والأحمر تدل

على القمر بينما تدل الأقنعة الملونة بالأزرق والأسود والبني على الأرض، وأشكال الأقنعة تدل على ما تجسده فهناك قناع يجسد مغني القبيلة أو منشدها، وآخر يشير إلى رئيسها أو كاهنها أو نسائها، وتختلف دلالات الأقنعة حسب أشكالها وطريقة استخدامها فهناك ما تغطى به الوجوه وهناك ما يوضع على الصدور. وقد تشير الأقنعة أيضاً إلى ثقافة مثالية من الجمال الأنثوي حيث يكون فيها الحاجبان مقوسين وعاليين، والعيون لوزية الشكل، والذقن ضيقة. وبياض الوجه في الأقنعة يمثل البياض والجمال من عالم الروح. والأقنعة ذات العيون نصف المغلقة والخطوط المرسومة بالقرب من الفم تمثل الهدوء. أما الأقنعة ذات العيون الصغيرة والأفواه فإنها تستخدم لتمثل التواضع. والأقنعة منتفخة الجبين تمثل الحكمة. أما أقنعة الوجوه الطويلة والجباه الواسعة فإنها ترمز إلى الاعتدال. وأقنعة العيون المستديرة تمثل اليقظة والغضب.

فنانو فن الأقنعة

الأقنعة فن شعبي، يجمع بين جملة من الفنون والحرف، منها: النحت، والحفر، والطرق، والرسم، والزخرفة، والقولبة ... وغيرها.

انتشر هذا الفن بشكل خاص في أفريقيا حتى أصبحت تشكل عنواناً لهذا الفن وركناً أساسياً من أركانه إن لم نقل سمة مميزة له بين عامة الفنون التشكيلية ويندرج ذلك الفن في إطاره الأشمل: إطار الفن البدائي، وفن الأقنعة في العالم عموماً.

والأقنعة أنواع وأشكال إذ كانت تصنع لدى الشعوب البدائية من قبل أفراد الأسرة.. وقد اختص بها فنانون وحرفيون وقدموا من خلالها، أعمالاً فنية رفيعة في مستواها التقاني والتعبيري وعادة ما تكون الأقنعة منحوتة بمهارة غير عادية وبأشكال متنوعة. وهؤلاء الفنانون يحتفظون بمكانة محترمة في المجتمع القبلي بسبب هذا العمل الذي يجسد التقنيات الحرفية المعقدة والمعرفة الروحية الاجتماعية والرمزية.

وبالفعل فهذه الوجوه لا تصنع بالسهولة التي يظنها البعض، بل هي تصنع في سرية تامة ويحتفظ الفنان الصانع عادة بأسرار صنعته التي يتناقلها أباً عن جد، وهو في العادة قبل أن يأخذ الجزء الذي سينحت عليه الوجه يقوم بالعديد من الطقوس، ويردد أسماء غريبة وتعويذات حفظها من الأجداد.

ونرى عشرات الأنواع من الأقنعة، أقنعة للحزن، أقنعة للفرح والرقص، أقنعة لإبعاد الشر، أقنعة لتصوير الجد، أقنعة للتقرب من الآلهة، وعلى الرغم من تعدادها الهائل

المنتشر في كل مكان إلا أننا قد لا نجد اثنين منها ينطبقان على بعضهما تمام الانطباق.

وكل هذه الأقنعة مازالت إبداعات يقوم بحفرها الفنان التقليدي الذي يصنفه نقاد الفن باعتباره «فناناً بدائياً» بإزميله الخاص وينحتها ليؤدي بها صلواته وطقوسه الدينية.

ويجري حالياً إنتاج أقنعة للتجارة السياحية فقد تحولت إلى مجرد وسيلة للتنكر والتزين يقبل الناس عليها ويعلقونها على جدران منازلهم بوصفها أعمالاً فنية تعبر عن الجمال الفطري وجودة العمل اليدوي، وعلى الرغم من أنها غالباً ما تظهر الحرفية الماهرة، إلا أنها تفتقر دائماً إلى الطابع الروحي للأقنعة القبلية التقليدية.

إن انتشار صفات هذا الفن هي بداية ليكون أكثر فهماً وتقديراً..

الأقنعة حول العالم

في خضم الحديث عن الأقنعة.. لابد من التطرق إلى الأمكنة الأكثر شهرة وتأثيراً في هذا المجال.. وينبغي أن نعرف أن القناع بمفهومه اللاهوتي والطقوسي والشعائري، و حتى بمفهومه الدرامي قد ظهر في الشرق الأقصى (اليابان، الصين، الهند، أندونيسيا).

في آسيا وضعت أشكال الأقنعة جنباً إلى جنب مع الأساطير المحلية وعادة ما تكون مبالغاً فيها للغاية وذات طابع رسمي، وهي ذات تبادل جمالي مع الصور المنحوتة من الرؤوس الوحشية المهيمنة على واجهات المعابد الهندوسية والبوذية وتهدف هذه الوجوه لدرء الشر وترتبط مع عالم الحيوان فضلاً عن الآلهة. وللأقنعة تأثيرات قوية في الثقافة الهندية وثقافة منطقة جنوب وجنوب شرق آسيا - كمبوديا وبورما وأندونيسيا وتايلاند ولاوس. أما في أندونيسيا فيعتقد أن استخدام الأقنعة هي ذات الصلة بعبادة الأسلاف، والتي تعتبر الراقصات مترجمين فوريين للآلهة. وفي الصين يعتقد أن الأقنعة قد نشأت في الاحتفالات الدينية القديمة. وقد كُرّست لأغراض مختلفة حيث أشكال الأقنعة تجمع الأساطير والرموز من الشامانية[٢] والبوذية[٣]. كما أن الأقنعة الكورية لديها تقليد طويل فقد استخدمت في الحرب - الجنود وخيولهم على حد سواء- وفي مراسم الدفن وفي طقوس الرقص لإبعاد الأرواح الشريرة.

أما الأقنعة اليابانية فهي جزء من تقاليد مسرحية قديمة جدّاً ومتطورة ومنمقة للغاية. على الرغم من أن جذورها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ وهي متجذرة في

الأســاطير اليابانية. وعادة ما يتم ارتداؤها طوال فترة الأداء وبالتالي فهي خفيفة جدّاً. وقد تطورت أشــكالها، وفــي اليابان تمثل الأقنعة الآلهة، والرجال والنساء والمجانين والشياطين. وللأقنعة عند اليابانيين، حكايا ودلالات عدّة، كما ارتبطت بالكابوكي الذي هو مســرح اليابان الحديثــة، واعتبرت من العناصر الرئيسة فيه.

فــي أوقيانوســيا فــإن ثقافــة الجزر المتناثرة قد وضــعت أشكال قناع ميلانيزيا بطريقة متنوعة للغاية و قدر كبير من البناء والجمالية. والقناع هو ثقافة في مكان فيه عبادة الأجداد هــي المهيمنة وتكرس جلب الماضي إلى الحاضر.

انبثقــت أقنعة أميــركا الشــمالية من الممارسات الدينية البدائية ذات الأساطير الغنية والمتطورة جدّاً، وخاصــة فيما يتعلق بالصيد. و تأخذ الأقنعة أشكالاً مميزة للغاية ويتم استخدامها في الطقوس والرقصات.

وظهــرت أقنعــة أميــركا اللاتينية في حضارة (المايا) حيث زينت بها وجوه الموتى واستخدمت خلال الأحداث الهامة، وبدأت أســاليب مميزة من الأقنعة في الظهور في مرحلة مــا قبل إســبانيي أميــركا حوالى ١٢٠٠ق.م، وفي مرحلة ما بعد الاســتعمار اندمجــت تقاليد أميــركا اللاتينية ما قبل كولومبوس مع الطقوس المســيحية وبقيت الأقنعة سمة هامة في الكرنفالات الشعبية والرقصات الدينية.

كما في أماكن أخرى فالقناع في الشرق الأوسط هو من الفنون الأولى التي ابتكرها الإنسان وفي بلادنا عرفنا هذا الفن مبكراً، فقد وجدناه لدى الســومريين والآشــوريين وغيرهما، كانــت بدايته أيضــاً ذات طابع طقوسي، تجسد في تضخيم علاقة الإنسان مع الطبيعة والآلهة، وقد انبثق من الطقوس المقدســة من الخرافات والأســاطير التي يقــوم بهــا الكهنة. كمــا ظهــر القناع في مصــر القديمة منذ بداية عصــر الأُسَــر الفرعونية الأولى، وارتبطت وظيفته بفكرة البعــث والخلود، حيث تتعــرف الروح على جسد صــاحبها، من خلال تحري ملامحه المتفــردة. هذه الأقنعة كانت تمثل طقســاً دفنيــاً للمتوفى، ولكن من النادر أن يشــعر المرء بالأحاسيس عند رؤية القناع الذهبي لتوت عنــخ آمــون [٤] أو الأقنعــة الذهبية للأسرة الحاكمة فى مقبرة « تانيس» [٥].

أمَّا في أوروبا تستخدم الأقنعة في جميع أنحائها كما تســتخدم في كثير من الأحيان في الاحتفالات الشعبية الإقليمية والعادات. وعلــى أنها الأرجــح تمثــل أرواح الطبيعة والعديد من العادات الموســمية المرتبطة

بالصيد ومهرجانات السنة الجديدة. حيث تظهر الوحوش، والدببة، الخيول البرية والرجال وشخصيات خيالية أخرى في الكرنفالات في جميع أنحاء القارة. ومن المتفق عليه عموماً أن الأقنعة، والضوضاء، والصخب اللوني تهدف كلها لإبعاد قوى الظلام والشتاء، وفتح الطريق لأرواح الضوء ومجيء الربيع. هذه العادات كانت موجودة جنباً إلى جنب مع العادات الفلكلورية من المناطق الريفية وقد احتفظت بالعناصر المستمدة من الثقافة الشعبية التي رافقت صعود القومية في العديد من البلدان الأوروبية. وقد استخدم القناع في العصور الوسطى وما بعدها في أوروبا، بهدف التمويه والتنكر والتخفي. إذ يضعه الإنسان لإخفاء ملامحه الحقيقية، لهدف عاطفي، أو انتقامي، أو سياسي، أو دلالي.

خاتمة:

أدت الأقنعة وظيفة دينية جمالية منذ أقدم العصور فالقناع هذا الوجه مفرغ العينين وأحياناً الشفاه، يغطى به الوجه لأهداف وغايات عدّة: اجتماعيّة، وتعبيريّة، وتنكريّة، وتزيينيّة واحتفاليّة ... وغيرها. فقد عرفه الإنسان مُبكراً، واستخدمه لغايات تتعلق بالمعتقدات والأساطير، ثم فيما بعد، لغايات تنكريّة تزيينيّة بحتة، فالقناع وسيلة التنكر الأولى التي ابتدعها خيال الإنسان منذ زمن طويل، و في مراحله التاريخية عند الشعوب القديمة ولاسيما في الشرق الأقصى وأفريقيا يحمل القناع أبعاداً أسطورية ودينية روحانية، ويحوي دلالات طقوسية شعائرية و صوفية دراماتورجية، ويتضمن علامات رمزية وأدبية وسيميائية متنوعة. وارتبط عند بعض الشعوب بالسحر والطقوس الدينية حتى صار جزءاً من حياتهم، ومثلما يشكل وجه الإنسان هويته الأولى صارت الأقنعة تمثل قبائل بعينها وتعبر عنهم، وهو وفق المفاهيم والدلالات الشعبية شكل من أشكال التمويه أو التزييف، غير أنه في حقيقة الأمر وسيلة من وسائل إذابة الفرد في الجماعة، وعلى العموم، فللقناع وظائف عدة من الصعب حصرها واستقصاؤها كلها غير أن أهم وظيفة للقناع هي الوظيفة الإيهامية والتنكرية.

هذا ويحتفظ كثير من الشعوب بتراث من الأقنعة المتنوعة التي عبرت عن معتقداتهم وأساطيرهم وفعالياتهم اليومية في الماضي. لكن بعض الشعوب القديمة في أفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا، لا زالت تستخدم القناع، للغايات والأهداف القديمة نفسها المتعلقة بمعتقداتها وأساطيرها القديمة - الجديدة.

الهوامش

١- دي لارتي، فنان مسرحي إيطالي.
٢- الشامانية ظاهرة دينية قديمة، انتشرت في دول عديدة من العالم، خاصة في دول آسيا الوسطى والشمالية.
٣- البوذية تعتبر من الديانات الرئيسية في العالم، تم تأسيسها عن طريق التعاليم التي تركها بوذا. نشأت في شمالي الهند وتدريجياً انتشرت في أنحاء آسيا.
٤- توت عنخ أمون كان أحد فراعنة الأسرة المصرية الثامنة عشر في تاريخ مصر القديم، وكان فرعون مصر من ١٣٣٤ إلى ١٣٢٥ ق.م
٥- تانيس حاضرة مصرية قديمة تأسست زمن الفراعنة أواخر عهد الأسرة العشرين، وأصبحت عاصمة شمال مصر خلال عهد الأسرة الحادية والعشرين.

المراجع

١ - الأقنعة في «مصر القديمة»، عبد الحميد عزب
٢ - مجلة القناع «The Mask» لـ إدوارد كوردون كريج.
3 - Henry Pernet, Ritual Masks: Deceptions and revelations. Columbia: University of South Carolina Press, 1992.
4 - John W. Nunley et al., Masks: Faces of Culture. New York; Harry N. Abrams, 1999;
5 - Gary Edson, Masks and Masking. Faces of tradition and belief worldwide. Jefferson, NC: McFarland & Co., 2005.
6 - Joseph Gregor, Masks of the World. Dover Publications, 2002.
7 - «Faces of the Spirits». Cti.itc.virginia.edu. Retrieved 201430-05-.
8 - «African mask symbolism». Ohoh.essortment.com. 198616-05-.
9 - Where the Masks Still Dance: New Guinea; Chris Rainier and Meg Taylor; Bulfinch Press/Little, Brown & Co., 1996 ISBN 09-2261-8212-
10 - American Indian Art/Norman Feder pub. Harry N. Abrams New York 1973 Lib. of Congress Cat. Card 734857-
11 - Masks:Their Meaning and Function Andreas Lommel pub. London 1970.
12 - Masked Performance: John Emigh, publisher: University of Pennsylvania Press 1996 ISBN 01336--8122-X
13 - Masks: the Art of Expression edit. John Mack/pub. British Museum 1994 ISBN 0-5-2507-7141
14 - Masks: the Art of Expression edit. John Mack/pub. British Museum 1994 ISBN 0-5-2507-7141
15 - The Theatre of Edward Gordon Craig: Bablet, pub. Eyre Methuen, London 1981 ISBN 041307-4788-
16 - Masks in Modern Drama: Susan Harris Smith, University of California Press 1984 ISBN 09-05095-520-

الألعاب الإلكترونية.. وثقافة الطفل

لينا كيلاني ❁

ترى ما الذي دفعني إلى البحث في هذا الموضوع؟ سؤال تبرره تجربتي الطويلة مع أدب الأطفال، وما يزيد عن (١٥٠) مؤلفاً مطبوعاً، وأعمال درامية عدّة للأطفال، ورسوم متحركة.. ويبرره أيضاً في الوقت ذاته اهتمامي بما يستجد على ساحة العلم.. هذا المارد الذي انطلق من القمقم وما عدنا قادرين على كبح جماحه.. فإذا هو ينطلق في كل المسارات من حياتنا، ويدخل عن طريق التكنولوجيا الحديثة ممثلة باللغة الرقمية إلى تفاصيل يومنا وحتى إلى علاقتنا مع صغارنا.

❁ أديبة وروائية وباحثة في أدب الأطفال.

ولعلي إذ أتناول اليوم موضوع الألعاب الإكترونية وعلاقتها بثقافة الطفل أشعر بأهمية هذا المحور، وضرورة الالتفات نحوه، أما الاستنتاجات والآراء فهي بالطبع موضوعية تماماً.

وإذ كنا لا نستطيع القول بمعنى ما عملي أو واقعي إن أدب الأطفال حديث تماماً.. فذلك لأنه موجود منذ وجد الأطفال على سطح الأرض.. ووجدت الحكايات والأساطير والخرافات.. وهي إن لم تكن توجه إليهم مباشرة فهم يتسللون نحوها، فيستمعون إلى ما يرويه الكبار ليأخذوا منه ما يشاؤون.. على هواهم وحسب تفكيرهم. ولم تكن النظرة لتفصل عالم الصغار عن عالم الكبار، بل كانت تعتبر الصغار أشخاصاً صغاراً لا أكثر.. لكن جل الأطفال الآن تروى لهم قصص بعينها، أو حكايات دون أخرى مما جعل لبعض من هذه القصص أو الحكايات أجنحة تطير بها من بلاد إلى أخرى.. وتكرّست لها مجموعات مختارة ومنتقاة توائم البيئة، والاهتمامات، أو أنماط المعيشة.

ولا يعلم أحد كيف كان الصغار يتلقون، لكن الهدف بالنسبة للكبار كان ينحصر في التوعية، وإغناء التجربة الحياتية، وتجنب المخاطر. ولعل ذلك قد تداخل مع الديانات ورموزها وأساطيرها، وعلاقتها السلبية أو الإيجابية بالبشر. ولم تكن الكتابات على الألواح الطينية أو الحجرية، وبالتالي على الأوراق المصنوعة من النباتات، أو لحى الأشجار لتخلو من الإشارات إلى الصغار كآلهة، أو ملائكة، أو شياطين، أو أبطال، مما يجذب انتباه الصغار، ويحفزهم، وينشط خيالهم حتى كرّست بعض (الأسفار) لهم.

وبعد اختراع المطبعة لم تكن هناك كتب مخصصة للأطفال، إنما هم يقرؤون على هواهم ما يشاؤون. ومع ظهور علوم جديدة في التربية والاجتماع، وعلم النفس، ...إلخ، بدأت تباشير الاهتمام بعالم الطفل، واعتباره عالماً منفصلاً عن عالم الراشدين.. له خصائصه، ومميزاته، وله مراحله العمرية.

هذه المقدمة كان لابد منها كمدخل إلى عالم الطفولة بكل ما فيه من فنون مرئية، ومسموعة، ومكتوبة أيضاً.. ولو عدت بالذاكرة إلى ألعابنا عندما كنا صغاراً لاكتشفت كم كانت تلك الألعاب بسيطة، وبريئة، وربما ساذجة قياساً إلى ما يطرح بين أيدي الأطفال الآن في العصر الرقمي.

حتى إن مدناً صغيرة تأسست للأطفال على غرار (عالم ديزني) الشهير، تتحرك فيها شخصيات ابتكرها لهم الكبار، هي محببة إليهم، وتستحوذ على اهتمامهم وإعجابهم، بل لعلهم يتماهون معها فيرصدون كل ما يصدر عنها. لكن طفرة حديثة ظهرت

فـي عوالم الطفولة سـرقت من الصـغار عوالمهم البريئـة التي كانت.. لتقذفهم في أتون الألعـاب الإلكترونيـة الحديثة منها، والأحدث.. وهي تكاد تستقطب جل اهتمام الأطفال كمنابع للتسلية، والمرح، واستعراض المهارات سواء بين الأقران، أو في مواجهة الكبار.

ألعـاب فيها من الإثارة والدهشـة ما لا يمكن مقاومته، فإذا بالأيدي الصغيرة تمتد لتلتقط منها ما تشـاء، وعلـى هواها مثلما كان الحال قبل الفصـل بين عالم الصـغار وعالم الكبار، وكما ذكرت في المقدمة.

ومادام الأطفال الآن قد تعلموا استخدام الحاسـوب حتـى فـي المدارسـ، وكذلك الهاتف النقال بسـهولة وإتقان، وبما قد لا يجيده الكبار ربما، فإن الوصـول إلى منابع هذه الألعاب الإلكترونية عن طريق الشبكة العنكبوتية أصبح متاحاً بيسر وسهولة، وفي كل وقت وبعيداً عن مراقبة الأهل.

ومادمتُ قد اتخذت هذا الموقف الرافض فلابد أن أحصره في عناوين دقيقة:

- ما هي الألعاب الإلكترونية؟

وتعريفـي لهـا: إنهـا لوحات بصـرية تقـوم علـى نشـاط تفاعلي، تعتمـد مبدأ الفوز والخسـارة، وتتطور في تصاعد يبهر مستخدمها فيزيده حماسة، واندفاعاً حتى يبلغ النهاية أي نهاية اللعبة.

- ما هي الموضوعات أو السيناريوهات التي تقوم عليها الألعاب الإلكترونية؟

لهذه الألعاب سـيناريوهات كما في أي عمل بصـري يتم تنفيـذه، ومن ملاحظتي، ومتابعتـي لما يطرح منها أجد أن قصـص الألعاب هذه تعتمد عموماً مبدأ القوة للفوز سـواء أكانت قوة جسدية، أم فكرية، فالقوة الجسدية تسمح بهزيمة الخصم، تماماً كحدة الذكاء التي تتيح المناورة، ووضـع الخطط للإيقاع بالآخر بوساطة العنف، أو السيطرة عليه بفعل القوة بدل التحاور معه عن طريق العقل، وبما تفرضه القيم عموماً.

أمَّـا التنافـس الإيجابي للوصـول إلى هدف إيجابي فهو ليس الهدف المرجو من مثل هذه الألعاب، إنما هي سـبل الفوز ولو من خلال العنف، والقتل، والتدمير.. المهم أن يصـل اللاعب إلـى نهايـة اللعبة وهو منتصر.

عوالم افتراضـية من خلال ألعاب تكاد تكـون سـحرية يدخل إليها الفرد ليصـبح جزءاً منها، فـإذا بها تحركه كدمية قبل أن يحركها هو، أو يتحرك في فضـائها. وهي تبث أفكاراً، ورؤى معينة أراد لها صـانعوها أن تظهر على سـاحة الوعي لمسـتخدمي هذه الألعاب. فعندما تتحرك الأشـياء كما الشـخوص في فضـاء اللعبة فـي محاكاة إلكترونية يخال المرء نفسـه في عالم آخر يقع في قبضته، وتحت سيطرته، وهو السيد

المطلق في خياراته التي وضعها مصممو اللعبة، ولو كانت تلك الخيارات تتجاوز حدود القيم المتعارف عليها والأخلاق.. والتسلية الغامرة تبرر كل ما يُقترف في فضاء الافتراض.. فما بالنا بالأطفال وهم يتماهون عادة مع أبطال القصص والروايات، بل ويتقمصون أدوارهم ربما؟ يقول أحدهم: (وعلى الرغم من هوايتي بممارسة الألعاب بين الحين والآخر، والاستمتاع بها قبل النوم، لكنني غير متأكد أنني أرغب في الدخول إلى مناطق الحرب، ورؤية الأشلاء المقطعة، بل أرغب فقط ببعض منها تقربني من الواقع العادي). إنَّ ألعاب الحرب بما فيها من استخدام أنواع الأسلحة هي الأطغى في الألعاب الإلكترونية، وهي الأكثر جذباً لمستخدميها ولاسيما من الصغار.

- ما هو تأثير استخدام مثل هذه الألعاب؟

سوف يأتي يوم يفضّل فيه الأشخاص العيش في كنف العالم الإفتراضي بدلاً من العالم الحقيقي.. هذا مما يؤكده من يقوم على صناعة الألعاب الإلكترونية. انفصال عن الواقع، أو حالة من الانفصام على المستوى النفسي قد تستولي على هؤلاء الأشخاص مما يستدعي بدوره ضرورة العلاج. إنَّ حالات من الإدمان رُصدت تكاد تجنح بمدمني الألعاب الإلكترونية ليصبحوا كمدمني المخدرات، أو الكحول.. وإن عيادات خاصة ظهرت مؤخراً في الغرب لعلاج مثل هذه الحالات في انتزاع المدمنين من عالم المحاكاة، والعودة بهم إلى الحياة اليومية العادية والحقيقية.

والأمر لا يقف عند هذا الحد في تأثيراته النفسية، وخلخلة القيم الأخلاقية، بل إنه يتعدى ذلك إلى المضار الصحية نتيجة الساعات الطويلة وراء جهاز الحاسوب وليس أقلها التسبب بنوبات صرع لدى الأطفال، واضطرابات في النوم، وإصابات في الجهاز العظمي والعضلي، وإجهاد للعينين بتأثير الأشعة الكهرومغناطيسية، والإصابة بالسمنة نتيجة تناول الطعام السريع أثناء اللعب.

أمَّا الولع والتعلق بهذه الألعاب فهذا مما يجب أن نلتفت اليه جميعاً فمن بين ثلاثين ألفاً من هذه الألعاب الإلكترونية تم رصد اثنين وعشرين ألفاً منها تعتمد اعتماداً مباشراً على فكرة الجريمة، والقتل، والدماء، وممارسة أشد أنواع العنف تطرفاً وانحرافاً.. وهو أمر مرعب فعلاً لا يسمح بإغماض العين عنه، فمثل هذه الأفكار التي تعتمد السلوك العدواني تؤثر على الصغار بما لا يمكن إصلاحه مستقبلاً، وبما ينعكس سلباً حتى على التحصيل العلمي، والسلوكيات المجتمعية التي تتجلى في العزلة، والعدوانية، والتوتر، وفقدان

المقدرة على التفكير الحر، إلى جانب ما يصاحب ذلك من كسل ولامبالاة.

والقائمون على صناعة الألعاب الإلكترونية يعدون بالمزيد.. وبنقلة نوعية فيها ستحدث في العام المقبل عندما سيتم طرح ألعاب متقدمة جداً من الناحية التقنية سواء من ناحية الرسوم، أو تجربة اللعبة بحد ذاتها. أما مهاراتهم التسويقية فهي تعد بعوالم غير مسبوقة من الواقع الإفتراضي تحملك إليها تلك الألعاب مشفوعة بتقنيات جديدة تحقق أعلى مستوى من الإحساس بواقعية هذا الافتراض، وإمكانية محاكاته لتفاصيل الحياة.. ولكن على اللاعب أن يكون صبوراً إذ لا يكفي شرط اقتنائه، أو شرائه للعبة بل إن عليه أن ينتظر مدة عام كامل حتى يحق له اقتناء تلك الأجهزة الحديثة.. وكأنه نوع من الاحتيال قبل أن يكون الإغراء والوعد بالصعود إلى السماء. فهل أطفالنا من المنتظرين أيضاً؟

كل هذا يقع خارج دائرة استلاب الشعوب، وخاصة الشعوب العربية في محو هويتها مع ذاكرتها الثقافية لتحل محلها قيم ليست من القيم العربية في شيء. ومادمنا قد فتحنا الأبواب فستدخل منها مع المعاصرة ثقافة دون رقابة تؤثر فينا ولا نؤثر فيها.

مما لاشك فيه أن انهيارنا كشعوب وما يتبعه من تدمير لقيمنا مع ثقافتنا هو ما يتطلع إليه عدونا في المقام الأول، ولعلي أجد من الضرورة أن أشير في هذا السياق إلى معلومة.. ففي أميركا بلد التكنولوجيا الحديثة، وفي مدينة نيويورك لفتني عندما كنت هناك أن أطفال الطائفة اليهودية لا يقتربون من الألعاب الإلكترونية مطلقاً، وعندما استفسرت عن السبب وجدت أنه ليس لأنهم لا يحبونها ما داموا أطفالاً وحالهم هو حال باقي الأطفال في العالم بل لأنه غير مسموح لهم هم بذلك، لا بل إنه ممنوع إلى درجة التحريم، فأولئك الأطفال يصرفون أوقات لهوهم وفراغهم في اتجاهات أخرى بعيدة عن التأثيرات الخارجية، وتشجع على الإبداع والابتكار كالموسيقى، أو الرسم، أو المطالعة، أو غيرها، وبما هو ليس تزجية للوقت فقط وإنما ما فيه الفائدة أولاً إلى جانب المتعة والتسلية ثانياً، وتحت رقابة الأهل، والصارمة منها ربما. وحتى الطعام السريع فمثل أولئك الأطفال لا يدخلون إلى مطاعمه فهو غير مسموح به أيضاً مادامت مقولة: (العقل السليم في الجسم السليم) ماثلة في أذهان الآباء والأمهات من الطائفة اليهودية.

فهل بتنا نغتصب براءة أطفالنا بحجة التواصل مع مستجدات العصر؟

وإذا كنا لا نستطيع العودة بعجلة الزمن إلى الوراء لنطرح من جديد ألعاب عقود مضت بين أيدي صغارنا مستبدلين بها تلك

الحديثة والأحدث، والتي أصبحت بدورها حقيقة لا يمكن حذفها، أو إلغاؤها، فلا أقل إذاً من مراقبتها، وتطبيق عملية الإصطفاء والإنتقاء لها بما يضمن سلامة أطفالنا في عقولهم، وفي وجدانهم، وفي منظومة القيم التي غرسناها فيهم. والقيم حسب منظومتها وقد أضيفت إليها قيم جديدة وهي: البيئية، والسكانية، والمعاصرة، وحقوق الإنسان، وحقوق الطفل، واللاعنصرية، واللاعرقية، وغيرها، هي التي ترتفع بالطفل فيما بعد عند نضجه إلى مقولات أسمى تعبر عنه وعن المجتمع الذي ينتمي إليه.

لست هنا بصدد وضع توصيات تحدد نوع الرقابة أو المنع فذلك من اختصاص القائمين على شأن الطفولة في كل مجالاتها، والتي تبدأ في المدرسة، وتنتهي أو لا تنتهي عند الإعلام، والمؤسسات الحكومية المعنية.. إلا أنني أرى أنه من الضروري لفت النظر إلى ما يتعرض له الطفل العربي من انتهاك لقيمه، ومحو لهويته.

ومادمنا نحن أدباء الأطفال نحرص على بث المعارف، والعلوم، إلى جانب القيم التربوية، والإرشاد من خلال كتاباتنا، إضافة إلى اطلاعنا ولا أقول اختصاصنا بعلوم بعينها كعلم الاجتماع، وعلم نفس الطفل، أقول مادامت هذه مسؤوليتنا تجاه الأجيال فلا أقل من أن نقف موقف المدافع عن سلامة الطفل النفسية، والعقلية، والقيمية.

فالطفل كرة متحركة دائمة النشاط تتميز بـ(مغناطيسية) شديدة قادرة على التقاط كل الأشياء وامتصاصها، والخطأ كما يقول المربون مهما كان بسيطاً إذا تلقفه الطفل فمن الصعب إزالته، كما أن له عيناً سحرية تضخم الأشياء وتجسمها فيراها من منظوره الخاص الذي يختلف عن منظور الكبار اختلافاً كلياً لأنه هو الطفل.

ومن خلال الملاحظات عن سلوك الطفل، إضافة إلى النظرة البديهية لنموه جسدياً وضّح علم نفس الطفل أن له عالمه الخاص من حيث رؤيته للعالم، وخياله، وأحلامه، واندفاعاته السلوكية، وعلى سبيل المثال نجد أن التربية أفادت علم النفس بالكذب عند الأطفال إذ اتضح لعلماء النفس أن هذا ليس كذباً، وإنما هو خيال يَصنع، أو يضيف إلى واقعة معينة أحداثاً لم تحصل، أو هو يبتدع من خياله أحداثاً بعينها. وهذا العالم يمتاز بالديناميكية والحركة والتغير، وعدم وجود الفواصل بين الحقيقة والوهم، والكبار بإشرافهم على الطفل يقومون بعملية التقنين، وتسمية الأشياء بمسمياتها، ووضع الطفل في مسارات معينة كتهيئته للاندماج بالمجتمع، وهذا ما لا يفهمه الطفل، ويعتبره قمعاً وتعسفاً وظلماً من الكبار، والقصص هي التي تجعله يذعن لأنه يتمثلها كحقائق وليست قصة. فإذا قرأ عن تجربة طفل دخل في مغارة وليس مزوداً بمصباح، أو بأنبوبة

أوكسجين وأدوات تساعده على اكتشاف المغارة تصور نفسه أنه هو الذي قام بهذه المغامرة فيتجنب الوقوع في أخطاء البطل الذي تماهى به.

لاشك أن للألعاب الإلكترونية انعكاسات إيجابية أيضاً على الطفل على الرغم من سلبياتها.. إذ ينفتح ذهنه، وينشط خياله، ويجني أفكاراً، وقد يجني قيماً معاصرة أيضاً، إلا أن دخوله إلى عالم ولو كان افتراضياً فيه سلوكيات هي من واقع الكبار يجعلنا نتحفظ على كثير من هذه الألعاب.. إذ ليس الهدف هو تسلية الصغار فقط، واعتبارهم أشخاصاً ليسوا ملحقين بالكبار أو أقل منهم قيمة، بل إن كل ما يتعلق بالطفولة من أفلام، وألعاب، وقصص، وأشعار، ومسرح، كل يهدف ذلك يهدف إلى إغناء معارف الطفل، كما إلى بنائه ذهنياً، واجتماعياً، ونفسياً، وتعزيز قدراته، وترسيخ القيم النبيلة والجميلة لديه ليمتلك ملامحه الخاصة به فلا تشوشه تلك الإشعاعات الغريبة التي أصبحت تبث نحوه من الشاشات. وحتى المجلات والكتب المستوردة للأطفال هي أيضاً ذات تأثير، وأكاد أقول: إن الإعلانات التي تخطف أبصارهم، ويحاولون تقليدها دون إدراك مضامينها هي أيضاً يجب أن تكون مدروسة بما يتناسب مع الطفولة لدينا.

كان لابد من الحديث عن الألعاب الإلكترونية لما لها من تأثير على الأطفال، ولأننا أمام مشكلة قائمة تتفرع إلى مشاكل، فنحن في هذا الزمن أصبحنا نعترف من كل وجهات النظر النفسية، والتربوية أن للطفل عالمه الخاص، وأصبح هو يشعر بذلك، ويعتبره من حقه فلم يعد ملحقاً بعالم الكبار أو مندمجاً فيه، وخارج إطار المدرسة فهو مع الألعاب، والرياضات، والهوايات، والرفاق الذين من سِنه، ومدن التسلية والرحلات، وحتى الأسفار التي تنظم له، هذا عدا عن المؤسسات والمنظمات الخاصة بالطفولة. إذن، فالطفل يتناول الكتب الخاصة بالأطفال ومنها الكتب الأدبية، ومما يشوقه أكثر فأكثر هي تلك الألعاب التي تأتي بديلاً عن القصص، ودعماً لما يراه على الشاشات فقد يكمل فيلماً رآه، أو يزيد فيه، ولعله يكرر تجربة التمتع به عندما ينفرد بهذه اللعبة أو تلك، والتي رأى ملامحها على الشاشة، أو في فيلم سينمائي.

إن ما يقدم للأطفال أمر حساس جداً يبلغ أحياناً مرحلة الخطورة لو تناول ما يسيء إلى الطفل، ويبذر عنده الخوف، أو الإحباط، أو الإحساس بالقصور والدونية، وبالمقابل التهور والطيش، والجرأة غير المحسوبة،...إلخ، أو يهدم القيم التي نشأ عليها، وهذه مهمة أساسية قبل تناول أي موضوع يدخل عالم الطفولة.

أمَّا وأنني قاربت أغلب سلبيات الألعاب الإلكترونية، والتي تكاد تفقد أطفال الأرض هوياتهم، وانتماءاتهم بعد أن أصبح جميعهم في فضاء واحد يضمهم هو فضاء العصر

نظراً لدخول وسائل التكنولوجيا الحديثة إلى كل مجتمعات الأرض، أقول إنه إلى جانب كل تلك السلبيات هناك إيجابيات بالطبع، لكن طغيان الجانب السلبي، وصعوبة التعامل معه جعلاني أتأخر في رصد الإيجابيات.

إذا كنا لا نعتبر أن عصر الصورة من خلال السينما، والتلفاز، وحالياً الأجهزة الإلكترونية الحديثة قد حدَّ من القدرة على التخيّل، ونفترض العكس في أن ما نشاهده مع أطفالنا قد أضاف إلى مخيلتنا الكثير، فإن مثل هذا الإبهار التكنولوجي ممثلاً بالألعاب الإلكترونية يشحذ خيال الأطفال، ويقفز بهم إلى آفاق أبعد مما هو متوقع. أما مهارات الحركة، والاستجابة السريعة، وتحفيز البديهة فهذا مما تدفع إليه الألعاب الإلكترونية لأنه يدخل في تصميمها كعنصر من عناصر الألعاب التفاعلية. لكن بالمقابل.. أين نحن الآن من عالم كلاسيكيات الأدب العالمي في قصص الأطفال وأجواء المتعة والخيال مع السلام، والقيم التي كانت تبثها في حينها تلك الأفكار، ويتفتح عليها الأطفال كبراعم الأزهار؟.. أين كل ذلك من عالم بات يصطبغ بالأحمر.. بلون الدم؟

وإذا كانت اللعبة الإلكترونية تترافق عند الطفل بمعرفته باستخدام الإنترنت ألا يحق لنا أن نتساءل عما تفعله الشبكة العنكبوتية بعقولنا وعقول صغارنا؟ ها نحن الكبار أيضاً نقضي قسماً من وقتنا في تصفح الشبكة التي شبكتنا اليها بخيوط لم نعد قادرين على رؤيتها أو التحرر منها فماذا هي فاعلة بنا؟ إنها في الحقيقة تؤثر فينا فتجعلنا أكثر سطحية في تناول أية معلومة وذلك لكثرة تدفق المعلومات، وتنوعها بآن معاً، فإذا بتركيزنا يتشتت، وبفكرنا يتسطح، وبذاكرتنا القصيرة تصبح أكثر قصراً.. تماماً كالذي يحصل عندما تعرض شاشة التلفاز، أو السينما لقطات سريعة هي في الحقيقة ومضات من مشاهد تراها العين، ويكاد العقل لا يدركها نظراً لسرعتها.

وطالما أن من يقومون بتصميم هذه الألعاب يستعينون بخبراء نفسيين، وعلماء سلوك، إلى جانب الفنانين المبدعين، والكتّاب المتمرسين بصناعة فن الدراما فلاشك أن التأثير سيكون كبيراً إن لم نقل صادماً ومُصادراً للمتلقي في أغلب الأحيان.. ومن هنا تأتي الخطورة بالنسبة للأطفال في التأثير والتأثر. أما التجربة التي يكتسبها الصغار من ممارسة الألعاب فهي التي يسربها واحدهم إلى الآخر لتتراكم تصاعداً، وتترجمها حماستهم المتزايدة إلى المزيد من اللهو الإلكتروني.

إنَّ كل ما يتعلق بالطفولة يضع علامات على الطريق.. وما يهمنا هو ألا تختلط الخطوات للأقدام الصغيرة فوق هذه

الطريق مادامت الرؤية واضحة أمامنا نحن ككتّاب، ومربين. ومادمنا قادرين على تصحيح الخطوات فلماذا لا نجنب أبناءنا الخروج عن الإطار العربي أولاً، ومن ثم الوقوف في وجه مصادرتهم من جهات أجنبية بتوجيههم منذ مرحلة الطفولة الطرية الغضة إلى قنوات فكرية معينة بعيدة عن ثقافتنا وقيمنا من جهة أخرى؟ خاصة وأن البيئة العربية هي متشابهة بين قطر وآخر، وتكاد تكون واحدة مع بعض الفروقات البسيطة.

الابتكار هو أساس العملية الإبداعية، ومن دون الابتكار لا يكون ثمة إبداع، ومثل هذه الألعاب تعتبر ابتكاراً معاصراً بامتياز، وأطفال اليوم باعتبار أنهم منفتحون على العالم، وهم يتمتعون بـ (رادار) دقيق يميزون بالحس العفوي ما هو مبتكر، فهم يتلمسون الجديد المبتكر ويعبّرون عنه باندفاع. ومن هنا كان رواج تلك الألعاب في أوساط الطفولة بمراحلها العمرية المختلفة.

وكما أن الخيال هو المادة الأساسية لعوالم الفن والأدب فهو الغاية ذات الأهمية بالنسبة للطفل، فشحذ الخيال وإغناؤه لدى الطفل، والجرأة على أن يعبر بالخيال عما يريد هي من غايات ما يقدم للأطفال لأن الخيال أساس لكل نمو، وعلم، ومعرفة، وتطور، فكما يحتاج الفنان رساماً كان، أو شاعراً إلى الخيال كذلك يحتاجه المهندس، والعامل، والعالم،...إلخ، والخيال بحد ذاته متعة للطفل.. فالضحكة لا تنفجر إلا عندما تُحمل على جناح الخيال، ولا ننسى هذه الخاصية عند الطفل في التقمص والتماهي، واستنطاق الحيوان والجماد، وتشخيص المحسوسات، وإضفاء الروح عليها مما يزكي الخيال ويمد آفاقه.

ونحن –القائمين– على شأن الطفولة لا نريد أن نقص أجنحة الخيال عند أطفالنا إلا أننا لا نريد في الوقت ذاته أن تتلاعب بعقولهم تلك الفضاءات الإلكترونية بما تحمله من ثقافة وأفكار هي ليست من نسيجنا.

ولو أنني ذهبت بخيالي بعيداً لتصورت أو تمنيت أن تكون لدينا ألعاب إلكترونية معاصرة لأبنائنا تحكي قصص تراثنا بما تحمله من مضامين تقوم على بث قيم الحق، والخير، والجمال.. وهل هناك أجمل من قصص (ألف ليلة وليلة) أو أخصب منها خيالاً؟ بالطبع لا.. والغرب تأثر بها إلى أبعد حد فاستوحى منها كثيراً في أعماله الإبداعية.. وما بالنا بقصة (سيف ابن ذي يزن)، و(حي بن يقظان)، وحكايات (السندباد)، أو (السيرة الهلالية)، وغيرها كثير مما يصلح أن يقدم للأطفال.

إنَّه بعض الضوء على عالم الألعاب الإلكترونية وعلاقتها بثقافة الطفل العربي.

إدمان الإنترنت

وهدان وهدان ❁

تحمل تقنية الإنترنت المنبثقة من الحاسوب - كأي وسيلة أخرى من وسائل التقنية الحديثة - جوانب إيجابية نافعة لا يمكن إنكارها وأخرى سلبية قد تكون (قاتلة) حين التمادي لا يمكن إهمالها!.. هذا ما يؤكده أهل الاختصاص الذين

❁ كاتب وباحث.

يشـيرون أيضـا إلى أن هناك تأثيراً كبيراً لتقنية الحاسـوب والإنترنت في السـلوك الإنساني، وأن من أبرز مظاهر هذا التأثير بروز مشكلة الإدمان على الإنترنت والألعاب لـدى الأطفال ومرتـادي المقاهي. ويعتبر عدد من الباحثين أن الإدمان على الإنترنت هو شكل من أشكال الإدمان النفسي القسري الذي يؤدي إلى ضـعف قدرة المدمن على ضـبط الذات وانخفاض مستوى الإنتاجية لديه واضطراب علاقاته الاجتماعية.

إدمان الإنترنت

قد يسـتغرب القارئ الكريم عندما يرى كلمـة «إدمان» مضـافة إلـى «إنترنت»!.. فعادة ما يكون «الإدمان» مرتبطاً باستخدام مواد تدخل جوف الإنسـان مثل المسكرات والمخـدرات. ولكـن الحقيقـة أن هنـاك عدداً من الدراسـات الإكلينيكية في مجال الإدمان قد توصلت إلى أنه قد ينتج «إدمان» مرضـي جراء اسـتخدام الإنترنت بطريقة غير سـليمة، ومن هذه الدراسات الميدانية دراسـة أنجزتها الدكتـورة «كيمبرلي يونغ» الأخصـائية النفسـية في مؤتمر مؤسسات علماء النفس الأمريكيين المنعقد عام ٢٠١٠ على حوالى ١٥٠٠ شـخص من الجنسـين يستخدمون الإنترنت بشكل مكثف، انطلاقاً من عدد ساعات الاستخدام، والتأثير الذي قد ينتجه الاسـتخدام المكثـف على حياة الفرد الشخصـية والأسـرية والاجتماعية، وقد تمَّ تصنيف من أجريت عليهم الدراسة إلى صنفين:

-**الصنـف الأول**: هـم من يقضـون في المتوسـط (٣٨) سـاعة أسـبوعياً علـى اسـتخدامات لا تمت لعملهم أو دراسـتهم – بالنسـبة للطلاب– بصلة، حيث كان لهذا الاسـتخدام المكثف أثر سلبي على إنتاجية المسـتخدم العملية أو الدراسـية. كما كان له تأثير سـلبي علـى علاقاتهم الأسـرية وارتباطاتهم المجتمعية، وقد تم وصفهم في هذه الدراسة بـ«مدمني إنترنت»..

- **الصنف الآخر**: هم الذين لا يستخدمون الإنترنت بكثافة الصـنف الأول نفسه، ولم يكن لاستخدامهم، بالتالي، أثر ملحوظ على حياتهم العملية أو الاجتماعية.

وفـي دراسـة ميدانية مماثلـة أظهرت أن حوالـى ٥٠ ٪ مـن مدمنـي الإنترنـت الذين يسـتخدمون الشـبكة بما لا يقل عن (٤٠) سـاعة أسـبوعياً فيمـا لا علاقة له بطبيعة عملهـم، لا يسـتطيعون النوم أكثر من (٤) سـاعات يوميا. وتسمى هذه الفئة بظاهـرة «إدمـان الإنترنـت» Internet Addiction، وتتعلق بالاستخدام المفرط للكمبيوتر والإنترنت، حيث تتنامى وباتساع البحوث النفسـية التي تؤكد أن الاستخدام المبالغ فيه لشـبكة الإنترنت تسبب إدماناً نفسياً قريباً نوعا ما في طبيعته من الإدمان

الذي يسبّبه التعاطي المكثف للمشروبات الكحولية أو المخدرات.

أعراض إدمان الإنترنت

يعرف إدمان الإنترنت بأنه حالة من الاستخدام المرضي وغير التوافقي للإنترنت يؤدي إلى اضطرابات إكلينيكية يستدل عليها بوجود المظاهر التالية:

- **التحمل:** أي الميل إلى زيادة ساعات استخدام الإنترنت لإشباع الرغبة نفسها التي كانت تشبعها من قبل ساعات أقل.

- **الانسحاب:** أي المعاناة من أعراض نفسية وجسمية عند انقطاع الاتصال بالشبكة، ومنها التوتر النفسي الحركي (حركات عصبية زائدة)، والقلق، وتركز التفكير بشكل قهري حول الإنترنت وما يجري فيها، وأحلام وتخيلات مرتبطة بالإنترنت، وحركات إرادية ولا إرادية للأصابع مشابهة لحركات الأصابع على الكمبيوتر، والرغبة الجامحة في العودة إلى استخدام الإنترنت لتخفيف أو تجنب أعراض الانسحاب، إضافة إلى الميل لاستخدام الإنترنت بمعدل أكثر تكراراً ولفترة زمنية أطول تتجاوز ما كان الفرد يخطط له أصلاً.

كما أن من أعراض إدمان الإنترنت، تسبب مواصلة استخدام هذه الخدمة، حدوث مشكلات جسمانية أو نفسية دائمة، أو متكررة، أو مهنية، أو اجتماعية، تنتج في الأساس بسبب الاستخدام المبالغ فيه للشبكة مثل السهر، الأرق، آلام الظهر والرقبة، التهاب العينين، التأخر عن العمل الصباحي، إهمال واجبات ومواعيد العمل، اللامبالاة في الالتزامات مع الأسرة أو الأقارب أو الأصدقاء.. إلخ. إضافة إلى ذلك فإن إدمان الإنترنت، أدّى بالبعض إلى فقدان علاقات اجتماعية جوهرية، أو إهدار فرص الترقية وتحسين الوضع الوظيفي بسبب الانشغال به، فيما يلجأ البعض إلى الكذب، وخداع أفراد الأسرة، أو الطبيب، أو أي طرف آخر ذي صلة، لإخفاء حجم التورط والتعلق الشديد بالشبكة، بينما يلجأ البعض إلى استخدام الكمبيوتر كأسلوب للهروب من المشكلات، وتخفيف سوء المزاج الذي يعاني المدمن منه مثل الشعور بالعجز أو الذنب أو القلق أو الاكتئاب.

إدمان الأطفال للإنترنت

أمَّا عن تأثير الاستخدام السيئ للإنترنت على الأطفال، فإنه يقود إلى اضطراب وتغير عادات النوم لديهم، ناهيك عن المشكلات الدراسية وتدني مستوى التحصيل العلمي، كما أن الاستغراق في الإنترنت يؤدي إلى تخلي الأطفال عن ممارسة الهوايات والأنشطة الأخرى المحببة إليهم، في حين يمتنع أطفال آخرون عن التنزه واللعب مع الأصدقاء والأصحاب أو الانضمام إلى الحلقة الأسرية المعتادة، كما يصاب بعض

الأطفال بنوبات غضب وتوتر وعنف عند محاولة وضع حدود وضوابط لاستخدام الشبكة من قبل الوالدين، أو يتحايل بعضهم للدخول إلى الشبكة من دون علم أولياء الأمور تحديا لهم. ويمكن تصنيف إدمان الإنترنت بناء على مجالات الاستخدام إلى أربعة أصناف:

- **الإدمان الجنسي**: إنَّ الانتشار السريع والمتجدد لمواقع الإباحية على شبكة الإنترنت كان له دور رئيسي في هذا النوع من الإدمان. ولا يقتصر الإدمان الجنسي على دخول المواقع الإباحية على الإنترنت، بل يتعدى ذلك إلى قضاء أوقات طويلة في بعض غرف الحوارات (Chat Rooms) في أحاديث جنسية مع مستخدمين آخرين، أو تناول صور، أو عناوين إباحية على الإنترنت. وتشير إحصاءات أن أكثر من ٣٥ ٪ من مستخدمي الإنترنت قاموا بتصفح أكثر من ١٠ مواقع إباحية على الإنترنت خلال شهر واحد، وتشير إحصاءات أخرى إلى أن أكثر من ٦٠ ٪ من المراهقين في الولايات المتحدة الأمريكية يتصفحون وبشكل مستمر مواقع إباحية من دون علم أولياء أمورهم.

- **إدمان الحوارات**: ويكون إما عن طريق الدخول إلى غرف الحوارات أو عن طريق البريد الإلكتروني وبغض النظر عن نوعية الأحاديث المتبادلة من خلال هذه الغرف فإن كثيراً من المستخدمين يقضون أوقاتا طويلة تكون على حساب التزامات اجتماعية وأخلاقية.

- **الألعاب الإلكترونية**: ويضم هذا الصنف الاستخدام المكثف للألعاب الإلكترونية الموجودة على شبكة الإنترنت، ويشمل كذلك لعب القمار والدخول إلى مواقع (الكازينوهات التخيلية) والتي تمكن المستخدمين من اللعب مع آخرين كما لو كانوا في كازينو حقيقي.

- **الإفراط المعلوماتي**: ذلك أن لكثرة المعلومات وتنوعها على شبكة الإنترنت دوراً في إفراط بعض المستخدمين في تصفح المواقع المختلفة على الشبكة وقضاء وقت طويل في التنقل من موقع إلى آخر من دون هدف.

سلبيات إدمان الإنترنت

١- مشاكل صحية:

يتسبب إدمان الإنترنت في اضطراب نوم صاحبه بسبب حاجته المستمرة إلى زيادة وقت استخدامه للإنترنت، حيث يقضي أغلب المدمنين ساعات الليل كاملة على الإنترنت، ولا ينامون إلا ساعة أو ساعتين حتى يحل موعد عملهم أو دراستهم. ويتسبب ذلك في إرهاق بالغ للمدمن، مما يؤثر على أدائه الوظيفي، أو دراسته. كما يؤثر ذلك تأثيراً بالغاً على مناعته الجسمية ويجعله

أكثـر قابلية للإصـابة بالأمراضـ، كما أن قضاء المدمن ساعات طويلة من دون حركة تذكـر يؤدي إلى آلام الظهر وإرهاق العينين ويجعله أكثر قابلية لمرض النفق الرسـغي: Carpal tunnel syudrome.

٢- مشاكل أسرية:

يتسـبب انغماس المدمن في استخدام الإنترنـت، وقضـائه أوقاتـاً طويلـة، في اضـطراب حياته الأسـرية، حيث يقضـي المدمن أوقاتا أقل مع أسـرته. وبالضرورة فإنه يهمل واجباته الأسرية والمنزلية الأمر الذي يؤدي إلى تراخي العلاقات الوشائجية والتآلف والتعاطف بين أفراد تلك الأسـرة. وبسبب إقامة البعض علاقات عاطفية غير شـرعية (وغير سـوية) من خلال الإنترنت تتأثر العلاقات الزوجية حيث يحس الطرف الآخـر بالخيانة وقد أطلـق على الزوجات اللاتـي يعانين من مثل هؤلاء الأزواج بأنهن «أرامـل الإنترنـت» Cther wudiws، ويعترف ٥٣٪ من مدمني الإنترنت أن لديهم مثل هذه المشـاكل، وذلك طبقاً للدراسـة التي نشـرتها «كيمبرلي يونغ» التي ذكرناها سابقاً.

٣- مشاكل أكاديمية:

وقد بين الاستطلاع الذي نشره د. بروس بيتـر في مجلـة USA Today (أبريل / نيسـان ٢٠٠٤) تحت عنوان «تساؤلات حول القيمـة التعليمية للإنترنـت»: أن ٨٦٪ من المدرسين المشتركين في الاستطلاع يرون أن اسـتخدام الأطفال للإنترنت لا يحسـن أداؤهـم وذلك بسـبب انعـدام النظام في المعلومات على الإنترنت، إضـافة إلى عدم وجود علاقة مباشرة بين معلومات الإنترنت ومناهج المدارس، وقد كشفت دراسة «يونغ» السابقة الذكر أن ٥٨٪ من طلاب المدارس المستخدمين للإنترنت اعترفوا بانخفاض مسـتوى درجاتهم وغيابهم عن حصصـهم المقررة بالمدرسـة، ومع أن الإنترنت يعتبر وسـيلة بحث مثالية، فإنَّ الكثير من طلاب المدارسـ يسـتخدمونه لأسـباب أخـرى كالبحث في مواقع لا تمت لدراستهم بصلة، أو الثرثرة في حجرات الحوارات الحية، أو استخدام ألعاب الإنترنت.

٤- مشاكل في العمل:

بسـبب وجود الإنترنت فـي مكان عمل الكثير من الناس، يحدث في بعض الأحيان أن يضيع العامل بعض وقت عمله في اللعب على الإنترنت، أو استخدامه في غير وظيفة تخصصـه، ويشـكل ذلك مشـكلة أكبر إذا كان العامل مدمنا للإنترنت، كما إن سـهر مدمـن الإنترنت طيلة سـاعات الليل يؤدي إلى انخفاض مسـتوى أدائـه لعمله، ولحل المشكلة يقوم بعض رؤساء الأعمال بتركيب أجهزة مراقبة على شـبكات الكمبيوتر في

محل عملهم للتأكد من استخدام الإنترنت في مجال العمل فقط.

علاج إدمان الإنترنت

حسب رأي الدكتورة «يونغ» فإن هناك عدة طرق لعلاج إدمان الإنترنت، أول ثلاث منها تتمثل في إدارة الوقت، ولكنه -عادة- في حالة الإدمان الشديد لا تكفي إدارة الوقت، بل يلزم من المريض استخدام وسائل أكثر هجومية:

١- **عكس العكس:** فإذا اعتاد المريض استخدام الإنترنت طيلة الأسبوع تطلب منه الانتظار حتى يستخدمه في يوم الإجازة الأسبوعية، وإذا كان يفتح البريد الإلكتروني أول شيء يفعله حين يستيقظ من النوم، نطلب منه أن ينتظر فطوره ويشاهد أخبار الصباح، وإذا كان المريض يستخدم الكمبيوتر في حجرة النوم نطلب منه أن يضعه في غرفة أخرى.. وهكذا.

٢- **إيجاد موانع خارجية:** وذلك بضبط المنبه قبل دخوله الإنترنت، بحيث يحدد زمن الدخول بساعة واحدة قبل ذهابه إلى العمل مثلا حتى لا يندمج مع الإنترنت بحيث ينسى ذلك الموعد.

٣- **تحديد وقت الاستخدام:** وذلك يعني التقيد بتقليل ساعات استخدامه، بحيث إذا كان مثلاً يدخل على الإنترنت لمدة ٤٠ ساعة أسبوعياً نطلب منه التقليل إلى ٢٠ ساعة أسبوعياً، وتنظيم تلك الساعات بتوزيعها على أيام الأسبوع في ساعات محددة من اليوم، بحيث لا يتخطى الجدول المحدد.

٤- **الامتناع التام:** كما ذكرنا فإن إدمان بعض المرضى يتعلق بمجال محدد من مجالات استخدام الإنترنت فإذا كان المريض مدمنا لغرف الحوارات الحية، نطلب منه الامتناع عن تلك الوسيلة امتناعاً تاماً في حين نترك له حرية استخدام الوسائل الأخرى الموجودة على الإنترنت.

٥- **إعداد بطاقات من أجل التذكير:** وهذا يعني إعداد بطاقات يكتب عليها خمسا من أهم المشاكل الناجمة عن إسرافه في استخدام الإنترنت، كإهماله لأسرته، وتقصيره في أداء عمله مثلا، ويكتب عليها أيضا خمسة من الفوائد التي ستنتج جراء إقلاعه عن الإدمان، مثل «إصلاحه لمشاكله الأسرية، وزيادة اهتمامه بعمله»، ويضع المريض تلك البطاقات في جيبه، أو حقيبته حينما يذهب بحيث إذا وجد نفسه مندمجا في استخدام الإنترنت يخرج البطاقات ليذكر نفسه بالمشاكل الناجمة عن ذلك الاندماج.

٦- **إعادة توزيع الوقت:** إذ لابد أن يفكر المريض في الأنشطة التي كان يقوم بها قبل إدمانه للإنترنت، ليدرك ماذا خسر جراء إدمانه مثل القراءة وممارسة الهوايات، والرياضة، وقضاء الوقت مع الأسرة، والقيام بزيارات اجتماعية، والرحلات وارتياد

المسارح.. إلخ. وهكذا نطلب من المريض أن يعاود ممارسة تلك الأنشطة لعله يتذكر طعم الحياة الحقيقية وحلاوتها.

٧- **الانضمام إلى مجموعات التأييد:** وكوسيلة مساعدة إضافية لابد من زيادة مساحة الاجتماعية الحقيقية مثل الانضمام إلى فريق رياضي، أو إلى درس لتعلم الموسيقى، أو إتقان لغة أجنبية في صف مدرسي، أو الانتماء إلى ناد اجتماعي ليجد حوله مجموعة من الأصدقاء الحقيقيين.

٨- **المعالجة الأسرية:** في بعض الأحيان تحتاج الأسرة بأكملها إلى تلقي علاج أسري بسبب المشاكل الأسرية التي يحدثها إدمان الإنترنت بحيث يوضع برنامج يساعد في استعادة الحوار فيما بين أفرادها ولتعلم الأسرة بمدى خطورة تجاوز الحد المعقول في استخدام الإنترنت المؤدي إلى إدمانه.

ختاماً: إنَّ الحديث عن أضرار الإنترنت لا يعني تجاهله والعزوف عنه، إنَّما المطلوب هو الترشيد والاستخدام الموضوعي المعتدل، لتحقيق أغراض محددة واضحة، كما أنه من الضرورة إيلاء أهمية الرقابة الأسرية، وتوجيه الأطفال والمراهقين نحو الاستخدام الأمثل للشبكة، ووضع قواعد وضوابط له قبل الغوص في محيطه والإبحار في أمواجه التي قد تقود إلى التيه والعلل.. فالوقاية خير من العلاج.

مقاهي الإنترنت.. السلبيات والإيجابيات

تشترك مكونات مقاهي الإنترنت والهيئة التشكيلية لها في عنصر أساسي واحد وهو الذي قامت من أجله: أجهزة الحاسب الآلي وملحقاتها التي تزودها بالاتصال بالشبكة العنكبوتية. وتشمل بعض المقاهي، إضافة للأجهزة، على ركن للمشروبات الساخنة أو الباردة، وتتفاوت أسعارها من التقليدية إلى الباهظة بحسب فخامة المقهى. كما تحتوي بعض المقاهي على صالة ألعاب، وبالأخص لعبة (البلياردو)، وقد يضاف إليها (تنس الطاولة)، وهذا يتطلب مكانا رحبا وفرته بعض العواصم والمدن العربية، هذه باقتضاب مكونات مقاهي الإنترنت في الوطن العربي، ومنها سورية، وقد تفاوتت في خدماتها، فمنها ما اقتصر على الإنترنت، ومنها ما أضاف ركن مشروبات، والبعض جمع بينها كلها.

الفئات والشرائح المرتادة لها

قبل أن نخوض في فئات وشرائح المرتادين، يستحسن أن نعرج على أسباب الإقبال على مقاهي الإنترنت، وسنذكر هنا باقتضاب أهم الأسباب المؤدية لزيادة الإقبال على تلك المقاهي:

١- إهمال أولياء الأمر من الآباء والأمهات، وضعف مراقبة الأسر لأبنائهم.

٢- الفراغ الممتد في يوم الفتى أو

الشـــاب والفـــرار مـــن الواجبـــات الملزمة والأعمال الجادة.

٣- توفر الســـيولة المالية الكافية لدى الكثير من الفتيان والشباب.

٤- لا يمكـــن إجـــراء رقابة صـــارمة أو محكمة على مثل هذه الخدمة، لأنها شـــبكة دولية مفتوحة على مصـــاريعها تتجدد فيها المواقع خلال الدقيقة الواحدة.

٥- الفضول اللامحدود والبحث عن كل جديد، بما في ذلك الممنوع، دون أي رقيب أو حســـيب من البشر، ومعروف أن الفضول الإنســـاني والبحث عن الجديد لا يتوقفان عند حد ولا يؤطرهما رادع.

٦- إن الكثيريـــن من الذين يمارســـون عمليات التخريب على أجهزة الآخرين يمكن التعرف عليهم فيما لو اســـتعملوا أجهزتهم الشخصـــية، من هنا فإنهم يلجؤون إلى تلك المقاهي لتقيد جرائم ضد مجهول.

٧- تحفظ كثير من الأســـر العربية على إدخـــال الإنترنت إلى البيـــوت جعل العديد من الفتيان والشـــباب يجـــدون في البحث عن المتعـــة والتســـلية في تلـــك المقاهي المفتوحة.

إيجابيات المقاهي

الإيجابيـــات والمنافع التـــي ترجى من تلك المقاهي قد تكون ضئيلة ومحدودة في ظل التكلفـــة الباهظة لها والحرية المطلقة التي تحفل بهـــا، الأمر الذي يعطي الفرص المضافة للدارس والباحث والمتابع لتوثيق معلوماته وزيادة معارفه والارتقاء بإبداعاته خصوصا إذا كانت له أهداف محددة وبرامج ممنهجة وروادع ثابتة، ومن باب العدل لابد من ذكـــر إيجابيات ما جاءت تلك المقاهي، والتي يمكن تأطيرها بالتالي:

- تهيئة المكان والجهاز بأوضاع مناسبة غالبا، مع الخدمة المتميزة بمتابعة المرتاد، وتلبية طلباته واحتياجاته تقنياً وتعليمياً.

- تمكين الزائريـــن القادمين من خارج المـــدن (حيث لا تتوافر تلـــك الخدمة) من التصـــفح والاطـــلاع والمتابعـــة والتوثيـــق وإنجاز بعض الأعمال والأنشطة عن طريق المقهى.

- تمكيـــن المغتربيـــن القادميـــن مـــن بلدان شتى من الاتصـــال بذويهم ومحادثة أقاربهم ومعارفهم عن طريق بعض البرامج المساعدة لذلك كتابة كانت أم صوتية.

- اســـتخدام المقاهي كبديل لن تعرض جهازه للعطل، حيث يمضي فيه بعض الوقت لمتابعة وإنجـــاز أعمالـــه والتزاماته ريثما ينتهي إصلاح جهازه الخاص.

سلبيات المقاهي

إنَّ المشـــاهد لتلك المقاهـــي وروادها من الفتيان والشـــباب، على وجـــه العموم، وطبقاً للإحصاءات والاستبيانات الميدانية الموثقة، لا يستطيع أن يتغافل عن السلبيات والمســـاوئ التي أنتجتها تلك المقاهي، وإن

لم يكن أصحاب تلك المقاهي قاصدين ذلك، ولكن عندما يكون رواد تلك المقاهي من الناشئة والشباب الطموح الذين يهدرون أثمن أوقاتهم وأهم مراحل أعمارهم، نعلم مدى سلبيتها التي تنعكس على الكثيرين – وليس الكل– لتشمل تلك السلبية، بالضرورة علاقتهم مع أسرهم ومجتمعهم. ذلك أنَّ الأفراد الذين يضيعون أيامهم وسنوات عمرهم، خلال تلك المرحلة المفصلية من مسيرة حياتهم، وهي المرحلة الأهم لبناء مستقبلهم، يتحولون إلى عناصر ضاغطة على أسرهم، وإلى أدوات معطلة لازدهار وتطوير إمكانات وقدرات وتطلعات الأسرة، وإلى معوقات مضافة لشريحة هامة من المجتمع. ولعلنا نبرز السلبيات والمساوئ بالآتي:

– الحرية غير المقيدة أو الملزمة في استخدام الشبكة في أمور تتنافى مع الأخلاق والأعراف والتقاليد، وهي أمور محرمة شرعيا أصلا، دون وازع وجداني – كالمواقع الجنسية المترامية الأطراف – والتي من شأنها أن تغير بصورة جذرية وشاملة، من نمط حياة المستخدم، وتتردى بعلاقاته مع أسرته ومعارفه، وهناك إحصاءات مرعبة بعدد المواقع الجنسية على الشبكة العنكبوتية، وضحايا تلك المواقع من المراهقين والشباب كثيرون جدّاً، وهم يستسلمون لمثل هذا الاستخدام السلبي يوما بعد آخر وينزلقون في نفقة الموبوء والمظلم حتى يصلون إلى ما يمكن تسميته بالإدمان، حيث يصبح من الصعوبة بمكان الخروج من مستنقعه. ولك –أيها القارئ العزيز– أن تتصور مدى التردي الذي ينحدر إليه المستخدم وكذلك الأضرار والمخاطر التي يحملها إلى أسرته ومجتمعه. وبهذا الصدد فإن الإحصاءات ذات الشأن تذكر أنَّ عدد زوَّار الصفحات الإباحية في البلدان العربية عام ٢٠١٢م تجاوز ١٨١٠٣٢٠، وإن بعض البلدان يستقبل أكثر من ٢٥٠٠ زائر يومياً.

– استخدام الحاسب في التعدي على الغير وممارسة تخريب واختراق أجهزة المستخدمين، بحيث يأمن أنه لن يخسر شيئا لو تعرض جهازه الذي يعمل من خلاله لأي اختراق أو تخريب.

– ضياع الوقت الكبير، والثمين جدّاً، مع توفير الجو المساعد للبقاء في المقهى، كأن يتم تقليص سعر الساعة في مقابل استخدام ساعتين أو أكثر، مما يغري المرتاد بالمتابعة، خاصة إذا علمنا أن غالبية تلك الأجهزة بطيئة جدّاً، حيث يستغرق فتح الموقع فيها والتحميل وقتاً طويلاً نسبياً.

وفيما يلي إحصائية موثقة حول إهدار الأوقات الطائلة في تلك المقاهي:

• في استبيان وزع في مقاهي الإنترنت في بعض الدول العربية وجد أن ٦٨ ٪ من

مرتـــادي هـــذه المقاهي يقضـــون أكثر من ٣ ســـاعات يومياً علـــى الإنترنت ومنهم من يقضي أكثر من ١٠ ساعات. ويذكر أن أحد زبائـــن مقهى الإنترنت يقضـــي ١٦ ســـاعة يوميـــاً على الرغم من كونـــه موظفاً يذهب لدوامه الوظيفي للتوقيع وتوزيع الابتسامات فقط، وهو يمكـــث في المقهى من الظهيرة إلى صبيحة اليوم التالي.

• الجو غير الصـــحي لهـــذه المقاهي، فرائحة الســـجائر أمر مشـــاع فـــي غالب المقاهي، إن لم يكن كلها، مما يسبب بعض الأمراضـــ الناتجة عن استنشـــاق الروائح المنبعثة من تلك السجائر، وأيضاً وضع بعض المقاهي شاشـــات تعرض بعضـــ القنوات الفضـــائية الخليعة، ناهيك عن الموسيقى الصاخبة التي تعم أرجاء المكان.

• اجتماع فئات وشـــرائح قد لا تكون في الأعم صـــالحة أو ممن يحســـن الاختلاط بهم، مما ينشئ لنا مع الزمان أصدقاء مقاه يسببون الأذى والضرر.

المراجع

١- هـــل أنت مدمن إنترنـــت، د.عبد الرحمن الحبيب، جريدة الاتحاد الإماراتيـــة، ملحق دنيا، العدد ١٣١٢٨، ٢٠١٢/٥/٢٨.

٢- العلماء يحذرون من إدمانها: تكنولوجيا العصر، د.حسين فاضل، مجلة المرأة العربية، العدد ٤٩٧.

٣- التعاطي العنكبوتي. إدمان يخترق أدمغتنا، د.سليم محمود عقاب، مجلة سطر المعرفة، العدد ١٩٧.

٤- اضـــطرابات إدمان الإنترنت، دراســـات إدمان الحاســـوب، مركـــز كلين، جامعة هارفـــارد، ترجمة: خليل أبوعيطة.

مسؤولية العلم والتيارات الاجتماعية في مكافحة المخدرات

هبة الله الغلاييني ❁

المنظور الذي لا يكف عن التفتح أمامنا، على امتداد العصر الحديث بوجه عام، وعلى امتداد العقود العشرة للقرن العشرين بوجه خاص، هو منظور العلاقة الجدلية بين العلم كملاذ والعلم كمسؤولية. هناك أنواع عدّة من المسؤولية تلقى على عاتق العلماء في هذا المجال الذي نحن بصدده، نخص بالذكر منها ثلاثة هي:

أ. مسؤولية الاجتهاد في البحث بهدف الكشف عن الحقيقة.

❁ كاتبة ومترجمة.

ب. مسؤولية تطويع العلماء معلوماتهم لأغراض التطبيق أو الإفادة العلمية.

ج. مسؤولية تقديم المشورة لصانعي القرار.

وفي مقابل هذه المسؤوليات وترتيباً عليها تنشأ مسؤوليات أخرى يُلقى عبؤها على كاهل القيادات الاجتماعية كل بحسب موقعه ومجاله.

أ. مسؤولية الاجتهاد في البحث:

هذه هي أبسط أنواع المسؤولية التي يطالب العلماء بالوفاء بها، ونعني بالبساطة هنا شدة الوضوح والمباشرة، فهي تفرض نفسها. فالاجتهاد في البحث يعني التزامات عدة تهدف كلها إلى الكشف عن الحقيقة والعمل على إذاعتها. أما عن هذه الالتزامات فيأتي في مقدمتها النزاهة والتجرد عن الهوى. ومع أن هذا الكلام يبدو وكأنه تحصيل حاصل أو كلام معاد فإن الممارس للبحث العلمي فعلاً يكشف أثناء مسيرته أن هناك مغريات عدّة تلوح له من حين لآخر تحثه تحت أسماء ودعاوى مختلفة على أن يتنازل قليلا عن قدر محدود من النزاهة. وهناك أمثلة حية لاستجابات متنوعة لبعض المغريات قام بها بعض العلماء المساهمين في بحوث تعاطي القنب، وهم علماء ذوو مناصب مرموقة في بعض الجامعات الأوروبية والأميركية، وكان أهم إغراء تعرضوا له في هذا الصدد إغراء المجاراة لموجة جارفة تجتاح الإعلام الأميركي بوجه خاص والغربي بوجه عام مؤداها التقليل من أضرار تعاطي القنب.

وجدير بالذكر أن هذا النوع من السلوك من جانب العلماء يتم بصورة هادئة ومرهفة لاترقى أبداً إلى مستوى التزييف الفج، وغالباً ما يصحبها نوع من ترويض الضمير، يساعد على ذلك أنها تتم تدريجياً فتستغرق وقتاً طويلاً نسبياً غالباً ما يكون كافياً لترويض الضمير في التوجهات المرغوب فيها.

ويأتي في الأهمية بعد مبدأ النزاهة واجب الإعداد العلمي الجيد والمتجدد للباحث، من إتقان لطرق البحث، وأساليب تحليل المادة العلمية المتجمعة، ومداومة الاطلاع على الجديد في الميدان، والسخاء في بذل الجهد اللازم للتأكد من سلامة نتائجه واستحواذها الثقة. ثم يأتي بعد ذلك واجب السعي إلى النشر العلمي الموثق للبحث ونتائجه، أي إن السعي إلى النشر العلمي هو نفسه واجب ضمن الواجبات التي يلتزم بها العلماء وذلك للإسهام في إذاعة الحقيقة على أوسع نطاق ممكن.

ومن اللازم التنبه إلى أننا نتكلم هنا عن النشر العلمي الموثق، ولهذا قواعده المنظمة له شكلاً ومضموناً، وهو يختلف تماماً عن النشر الإعلامي الموجه إلى كسب الشهرة.

ب. مسؤولية تطويع المعلومات لأغراض التطبيق:

إذا كانت مسؤولية الاجتهاد في البحث فرض عين على كل عالم، فإن مسؤولية تطويع المعلومات لأغراض التطبيق والاستفادة العلمية فرض كفاية على جمهرة العلماء. ومعنى ذلك أن مبدأ الاختيار بين الاهتمام بالتطبيق أو الانصراف عنه إلى العلم البحت متاح أمام العلماء كأفراد، فقد عرفنا علماء كبارا في شتى فروع المعرفة العلمية لايغريهم الانشغال بالكيفية التي يمكن بها للمجتمع أن يفيد من نتائج بحوثهم، وبدلا من ذلك يستحوذ الاهتمام بالكشف عن الحقيقة على طاقتهم للعمل العلمي بكاملها. ولاينقص هذا من قدرهم بأي حال. ولايتناقض ذلك مع حق المجتمع في أن يتوقع من العلم والعلماء كثيراً من الجهود التي تبذل في خدمة التطبيق، ذلك أن الواقع يشهد (على طول تاريخ العلم واتساع مساحته) بوجود أعداد كبيرة من العلماء يحتل عندهم الانشغال بالتطبيق مكانة عالية ويستنفد جزءا كبيراً من طاقاتهم. وكثير من هؤلاء لاتقتصر جهودهم في هذا الشأن على محاولة تطويع نتائج بحوثهم المرتبطة بأسمائهم الشخصية فحسب لمقتضيات التطبيق ولكنها تمتد فتشمل تطويع بعض نتائج حصل عليها باحثون غيرهم كذلك. وعلى هذا النحو تسير الأمور نحو قدر من التوازن في هذا الصدد بين توقعات المجتمع من ناحية وممارسات العلماء (في مجموعهم) من ناحية أخرى. والشيء المهم في هذا الصدد هو التزام العالم الفرد جانب الصدق مع نفسه، فإذا كان على استعداد لخوض مجال التطبيق فلتكن مسيرته مزودة بالاهتمام العميق الشامل، والإعداد المنهجي اللازم لتحقيق أعلى درجة ممكنة من الإتقان، إتقان تطويع المعلومات الأساسية إلى نماذج تطبيقية.

جـ. مسؤولية تقديم المشورة لصانع القرار:

إذا حدث هذا البند فإنه يقتضي أن يتوافر لدى العلماء (التطبيقيين) الذين يتصدون لتقديم المشورة شروط ثلاثة على أقل تقدير هي:

- الأول أن يكونوا على قدر معقول من الاهتمام بالقضايا الاجتماعية يجعلهم يشعرون بحاجة مجتمعاتهم إلى ثمار علمهم هذا، مما يحفزهم على أداء هذه المهمة، مهمة تقديم المشورة، بالعناية الكافية.

ـ والثاني أن تكون لديهم القدرة على العرض المبسط (غير المسطح) للأساس العلمي (نتائج بحوث ميدانية مثلاً) الذي يؤسسون عليه مشورتهم، ثم يقدمون فحوى المشورة مربوطة ربطاً محكماً إلى هذا الأساس.

ـ والثالث أن يكونوا مزودين بقدر معقول من الإلمام والتبصر بأمور المجتمع (في جملتها) بحيث يستطيعون أن يكوّنوا لأنفسهم

رؤية واضحة إلى حد كبير للمشكلات الكبرى (في خطوطها العامة) التي تتهدد مجتمعهم، والوزن النسبي للمشكلة التي تؤرقهم (وهي مشكلة المخدرات في حالتنا هذه) بين سائر مشكلات المجتمع، بحيث يتناسب مايتبعونه به من سياسات وإجراءات مع هذا الوزن النسبي وسط أوزان المشكلات الأخرى، وخاصة من حيث ما تمثله كل مشكلة من خطر داهم، وما يقتضيه التصدي لها من إنفاق، وما يمثله هذا الإنفاق من عبء على ميزانية الدولة، وعلى الاقتصاد القومي (أي أن يكون لديهم إطار للأولويات).

هذه شروط ثلاثة تمثل الحد الأدنى بما يجب أن يتوافر لدى من يتصدى لتقديم المشورة حتى يكون مقنعاً لصانع القرار بما يقدمه من اقتراحات. ولابد كذلك من أن يكون على علم بأن صانع القرار(حتى على أعلى المستويات في جهاز الدولة) يعمل تحت قيود وضغوط لا يستطيع أن يتجاهلها، ومن ثم فما يملأ على العالم وجدانه لا يشغل في فكر صانع القرار أو وجدانه إلا حيزاً محدوداً. وفي هذا الموقف تكون المشكلة الحقيقية التي تواجه العالم إذ يقدم مشورته هي: كيف يقدم أقصى المشورة في حدود الحيز المتاح. يحدث هذا في جميع الدول، وفي ظل جميع النظم السياسية . والفرق الرئيسي في هذا الصدد بين دول متقدمة ودول نامية يتلخص في أنه في الدول المتقدمة يرتفع الاحتمال بأن يطلب صانع القرار مثل هذه المشورة من العلماء. أما في الدول النامية فيندر أن يحدث ذلك. وفي مجال المخدرات نجد أمامنا أمثلة واضحة لما حدث متصلة بهذا الشأن في دولتين متقدمتين، هما الولايات المتحدة الأميركية وكندا. ففي الولايات المتحدة شكلت لجنة باسم « اللجنة القومية للماريوانا وتعاطي المخدرات» برئاسة ريموند شيفر R. P. Shafer وعضوية اثني عشر من كبار العلماء المعروفين باهتمامهم بموضوع المخدرات، وكان المطلوب منها إلقاء الضوء على الموضوع واقتراح مايرونه من سياسات وقد أصدرت تقريرها الأول في ٢٢مارس سنة ١٩٧٢م (Shafer ١٩٧٢)، وهو موجه إلى رئيس الولايات المتحدة، وإلى كل من رئيسي مجلسي الشيوخ والنواب. وتابعت ذلك بتقارير سنوية. وفي كندا شكلت لجنة باسم « لجنة تقصي الحقائق في أمر التعاطي غير الطبي للمخدرات»، برئاسة جيرالد لودان Gerald Le Dain وعضوية خمسة من العلماء. وأصدرت في البداية تقريراً مؤقتاً ثم أصدرت تقريرا نهائياً في سنة ١٩٧٢م (Le Dain et al. ١٩٧٢) وقد وجهت اللجنة الخطاب في تقريرها هذا إلى وزير الصحة والشؤون الاجتماعية. وفي الولايات المتحدة وقع حدث آخر وثيق الصلة بهذا المعنى الذي نحن بصدده، بل أشد بلاغة في تعبيره عن

ذلك، فقد شكل الكونجرس الأميركي لجنة تقصي حقائق برئاسة كل من السناتور جيمس إيستلاند J. O. Eastland (في جلسة ٩ مايو سنة ١٩٧٤م)، والسناتور إدوارد جورني E. J. Gurney (في جلسة ١٧ مايو سنة ١٩٧٤م). ودعت هذه اللجنة للمثول أمامها واحداً وعشرين عالماً، عرفوا جميعاً ببحوثهم المنشورة في دوريات التخصص المكرسة لموضوع التعاطي والإدمان. وقد قدموا جمعياً مشوراتهم العلمية مفصلة بشأن تعاطي القنب بوجه خاص والآثار المباشرة المترتبة على التعاطي. وكان كاتب هذه السطور من بين من دعوا لتقديم هذه المشورة (يوم ١٧ مايو سنة م١٩٧٤) (Soueif ١٩٧٥) وقد قدم السناتور جيمس إيستلاند لمضبطة الكونجرس التي نشرت فيها مشورات هؤلاء العلماء جميعا بمقدمة مستفيضة استهلها بقوله: «تعتبر هذه الشهادات، التي هي موضوع هذه «المضبطة» من أهم ما استمعت إليه هذه اللجنة في تاريخها، بل من أهم ما استمعت إليه أية لجنة من لجان الكونجرس جميعا. ذلك أن ما أثارته هذه الشهادات من اهتمام واسع النطاق يوحي بأنها سيكون لها دورها في تغيير مسار كان يمضي بنا نحو كارثة قومية...»

مسؤولية القيادات الاجتماعية:

جرت العادة على أن نتكلم ونسهب في الكلام عن مسؤولية العلماء في العناية بتطويع نتائج علمهم للتطبيقات العلمية لفائدة الإنسان (من مواطنيهم وغير مواطنيهم)، وأن يعنوا بتقديم المشورة العلمية لصانع القرار لمعاونته في تقديم أفضل الحلول العلمية لمشكلات الاقتصاد والصحة والتعليم... إلخ.

ولكننا قلما نتحدث عن مسؤولية صانع القرار في أن يطلب هذه المشورة ممن يملكون العلم والخبرة.

ومع ذلك فالعلاقة بين المسؤوليتين علاقة يحتمها أبسط قدر من التفكير المنطقي السليم، فكما أن العلماء ملتزمون أخلاقياً بأن يفيدوا المجتمع بعلمهم، فإن قيادات المجتمع ملتزمة أيضاً باسم الاهتمام بالمصلحة العامة التي تمليه أمانة الحكم، لامجرد الشعارات المرفوعة، أن تقدم للمجتمع أفضل ما تقدمه إنجازات العلم في مجالات الحياة المختلفة. وفي السبيل إلى معرفة هذه الإنجازات وكيفية توفيرها وتوظيفها ينبغي لهذه القيادات ألا تبخل على المجتمع بالتماس المشورة من علمائه، كلما لزم الأمر وكلما أمكن ذلك. وفي ظل الظروف الاجتماعية التي تتخلق داخل المجتمعات الحديثة، وما نعرفه جميعاً من تعقد تركيب هذه المجتمعات، والتعقيد الشديد في تداخل وتشابك قنوات الفعل المؤثر اجتماعياً بوجه خاص، يستحيل

على علم العلماء أن ينفذ حيث يصبح مؤثراً إلا إذا التمسته قيادات المجتمع، وصانعو القرار منهم بوجه خاص، وطلبوا من هؤلاء العلماء المشورة صراحة في كيفية توظيفه، وفتحوا لهم بهذا الطلب بوابات القنوات المنوط بها توصيل التأثير.

يمكن تلخيص قضية المخدرات بمايلي:

أولاً: إن مشكلة تعاطي المخدرات وإدمانها، بالصورة التي تعرفها المجتمعات الحديثة، لم تعد بالبساطة التي كانت عليها منذ بضعة عقود، لا من حيث عدد المخدرات المتنوعة المعروضة في السوق غير المشروعة، ولا من حيث أخطارها على الصحة البدنية والنفسية للمواطنين، أو على مسيرة الحياة الاجتماعية بصورتها السوية، ولا من حيث كفاءة شبكات التوصيل والاتصال الإجرامية التي توضع في خدمة هذه المخدرات، ولا من حيث ضخامة الثروات والقوى الموظفة إجرامياً في تنشيطها... إلخ. ومن ثم لم تعد تنفع في مواجهتها ردود أفعال الغضب الاجتماعي مقرونة بالاجتهادات العفوية (الأمنية أساساً) الصادرة عن العاملين في جهاز الدولة أياً كانت مواقعهم وسلطاتهم.

ثانياً: في الوقت نفسه يوجد الآن في ترسانة المعرفة العلمية في هذا الموضوع قدر كبير من الذخيرة العلمية، العلماء أدرى بها وبكيفية استغلالها لخدمة أغراض المواجهة. وهي ذخيرة متنوعة المضامين، ذات صلاحيات متباينة الأغراض، فهي ذخيرة تتناول طرق تقدير حجم المشكلة في المجتمع، وتوزعها بين شرائحه، وتقدير خطورتها على الصحة العامة، وعلى سلامة الحياة الاجتماعية، كما أنها تتناول أساليب الوقاية، والشروط الموضوعية اللازمة لرفع مستوى كفاءتها، وطرق العلاج الطبي والنفسي، ومستويات الكفاءة المتباينة لكل من هذه الطرق، وأنواع الرعاية اللاحقة لإعادة تأهيل، وإعادة استيعاب اجتماعي للمدمن، وأساليب المتابعة التي تسمح بإجراء تقويم موضوعي لفاعلية المواجهة.

ثالثاً: لهذين السببين، الماثلين في أولاً وثانياً، ليس هناك بد من اتصال قيادات المجتمع بالعلماء وهم الأمناء على مخزون هذه المعرفة لطلب المشورة اللازمة لترشيد الفعل الاجتماعي. بعبارة أخرى إن التقاء المسؤوليتين حول موضوع المشورة العلمية، مسؤولية التزام العلماء بتقديمها، والقيادات الاجتماعية بطلبها، هو السبيل الأوحد لإحالة الذخيرة العلمية المتوافرة (والتي لا تكف عن النمو يوماً بعد يوم) إلى قوة اجتماعية لترشيد الإدارة الاجتماعية

في مسيرتها نحو احتواء مشكلة التعاطي والإدمان والسيطرة عليها.

رابعاً: وغني عن البيان أن استيراد الخبراء الأجانب ليتولوا حل هذه المشكلة أمر لا يجدي، لأننا هنا بصدد مشكلة تتشابك فيها العوامل العضوية والنفسية والاجتماعية والحضارية بصورة تجعل التصدي لحل معضلات هذا التشابك، والكشف عن آلياته وعملياته تمهيداً لوضع صيغة العلاج المناسبة لنمط تعقد الداء أمراً يكاد يستحيل على غير العلماء الوطنيين إنجازه. ومعنى ذلك إذاً أن المشورة لابد أن تطلب من العلماء الوطنيين.

خامساً: ومع ذلك فيلزمنا الاعتراف هنا بأن طلب المشورة العلمية له أصوله وقواعده، وأساس هذه الأصول والقواعد جمعياً أن يشجع الباحثون الوطنيون على إجراء البحوث العلمية في شتى جوانب هذا المجال، وأن ترصد الأموال لذلك، وأن تزود معاهد العلم القادرة على إجراء هذه البحوث بكل ما يلزمها في ذلك، وأن تنشأ المعاهد إذا احتاج الأمر لذلك، إلى آخر هذه الإعدادات التي من شأنها أن تيسر قيام قاعدة علمية وطنية يعتمد عليها الباحثون الوطنيون عندما يطلب إليهم الأجانب وخبراتهم، ولكن طلب مشورة العلماء الأجانب يكون لإكمال الصورة القائمة لدينا فعلاً لا لإنشائها إنشاءً، وعندئذ تطلب هذه المشورة بوساطة العلماء الوطنيين لأنهم أدرى بما ينبغي طلبه وكيف يكون هذا الطلب.

المراجع

- مشكلة المخدرات بنظرة علمية، مجلة الأمن والقانون (دبي)، ١/١، يناير ١٩٩٣ممن ص ٣٠٢ ـ ٣١٣.
- العلاقة بين تعاطي المواد المؤثرة في الأعصاب وكل من المرض الجسمي والنفسي، المجلة الاجتماعية القومية، ١٩٩١م، ١/٢٨ من ص ١٦٥ ـ ١٧٧.
- تعاطي المواد المؤثرة في الأعصاب بين طلاب الجامعات: دراسات ميدانية في الواقع المصري، المجلد السابع، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٩٥م.
- لجنة المستشارين العلميين: إستراتيجية قومية متكاملة لمكافحة المخدرات ومعالجة مشكلات التعاطي والإدمان: التقرير النهائي، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٩٢م.

كيف تعمل الخلايا

المهندس فايز فوق العادة ❁

يضم الكائن الإنساني جزيئات الـ (دي.إن.إي) نفسها. تحتوي خلايا المخ والأمعاء على سبيل المثال المورثة التي تصنع الأنسولين، لكن خلايا المخ والأمعاء لا تُنتج الأنسولين. كيف تحدد الخلايا المورثات التي يجب أن تعمل كيف تعلم خلايا البانكرياس أن عليها بالذات تقع تبعة تفعيل المورثات التي تصنع الأنسولين، بينما تبدو خلايا المخ متأكدة من أن هذا الأمر لا يعينها. يصنف هذا الموضوع فيما يدعوه العلماء تنظيم عمل المورثات. تعود الأبحاث الخاصة بتنظيم عمل المورثات إلى خمسينيات القرن الماضي. تناولت الأبحاث آنذاك المورثات الخاصة بالجراثيم.

تعوم جزيئات الـ(دي.إن.إي). ضمن الخلية الجرثومية بدلاً من أن تتجمع في النواة كما هو الحال في الكائنات الأكثر تقدماً. دُرست إحدى الجراثيم التي تقطن في الجهاز الهضمي للإنسان. إنَّ هناك فارقاً بين الرؤية الخاصة للخلية في الإنسان وفي الجراثيم إن جاز لنا أن نستخدم مثل هذا التعبير. يجب على الخلية

❁ رئيس الجمعية الكونية السورية.

الإنسانية أن تقرر فيما إذا كان عليها أن تنتج بروتيناً ما، أم أن هذا الأمر لا يقع ضمن نشاطاتها. من جانب آخر، يتخذ قرار الخلية الجرثومية طابعاً زمانياً، إذ يجب عليها أن تعين الوقت الملائم كي تنتج أحد البروتينات. تملك الجرثومة المدروسة زوجاً من المورثات يسمح لها أن تنتج بروتيناً يفكك اللاكتوز وهو أحد أنواع السكاكر التي تدخل في تركيب الحليب. لا يتواجد الحليب على الدوام في الجهاز الهضمي للإنسان. واقع الأمر أنه يدخل هذا الجهاز على شكل دفقات تفصل بينها فترات زمنية متباعدة. يجب على الجرثومة المعنية إذ ذاك أن تعرف متى يتواجد الحليب كي تُفعّل المورثات الخاصة بهضمه وأن توقفها عن العمل عندما ينسحب الحليب من الجهاز الهضمي.

تتكون المورثة في الخلية الجرثومية من سلسلة طويلة من الجزيئات تبرمج للبروتين الهاضم للاكتوز. يسبق هذه السلسلة مقطع صغير يُعرف بالمحفز. إنَّ المحفز هو الموضع الذي ترتبط به الأنزيمات التي تتهمك فيما بعد بتجميع البروتين المطلوب. بعد ارتباطها، تبدأ الأنزيمات بالانزلاق عبر اللولب المزدوج الـ(دي.إن.إي). يشبه المحفز وحدة الإقلاع في السيارة. يجب على هذه الوحدة أن تنجز مهمتها قبل أن يحدث أي شيء آخر. يُشاهد حيز بالغ القصر بين جسم المورثة وبين المحفز يُدعى المُشغل. تعبر الأنزيمات هذا الحيز في الأحوال الطبيعية بشكل سلس في طريقها صوب المورثة. أمَّا إذا لم يكن اللاكتوز موجوداً، يظهر جزيء آخر يُعرف بالكابح يلف نفسه حول حيز المشغل مانعاً تقدم الأنزيمات وحائلاً بينها وبين قراءة البرنامج المسطر في المورثات.

إن الكابح أشبه بملزمة تلتقط جديلتي الـ(دي.إن.إي). مغلقة أي مرور ممكن عبرهما. عندما يشرب أحدنا الحليب توثق جزيئات اللاكتوز إحدى نقاط الكابح بما يجعله ينثني ويفك قبضته عن جزيء الـ(دي.إن.إي).

يعوم الكابح إذ ذاك مع اللاكتوز ولا تلبث الخلية أن تطلق دفقات من البروتينات لتفكيك اللاكتوز. بعد هضم اللاكتوز، يفقد الكابح أية بقية منه، لذا يعوم عائداً مرة أخرى إلى مقدمة جديلتي الـ(دي.إن.إي). كي يقبض عليها ليمنع المرور عبرهما من جديد. يبتعد الكابح إذا شرب أحدنا الحليب مرة أخرى.

استطاع العلماء منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى الآن إجراء دراسات وافية وشاملة لتنظيم عمل المورثات في الكائنات الخلوية كالتي أشرنا إليها للتو.

وماذا عن تنظيم عمل المورثات في الكائنات العليا؟ تبدو الآليات المتشابهة في الخلايا الإنسانية معقدة وغريبة. لا تملك مورثاتنا سلاسل بسيطة كسلسلة المحفز- المشغل التي تحدثنا عنها. إن هناك مناطق بعيدة تؤثر وتتأثر عند تفعيل المورثة، تدعى هذه المناطق المعززات والمخمدات. نذكر بهدف التبسيط أن المعززات تشبه دواسة الوقود في السيارة، أمَّا المخمدات فهي المكابح. تتعشق عند هذه المواقع جزيئات متعددة الأنواع تسهم في تقرير الأحداث التالية. يبدو أن الأحداث المذكورة تتحقق عبر سلسلة من تعليمات المباشرة والتوقف.

نعرض فيما يلي الجزيئات الأهم التي اكتشفت حتى الآن: المفعّلات التي تربط نفسها بمواقع المعززات وتقرر أي المورثات يجب أن تُفعّل. المفعلات المشاركة التي تربط نفسها بالمفعلات التي تكون قد ارتبطت بمواقع المعززات وتصلها بدورها بما يدعوه العلماء العوامل السياسية التي هي مجموعة معقدة من الجزيئات تلتصق بالحيز المحفز من جزيء الـ(دي.إن.إي). بما يوفر خط اتصال بين المفعلات والمفعلات المشاركة وجزيء الـ(دي.إن.إي) نفسه. يبدو أن العوامل الأساسية تجلب الأنزيمات التي تقع عليها تبعة قراءة برنامج الـ(دي.إن.إي). وترسلها عبر المسارات الصحيحة. أخيراً نذكر الكابحات التي تتعشق بمناطق المخمدات بهدف إيقاف أو إبطاء المورثات. يُمكن للكابحات أن تتعشق أيضاً بالمفعلات المشاركة.

تنطوي كل مورثة في كل خلية على هذا الكم الهائل والمعقد من الجزيئات التي تحوم في الداخل. تختلف الجزيئات من مورثة إلى أخرى. لقد حصل مؤخراً تقدم سريع وعاصف استطاع العلماء بعده فهم الآليات الكاملة التي تتبعها هذه الأنواع الأربعة من الجزيئات لتفعيل المورثات وكبحها.

هكذا تمَّ حل مشكلة، ودلف العلماء الآن إلى مرحلة المشكلة التالية ألا وهي: كيف تحدد الخلايا المفعلات والكابحات التي يجب تصنيعها. إن لكل من هذه الجزيئات برنامجاً منطوياً في شكل مورثة ضمن الـ(دي.إن.إي). إن على الخلايا أن توقظ بعض هذه البرامج وأن تترك البرامج الأخرى في حالة سبات. لن تمر فترة طويلة قبل أن يحصل العلماء على كل الإجابات الشافية.

نعرض في نهاية هذا البحث وبشكل سريع موضوع المداخلة المورثية. يعمد العلماء إلى إجراء المداخلة المورثية في سياق تجاربهم البيولوجية. إنَّ هناك ثلاث طرق متباينة لزرع المورثات في الفئران.

تُحقن بيضة ملقحة في إحدى الطرق وبشكل مباشر بمئات وآلاف النسخ المكررة لإحدى المورثات ونقلها لإحدى الإناث. كانت النتيجة ظهور الصفة الدخيلة بنسبة مئوية ضئيلة في السلالة التالية.

أمّا في الطريقة الثانية فقد اجتزئت بعض خلايا الأجنة القادرة على التكاثر في وسطٍ مُغذٍّ وأُدخلت فيها جزيئات غريبة من الـ(دي.إن.إي). وبعد مزجها بالخلايا الطبيعية للجنين أثبتت فعالية كبيرة في إقحام صفات مستحدثة في الأخلاف. كان فيروس الـ(آر.إن.إى). الوسيط الرئيسي في الطريقة الثالثة. يستطيع الوسيط استنساخ ذاته بوجود جزيئات الـ(دي.إن.إي). داخل خلايا مضيفة. عكست الطريقة إلى حد كبير آلية عدوى الخلية بالفيروس.

تجري عمليات المداخلة المورثية حالياً بحقن البيضة الملقحة بجزيئات الـ(دي.إن.إي). لم تحقق هذه العمليات نتائج مقبولة كما في حالة الفئران.. أقدم بعض العلماء على تعليق عدد من المورثات الإنسانية كموروث التخثير ضمن خلايا الأغنام خاصة في تلك المتتاليات التي تدفع استنساخ وتكثير الخلايا الحِلَمية. هكذا حصل العلماء على حليب يحتوي بروتينات بشرية. خلص علماء آخرون بتطبيق آلية مشابهة على حليب مستحدث تنتجه الأرانب يضم بروتينات إنسانية مغايرة. كان المردود في كلتا الحالتين ضئيلاً بالمقارنة مع ما وظف من جهود فيهما.

يُصاب نوع من أنواع النباتات بالأورام عند نقاط التقاء الأغصان الحديثة بالسوق. ينجم المرض عن بروتين تفرزه بكتريا يصل المورثات في الخلايا النباتية وهناك يحرض على إنتاج مواد غريبة وأخرى ضرورية لنمو النبات. أمَّا المواد الغريبة فسرعان ما تتمخض عن عناصر مغذية ضرورية لنمو وتكاثر البكتريا المعدية. يزيد الصنف الآخر في الوقت نفسه في كتلة الأنسجة النباتية المصابة. تبين للعلماء مدى مراوغة هذا الصنف من البكتريا وقرر بعضهم الإفادة من الخطة آنفة الذكر التي تنفذها البكتريا.

اتضح أن المورثات السطحية من البروتين الذي تفرزه البكتريا هي الأهم في استنساخ البروتين لنفسه داخل النبات. هكذا صنّع العلماء بروتيناً مماثلاً في بنيته السطحية مختلفاً في مكوناته الداخلية. أفضى اختيار هذه المكونات إلى تخليص النبات من المرض فقد ثُقبت الأوراق المصابة وحقن فيها البروتين المصنع. وبعد مدة أخذت البكتريا المعدية بالاختفاء. عولجت الأوراق بعد ذلك بمضادات حيوية ومركبات خاصة تحرض الخلايا السليمة على تكوين أنسجة جديدة. يطور العلماء

فيروسات نباتية يعهدون إليها بمهمة نقل عناصر التهجين الموروثة. في محور تجريبي آخر، تم استخدام نويات ضئيلة من التنغستين طُليت بغلالات رقيقة من جزيئات الـ(دي.إن.إي). ثم قُذفت داخل الخلايا النباتية بهدف إحداث طفرات موروثية. لا تظهر الآثار المترتبة على هذه التجارب إلَّا بعد فترة طويلة.

المراجع

1- King; Robert C., A Dictionary of Genetics, (2012), Oxford University press.

2- Rhodes; P.M., Applied Microbial physiology, (1997), Oxford University press.

3- Contento; Anthony, laboratory Exercises and Techniques in cellular Biology, (2013), Wiley.

4- Olbyolby; Robert, The path to the Double Helix Discovery of DNA, (1990), Dover.

الجراثيم مصانع حية للأدوية

ترجمة: محمد الدنيا ❁

السرعة والبراعة والتكيفية...خاصياتٌ جرثومية استخلص منها الباحثون ترسانة من الأدوية البيولوجية باتت واسعة اليوم، ويسعون إلى إثرائها باستلهام المزيد من الطبيعة.

إذا كانت الجراثيم تسبب أنواع الأمراض كلها، فإن بعضها، وهنا المفارقة، ينقذ حياة الآلاف من الناس من خلال إنتاج أدوية متنوعة. وتستخدم هذه الكائنات الحية الدقيقة، منذ عقود عدة، كمصانع حية للأدوية مع عدد كبير من الجزيئات ذات المعول العلاجي، من الأنسولين بالنسبة للمصابين بالداء السكري، حتى بعض أنواع السرطان. وترسانة المنتجات الحاصلة مرشحة للازدياد إلى حد كبير، مع أمل عظيم بعلاجات متنامية الاتساع والتنوع. ذلك أن هذه المصانع الطبيعية تتميز بثلاث خاصيات رئيسية. أولاً، وبفضل آليتها الخلوية، تنتج الجزيئات المركبة التي لا يتوافر للباحثين إمكان صنعها كيميائياً. عدا ذلك، وخلافاً للجزيئات المأخوذة من الحيوانات أو من البشر، لا تنطوي الجزيئات التي تفرزها على أي خطر تلويث بعوامل ممرضة، مثل البريونات prions. أخيراً، وبما أنها تتكاثر سريعاً، فإنها تولِّد كميات كبيرة من الجزيئات بزمن قياسي.

الجراثيم التي تنتج أدوية إنما تفعل

❁ كاتب ومترجم.

ذلك بشكل طبيعي، أو بعد تحويرها جينياً (تعديلها وراثياً). ومن بين المنتجة منها للأدوية طبيعياً نجد بشكل خاص الجراثيم من جنس «المُتَسَلْسِلَة» Streptomyces (الشبيهة بالفطريات)، التي تصنع مضادات حيوية. مثلاً، تنتج السلالة الجرثومية Streptomyces pristinaespiralis المضادَّ الحيوي «تريستينامايسين» Tristinamycine المستخدم في علاج الأمراض الجلدية والعظمية المفصلية وتفاقم التهاب القصبات المزمن...

فيض من المواد

ولكن، لا يقتصر الأمر على المضادات الحيوية وحدها! تنتج جراثيم «المُتَسَلْسِلَة» وبعض قريباتها أيضاً وفرة من المواد العلاجية الأخرى. «غالباً ما تكون هذه المواد جزيئات مفيدة أيضاً للجراثيم في الطبيعة من حيث أنها تستخدمها في تحييد جراثيم أخرى أو في إبعاد فطريات منافسة ولكن يمكن أن يكون لها مفعول مختلف عند البشر مثل إعاقة تكاثر الخلايا. وهذه وسيلة ثمينة لمكافحة الأورام»، حسب عبارة «جان – لوك برنوديه Jean-Luc Pernodet»، الباحث في «معهد الوراثة والمكروبيولوجيا» في جامعة «باريس – سود». كما أن السلالة Streptomyces coeruleorubidus تتيح الحصول على مضاد سرطان اسمه «داونوروبيسين» daunorobicine. «هناك أدوية تنتجها أساساً بشكل طبيعي بعضُ الجراثيم الممرضة لإعاقة مناعة الكائن الحي المصاب بالجرثومة»، يضيف «برنوديه». تنتج الجراثيم من جنس «المُتَفَطِّرة» Mycobacterium مثلاً مضادات التهاب تتيح مكافحة التفاعل المناعي للالتهاب الذي يحدث خلال «الاعتداءات» (إنتان، حساسية، حرق...). أخيراً، «هناك مواد لا نعرف وظيفتها الطبيعية الدقيقة ولكن تبين أنها تشكل أدوية حسنة التأثير عند البشر»، يقول الباحث: تلك هي الحال مع مضاد الطفيليات المسمى ivermectine الذي تنتجه السلالة Streptomyces avermitilis المستخدم في علاج داء البلهارسيات وهو مرض استوائي مزمن يسبب الحمى والإسهال والسعال...

أما فيما يتعلق بالجراثيم المحورة جينياً (أو المعدلة وراثياً)، فقد أوجدها الباحثون من أجل صنع مواد لا تنتجها بشكل طبيعي، مثل البروتينات البشرية. ويجري الحصول عليها بطريقة نقل الجينات، التي تتيح الحصول على كائنات حية محورة جينياً. وتقوم طريقة الهندسة الوراثية هذه على إدخال جين أو عدة جينات غريبة في «جينوم» (مجموع المورثات) الجرثومة (من منشأ بشري أو نباتي) بما يتوافق والجزيء العلاجي المطلوب.

وتعمل هذه التقنية جيداً لأن أبجدية حروف راموزنا الجيني الأربعة (قواعد الـ «دنا» DNA) هي نفسها بالنسبة للكائنات الحية كلها، من الجرثومة إلى الإنسان. وعملياً، يصنع العلماء، بالتخليق الكيميائي، جين أو جينات البروتين المرغوب، الذي

يزرعونــه بعد ذلك في «دنا» دائري الشــكل، «بلازميــدة» plasmide. ثــم يدخلون هذه البلازميدة في الجرثومة المســتخدمة. تزرع المكروبــات microbes بعدئذ في أحواض («المفاعــلات البيولوجية» bioréacteurs) يمكن أن تحوي آلاف عدة من اللترات وتغذى بمحلــول مغــذّ أساســه الســكريات. تتكاثر الجراثيم هنا وتعطي مليارات الأفراد المنتجة للجوهــر الفعــال. ولا يبقــى عندئذ ســوى اســتخلاص البروتين المطلوب من الجراثيم، وتنقيته بالترشــيح والتنبيذ. ويطلق عليه اسم «البروتين المأشــوب» لأنه مشــتق من تأشيب جينيrecombinaison génétique.

الاستعمالات

إن كان ما نسبته ٨٥٪ من الأدوية – ومنها الأسبرين الأكثر اســتهلاكاً في العالم – ينتَج بالتركيــب الكيميائي، فــإن مقــدار الأدوية البيولوجية، التي تخلّقها الجراثيم، بل أيضــاً الخمائر، والفطور، وخلايا حيوانية...ما يزال في ازدياد. وقفز معدلها من ١٠٪ إلى أكثر من ١٥٪ بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠١٢.

واليوم، تنتج ســلالة « المُتَسَلْسِلَة » بشكل طبيعي، والتي تســتثمَر منذ أربعينيات القرن الماضــي، ٧٠٪ مــن المضــادات الحيويــة المختلفــة المطروحة فــي الأســواق اليوم. «تســتطيع جراثيم أخرى، مثل بعض سلالات جنس «العَصَــويّة» Bacillus، إنتاج مضادات حيوية، لكن «المُتَسَلْسِلَة» كانت سباقة وهي من الناحيــة التاريخية المجموعة التي اكتشــفت لديها مضادات حيوية عدّة خلال خمسينيات وســتينيات القرن العشرين: «الستربتوميسين» هو أول مضــاد حيوي يكتشــف لعلاج السلّ»، يوضح «جان – لوك برنوديه».

أمــا فيمــا يتعلــق بالجراثيــم المحورة جينياً، فهي مســتخدمة منذ نهاية سبعينيات القــرن الفائت، وتنتــج مجموعــة وافرة من الأدوية: الأنسولين، الذي يستعمله المصابون بالــداء الســكري منذ عــام ١٩٧٨؛ وهرمون النمــو المســتخدم في علاج بعضــ حالات القزامــة منــذ عــام ١٩٧٩؛ والإنترفيرونات interférons التي هي من منظمات الفعالية المناعية ومســتخدمة في مكافحة السرطان منــذ عــام ١٩٨٠؛ والــ G-CSF، وهو مادة جهاز مناعي مســتخدمة ضد نقص العَدِلات neutropénies (العَدِلَــة neutrophile هي النوع الأكثر شيوعاً لخلية الدم البيضاء)، وهو اضــطراب دموي يتميز بهبوط عدد من بعض الكريات البيض في الدم.. تصــنع هذه الجراثيم أيضاً منتجات ما تزال قيد الاختبار، وقــد نجدها غداً فــي الصــيدليات. «مثلاً، استخدمنا سلالةً من «الإشْــريكيّة القولونيّة» Escherichia coli لإنتــاج بروتيــن يكــون مرشــحاً كلقاح ضــد الإيدز، ويجري اختباره اليوم في «انكلترة» في إطار مشــروع أوروبي تنسِّــقه Sanofi-Pasteur»، حســب عبارة «كليــر أنترينــر» Claire Untereiner من شــركة PX`Therapeutics المتخصصة بإنتاج البروتينات المأشــوبة، والموجودة في مدينتي «غرونوبل» و«ليون» بفرنسا.

يهدف هذا اللقاح، المسمى EN٤١-FPA٢، إلى إطلاق صنع أجسام ضدية محيِّدة بغرض إعاقة دخول الفيروس VIH إلى خلايا الأغشية المخاطية وإلى الدم. ويحوي حويصلة اصطناعية أدخلت فيها قطعة من بروتين خاص اسمه GP٤١ مصدره غشاء فيروس الإيدز وله دور جوهري في دخول الفيروس إلى الخلايا. وكانت قطعة الـGP٤١ تحديداً قد أُنتجت من خلال «الإشريكية القولونية». وخلَّق باحثو PX`Therapeutics، بالتركيب الكيميائي، الجينَ اللازم، ثم أدخلوه في جينوم «الإشْريكِيّة القولونيّة» التي أنتجته بالجملة!.

آلات خلوية أكثر تطوراً

لا تتيح الجراثيم حتى الآن إنتاج الجزيئات المركبة، التي تساهم فيها عادةً عشرات الجينات وترتبط بها سكريات خاصة: «الفضلات الكربوهيدراتية». من هنا، يجب اللجوء إلى منظومات أخرى منافسة، تتشكل أيضاً من خلية واحدة، ولكن مزودة بآليات خلوية أكثر تطوراً : خمائر أو خلايا حيوانية، محوَّرة جينياً هي أيضاً.

استكشفت بهذا الصدد مسارات عدة منها تحسين الإنتاج الطبيعي لبعض الأدوية من خلال الجراثيم؛ وكشف جزيئات جديدة ذات تأثير علاجي يمكن أن تنتجها بعض السلالات الجرثومية بشكل طبيعي؛ وإيجاد جراثيم محورة جينياً قادرة على صنع جزيئات أكثر تعقيداً؛ وأيضاً إيجاد أحياء «ذكية» مستوحاة من الجراثيم يمكنها أن تنتِج ضمن المريض نفسه دواءً ما في وقت محدد بدقة أو فقط في الأنسجة المصابة! ومن هنا إثراء ترسانة الأدوية البيولوجية المنحدرة من الجراثيم، إلى حد كبير. «فيما يتعلق بتحسين الإنتاج الطبيعي للمضادات الحيوية، تقوم الفكرة على تحوير الجراثيم المنتجة لهذه الأدوية جينياً بهدف زيادة مستوى إنتاج هذه الجزيئات من خلال السلالات المعنية أو تقوية إنتاج أدوية سابقة يمكن تحويرها كيميائياً بعد ذلك»، يوضح «جان – لوك برنوديه».

وعلى نحو مواز، هناك سعي للكشف عن جزيئات جديدة تنتجها «المُتَسَلْسَلَة» بشكل طبيعي. « بعد أن تمت سَلْسَلَة séquençage الجينومات الأولى في بداية الأعوام ٢٠٠٠، لوحظ أن لدى عدد من السلالات (ومنها واحدة بشكل خاص تنتج بعض المضادات الحيوية) جينات قادرة على توجيه إنتاج عشرات عدة من الجزيئات الأخرى. وربما كان بعضها يتميز بنشاطات بيولوجية هامة. بالنتيجة، يسعى الباحثون إلى تمييز المواد التي تملي هذه الجيناتُ إنتاجَها، لمعرفة إن كانت ممكنة الاستعمال كمضادات حيوية»، يضيف «برنوديه».

وفي جامعة Cornell بالولايات المتحدة، يعمل فريق «ماتيو دليزا» Mathew DeLisa على جيل جديد من «الإشْريكِيّة القولونيّة» المحورة جينياً والقادرة على إنتاج جزيئات أعقد بكثير من تلك الموجودة اليوم. وعلى نحو أدق، يسعى هؤلاء الباحثون لأن يشغّلوا، في «الإشْريكِيّة القولونيّة»، بالهندسة البيو-

جزيئية، عمليةً كيميائيــة حيوية موجودة في الخلايا البشــرية، ولكن ليس فــي الجراثيم، وهي حتمية لصنع أدوية كثيرة (أضداد أحادية النســيلةanticorps monoclonaux لعلاج بعض الســرطانات، وبروتين GCase لعلاج «مرض جوشر» Gaucher): الارتباط بالغليكوزيلglycosylation الذي يقوم على زرع البروتينات بجزيئات سكرية.

البيولوجيا التخليقية

تعمل فرق عديدة، منذ سنوات عدة، على تطوير جيل جديد من الجراثيم المحورة جينياً، المنتجــة للأدويــة، أي منظومــات جرثومية ذكيــة، قادرة على أن تنتــج الجزيء المطلوب في مــكان ووقت محددين، داخل أجســامنا. تلك هي البيولوجيا التخليقية biologie de synthèse. «تســعى هــذه التكنولوجيا إلى ابتكار تفاعلات بيوكيميائية جديدة متسلسلة غيــر موجودة في الطبيعــة يمكن جعلها تنتج جراثيــم علــى نحو ترشــيدي ومضــبوط»، يوضــح عالم الأحياء «دومينيك زليشوســكي» Dominique Zeliszeweski الباحــث فــي معهد البيولوجيا العامــة والتخليقية في «جينوبول – إفري» / فرنسا. إلا أن البيولوجيا التخليقيــة ما تزال في بداية مســارها، وهي أشــبه ما تكــون بثورة فــي عالــم الجراثيم الدوائي.

الأنسولين من جرثومة محورة جينياً

كان الأنسولين أول مستحضر دوائي ينحدر مــن جرثومة محــور جينياً: في العــام ١٩٧٨، كشفت شــركة Genentech للهندسة الوراثية في الولايات المتحدة عن أنها نجحت في صــنع الأنسولين البشري في المختبر.

كان ذلك أول مستحضــر صيدلاني ينحدر من جرثومة محورة جينياً! الأنسولين، الذي يفرز في البنكرياس، هو هرمون يخفض معدل السكر في الدم (سكر الدم). وعندما يكون إنتاجه غير كاف، أو عندما لا يستخدمه الجسم بشكل جيد، يرتفع سكر الدم. وعندما يصل معدله إلى ١،٢٦ غ/ل، يؤدي ذلك إلى الداء السكري، الذي يصيب اليوم ٣٥٠ مليون شــخص في العالم ويقتل ٣،٢ مليون شــخص ســنوياً. وقبل عام ١٩٧٨، كانت الطريقة الوحيدة للحصــول على هذا الهرمون هي استخراجه من بنكرياس العجول أو الخنازير. إلا أن هذا الأنسولين الحيواني كان أدنى فعالية من الأنســولين البشري، مع إمكان تلوثه بعوامل ممرضة، ولم يكن متاحاً بكميات كافية. ويتصف الأنسولين التخليقي بميزات عدَّة: شبيه بالجزيء البشــري، ولا ينطوي على مخاطر تلوث، ويمكن أن تنتجه الجراثيم بكميات وافرة.

عــن Science & Vie, Hors Série, no 261, décembre 2012.

حوار العدد

مع:

الفنان التشكيلي أنور الرحبي

إعداد: محمد خالد الخضر ❁

الفنان التشكيلي أنور الرحبي استطاع أن يدخل عالم الفن عبر أنواع وأجناس فنية مختلفة استخدم خلالها الألوان كافة حتى يعبر عن تداعياته الإنسانية التي تنجم عن معرفة العالم المحيط به ثم دخل عالم الفن وساحته بقناعات إنسانية وأسس حضارية تساهم في بناء مستقبل الفن بشكل لائق وحول عالمه الفني كان الحوار التالي:

- الفنان أنور الرحبي صاحب تجربة فنية متنوعة وعريقة ومختلفة الأجناس والأنواع.. ما هو الفن برأيك وكيف تراه وترى التعامل معه؟

❁ أديب وصحفي.

• أنا أرسم مثلما أتكلم وأشكل الألوان كما ترى عيناي وبذلك أصوغ الأشكال والأحجام وفق ما هو مطبوع في الذاكرة والخيال.. من أجل هذا كانت مسألة القراءة وتجسيدها ضروري بالنسبة لي ومن أجل هذا أيضاً بدأت بمجموعة مقامات اشتغلت عليها أكثر من عشر سنوات وهي مقامة الجسد والحمامة والنوافذ والمزار والمدينة.

وهذه المقامات لا تشبه مقامات الهمذاني بل هي مقامات الالتصاق باليومي وهي من قراءة أحداث وارتباط بالبيئة والشعر والفن والإنسان بشكل عام وتداعياته وهمومه.

المقامة كما أراها هي مقامة الروح والاعتقاد والإحساس بالأشياء التي لا يسلط الضوء عليها لأني أرى الفسحات واسعة بجانبي مما يدفعني لالتقاط الزوايا وما تحتمله وتحتويه وأدرك بما هو عصي عن غيري لأصبح البطل الذي يبني بألوانه وخطوطه ومشاهده عوالم جديدة يألفها كثيرون ولكن لا يرونها بالشكل الذي يعتادونه أو يريدون أن يروه.

بهذا أكون قد أديت إيقاعاً من النوع الذي لا يؤذي بل يحرك المشاعر والأحاسيس ويسلط الضوء عبر الأدوات البلاستيكية واللدنات البشرية الحميمية وكذلك حسب ما يطل من النوافذ التي أقوم برسمها لتطير منها الحمامات البيضاء في دعوتي للحياة والعشق والسلام.

فأنا رسام العاشقين الحيادي..أنا رسام البيوت والموسيقى أيضاً لأنها تسكنني بما فيها من سكنات كما أنا بذلك اعتبر من الفنانين الذين يقدرون مقام المرأة ويقفون بجانبها لجعلها أكثر قوة وهي تعمل على إدراك الآخرين.

- لقد قمت بتصميم أغلفة كتب كثيرة هل هذا النوع من الفن يشبه الفن التشكيلي الذي تشتغل عليه؟ وهل يرتبط بالحالة النفسية والإحساس أيضاً أم أنه يختلف؟

• لقد رسمت أغلفة كثيرة في اتحاد الكتَّاب العرب وغيره محاولة مني ومن الذين تعاونوا معي في أن نجعل القيمة الفنية والقيمة الأدبية قيمة واحدة فالفن الذي يرسم على الغلاف يواكب قيمة النص الأدبي ولا فرق بين الاثنين لأن الإبداع متشابه ولا يختلف إلا بالمستوى.

لقد رسمت ما يقارب أو ما يزيد عن ٥٠٠ لوحة لكتب ومجلات ودوريات في سورية وخارجها كما حصلت في هذا الإطار على بطاقة تقدير من معرض الكتاب في تونس وهي جائزة مهمة وتعطى لمن يستحقون هذه القيمة عبر تصميم الأغلفة ومن هذا وذاك لابد لي من أن أكون شريكاً للمؤلف عندما أصمم له لوحة الغلاف وكثيراً ما

ألبس ثوبه الأدبي وأتقمص بعض أدبياته التي يحتويها النص وكثيراً من العناوين التي قمت برسمها وتصميمها قد ساهمت في تجسيد معاني الكتاب والترويج له لأنني ساهمت كثيراً في توظيف الرؤية الحقيقية لمضمون الكتاب.

ومن الأدباء (الذين صممت لهم) الروائي حنا مينا، والروائي وليد إخلاصي، والشاعر سليمان العيسى وغيرهم كثيرون وهذا ما يدفعني إلى القول: إنَّ العلاقة بين المؤلف والفنان هي علاقة تشاركية وتبادلية.

- هل تتوافق مع مضمون أي كتاب يقدم لك أم إن هناك بعض المعاني التي ترفضها ولا ترسم لها لوحات بصفتها لا تتوافق مع ذائقتك الفنية؟

• أنا أتعامل مع النص الفني بقناعة كاملة ولا يمكن لي أن أقبل أدباً لا يتلاءم مع ذائقتي، أو لا يتوافق مع الأسس البنيوية المكونة لنص ذات مستوى يشكل عندي قناعة كاملة في رسم لوحة غلافه فأنا أبتعد تماماً عن الفكرة المتراجعة والضعيفة وعن المستوى الضيق ولا أقبل إلا بما هو أدب حقيقي وهذا ما فعلته في كل ما قمت برسمه إضافة إلى حرصي الشديد على وجود علاقة بيني وبين الأديب الذي أرسم له لوحة غلافه لأنني أشعر بحميمية أكثر وعلاقة إحساس أكثر فاعلية خلال التواصل الذي يؤدي إلى فهم حقيقي للنصوص أو المعاني المكتوبة.

- ماذا يستخدم الفنان أنور الرحبي في تشكيلاته الفنية وكيف يتعاطى مع سطح اللوحة؟

• من بداية السبعينات إلى منتصفها وأنا أرسم بالألوان المائية فأقمت كثيراً من المعارض للوحات التي رسمتها بهذه المادة التي كانت تحمل معاني البيئة الاجتماعية والإنسانية حيث كانت الألوان شفيفة وحارة تضيف إلى الألوان الباردة ما يجعلها أكثر فاعلية فأنا ذلك الفنان الذي كان صديقا للشمس وكانت النخلة عنوانه والنهر صنو جسده.

ثم انتقلت بعد ذلك حتى وصلت إلى الثمانينات وعندها بدأت الرسم بالألوان الزيتية وأقمت العديد من المعارض بعضها في صالة بلاد الشام وعشتار وبعضها خارج القطر في ألمانيا وبلغاريا حيث حصلت حينها على جائزة التصوير من بين عدد كبير من الفنانين الأجانب ثم انتقلت إلى الرسم بالأكريليك وأقمت أكثر من ٢٠ معرضاً حتى عام ٢٠١١م وهذه معارض مختلفة فردية أو بمشاركة بعض الفنانين داخل وخارج القطر.

كما رسمت آلاف الموتيفات للصحف السورية وملحقاتها وللكتب والدواوين

الشعرية إضافة إلى رسمي أغلفة كتب لكتَّاب وأدباء عرب كـ محمد الفيتوري.

وإنَّ استخدام هذه الألوان بأشكالها المختلفة وأنواعها المتباينة هو قيمة تخضع لمقاييس فيزيائية وكيميائية عبر حرارة اللون ومساحته وإيقاعه وتكوين بنيته باعتبار أن هذه الأشياء كلها أداة تخضع للموهبة الفنية فأنا من مدينة صنعت في داخلي كثيراً من التموجات والمنحنيات من قوام النخلة إلى تعرج النهر إلى دفء البيت الطيني إلى النافذة المشرعة فأنا من بيت فيه ثقافة وشعر وأدب، وكثيراً وأنا أعيش فيه ما أمسكت بالشمس ونمت على صدر أمي حتى انتقل إلى أغلب حنانها وصرت أشبهها تماماً دون أن أتعلم السياسة وحواراتها واكتفيت بالأهازيج والأغاني التي انعكست على لوحاتي وعلقت بذاكرتي مما جعلها تحتوي الدفء والموليا والحجل والحور وألوان الطبيعة الحقيقية.

ثم أتيت إلى دمشق بعد دراستي حتى أدخل تلك المساحة الكبيرة وأقرأ خارطة التشكيل السوري الواسعة والتي تحتمل كثيراً من التناقضات والتنويعات.

- هل تأثرت بأحد؟

• كل فنان يؤثر ويتأثر فأنا تأثرت بأستاذي خالد الفراتي وبكل من لؤي كيالي ونذير نبعة إلا أن هذا التأثر كان ثقافياً ولم يكن تقليدياً فمن خبراتهم أضفت إلى نفسي كثيراً من الثقافة والتعامل مع الألوان والمساحات والتكوين لأكون فناناً متفرداً فيما أذهب إليه وأشكله واجعله فناً يجب أن أفرح به ويدخل التاريخ.

معلومات عن الفنان أنور الرحبي

فنان تشكيلي شارك في كثير من المعارض الفردية والجماعية في سورية والوطن العربي والعالم ومن معارضه معارض أقيمت في: صالة الشعب للفنون وصالة دمشق وفي معظم المحافظات السورية وفي فرنسا والنمسا وبلغاريا. وشغل منصب مدير التحرير لمجلة الحوار العربي، ولمجلة الطليعي. كما كتب في النقد التشكيلي في مختلف الدوريات السورية وحصل على العديد من الجوائز منها ميدالية كارل ماركس في ألمانيا ومفتاح مدينة الحمامات في تونس والجائزة الأولى لمعرض فناني دمشق.

وهو الآن أمين السر العام في نقابة الفنون الجميلة.

كتاب الشهر

أرجوزة المرأة في بلاد الشام «المهاهاة»

عرض وتقديم: سمر الزركي*

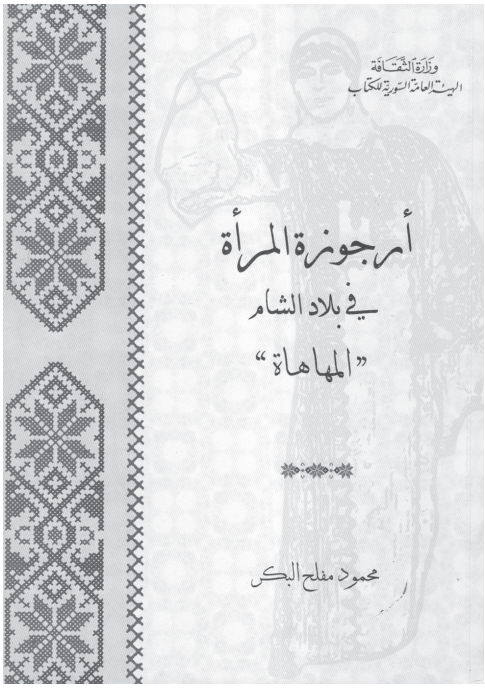

المهاهاة: واحدة من فنون الأدب الشعبي، وهي فن نسائي شائع جدّاً في مدن بلاد الشام وقراها.

وُلدت أصولها في ساحات الوغى، قبل ألف ونيف من السنين على الأقل، وحافظت على روحها الجياشة المتوثبة عبر الزمن، وهي تتناول مواضيع مختلفة حماسية.. واجتماعية.. وغزلية..

وقد عُرِّفت المهاهاة على أنَّها: «رجز نسائي شعبي، حماسي، موزون، مقفى، من أربع شطرات غالباً، يبدأ دائماً بلفظة «إيها» أو «ويها»، تقوله النساء ارتجالاً، من دون مصاحبة الموسيقا، ومجاله الأساسي

* كاتبة سوريّة.

مناسبات الأفراح غالباً، والمواقف الحماسية عامة، وفي مقدمتها القتال، واستنهاض الرجال، وتشييع الشهداء والأبطال والشباب، والأحبة عامّة من رجال ونساء» ص٧.

وقد حفلت كتب التراث بأرجاز متنوعة، يرجع كثير منها إلى ما قبل الإسلام بزمن، قالها رجال ونساء من قادة وفرسان وغيرهم من عامّة الناس، خاصة ساعة المصاولة في الحروب ليتزوّد القائل عبرها بزاد معنوي، يثير الحميّة وحب الإقدام، والصبر على المكاره، كما قالته النساء لتحريض الرجال، وشحنهم بالحماسة وكانت المواقف الحماسية المحكومة بالضغط النفسي، والزمن المحدود والاستنفار الروحي والمادي عند ملاقاة الخصم في القتال، في لحظات من الزمن قد تكون الفاصل بين الموت والحياة.. تفرض أن تكون مثل هذه الأرجاز قصيرة الجملة، سهلة التركيب، واضحة الغاية، قليلة الأشطر، سريعة متلاحقة كوقع السنابك، متدفقة كوجيب القلوب الثائرة، ممشوقة الأصوات امتشاق السيوف، متراقصة الوميض في مدلهم الأخطار.

والمرأة دائماً كانت في لب الحدث، فالقبيلة حين تتحرك تندفع كلّها بقضّها وقضيضها، بنسائها وأطفالها.. فالنفير دائماً نفير عام، تلعب المرأة فيه دور النشيد الذي يهيج النفوس، والرمز الذي يموت المحاربون دفاعاً عنه. وتعبر المرأة عن مشاركتها في المعمعة، حين يكشر الخطر عن أنيابه، بما تقوله من أراجيز حماسية، ومن أشهر الأراجيز السائرة، تلك التي قالتها النساء في مناسبات حربية مشهورة، مثل: يوم ذي قار، ويوم أحد، وتناقلها الناس منذ ساعة قولها، حتى صارت أدباً شعبياً في زمانها، وأشهر هذه الأراجيز أرجوزة «نحن بنات طارق» فمن هو طارق؟ ومن بناته؟

جاء في كتاب (أرجوزة المرأة في بلاد الشام «المهاهاة») للباحث محمود مفلح البكر روايات عدّة حول أرجوزة (نحن بنات طارق) ومن أهمّها أنّه: «كان لوقعة ذي قار صدى واسع، وتناقلت الألسنة ما قيل فيها من أرجاز وأشعار حماسية، وجاءت موقعة أحد بعدها بشهور، ولمّا تزل كثيرات من نساء قريش، وعلى رأسهن هند بنت عتبة -زوجة أبي سفيان- حزينات على قتلاهن في معركة بدر.

وحين التقى الجمعان عند سفوح جبل (أُحد)، ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللواتي معها، وأخذن يضربن بالأكبار والدفوف ويحرضن الرجال على القتال، رغبة في الانتقام، ويقلن:

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق

الدُّرُ في المخانق
والمسكُ في المفارق
إن تُقبلوا نعانِق
أو تُدبروا نفارق
فِراق غير وامق

ويحرضن بني عبد الدار حملة راية قريش بقولهن:

إيها بني عبد الدار
إيها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتّار».

وأوضح الباحث محمود مفلح البكر في هذه الدراسة من خلال استشهاده بما جاء في مصدر «الروض الأنف» لعبد الرحمن الخثعمي السهيلي أن هند بنت عتبة إنَّما «تمثلت بهذا الرجيز، وإنَّه لهند بنت طارق ابن بياضة الإيادية في حرب الفرس لإياد».

ومن أجمل الروايات المتواترة حول بنات طارق ما رواه الحرميّ قال: «حدثنا الزبير، قال: حدّثني محمد بن يحيى بن عبد الملك الهُدَيْري قال: جلست ليلة وراء الضحاك بن عثمان الحزامي في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا متقنِّع فذكر الضحاك وأصحابه قول هند يوم أحد: «نحن بنات طارق» فقال: وما بنات طارق؟ فقلت النجم. فالتفت الضحاك فقال: أبا زكريا! وكيف بذلك؟ فقلت: قال الله عزّ وجل: ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾، فقالت: إنَّما نحن بنات النجم فقال: أحسنت»، وفي هذا إلماح إلى رفعة مكانتهن».ص٧٣

ويرى الباحث محمود مفلح البكر في هذه الأرجوزة «نحن بنات طارق» قصداً به الفخر والاعتزاز بمكانة أبيهن الذي كان من سادة قومه، وقد اجتمع لهن في اسم (طارق) معاني السيادة وعلو الشأن وسمو المجد، وهذا ما جعل هذه الأرجوزة تتجاوز حدود العائلة وتذيع بين الناس، فتغدو إرثاً عاماً، تردده النساء عامة في المواقف المشابهة، مع التعديل والإضافة المناسبين لمستجدات الأمور..

وإن كتاب (أرجوزة المرأة في بلاد الشام «المهاهاة») يقع في مئة وثلاث وأربعين صفحة من القطع الكبير. صدر عن وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق ٢٠١٤م.

تمَّ تقسيم الكتاب إلى عناوين رئيسة عدّة وهي: تعريف المهاهاة- كيفية المهاهاة- «إيها» تنويعاتها والغاية منها -الفرق بين المهاهاة وبين الأغنية- تسمية «مهاهاة» -الملالاة والمهاهاة- الزغروت: الأصل والتسمية الشعبية- الزغروت في الأدب الشعبي- التسميات الشائعة بين

الأصالة الشعبية والغلط الشائع- صلة المهاهاة بالأرجوزة- بعض الأراجيز المؤسسة للمهاهاة- بنية المهاهاة- وجوه الشبه بين المهاهاة والرجز- فنية نصوص المهاهاة- مواضيع المهاهاة. إضافة إلى المقدمة والخاتمة والمصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في هذه الدراسة التي تتقصى تسميات المهاهاة المختلفة المتداولة في أنحاء بلاد الشام، وتبحث في جذورها التاريخية.

وقد ورد في معجم لسان العرب عن لفظ «إيها- ويّها- وواها» ما يلي: «إذا أسكتَّه وكففته قلتَ: إيّهاً عنَّا، فإذا أغريته بالشيء قلتَ: وَيّهاً يا فلان. فإذا تعجبت من طيب شيء قلت: واهاً ما أطيبه»ص٧٤.

وجاء في «الروض الأنف» أنّ: «ويها التي يبدأ بها الإنشاد.. كلمة معناها الإغراء». إذن، «ويها» تفيد الإغراء، أي التشجيع والتحريض على الإقدام، وهذا منسجم مع مضمون الأراجيز التي قالتها النساء في الحرب.

أمَّا «إيهاً» التي قيل إنَّها الإسكات والكف عن الشيء -حسب لسان العرب- فهذا لا ينسجم وقول النبي (صلى الله عليه وسلم) الموجه إلى بني ربيعة حين كانوا يخوضون غمَار معركة ذي قار: «إيّهاً بني ربيعة، اللهم انصر بني ربيعة»ص٧٦.

فقد استعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) لفظة «إيّهاً» هنا للحض على الإقدام في الحرب، والصبر على مجالدة الأعداء، لا للكف عن القتال.

وهنا يبين الباحث البكر أنَّ المعاجم لم تحظ بكلام العرب كلّه، وأنَّ «إيهاً» و«ويهاً» استعملتا للغرض ذاته في إغراء الرجال بالقتال، وإثارة حميتهم للإقدام، والصبر في مجالدة عدوهم. وإنَّ النطق بهذه اللفظة قبل الكلام ينبه السامع ويمنحه بعض الوقت ليوجه اهتمامه وسمعه إلى ما سيقال له ليتفهمه جيداً، وهذا مهم جدّاً في الصدامات المصيرية.

كيفية المهاهاة:

«تقول المرأة المهاهاة وهي واقفة غالباً. وبصوت مرتفع وأسلوب حماسي متدفق، مع ترك فاصل زمني قصير بين البيت السابق والبيت اللاحق لترتاح المهاهية، وتلتقط أنفاسها، وليستوعب السامع ما قيل. وليصل الصوت إلى أبعد مدى، تضع المهاهية كفّها اليمنى أو اليسرى مقوَّساً قليلاً حول فمها، وتقول اللفظة التنبيهية «إيها» أو ما يماثلها مثل: «ويها»- «أويها»- و«أوها».. تتبعها ببيت من المهاهاة.

وتمدّ المهاهية الياء مداً طويلاً، فتصير اللفظة كأنَّها من مقطعين متباعدين كـ: «إيـ..ها» أو «أو...ها» أو «آ..ها». وفي بعضها من ثلاثة مقاطع مثل: «آ..ويـ..ها»

أو «آ..يي..ها».

وعند سماع هذه اللفظة تتوقف غالبية النساء المتجمعات عن الكلام المسموع غالباً، وينصتن لما يقال، وما تكاد المهاهية تنهي البيت الأخير حتى تسارع مجموعة النساء حولها بوضع أكفّهن مقوّسة حول أفواههن، رافعات أصواتهن بالملالاة (لِ لِ لِ..ي..». ومن ذلك قولهن للعروس:

«إيـ..ها.. يسعد صباحك يا وردهْ جوريّـ..اه
إيـ..ها.. يا ورد ع أمُّه يا خِلقهْ إلهيّـ..اه
إيـ..ها.. لو قدَّموا لي بدالك من الألف للميّـ..اه
إيـ..ها.. ما بهوى بدالك ولا لي بحدانيّهْ»
ص٨-٩.

تنوّعات «إيها»:

للفظة «إيها» تنويعات كثيرة في بلاد الشام، تؤدي كلّها الأغراض نفسها التي أشير لها سابقاً، أمَّا التنوع اللفظي فيرجع إلى تنوع اللهجات والبيئات، والمؤثرات الاجتماعية والثقافية المختلفة.

وفيما يلي استعراض لأبرز الـ«إيهات» الشائعة على ألسنة النساء في بلاد الشام:

١- «إيها»: لفظة «إيها» بكسر الهمزة كثيرة الورود في مفتتح المهاهاة في مناطق واسعة من بلاد الشام من شمالها إلى جنوبها، وهي أصل الألفاظ الافتتاحية كلها، وأكثرها عراقة وأصالة. وقد وردت في مؤلَّف «التراث الشعبي في جيرود» للكاتب محمود محفوظ سمور، ومن أمثلتها:

إيها.. نحنا البنيّات، نحنا الفلّ الغالي
إيها.. مكتوب ع جبينا ما ناخذ أنذالِ
إيها.. ما بناخذ إلا صاحب الناموس
إيها.. والنذل ما بناخذُه لو زادنا مالِ.

٢- «أيها»: لفظة «أيها» بفتح الهمزة، وهي دارجة على ألسنة النساء في كثير من مناطق بلاد الشام. وردت في كتاب «طرائف الأمس غرائب اليوم» الذي ذكرت فيه مجموعة نصوص منها:

أيها.. نحن بني عم حَقّه وحقيق
أيها.. وسيوفنا من ذهب دَقّ المطاريق
أيها.. جيوبنا من المال خشخشت
أيها.. ويانهرة رجالنا بتنشِّف الريق.

٣- «أويها»: لفظة «أويها» أصلها «ويها»، إلّا أنّ أكثر النساء تميل إلى إضافة الهمزة المفتوحة أوّلاً، فبها تتهيأ الحنجرة للنطق بالواو، وتنبه بقية المستمعين إلى أنَّها مقدمة على قول شيء. ولكثرة تداولها على الألسنة أصبحت من أكثر الألفاظ الافتتاحية انتشاراً، وأوردها كلّ من برهان حيدر في كتابه «نفحات من تراثنا الساحلي»، ونصر أبو إسماعيل في كتابه: «الأصول والفنون».

ومن نصوص المهاهاة التي أوردها برهان حيدر في كتابه ذكر الباحث محمود مفلح البكر النص التالي:

أويها.. واصطفوا يا أخواتي اصطفُّوا
أويها.. ويا شبه الحمام لما عقد رَفُّهْ
أويها.. وفلان جعلك بحماية الله
بتبديل المحابس ما أخفُّه.

٤- «آويها»: من الألفاظ الافتتاحية للمهاهاة الشائعة جدّاً في غالبية المناطق. وقد وردت على ألسنة نساء من بيئات مختلفة. وقد ذكر ذلك د.فريدريك معتوق في كتابه «التقاليد الشعبية اللبنانية» وقد اختار الباحث محمود مفلح البكر نص المهاهاة للعريس:

آويها.. ريتُه مبارك كل شيء عملنالَك
كلُّه من جنى بيَّك وما استعرنالَك
آويها..وأناماأكون خيَّك إلّاشيل حمالَكْ
لَحْمِلْ صواني الذهب خلفك وقدّامك

٥- «أوها»: من ألفاظ الافتتاح الشائعة جدّاً في المدن خاصة، كدمشق والبلدان المتأثرة بالمدينة، وتلفظ بمقطعين «أوْ.. هَا..» بمد الواو كثيراً، أمَّا «ها» فتلفظ بطريقة أسرع ومن دون مد، وردت في كتاب «يامال الشام» لسهام ترجمان، وكتاب «العرس الشامي» لمنير كيال.

ومن الأمثلة التي أوردتها الكاتبة سهام ترجمان في كتابها، ذكر الباحث محمود مفلح البكر، ما يلي:

أوها.. زقزقت العصفوره
أوها.. جوّات مقصوره
أوها.. شي لله يا شيخنا
أوها.. يا قابل الندوره

إضافة إلى لفظة «آيها»، «آييها»، «آيي يا»، و«آوها» و«أويهْ»و..إلخ.

الفرق بين المهاهاة والأغنية:

ذكر الباحث محمود مفلح البكر في هذه الدراسة أنَّ كثيراً ما وصفت المهاهاة على ألسنة بعض الكتّاب بـ«الأغنية» وتحدثوا عنها على هذا الأساس والصحيح أنَّ هناك فرقاً واضحاً بين المهاهاة والأغنية يتجلى في أمور عدّة منها:

١- تردد الأغاني في أي وقت يجد الإنسان فيه رغبة في الغناء والترنم ببعض الأغنيات التي يحفظها. أمَّا المهاهاة فلا تقال إلّا في مناسبات معينة، وفي أوقات محددة من أيَّة مناسبة كالأعراس مثلاً.

٢- حينَ يتَرنم أحد ما بأغنية - خاصة إذا كان وحيداً- فلا هدف له غير الترنيم، رغبة في تسلية نفسه ومدّها ببعض السعادة، ولا يقصد بها توجيه رسالة ما إلى أي إنسان. أمَّا المهاهاة فلا تقال إلّا بهدف معين، لتوجيه رسالة إلى إنسان ما أو جماعة معينة وبالتالي لا تقال إلا بحضور جمع من الناس الراشدين العاقلين حصراً.

٣- يمكن الترنم بالأغنية بصوت مرتفع طرباً أو بصوت مهموس، أمَّا المهاهاة فلا تقال إلّا بصوت مرتفع، وبطريقة أشبه

بالمناداة، ليسمعها كل من حضر، فبغير هذه المناداة لا تبلَّغ الرسالة.

٤- يمكن للمغني سواء أكان بحضرة جماعة، أو في مناسبة، أو بمفرده وحيداً في البيت أو البراري.. أن يتلاعب بطريقة الغناء على هواه مدّاً وقصراً، ورفعاً وخفضاً.

أمَّا المهاهاة فتقال دائماً بطريقة واحدة، وبوتيرة واحدة من ارتفاع الصوت، ولا مجال فيها للتلوين رفعاً وخفضاً فهذا يناقض الغاية منها.

٥- تبدأ المهاهاة دائماً بلفظة «إيها» وما يماثلها من ألفاظ افتتاحية، بهدف النداء والتنبيه، وبوتيرة ثابتة من ارتفاع الصوت، أمَّا الأغاني فليس فيها مثل هذه اللفظة الافتتاحية الثابتة.

وختاماً، استطاع الباحث محمود مفلح البكر في هذه الدراسة بأسلوبه السهل والشيق الممتع أن يقدّم تعريفاً لفن المهاهاة، وتوصيف بنيته ووزنه، وتحديد التسمية المناسبة -الأكثر دقة- لهذا الفن، وتمييز المهاهاة عن غيرها من الفنون الشعرية الشعبية. مبيناً أن المهاهاة «تبقى أرجوزة المرأة الأولى في بلاد الشام لا ينافسها فن آخر في قوة حضورها، وسعة ميادينها، وسرعة إيقاعها، وسهولة قولها، وشدّة تأثيرها.

وتبقى الفن الأدبي الأعرق أصالة في شعبيته، والأكثر حيوية وقدرة على التجدد، فهناك -دوماً- نصوص جديدة من المهاهاة تضاف إلى النصوص القديمة، فتُنسى القائلة سريعاً، ويبقى النص سائراً على الألسنة، ينتقل من مكان إلى مكان، فيتماهى مع النصوص الأقدم، ويتحول نصاً شعبياً مجهول القائل، يسير مع السائرين إلى مختلف الجهات».ص١٣١

وبهذا شبّه الكاتب المهاهاة برسالة برقية ارتجالية آنية، سريعة ومباشرة، ومواجهة لا تقبل التأجيل، ولهذا لا يفكر أحد من الناس في ملاحقتها نقدياً.

إنَّها وليدة اللحظة وابنة الحدث.. بعيدة بشكل أو بآخر عن التدقيق والتنقيح.

نافـــذة علـى

إصـــدارات جـــديدة

إعداد: حسني هلال ❁

شعر ابن زيدون: قراءة جديدة

يحـــاول الدكتور «وهب رومية» في قراءته الجديدة لشـــعر «ابن زيدون» أن يعقد الصـــلة بين شـــعر هذا الشـــاعر، من جهة، وبين شخصـــيته ومجتمعه، من جهة أخرى، من دون أن ينزلق إلى انعكاسية مرآوية بعيدة عن روح الشعر.

الكتاب: شعر ابن زيدون (قراءة جديدة)

الكاتب: د. وهب رومية.

الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق.

❁ كاتب وصحفي.

طليطلة هي عاصمة القوطيين، التي احتلها «طارق بن زياد». وبذلك تمّ فتح «الأندلس» من قبل العرب عام ٩٢ هجرية. وقد دام حكمهم فيها ثمانية قرون، كانت نهايتها، مع خروج «أبو عبد الله الصغير» من قصر الحمراء، مسلّماً مفاتيح غرناطة.

بعيد خروج «أبو عبد الله» من غرناطة، وقف على تلك التلّة يبكي مملكته الضائعة ويندب حظه السيِّئ، ما أثار حفيظة أمه «عائشة الحرّ» وشجونها، وجعلها تتوجه له زاجرة لائمة ومواسية بقولتها الأشهر:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولد ابن زيدون وشبّ وترعرع في «قرطبة» وأزجل شعره على ملوك الطوائف في قرطبة وإشبيلية، الأخيرة التي شهدت وفاته.

جُلّ شعره ونثره كان موضوعه، معشوقته «ولاّدة» ابنة الخليفة المستكفي، التي امتلكت على عاشقها عقله وقلبه..

كانت ولادة معروفة بقوة رأيها وشخصيتها، وبجرأة شِعرها وجمالها. أليست هي صاحبة:

أنا والله أصلح للمعالي

أمشي مشيتي وأتيه تيها

أمكّن عاشقي من لثم خدّي

وأعطي قبلتي مَنْ يشتهيها!

لئن لم يكن ابن زيدون، ذلك الشاعر الأسطورة، كما وصل إلينا، وقد نقّاه الوجدان الشعبي العربي، من كل شائبة (حسب رأي الدكتور «وهب»). بيد أن مما لا شك فيه، أنه كان شاعراً وجدانياً من طراز رفيع.

يعدُّ كتاب «شعر ابن زيدون» ٢٠٧ صفحات، من القطع الوسط. وقد استهلّه المؤلف بـ«إضاءة» على تاريخ العرب في الأندلس. تلاها «مدخل إلى عصر الطوائف».. «قصيدة المدح».. «قصيدة الرثاء».. «القصيدة الذاتية» لينتهي بـ«مختارات من شعر ابن زيدون» ثم يختم بثبتٍ ينتظم «المصادر والمراجع».

جاء في إضاءة الكاتب الدكتور وهب رومية، التي كانت بمثابة لمحة تاريخية موجزة، لكن مشبعة ومؤلمة، عن العرب والإسبان.. جاء مقبوس لطيف من أسطورة إسبانية، تقول:

«إنَّ إسبانيا عند نشأة العالم، طلبت من الخالق أن يمنحها سماءً صافية، وبحراً جميلاً، وفواكه طيبة، ونساءً فاتنات. وبعد حصولها على ذلك كله. طلبت أن تكون لها حكومة صالحة، فرفض الخالق طلبها قائلاً: لا، فإن هذا يكون أكثر مما ينبغي!».

❁ ❁ ❁

من الأبدية

عنوان الكتاب: العودة من الأبدية.

المؤلف: حسام الدين خضور.

الطبعة الأولى: ٢٠١٤.

الإخراج الفني: منير الرفاعي.

تصميم الغلاف: أحمد إسماعيل.

الناشر: دار الفرقد - دمشق.

يضيف الأديب حسام الدين خضور إلى نتاجاته القصصية والروائية - إلى جانب الترجمة - رواية جديدة تحت عنوان «العودة من الأبدية».

تجري أحداث الرواية على لسان سجين يبوح بمعاناته التي سطرها على الورقة، ليستفيد من ذاك الملف، صحفي كلفته إدارة صحيفته بالتحقيق بما أصدرته محكمة الأمن الاقتصادي من أحكام بحق ٧٠ متهماً بالفساد والتزوير والاختلاس والتهريب، أعلنت عنه إحدى الصحف الرسمية في البلد بتاريخ ١٩٨٧/٩/٨.

لقد شكّل ذلك العنوان عتبة نصيّة أوحت بواقعية الحدث، فيما السرد والوقائع التي أودعها السجين في ملفّه تشي بسيرة ذاتية، تنقل معاناة السجين (الكاتب) طوال مدة توقيفه، وما لاقاه وشاهده وسمعه وعاناه في الحبس.

من أجواء الرواية:

..سألتني: هل لديك حساب في الخارج؟

نظرتُ إليها مليّاً، أخذت نظراتي تغيم، فاضت دموعي. دار في بالي حقيقة ما يقال في الشارع الذي جعل زوجتي تسألني عن مال مهرّب تجهله.

آلمني أن ترتاب بنزاهتي، كانت لحظة مُرّة قاسية، لن تبرح ذاكرتي. لقد هزمني شياطين المحشر، أكرهوني على قول أشياء ما كنت لأقولها، أملاً في قرارة نفسي أن ماضيّ في نفوس الناس، سيجعلهم يكذّبون..

❁ ❁ ❁

لهاث

لهاث السؤال – شعر

تأليف: الدكتور قصي أتاسي

تصميم الغلاف: المهندس محمود نقشو

مطبعة الخطيب – حمص

صدر مؤخراً عن مطبعة الخطيب في حمص، مجموعة شعرية للدكتور قصي أتاسي. إلى أن المجموعة لاتحمل اسم دار النشر التي أصدرتها، مكتفية بذكر المطبعة، فقد خلت أيضاً من تاريخ صدور طبعتها أيضاً.

المجموعة من القطع الوسط، عدد صفحاتها /١٤٧/ صفحة وقد جاءت قصائدها مشغولة على ضفتّي الشعر (الكلاسيكي والتفعيلة)، فيما عالجت مواضيعها وجدانيات الكاتب وهمومه.

من عناوين الأشعار فيها:

(دمعة على الصديق العندليب.. اعتراف.. يأس.. سهرة في الستيريو العربي.. أشواق.. أبو محجن الفلسطيني.. صوت النار..).

وقد كتب المؤلف تحت العنوان الأول:

اليوم تهدأ لا همٌّ ولا سقمُ

يا عندليباً براه الوجد والألمُ

هاضت جناحك آفات ممزقة

فماتَ في شفتيك الشعر والنغم

اليوم تهدأ لا شوق ولا حزنٌ

ولا شقاء ولا شكوى ولا ندمُ

اليوم تهدأ لا آهٌ ترددها

ولا دموعٌ على خديك تنسجمُ

ماذا رأيت من الدنيا سوى تعبٍ

تشكوهُ حيناً وحيناً منهُ تبتسمُ

❁ ❁ ❁

ابن هشام ومنهجه في التأليف

كتاب: الإمام ابن هشام الأنصاري ومنهجه في التأليف النحوي.

لمؤلفه: الدكتور أيمن عبد الرزّاق الشوّا.

إصدار: الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق - ٢٠١٤.

تصميم الغلاف: عبد العزيز محمد.

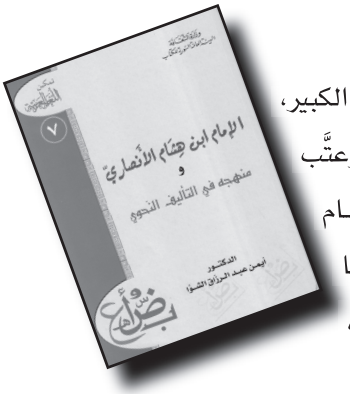

يتألف الكتاب أعلاه من /٢٣٢/ صفحة من القطع الكبير، بوبّه الكاتب في بابين، ينقسم كلّ منهما إلى فصلين، وعتَّب لها جميعاً بمقدمة وتمهيد، نوّه خلالهما بثقافة ابن هشام الأنصاري وتميّز آرائه وعلومه ومباحثه في النحو. كما أشار الكاتب إلى أهمية اللغة ودورها في نهضة الأمة، وإغناء الناطقين بها على غير شأنٍ وصعيد.

مما جاء على الغلاف:

امتلك الإمام ابن هشام الأنصاري ثقافة مزيجاً من فنونٍ شتى، وتجمعت لديه

أسـباب العلوم والفنون، وأخذ من كل علم بسـبب، ومن كل فن بطرف. كما أظهر ذكاءً نادراً وذاكرة حافظة حتى فاق أقرانه وبزّ أساتذته وشيوخه.

يعيش القارئ مع هذا الكتاب في رحاب الإمام ابن هشـام الأنصـاري، الذي مدحه ابن خلدون بأنه أنحى من سـيبويه، ومن خلال بيان منهجه في التأليف النحوي المتفرّد وآرائـه المتميزة، وبيان جوانب من مصـنفاته المهمة، مـن خلال ملخص موجز عن كل كتاب من كتبه ورسائله ومباحثه المفردة، لتكون خطوة نحو تمكين اللغة العربية في نفوس شُدَاة العلم والمدرسين.

❁ ❁ ❁

عروة بن حزام

صـدر عـن وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب «ديوان عروة بن حزام» دراسة وتحقيق، أحمد عكيدي، يقع الكتاب في ١٩٩ صفحة من القطع الكبير.

لقد راعى الكاتب بدراسـته الفنية للديوان أن ينظر إلى بناء القصيدة عند «عروة» وإلى المعاني والألفاظ التي تحملها تراكيب الأبيات، إضافة إلى الصورة الشعرية والعاطفة التي توحي بها، انتهاء بموسيقى البيت الشعري الذي تبعته نغمات البحور الموقعة عليها تلك القصائد وجرس الألفاظ وتناغمها في بناء الفضاء الشعري للقصيدة..

وقد اسـتطاع عـروة بن حزام عبر قصـائده، المحققة في هذا الديوان أن يرسـم صورة واضحة لحياته التي عاشها، ولصبابته وعشـقه لعفراء ابنة عمه ولاسيما في قصـيدته النونية التي تعتبر العمـود الفقري لهذا البحث لأن عروة حمّلها سـيرة حياته التي يشـير فيها إلى حبه لعفراء وما قاسـاه جراء نكث عمه لوعده وتزويجها لرجل آخر:

غدرتَ وكان الغدر منكَ سجيةً

فألزمت قلبي دائم الخفقان

وأورثتني غماً وكرباً وحسرةً

وأورثت عيني دائم الهملان

ويصرح عروة بأن الوشاة حالوا بينه وبين عفرائه:

ألا لعن الله الوشاة وقولهم

فلانة أمست خلةً لفلان

ما جعل أباها يرفع من قيمة مهرها ليحرج عروة ويبعده عنها طلباً للمهر:

يكلفني عمي ثمانين بكرة

ومالي يا عفراء غير ثمانِ

لكنه يفاجأ بعد تأمينه المهر بأن عفراء قد أصبحت زوجة لغيره!

❁ ❁ ❁

آخر الكلام

رئيس التحرير

الحوار حتميّة حيوية لبقائنا

منذ نحو عشر سنوات، وعلى هامش معرض الكتاب الدولي، في الشارقة التقيت بالمستشرق الروماني «دوميترو كيكان» ووجدتها فرصة مناسبة للتعرف على هذا المفكر المؤمن بحرية التعبير والمعتقدات والتفكير والتحاور، وصاحب الدراسات والمؤلفات التي تتميز برؤية شمولية، تفضح غطرسة الغرب الإمبريالي، الذي يخضع لقوى نابذة، أكثر منها جاذبة..

لقد تطرق حديثنا مع «كيكان» إلى مواضيع كثيرة، لم أهتم بها -في حينها- لأننا لا نهتم بالدراسات المستقبلية التي تخطط لنا منذ زمن بعيد، ولا نحسب حسابها وآفاقها.. قال: إنَّ أوروبا سوف تدخل الألفية الثالثة من دون أن تبلغ النضوج المطلوب، ومن دون الإرادة السياسية في وضع المصالح الجماعية فوق المصالح القطرية.. وقال: إنَّ أوروبا بيت مسكون بأشباح الشكوك والتخوف.. لقد

انهدم الجدار الإسمنتي على الأرض (يقصد جدار برلين) ولكن الجدار القائم في عقولنا باق في مكانه، خطاً فاصلاً بين العواطف والحساسيات والمفاهيم في الغرب والشرق..

وتطرق حديثنا إلى مقولات «صموئيل هنتنجتون» و«أرنولد توينبي» و«الإسلاموفوبيا» فقال: هناك من يحاول استغلال العنصر الديني لبلوغ الثروات وهذا قد يفقدنا البوصلة والأمل في أن نكون قادرين على العيش والتعايش في عالم ينتمي إلى الأرض والسماوات.. وتابع قوله: الغرب يأخذ عليكم عدم الانفتاح الثقافي، قلت: ولكن عدم الانفتاح الثقافي لا يعني رفض الغرب، أو العداوة تجاهه، بل هو موقف يشير إلى الحذر من سلوك وتصرف هذه الهوية الغربية، ومن معاملتها للقيم والثقافة والحضارة العربية الإسلامية، قال: تحديات المستقبل، تفرض علينا الحوار العقلي، فتاريخ البشر تولّد من الكلمة، أي كلمة الله، بمعنى النبالة الخالقة، والأصالة التي تضع الإنسان فوق مملكة الحيوانات.. الكلمة هي وسيلة الحوار.. إن الذين يستغلون اسم الله لممارسة الكراهية، ولقتل أمثالهم من الناس، لا يحترمون الدين، والإيمان الخالص، فاسم الله الحقيقي الأزلي مقرون بالسلام، فلا توجد حروب مقدسة، بل السلام وحده الذي يحمل صفة القدسية..

وتابع «كيكان» قوله: في رومانيا مثل يقول: «إنَّ المرء يرى حبّة الغبار في عيني الجار، ولا يبالي بعينيه المليئتين بالحجارة» وهذا يعني أنه يتوجب علينا، وقبل اتهام الآخرين أن ندقق أولاً في عيوننا وأخطائنا وسلوكنا حتى نسهل إجراء الحوار المفتوح والصريح، وما يحصل في العالم، اليوم، لا يصنع العدالة، بل يدمرها..

قلت: ولكن منطق «الإسلاموفوبيا» الذي انتشر في أوروبة، يفتقد إلى المنطق، ويقرّ أن الإسلام دين إرهابي..

قال: إن الله هو الخالق، والمنبع لكل شيء، وهو البداية والنهاية، لكل البشر، ثم نأتي ونصرح بأن هذا الدين السماوي، أو ذاك هو دين العنف والإرهاب، ونكون

في هذه الحالة قد توصلنا إلى الاستنتاج المناقض للمنطق ذاته، وهو أن خالق الديانات السماوية هو الإرهابي الأول في تاريخ الكون؟!.

قلت: ولكن الكثير من المغرضين في الغرب وأميركا حوّلوا صورة الإسلام إلى تركيبة «كاريكاتيرية» لعدم اهتمامهم بإدراك واستيعاب الحقائق التكوينية لهذا الدين..

قال: معك حق، وهناك في الغرب وأميركا من ينهج منذ سنوات لحفر خنادق فاصلة بين الحضارات، ومع ذلك مازلت أؤمن بإمكانية التحاور ليس كخيار يفرضه كوننا بشراً، وأبناء آدم، بل وكحتمية حيوية لبقائنا أمام تحديات المستقبل.

❀ ❀ ❀

لاتنسى آن تضع أغلفة كتب